

مجلة ثقافية فصلية محكَمة/ العدد السابع و العشرون / صيف/ ٢٠١٩

الكلمة ميثاق	عمر شبلي
تجليات الذاتية الوجدانية في السرد الروائي... ما بعد الحداثة	د. بهيا ظهران الطويل
الاستشراق بين التعصب والاعتدال	د. إيمان مرداس
المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا	د. خالد هاشم محمد السرحان
قدسية الحياة وكرامة الإنسان في القرآن الكريم	د. عبد الله توفيق شرقية
دراسة نقدية لرواية "الاعترافات" للروائي ربيع جابر	د. هبة الحشيمي
توجهات سياسة مصر الخارجية خلال مرحلة الثمانينيات	د. جان خليل طعمة
المماليك والمذاهب الدينية في الشام	د. عماد غملوش
الانتحار ووسائل التواصل الاجتماعي: عامل خطر جديد	د. إلهام الحاج حسن
الإصلاح التربوي في الأردن، قراءة نقدية	د. فيصل خليل الغويين
العلاقات الإنسانية المتشظية في مجموعة سمير الشريف (مسا... فات)	ذكريات حرب
السيميائية وأثرها في شعر الحداثة	رجاء عبد العزيز شنو
يوسف يزبك وأدلجة التاريخ	كميل مرهج
البنية السياحية لمدينة بعلبك	زهراء شكر
تقييم إدارة النفايات الصلبة في غرب بعلبك، في انتظار الحلول المناسبة	ماجدة شحيتلي الخطيب و جوسلين أدجيزيان جيرارد

- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنـــافذ الثقــافية

مجلة ثقافية فصلية محكَّمة تُعنى بأحوال الثقافة والثقافة والأدب

العدد السابع والعشرون - صيف ٢٠١٩

الموقع الالكتروني:
WWW.al-manafeth.com

العنوان:
ريفييرا سنتر ـ كورنيش
المزرعة ـ دار العودة ـ الطابق
الخامس

المدير المسؤول
علي حمود

الاشتراكات السنوية:

لبنان: ـ للأفراد 100 ألف ليرة لبنانية

ـ للمؤسسات 150 ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربــية: ـ للأفراد 100 دولار أمريكي.

ـ للمؤسسات 200 دولار أمريكي

تدفع التحويلات: بنك بيروت والبلاد العربية/ بيروت/ فرع كورنيش المزرعة بالليرة اللبنانية

IBAN number (account number):

LB06 0028 0000 0000 0063 7525 3201

للمراسلات:

chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

الكلمة ميثاق 5

عمـــر شـــــبلي

تجليّات الذاتية الوجدانية في السّرد الروائي... ما بعد الحداثة 7

د.بهيا ظهران الطويل

قدسيّة الحياة وكرامة الإنسان في القرآن الكريم نموذجٌ لعلم كلامٍ معاصر 16

د. عبدالله توفيق شرقية

الإصلاح التربوي في الأردن، قراءة نقدية في ضوء الفكر التربوي المعاصر 35

د. فيصل خليل الغويين

الاستشراق بين التعصب والاعتدال 54

د. إيمان مرداس

المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا 72

د. خالد هاشم محمد السرحان

الانتحار ووسائل التواصل الاجتماعي: عامل خطر جديد 105

د.إلهام الحاج حسن

دراسة نقديّة لرواية "الاعترافات" للروائي ربيع جابر 125

د. هبة الحشيمي

توجهّات سياسة مصر الخارجيّة خلال مرحلة الثّمانينات 148

د.جان خليل طعمة

المماليك والمذاهب الدينيّة في الشّام 158

د.عماد غملوش

السّميائيّة وأثرها في شعر الحداثة 174

رجاء عبد العزيز شنو

السلطة السياسية، والعلاقات الإنسانية المتشظية مشاهد بصرية يلتقطها سمير الشريف في مجموعته القصصية (مسا ... فات) 188

ذكريات حرب

مُقـتَضِياتُ الصورة الفنية في رواية (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف مقتضى الحال/ السياق 194

عبد الجبار شيخو

جماليّة اللون ودلالته في الشّعر بين شرق المتوسّط وجنوبه: محمود درويش وغسّان مطر وفديريكو غارسيا لوركا وبول إيلوار أنموذجًا 204
يونس زلزلي
يوسف يزبك وأدلجة التاريخ 218
كميل مرهج
البنية السياحيّة لمدينة بعلبك وآفاق تطورّها 229
زهراء شكر
القيم التربويّة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" ومدى انسجامها مع الفئة العمريّة الموجَّهة إليها من وجهة نظر المعلّمين 250
ديانا حسين تحفة
تطبيق طريقة الاكتشاف الموجه في المختبر وعلاقته بمستوى التحصيل الدراسي للتلاميذ في مادة الكيمياء 262
زينب حسن حوماني
تقييم إدارة النفايات الصلبة في المنطقة الواقعة غرب بعلبك، قضاء بعلبك مشكلة في انتظار الحلول المناسبة 273
ماجدة شحيتلي الخطيب
جوسلين أدجيزيان جيرارد
اقتراح طريقة لتحديد قيم المقاومية الكهربائية باستخدام القياسات الصوتية 283
محمد السهو
د.عبد الناصر هلال
د.نضال إبراهيم
التنمية المحليّة بين المركزيّة واللامركزيّة الإداريّة 294
علي الخطيب

Internadional transition of terror 336
KASSEM HAMDAN
SWOT Analysis; Examining the Readiness for AdvancEd Accreditation Process: The Dilemma of Principal vs. Staff/ A Case Study 326
Iman Freij
The Impact of Bilingualism on Cognitive and Social Abilities 316
Elie HANNA NAKHLE

الكلمة ميثاق

عمر شبلي

إنّ للكتابة عبئاً ثقيلاً، يعاني منه كلُّ من آمن بالكلمة مخلصاً ومنقذاً من ضلال الداخل والخارج ومن سوء الموقف، وعدم تحول الكلمة إلى سلوك. إنها مسؤولية كبيرة حتى لكأن الكلمة عِرض الإنسان، وأدنى محارمه إليه. وهذا يعني أن مسؤوليتها تستمر بعد خروجها منه، إنها ستبقى ابنة قائلها، كالفتاة التي تتزوج وتخرج من بيت أبيها، ولكنّ سمعتها تظل جزءاً منه، وهي عند زوجها، وخارجَ بيت أبيها. إن مسؤولية الكلمة قاسية في تأثيرها على المؤمن برسالتها. وقد تصبح الكلمة عدوة قائلها وقاتلته إذا لم يكن سلوكه مخلصاً لها.

إن صاحب الكلمة معرّض لتحوّلات داخلية، ولتطورات فكرية وروحية تعصف بما قاله سابقاً، وقد تقتلعه، وقد تجبره هذه التحولات على ولادة كلمات قد تناقض سابقاتها. وهذا مقبولٌ إذا ظلّ صاحب الكلمة صادقاً حتى في تحولاته. وقتها يكون الصدق في الموقف والسلوك هو المقياس. إنّ التطور في الوعي والتعبير عنه من طبيعة الإنسان الملتزم دائماً بالصدق. لدرجة أن حقّ تناقضه مع ذاته يكون صحيحاً. ويظل الصدق هو المنقذ. وفي الحقيقة تكون التحولات الطارئة غير متناقضة مع سابقاتها بالمعنى الحرفي لكلمة التناقض. وإنما هي وعي داخلي يخالطه إيمان عميق بالإخلاص لهذه التحولات. ونعود لنؤكد أن الصدق في الكلمة والسلوك يبقى الضابط لعناصر الشخصية الإنسانية حتى في تحوّلاتها الكبرى. لقد عرفت الإنسانية مفكرين كباراً انتقلوا من معسكر الإلحاد إلى معسكر الإيمان، وكانوا صادقين في كلتا الحالتين، والصدق وحده هو يجيز التحولات، والتي قد تبدو للآخر، وكأنها تناقضات. إنّ الذي يعصم الإنسان هو تراثه الصادق المرافق لتحولاته مهما نأت بداياتها عن نهاياتها. بعض الصحابة الذين آمنوا بالرسول ورسالته كانوا من أشدّ مقاتليه قبل تحولاتهم الداخلية التي قادتهم إلى معسكر الإيمان، وحين آمنوا كانوا مجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل ما آمنوا به، ومنهم خالد بن الوليد المخزومي، الذي هزم المسلمين في معركة أُحُد، وهو الذي قاد المسلمين في معركة اليرموك. وفي كلتا الحالتين كان صادقاً، ودليل صدقه ما قاله فيه الرسول، واعتبره سيفاً من سيوف الله سُلَّ على المشركين.

الكلمة موقف، وقد تثير حرباً، وقد تعقد سلماً، وقصة الحارث بن عباد

معروفة في حرب البسوس، حيث اعتزل الحرب بين وائل وتغلب، وقال: «لا ناقة لي فيها ولا جمل»، وأرسل ابنه بجيراً إلى المهلهل طلباً للصلح بين أبناء العمومة بكر وتغلب، ليقول له: «إن أبي الحارث بن عباد يقول لك: إنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثأرك، وهذا بجير ابني فإما قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيَّين وإما أطلقته وأصلحت ذات البين. لكن المهلهل قال لبجير: بؤ بشِسع نعل كليب، (يقصد أنت مقابل قطعة من حذاء كليب).

وكان الحارث بن عباد من فرسان بني وائل المعدودين وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأسا وأقواهم بدنا، فلما قيل للحارث بن عباد إن المهلهل قد قتل بجيرا قال: نِعْمَ القتيل بجيرٌ أصلح بدمه بين ابنَي وائل. فلما قيل له إن المهلهل قد قال لبجير: «بؤ بشسع نعل كليب»، ثار غضبه وقال قصيدته:

قـرِّبـا مربــط النعـامـة منــي
لقحت حربُ وائلٍ عن حِيال

ومن شدّة غضبه قال: والله لا أكفُّ عن تغلب حتى تكلمني فيهم الأرض، ودارت الدوائر على تغلب بعد أن انضمّ ابن عبّاد إلى بكر في حربها على تغلب، وفي المعركة وقع أسرى من تغلب، ومنهم المهلهل في يد الحارث بن عباد، وكان الحارث بن عباد قد ضعف بصره، واقترب من المهلهل دون أن يعرفه، وقال له: دلّني على المهلهل، فقال له المهلهل: وما جزائي إن دللْتك عليه، فقال له الحارث بن عباد: أعفو عنك إذا دللتني. فقال له المهلهل: أنا المهلهل، فعفا عنه، على الرغم من أن المهلهل قاتل ابنه.

لقد كانت كلمة الحارث بن عبّاد صادقة يوم اعتزل الحرب وقال: «لا ناقة لي فيها ولا جمل»، وكان صادقاً حين قبل مقتل ابنه ثمناً للصلح قائلاً: «نِعْم القتيل بجير أصلح بدمه بين ابنيْ وائل»، وكان صادقاً في كلمته يوم قال: «والله لا أكفّ عن تغلب حتى تكلمني فيهم الأرض» ثأرا لشرفه وشرف ابنه حين قتله المهلهل، وقال له: بؤْ بشسعِ نعل كليب».

هذا هو الصدق في التحولات الناتجة عن صدق وإيمان، وتحوّلها إلى موقف، وسلوك. فمتى تكون كلماتنا موقفاً وسلوكاً؟.

عمر شبلي

تجليّات الذاتية الوجدانية
في السّرد الروائي... ما بعد الحداثة

د. بهيا ظهران الطويل

إنّ التحوّل الحضاري في المجتمع العربيّ، جرّاء الغزو الأوروبي للعالم العربي، وحركات التحرّر والاستقلال، تجلّى في الأعمال الأدبيّة "شعرًا ونثرًا، وقد جاء تحوّلًا شاملًا كلّ مظاهر الحياةالاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة، وقد عجزت الواقعيّة وليدة الثبات عن تصويره والتعبير عنه، فانصرف الأدباء والشعراء في إثر ذلك عن العالم الخارجيّ إلى ذواتهم، وعدلوا عن رصد العالم إلى «وقع» هذا الخارج على داخلهم فمثّلوه بموقف من الحياة والمجتمع، وجاء صادقًا معبّرًا عن وعي اجتماعيّ وتعبير بيئيّ وسياسيّ، وعن آمال وتطلّعات إلى الإنسان وقيمته، وذلك من طريق مزج الخارج بالداخل. وهذا التّعبير الذاتيّ عن هذا التحوّل الحضاري خلق ما يسمّى الحركة الوجدانية التي تعتبر ايجابيّة لما فيها من دفع إلى التّغيير والتحوّل وترك بصماته على مختلف المجالات. هذا التّعبير الذاتيّ العاطفيّ، أي هذا الموقف من المحيط، غلب على أدب مرحلة من مراحل المجتمعات العربيّة واتخذ صوره الظاهرة المشتركة بين أدباء هذه المرحلة.

لكنّ الكلام على التّعبير الذاتيّ يختلف عن الكلام على العواطف الإنسانيّة العامة التي لا يخلو منها أي أدب إنسانيّ.

ولمّا كانت الأعمال الشّعرية سابقة للأعمال النّثرية، وبخاصّة الرواية، فقد كانت هي الصوت الوجداني المعبّر عن أحاسيس الأديب وإبداعه، وذلك بلغة محرّرة من أسر الأنماط القديمة وبصيغة جديدة مبتكرة يمتزج فيها التراث بالعصرية[1]، ألفاظها ذات دلالات حديثة موحية، وصورها تخضع لحكم النّظريات الأدبية والحديثة.

والتّجربة في ذلك مرتبطة بحدود التجربة الواقعيّة الخارجيّة، وبذا تشكّل التّجربة الموضوع وما تتضمنه من معانٍ نفسيّة وأخلاقيّة ومواقف، تميّزا بين الشعراء الوجدانيين الذين يرقبون بوجدانهم تجاذب المجتمعات وتنافرها ليُخرجوا إلى العالم ما تنطوي عليه نفوسهم من تناقضات ومُثل، ما يخلق تشابها فيما بينهم، ولمـّا كان كلّ شاعر يهدف إلى الإبداع، فقد راح كلّ منهم يعمل على ابتكار معجم شعريّ يخدمه في التعبير عن ذاته ووجدانه.

وإذا حاولنا أن نقسّم الاتجاه الذّاتي الوجدانيّ في الأدب، يمكننا أن نتكلّم على:

- **مرحلة أولى**: وهي انبعاث الذاتيّة التي خضعت لأحكام اجتماعيّة وسياسيّة وفكريّة.

ـ **مرحلة ثانية:** هي مرحلة التّجديد.

ـ **مرحلة ثالثة:** هي مرحلة الازدهار، وتبلور الوجدانية.

أما عن أثر هذه المراحل الشعريّة في العمل الروائيّ فيمكن أن نتبيّنها مباشرة بعد تظهير سمات كلّ مرحلة وميّزاتها.

في المرحلة الأولى:

اعتمد الأدباء على ما يتناسب من أساليب الشعر القديم مع روح العصر الحديث من دون إهمال بعض القيم والتقاليد التي كانت سائدة في العصر القديم. ومن أساليب الشعر القديم سلامة العبارة ومتانة الأسلوب وجهارة الإيقاع مع إهمال اللّمسات الذاتيّة.

بالنسبة إلى المرحلة الثانية:

مرحلة التجديد، فهي مرحلة كان رائدها خليل مطران، وقد مهّد هذا الأخير لمرحلة تتمثّل فيها روح العصر، وتجارب الشاعر وقيمه الفنيّة الجديدة. فالشاعر كان يعبّر بشعره عن كثير من المناسبات الاجتماعيّة والسياسيّة بنبرة عالية وتوتّر حادّ، وهذا لم يكن مشاهداً في الشعر التقليدي.

سِمة أخرى نجدها عند رائد هذه المرحلة، هي الاتجاه إلى القصص الشعريّ وما يستتبع هذا الاتجاه من خصائص في الأسلوب والتعبير. وعلى الرّغم من الاطار القصصيّ والموضوعات التي كانت تتناول الآخر، فقد كان الشاعر يعيش معاناته ويعتبر بها ويعبّر عنها ومعها عن إحساسه وتجاربه وذكرياته.

ويمثّل أيضا اطار القصّة العامّ في التعبير الشعريّ، «مزاوجة الشاعر بين الأحداث الماديّة والزمنيّة وتفصيله لوقع الأحداث الخارجيّة على وجدان شخصيّته»[2].

حتّى الأسلوب الشعريّ، فقد عمل الشعراء على إخضاعه لمقتضيات القصّة وتنقّلها بين الحدث والجوّ النفسيّ، ما يستدعي تحوّلًا في الأسلوب والمعجم والصّور.

أمّا لجوء الشعراء إلى الأسلوب القصصيّ فمحاولة من الشاعر الاحتماء وراء الشّخصيات والأحداث والرموز هربا من الكشف عن مشاعره وعواطفه، وكأنه يحمي بذلك نفسه من أيّ إحراج عند التّصريح المباشر عن عواطفه.

أمّا المرحلة الثالثة:

فهي مرحلة ترسّخ الوجدانية، عقب وعي سياسيّ واجتماعيّ انعكس على مختلف وسائل التّعبير، ما يعني أن الحركة الوجدانيّة قامت في أساسها على وجود «الفرد» في اثر وعيه وجوده وقيمته، فغدت أعماله الأدبيّة ذات هدف ورسالة.

الرّوافد الشّعرية في الأعمال الرّوائية :

وإذا توقّفنا عند أثر المدارس الشعريّة في السّرد الروائيّ، نجدنا مسوقين إلى التّوقف عند الموضوعات التي تناولها الشعراء في قصائدهم، وبخاصّة في المرحلة الثانية، أي بعد اقحام القصّة في الأعمال الشّعرية، فقد عمد هؤلاء إلى النّظر في أمور الحياة والطبيعة والنّفس الإنسانيّة وما يخالجها من صراعات، وذلك لغاية بعيدة هي إثبات موقف خاصّ من المجتمع

وأهله، ومن الطبيعة والوضع الإنسانيّ. وهذا الارتداد إلى الذّات المولّدة انعكس على القصّة وأحداثها وطرق التعبير فيها، فضلا عن موقف الراوي فيها من مسائل الوجود.

وبعد أن كانت القصّة تُعتبر وليدا غير شرعيّ في المجتمع، مقتصرة على هدفين مهمّين هما التسلية والتّرفيه، أصبحت بعد فترة ذات طابعين: الترفيه من جهة والتعليم والتربية من جهة أخرى، لتصل في الثلاثينيّات إلى وسيلة للتعبير عن النزعة الفرديّة نتيجة تنامي الحريّة الفرديّة، وراح القاصّون يعبّرون عن موقفهم من القضايا المختلفة وعن الظروف التي تحيط بهم، وذلك من طريق تقديم شخصيّات يحمّلها المؤلف كلّ همومه ومشاكله بهدف إيصال رسالته.

هنا، نتوقّف عند الرّواية، وهي موضوع بحثنا، وبالتحديد الرواية الحديثة[3] بعد الحرب العالميّة الثانية ونلفت إلى أثر هذه الحرب في المجتمعات وبخاصّة الغربيّة، إن من حيث التشكيك في القيم أو معاناة شتّى ألوان الوحشيّة، ما كشف عن اتجاهات جديدة في الفنون الأدبيّة، وبالتحديد الرواية: فمن وجوديّين يرفضون النظم التي ترتكز على الظلم، إلى مبتكرين أشكالاً جديدة تتناسب مع الأفكار الفلسفيّة التي ظهرت بعيد الحرب العالمية الثانية، تميّز الأدباء بالفرديّة، فكتبوا تحت تأثير ظروف ذاتيّة مازجين بين ذواتهم والموضوعات التي يعالجونها في أعمالهم، نذكر منهم سهيل ادريس في روايته «أصابعنا التي تحترق» واذا المحور في هذا العمل هو البطل وتجربته الذاتيّة التي تكشف عن فكر الكاتب والتزامه الوجوديّ انطلاقا من سعيه وراء الحريّة وتحمّل المسؤوليّة. فشخصيّاته كلّها تدرك حريّتها وفي الوقت عينه هي مسؤولة عن تصرّفها.

قسم آخر من الكتّاب توجّه نحو الفلسفة والتنظير الفكريّ والواقع النضاليّ وأزمات ذلك كلّه في عالم الفرد الملتزم، وقسم آخر كان ذاتيّا في أعماله فكتب في «صراخ الذات»، ومنهم ليلى بعلبكي التي عكست صورة المرأة في تعبيرها عن وضعها وقلقها وبصدق وجرأة لافتين.

ولئن تنوّعت الاتجاهات الأدبيّة وكان منها الرّمزيّة والوجوديّة والعبثيّة والذّاتية، فانّها كلّها من أساس واحدهو الرومنسيّة الوجدانيّة التي تصوّر عجز الأديب وقلقه وغربته ووجعه[4]، وتقوم على حسّ الأديب وسعيه إلى الحريّة.

وبعودة إلى أثر الشعر الوجداني في السّرد القصصيّ، نتوقّف عند النقطة الأهم وهي «العاطفيّة» التي تمثّل موقف الراوي من قضيّة ما، أو من حدث، وهذه العاطفيّة المدفوعة بحركة ذاتيّة داخليّة رافقت الموضوعات والأحداث، حتّى غدا السّرد القصصيّ مسرحًا للتنقّل بين الأحداث الماديّة والنفسيّة، وخلق تشويقًا لا نجاح لرواية في غيابه.

مظاهر «العاطفيّة» في شواهد:

لقد تحوّل البُعد الفكريّ للشعراء إلى ذواتهم، وما فتح عينيه عليه هو تلك الغربة

التي شعر بها وهي غربة إمّا مادّية وإمّا روحيّة، لكنّها في الحالين مؤثرة، تؤلم النفس وتفضي بصاحبها إلى ما ليس لصالحه.

* في «أيّام معه»:

تملّكت الغربة الفرد العربيّ الذي عاش في أوروبا، فمنعته من أن يتأقلم مع أهل وطنه الأمّ وعاداتهم وطرق عيشهم. أما غربة ريم فكانت من نوع آخر، هي غربة الإنسان عن محيطه، عبّرت عنها بثورتها الداخليّة الداعية إلى التحرّر من كلّ قيد اجتماعيّ. لقد أحبّت ريم وطنها لكنّ القيود الاجتماعية فيه ألقت بها في غربة حتّى عن أهلها، فتألّمت لكنّها بقيت رافضة ما لا ينسجم مع أفكارها وطريقة عيشها إيمانا منها كامرأة بحقّها في الحياة، وبقدرتها على اثبات دورها في المجتمع.

* في «الآلهة الممسوخة»:

كانت عيدا غريبة في بيتها، بالرّغم من محاولاتها العودة إلى الحياة فيه. إنها الغربة القسريّة التي رماها فيها الإله الممسوخ أي الرجل. وكأنّ الرواية بكاملها تصوّر واقع المرأة المرذولة التي تسعى إلى أن تكون في المقدّمة.

* في «المهزومون»:

هزمت الحياة الشّخصيات بعد رميها في مواقف آلمتها كثريّا التي تزوجت برجل ليس انسانًا، وسحاب التي لاحقتها الشائعات اللاذعة وردّتها إلى ذاتها تنتقم من نفسها، وسط لا مبالاة المحيط.

* «أصابعنا التي تحترق»:

فيها تتجلّى بوضوح غربة أهل القلم الذين يصارعون الحياة ليحقّقوا ذواتهم فتقوى عليهم المتطلّبات الحياتيّة لترميهم من جديد بعيدا من تحقيق ذواتهم.

* «شبكة المصير»:

في هذا العمل يمكن الكلام على غربة روحيّة منعت زوجين من تحقيق السّعادة. فهو الغريب المهاجر الذي ينطق بلغة غريبة وزوجه وهبت رجلا آخر قلبها وواجهت زوجها بروح فارغة، ليتعذر أي لقاء بينهما.

* «الشراع والعاصفة»:

غربة الطروسي هي غربة الإنسان عن أرضه. فهو على اليابسة وقلبه في البحر الذي لازمه كالهاجس، وحنينه اليه هو دافع كفاحه لانقاذ الرحموني. وما غربة الطروسي الا غربة وطنيّة وتأكيد على أهميّة الانتماء في الحياة.

* «طواحين بيروت»:

تميمة فيها غريبة عن بيروت نزلتها مسحورة بصوت الحياة فيها. فما كان من بيروت الا أن ابتلعتها لتدخلها في فوضى قلبها. حتّى جابر، أخو تميمة وابن الجنوب أيضا، كان فريسة الغربة التي لم تقتصر على مكان واحد: فهو في بيروت غريب، وفي افريقيا أيضًا. فلم يشعر يوما بأنه ينتمي إلى مكان أو ملتزم بخطّ ما، لهذا بقي فريسة غربة قاسية واجهته فحطمته.

* «رياح كانون»:

الكاتب رامي فيها غيّر اسمه فتغيّر معه مكان عيشه ونظام حياته، وحاول أن يحياحياة البورجوازيين فلم ينجح، لأن من تربّى في بيئة محافظة وتعلّم التزام المبادئ الأخلاقيّة يبقى غريبا عمّن أسقط من حسابه كلّ القيم والمبادئ.

* «لا تنبت جذور في السّماء»:

معها غربة الشخصيّات وتعذر شعورهم بالانتماء إلى المدينة جعل من اسكندر وأنسي فريستي الغربة التي أودت بهما إلى اللاانتماء التدرّجيّ فإلى العبث والضّياع. أما غربة ميرا فهي غربة داخليّة آلمتها ودفعت بها إلى البحث عن الحبّ الكبير الذي تعتبره جَذرا تتعلّق به، فراحت تتنقّل بين الرّجال حتّى وصولها إلى أنسي الذي كان في مرحلة البحث عن الانضواء في ظلّ حزب أو دين أو أي شيء يطويه تحت جناحيه، والنتيجة أن لقاء التائهين أمر عسير.

* «غرباء في أوطاننا»:

ورود كلمة «غربة» في العنوان يكشف بعضًا من مضمون الرّواية. فحيث لا يحقق «وحيد» مراده وطموحه يبقى غريبًا. وحيث يفشل الطبيب زياد في رسم مخططه بتطبيق ما تعلّم تحت شعار الصّدق يبقى غريبا. فقد وُلدت هذه الشّخصيّات في أسرة ربّها شيخ متسلّط، يصدر الأوامر، وكلّ من يرفض أمره يعتبر خارجا على طاعته. هذا السّلوك المتسلط أحدث غربة عزلت الأب عن أفراده. هي «الغربة» شعور ولّدته ظروف متنوّعة في الرّوايات، ولم تخل واحدة منه، ما يؤكد على وجودها وأثرها في المجتمعات وعند الرّوائيين فدوّنوها في «ديوان العصر».

المكان وذكريات الطفولة في الأعمال الروائية:

أثر آخر للموضوعات الشّعرية في الأعمال السّردية هو التّعلق بمكان الطفولة والحنين اليه وما يتركه من أثر في وجدان صاحبه. لقد عبّرت ريم عن ذلك في «أيّام معه» عندما اعترفت لزياد بذلك قائلة: «أنا احبّ هذه البلدة»[5]، ردّا على اعترافه بأنه يشعر بالملل فيها. وذلك هو حال من لا يشعر بالانتماء إلى مكان يحضن طفولته وذكرياته.

وما يؤكّد على أهميّة الماضي ومكان احتضانه في حياة المرء، مصاب «عيدا» بطلة «الآلهةالممسوخة» عندما توفيت والدتها وهي بعيدة عن أرض الوطن الأم. فقد شعرت بضياع وتلاشت ثمّ شعرت بـ «وقع أقدام يطنّ في رأسي»، وتمنّت أن تسكن في قعر النّهر، وكأنّها بكلامها تصوّر مدى يأسها وضياعها وتشتّتها، ولتهرب ممّا هي فيه عادت من «المنفى الصّقيعي» في اليوم التالي «إلى بيروت» مدينتها الأم[6].

في «المهزومون» بشر في «اللاذقيّة» موقع طفولته، عاد اليها من المدينة حيث الحبّ والعمل.

هو يجد أنّ «الحياة في القرية لا تطاق»، لكنّه يعترف مع ذلك بأن ذكرياته طريّة الملمس والوقع. هذا التّمزق يعيشه «بشر» بين حاضر يضجّ بالحياة وماض عرف فيه الألم وفقدان الحبّ، الا أنه لم يتوان عن الاعتراف بأن في اللاذقية شيئا من عاطفته وكثيرا من الذّكريات[7]. وتجدر الاشارة إلى أهمية الذكريات في حياة الإنسان، فهي صلة وصله بماضيه ولولاها لعاش تمزّقًا بين المراحل ودخل في العبثيّة القاسية.

ففي «أصابعنا التي تحترق» شكّل مسرح الطفولة ملجأ لالهام، زوجة بطل

الرواية سامي، فهي هناك ترعرعت وحملت من بعلبك ما زرع فيها والدها من مبادئ خلقيّة ظلّت رفيقتها في علاقتها بسامي.

أمّا شوقها وحنينها إلى مسقط رأسها فقد ظهرَ عندما فتّشت عن الأمان في اثر ندمها على ضعفها أمام عصام الحلواني في غياب زوجها، فهي مباشرة بعدما استفاقت على خطئها مع صديق زوجها، لجأت إلى حيث العاطفة الأولى، «استقلّت سيّارة متّجهة إلى بعلبك» وفي الطريق «ظللت ساعة أرنو إلى الثلج، وعيناي تذرفان الدّموع»(8).

في «الشّراع والعاصفة» شكّل الحنين إلى الليالي الماضية والأيّام الغابرة الحركة الحدث.فالطروسي يعتبر ابن البحر وأمضى فيه ردحا من الزّمن أحبّه وانتمى اليه ولم يفارقه الا مرغمًا بعدما تحطّمت «منصورته» وتعذّرت عليه العودة اليه. وبدافع الحنين العميق إلى مرتع ذكرياته يتلفّت قلبه إلى الأشياء الغائبة فتتداعى الرّؤى التي ناداها ببوح الشّوق وتنبعث الذكريات مدفوعة بالحنين الذي لا يقاوم، فيغيب عن واقعه.. ينسلخ عن الزّمان والمكان، ويحلّق بأجنحة جبريل نحو عالم عاشه في ماضيات لياليه، و«الغابر من أصباحه وأماسيه»(9).

أمّا «طواحين بيروت» فيلتقي فيها حنين تميمة إلى قريتها مع حنين الهام في «أصابعنا التي تحترق».

فالأولى لجأت إلى المهديّة وأحبّتها بعدما قست عليها بيروت، ففتّشت عن الأمان وشعرت بحاجة إلى اطمئنان وحماية، كما فعلت الهام بعدما آلمها النّدم على خيانة زوجها. لقد لجأت تميمة إلى قريتهاحاضنة طفولتها، تحمل جرحين: الأول في وجهها والثاني في قلبها. ولأن المهديّة استقبلتها شعرت بأنّها تحبّها للمرّة الأولى (10).

وفي «شبكة المصير»، تجلّى حبّ الأرض لدلال بوجود حبيبها عليها، فهي لها معه ذكريات، وله عندها مودّة دفعتها لأن ترفض مغادرة الاثنين معًا: الأرض والحبيب، وأصرّت على العودة «عليّ أن أعود» (11).

قضايا السّياسة والقوميّة والنّضال:

أثر آخر للشعر في السّرد هو اقحام القضايا السّياسيّة والقومية وأوجه النّضال من أجل الحرّية والتّحرر رفضا للذّل وانتماء للوطن.

ففي «أصابعنا التي تحترق» تناول سهيل ادريس قضيّة الأحزاب والانتماء اليها، وإلى الوطن العربي، ومن خلال «الفكر الحرّ» سعى إلى تحرير الفكر داخل الأمّة العربية، وفي الآفاق المنفتحة على قضايا الإنسان بروح ثوريّة تؤدّي إلى التّحرر، واعتبر أنّ أي انضواء تحت راية حزبيّة يحرمه حرّيته. هو يقدّس الحريّة ويعتبرها نعمة ويحمّل الحكّام مسؤوليّة قتلها: «حقد أسود على أولئك الحكّام الذين يمنعون الأقلام من أن تعيش حرّيتها حفاظا على كراسيهم التي تنهض قوائمها على الاستغلال والجشع». أمّا الأحزاب، فإنه يعتبر التزامها قيدا، ويتّخذ في عمله موقفًا من الأرجوانيّين باعتبارهم منافقين. ثمّ كشف علاقة الأحزاب المتنافرة

فيما بينها، لأن كلا منها يدّعي الصّدق الوطنيّ، مبيّنا تبعيّتها للعالم الخارجي، كالأرجوانيّين الذين يتخلون في أيّ لحظة عن مصلحتهم القوميّة إذا تعارضت مع وجهة نظر تتّخذها الدولة الخارجيّة التي يرتبطون بها. أمّا الفرد في الاطار الحزبي فمعرّض للضياع كـ «وحيد حقّيّ» الذي بانضمامه إلى حزب الهلال اعتبر أنه اهتدى إلى معنى حقيقة وجوده والتقى قدره، وتوهّم أن المرحلة الجديدة ستكون خصبة أدبيّا[12]، ولإيمانه بذلك سخّر نفسه وأدبه وماله، منقادا بهواجس الزّعامة والسلطة فيه، قضى وحيداً منسيّا في زحام الزّعامة [13].

وفي «أيّام معه» تتكلّم ريم على الفراغ الذي كانت تشعر به، فتقول بعد سفر زياد: عدت إلى عملي،إلى فراغي، «لكن الفراغ في هذه المرّة أصبح لذيذًا... ناعمًا... موحيًا... صرت أميل على السكون، والهدوء، وأضيق بصحبة الآخرين. أصبحت أجد في فراغي عالما جديدا لم أفهمه تماما، يختلط فيه اليأس بالسرور...»[14]، وكأنّها في تصويرها للفراغ الجديد في حياتها تتكشّف حالتها النّفسيّة وتشير إلى موقع زياد من حياتها.

نزاعات أخرى لها بصماتها:

واتخذت الرواية منحى جديدًا، بعد أن كانت للتسلية والإمتاع أصبحت فنّا يسمح لصاحبه بالتعبيرعن نزعاته النفسيّة والرّوحيّة والفكريّة. فريم كشفت عن مللها من رتابة الحياة بانعطافها على زياد وسعيها لأن تعمل كي تكسر جليد حياتها، وتبتعد عن أحاديث الجيران التافهة[15].

وعيدا تمنّت طفلا يملأ عليها حياتها ويخرجها من سن الوحدة[16]، فوقعت على دمية تقاسمها وحدتها. لكن حتّى الدّمية ظلت بعيدة لا تشعر: «حتى نانا رفضت أن ترضع، فظلت شفتاها مطبقتين».

كانت الدّمية تحلّ محلّ طفل بالنسبة إلى عيدا، هذا الطفل الذي أرادته رفيقًا، لهذا سألت نفسها: «لو لم تكن عندي نانا فكيف كنت عشت إلى اليوم؟». لقد اشترتها عقب فقدانها أغلى ما لديها: والدتها، والجدار المقدّس، وعندما حقّقت حلمها بالحمل، رمت نانا بعيدا لأن، «النمنمة الهنيئة»[17] سرت في كيانها.

في «المهزومون» يعلن بشر: «أضعت قسما من عمري، والبقية في الدرب إلى الضياع. المولد يبتزّ بعضه، والفراغ اللامجدي بعضه الثاني»... «لست أدري ماذا أفعل بأيّامي! انّها مليئة بالبعثرة والتردّد، مفعمة بالاستحالة». هذا الفراغ أوصله إلى أن يغرم بسميحة من دون أن تشعر به أو تحبّه، وأن ينجرف في مغامرات مع ثريّا جارته، وأن يسحر بسحاب ويؤخذ بحبّها من طرفه هو فقط[18].

بالنسبة إلى بشر، الحياة كانت مملّة رتيبة، أمّا في «أصابعنا التي تحترق» فتتباين الشّخصيات في نظرتها إلى الحياة، فكريم الهادي لا يستسلم لرتابة الحياة بل يصارع من أجل البقاء، رغم إحساسه أحيانا بأنّه معزول. أمّا عصام حلواني فيشعر بالضجر حيث لا نساء، ما يعني أنّه يحارب الملل بمغامرات عاطفيّة.

إنها شخصيّات مجاهدة ومحاربة، تغريها المغامرة والآمال كمثل وحيد حقّي الذي غامر طوال عمره بحثًا عن المال والمجد، بدءًا بالكتابة التي عشقها ونسي حاله من أجلها، ووصولا إلى الحزب الذي حلم بالمجد عن طريقه [19].

انّ عنصر الذاتيّة الذي تجلّى في الشعر العربي، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين،كان نتيجة وعي فكري واجتماعي وسياسيّ انسحب على الفنون الأدبية بمجملها وغدا لكل فنّان وشاعر كيان مستقلّ ونظرة خاصّة به إلى الحياة والمجتمع «ووجدان يقظ يرصد المجتمع والطبيعة والنّفس الإنسانيّة» [20].

وراح كلّ شاعر أو فنّان يطبع أعماله بما حفلت به حياته من أحداث وتجارب دفعت به نحو نفسه ليُخرج منها عاطفة صادقة تعبّر عن خلاصة تجربة وملاحظة نفس وحياة ومجتمع.

وهذه الذاتيّة الخاصّة الأساسية من خصائص الوجدانيّة الرومنسيّة، تجلّت بمشاعر متنوّعة، منها الغربة والشعور بسأم الحياة ورتابتها، وغيرها من المشاعر التي تنوّعت من عمل إلى آخر.

وهذه الذاتيّة الخاصة الوجدانيّة، تسمح بالكلام على تشابه بينها وبين الرومنسية من حيث هما اتجاهان ينطلقان من حركة داخليّة ووجدان زاخر بالانفعالات إلى خارج يتخطاه بعقل، فيبني علاقات جديدة بين الأمور بعد إخضاعها لحكم الخيال الخلاق مستعينًا باللغة أداة التعبير.

د. بهيا ظهران الطويل

الهوامــش

1.عبد القادر القط: م.س. ص 13.
2.المرجع نفسه: ص 99.
3.لم يتمّ الفصل في الكلام أعلاه بين القصّة والرواية، لأن مراحل السّرد، أو العمليّة السرديّة، واحد في النوعين.
4.راجع عبد المنعم تليمة: «نظرية الأدب»، ص 171.
5.كوليت خوري: «أيام معه»، ص 181.
6.ليلى بعلبكي: «الآلهة الممسوخة»، ص 32-34.
7.هاني الرّاهب: «المهزومون»، ص 191، 177 على التوالي.
8.سهيل إدريس: «أصابعنا التي تحترق»، ص 284-285.
9.حنا مينا: «الشراع والعاصفة»، ص 13.
10.توفيق يوسف عوّاد: «طواحين بيروت»، ص 176.
11.وليم الخازن: «شبكة المصير»، ص 145.
هذا وفي «رياح كانون» لعوّاد و«لا تنبت جذور في السماء» ليوسف حبشي الأشقر و«غرباء في أوطاننا» لوليد مدفعي، ألوان كثيرة مشابهة، تستحضر هذا الانتماء إلى الارض وعالم الذكريات.
12.«أصابعنا تحترق»: ع.س. الصفحات على التوالي 66، 103، 47، 63-65.
13.أحمد كمال زكي: «هذه الأصابع تحترق»، مجلة الآداب، مج 10، عدد 11، سنة 1962، ص 11.
14.«أيّام معه»: ع. س. ص 102.
15.المصدر نفسه: ص 43.
16.«الآلهة الممسوخة»: ع.س. ص 47.
17.المصدر نفسه: على التوالي ص 82، 43، 47، 145.
18.«المهزومون»: ع.س. على التوالي ص 55، 29، 33، 143.
19.«أصابعنا التي تحترق»: ع.س. على التوالي ص 89، 91، 19.
وشيء من تلك النزعات في «شبكة المصير» و«طواحين بيروت» و«رياح كانون» و«لا تنبت جذور في السماء»، على تمايز في الدّوافع، لكن التقاء بالأثر إقحامًا للرافد الوجدانيّ في العمل الروائيّ.
20.«الاتجاه الوجدانيّ في الشّعر العربي المعاصر»: ع.س. ص 29.

قدسيّة الحياة وكرامة الإنسان في القرآن الكريم

نموذجٌ لعلم كلامٍ معاصر

د. عبدالله توفيق شرقية

شاع في زمننا خواءٌ روحيٌّ رهيبٌ، بعدما تعدّدت اهتمامات الإنسان المعاصر، وتشتّتت قدراته، وتشعّبت حاجاته، ولا تزال في تشعبٍ كلما تطاول الزمان وتراكمت الاكتشافات وزادت الصناعات، فكادت التقنيّة أن تستهلك إنسان عالمنا، حتى لكأنها أخذت تأكلنا وتبتلعنا شيئاً فشيئاً. وكثيراً ما نلحظ ملامح قلقٍ عميقٍ خلف وجوهٍ باسمةٍ وثغورٍ ناعمة، ونسمع أخبار انتحاراتٍ فرديةٍ أو جماعيةٍ، أو ممارسات ألعابٍ بهلوانيةٍ خطرةٍ قاتلةٍ، يدخلها الهواة مع كامل الوعي والعقل والشعور. ويُقدم الكثيرون على ذلك بملء إرادتهم، وقد يكون أحدهم سائق قطارٍ أو طائرةٍ فيتسبّب في مقتل العشرات أو المئات. وما كان ذلك ليحصل لو أنهم عرفوا قيمة الحياة، وفقهوا معنى الوجود، وأمعنوا النظر في مقاصده الكبرى. لو أنهم تبصّروا كلّ ذلك لما كان يمكن لهم أن يُقدموا على تدمير هذه الصنعة الربانيّة المعجزة الباهرة، والنعمة الإلهيّة الثمينة الباقية. هنا تأتي حكمة القرآن الكريم لتقول للإنسان اليائس أو المتشائم: ارفع رأسك، تأمّل طويلاً في معاني الحياة السامية، دقّق مليّاً في أهداف الوجود الكبرى، وأمعن النظر في غايات الخلق العليا، كي لا تذهب حياتك هدراً، ولا يمضي وجودك بائساً بلا جدوى.

وجاء في مقولات الصوفية رقائق أثيرةٌ ولطائف غزيرةٌ، تبيّن أهميّة اغتنام فرصة الحياة، وتحذّر من أخطار تضييعها. من ذلك ما ورد عن الحسن البصريّ قوله: «ابن آدم، تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، وأنت المعنيّ، وإياك يراد»[1]، أي من هذا الوجود. ومنه قوله: «ابن آدم، إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همّك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبداً»[2]. وكان بعضهم يبكي ويقول: «ليس لي نفسان، إنما لي نفسٌ واحدةٌ إذا ذهبت لم أجد أخرى...

وأنشد بعض المتقدمين:

أثامن بالنفس النفيسة ربّـها
وليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها
بشيءٍ من الدنيا فذاك هو الغبن
لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها
لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن»[3].

ومما قالوا في ذلك:

قد رشّحوك لأمرٍ لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل.

فواأسفى على فقدان الحكيم الكامل الكبير، وعلى الفتى الحرّ النحرير.

«*أتمنى على الزمان محالاً*
أن ترى مقلتاي طلعة حرّ...»[4].

ومن عالم الحداثة ما جاء عن أينشتاين ما يفيد أهميّة الشعور العميق بهذا الإحساس الصوفيّ السامي في الحياة، من ذلك قوله:

«إن أجمل انفعالٍ يمكن أن تهتزّ له نفوسنا هو الانفعال الصوفيّ، فهو أصل كلّ فنّ، فمن فقد هذا الشعور ولم تجد الدهشة سبيلاً إلى نفسه فهو ميّت يحيا هلوعاً.. والسلام»[5].

حيواتنا بين ماضٍ قريب وحاضرٍ بعيد..

عند التأمّل بين الماضي والحاضر نجد أننا تعلّقنا بالمادّة من حولنا، وشغلتنا هواتفنا الذكيّة ومجتمع الشبكة الافتراضية عن نقاوة التمتّع بالحياة المباشرة، ونأينا بعيداً عن ذواتنا، وعن حميميّتنا مع إنسان مَن حولنا من أقارب وجيرةٍ ورفاق عشرةٍ في الحيّ والمدرسة والجامعة والعمل والسفر، وابتعدنا عن كائنات الطبيعة من أشجارٍ وبساتين ومروجٍ وأنهار، وعن ذكرياتنا معها في الطفولةَ والفتوّة والشباب، سواءٌ في الربيع أو الصيف أو الشتاء أو الخريف. فانفصلنا عن باطن أعماقنا وعن شفافيّة الروح فينا، وعن جوانيّة الحياة الغنيّ كالكنز الثمين، وعن اغتنائها بالمفيد الممتع، والمسلّي البارع، والمبعد عن رتابة الوظيفة وسآمة العمل الآليّ، وانغمسنا في عالم الآخرين الخارجيّ كالتيّار الجارف المتموّج المتلاطم، وأخذ يرتادنا شبح الأرق وهاجس القلق على الوجود والمصير، بعدما ظننّا أننا تفلّتنا منه برهةً من الزمن[6].

لقد كنا حتى الأمس القريب لا نزال نتحاور في لقاءاتنا وتجمعاتنا ومنتدياتنا العامة والخاصة، ومنازلنا وأسواقنا. لقاءاتٌ كان يتجلّى فيها فكر الإبداع الإنساني، ويتوقّف فيها الزمن العابر الخفيف، ويتأمّل معها المرء لوحات إبداعات الخالق في عوالم الوجود والحياة، ويتردّد ذلك في اجتماعاتنا وساحاتنا ومشاهداتنا وإبداعاتنا.

وبهذا كانت تظهر لذواتنا صورة إنسان المجتمع البشريّ المتقارب الممتلئ بالطموح والزاخر بالمناقشات والصاخب بالمخاطبات والمحاورات، والمنسجم بروحه ووجدانه مع الآخر، والآخر، والآخر، أي مع مجتمعه كله، ليكون جزءًا من حيث يشعر أو لا يشعر، في تشكيلة هذا الكيان/ الكلّ الروحيّ المتكامل، الذي تمتزج فيه ألوانٌ متعددةٌ، وتتداخل فيه أفكارٌ متعانقةٌ، وتترابط فيه رؤىً متساندةٌ، وتتشابك فيه أمانٍ متعاضدةٌ، وتتوحّد فيه قيمٌ نبيلةٌ وأهدافٌ ومقاصد عليا، فيتماهى الفرد بالجماعة ويغدو جزءًا حقيقياً منها، كأنه قطعةٌ متجسدةٌ منها، يختصر الكلّ وينصبغ بخصوصياته، ويعطي هذا الكلّ شخصيةً معنويةً متماسكةً، أشبه ما تكون بنواةٍ صلبةٍ تحمل خواصّ الحياة وخصوصيات شجرةٍ

باسقة، تتجلّى فيها شكلانيةٌ زجليةٌ ورمزيةٌ سرياليةٌ وموسيقيةٌ ذات إيقاعٍ داخليٍ ونبضٍ حيويٍ ومشاهد وألوان.

ومع ابتعادنا عن هذه الأشجان والشجنات المرافقة لتلك اللقاءات والمولّدة لمشاعر السعادة والهناء، والشاحنة للآمال والمبلسمة للآلام وحالات العناء؛ فليس غريباً ولا بعيداً على إنساننا أن يعود إلى ذاته من خلال هذا الآخر، أي إلى ذاته البريئة الأصلية المفطورة على الحبّ والتسامي والانطلاق في رحاب الفساحة والآماد، لتلتقي في العلوّ مع الذوات الأخرى المتسامية أيضاً في تعالٍ ترنسنداليٍّ نعيش معه وبه لحظة التوحّد والتكتّل والصلابة الروحية والاغتناء والاكتناز بالوجود الخِلْقي والخُلُقي الإنساني الشفاف، ونستنشق معه عبير الحرية الجماعية/ الفردية، مستمدّين كلّ ذلك التعالي من ترسيخ أقدامنا في تربة التراث، واستخراج كنوزه الغالية ودرره الثمينة.

لكن ذلك كان ولا يزال بحاجةٍ حقيقيةٍ إلى استحداث مشروعٍ تغييريٍ نهضويٍ في الذات الفردية والمجتمعية من خلال تفجير ثورةٍ إيجابيةٍ بناءةٍ، تعمد إلى تثوير تربة تراثنا وفتق ذراتها وذريراتها في عملية بعثٍ ونشرٍ وتهوئةٍ، وتعريضٍ لمكنوناتها ومنغلقاتها إلى أشعة شمس الفكر ونسائم رياح النظر والبحث والتدقيق. وبذلك تسطع على الفكر الجماعي الراهن عوامل الحياة الضرورية وأسباب الانبعاث، فتتحضّر جميع عناصر الحياة الكريمة لنا ولمن حولنا ومن بعدنا: من بذورٍ صلبة، إلى تربةٍ غنية، إلى تحريكٍ دائب، إلى تعريضٍ لهواء الفكر الحرّ، وتفاعل قوى الفكر الحيّة المتعدّدة ومنتدياتها المتنوعة، فتنطلق مسيرة التحرّر من القيود والجمود والانكماش والموت البطيء وصولاً إلى العزّة والكرامة وبلوغ ذروةٍ جديدةٍ من ذرى المجد، ربما لم يصل إليها أجدادنا، فيرتسم لنا في حاضرنا ومستقبلنا خطّ أفقٍ جديدٍ من آفاق الأماني في حدود نجوم السماء منصبغٍ بألوانه المتعددة البهية[7].

وهنا نلمح خيطاً دقيقاً ومتيناً يتراءى لنا من خلال ركام إحباطاتنا وإخفاقاتنا الراهنة سواء على مستوى هذه الثورات العربية والإسلامية المتعثّرة في القرن العشرين والعقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، أو على مستوى تعثّرات مجتمعاتنا المحلية وأفرادنا الشخصية. إخفاقاتٌ ما كان لها أن تحدث وتستمرّ لولا تضييعنا بوصلة الاتجاه وتنكبنا عن مخرج الانطلاق وتضييعنا مفتاح الخروج من بؤر الظلام، وعدم عثورنا على أبواب السلامة والنجاة. وأعني به خيط التراث المجدول بالحداثة، أو الحداثة المجدولة بالتراث، هذا الخيط الذي نسنج به ثياب الرفعة ونصل به حبل ما انقطع من علاقاتٍ وأواصر مع القريب والبعيد. إنه حبلٌ متينٌ يمنح ذويه التحقق في عالم التجدّد والخلود، ويولّد ثقافةً حديثةً لم يشهدها أهل العصر بعد، أي ثقافة حداثةٍ طارئةٍ على رتابة الحداثة الراهنة ومخترقةٍ لحدودها المتمزقة والمهترئة والقائمة على خيوطٍ هشةٍ ومصالح ضيقةٍ وخيراتٍ

محدودةٍ وإشكالاتٍ غير متناهيةٍ على صعيد العالم، لم تستطع أن تؤمّـن السلام العالمي والهناء البشري ليومٍ واحد حتى الآن.

وما أحرانا أن نعود إلى خزانات التراث ننفض عنها غبارها، كي نستمد منها القوة والحياة ونولّد ثقافة العصر القادم لإنسان الحضارة الكبرى المرتقبة من كل فردٍ في العالم فتضيء فيه أشعّة الأمل، بعدما ملأت الحضارة المادية الجافة دنيانا بالتفاهة والألم والفراغ القيمي والخُلـقي والروحي، ونخرت سوستها السوداء كيان حياتنا حتى العظم، وهدّدت آلاتها الصماء أجيالنا وحجرنا وشجرنا وبشرنا، ولا تزال تهدّد كلّ الحياة والأحياء بكلّ مؤذٍ سامٍ، وخطرٍ محدقٍ، وقلقٍ مطبقٍ، ورعبٍ مخيفٍ. فكيف تعاطى العقل «العلميّ» و«الأدبيّ» المعاصر مع مشكلة الوجود ومع مشكلة الأبد المرتبطة تمام الارتباط بمشكلة حقيقة الحياة ؟

أزمة العقل المعاصر في نظرته إلى الوجود والحياة..

لقد أعرض إنسان العصر الحديث ـ كما هو معلومٌ ـ عن التدبّـر في أهداف الوجود والتأمّل في مقاصد الحياة والتمعّن في حكم خلق الإنسان، واستسلم لتلبية حاجات الجسد والتوقف عند حدودها، وسماع مقولاتٍ تردّد عبارات اليأس من نتائج الوجود والتشكيك في غايات الحياة. فمن قائل بأن الحياة عبثٌ مأساويٌ أليم، وأن إرادتها شريرةٌ تعمل على تعذيب الإنسان وتعاسته وتحقيق رغباتها الجامحة في تأرجحه بين اللذة والألم، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع ذوي الحياة[8].

ومنهم من يرى حقيقة الوجود قائمةً في التناقض والتهافت المستمرّين اللذين يظهران في تصادم الوعي لدى الإنسان وفي الصراع التاريخي، أو من يرى أن القوة هي الفضيلة الرئيسة في الحياة، وما قيم الحقّ والخير والتواضع والمساواة ومحبّة القريب والفضائل الأخرى إلا من ابتكار الضعفاء للاحتيال على الأغنياء والسيطرة على مشاعرهم وإراداتهم[9].

ومنهم من يرى أن لا حقيقة للوجود خارج الأحاسيس الظاهرة، وأنّ ما عدا ذلك أوهامٌ وخيالات، كالسوفسطائيين القدامى، وبعض المعاصرين. ومع أن هذه الأفكار لا توصل إلى شيءٍ في نهاية الأمر، أو تنتهي إلى العدم، وقد تسبّب للبعض اختلالاتٍ عقليّةً أو نفسيةً، مع اعتلالٍ في الصحّة أحياناً، وقد يدوم هذا الحال لعشرات السنوات وصولاً إلى الوفاة... إلا أنها تسجّل في بعض الكتب المشهورة بمظهرٍ من الحكمة وطابعٍ من الشجاعة، وتجري الأقلام خلفها من صياغةٍ أدبيةٍ إلى ترجماتٍ أمينةٍ وعديدةٍ ومتنافسةٍ وإلى شروحٍ وتعليقاتٍ وتفسيراتٍ تكاد لا تنتهي.

وقد دأب أدباء عصر النهضة على ترداد بعض هذه المقولات، فمثلاً جاء في ديوان أبي ماضي :

«جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري.. إنما القول بأنا للخلود
فكـــرة أوجـــدها حـــب البـــقاء

نعشق البقيا لأنا زائلون
والأماني حيّةٌ في كلّ حيّ
زعموا الأرواح تبقى سرمدا
خدعونا نحن والشمع سواء»[10].

ويظهر جلياً أنه يقصد ـ فيما يقصده ـ أن لا غاية للحياة سوى الموت.

ومثلٌ آخر من كتابات جبران خليل جبران: «إنما الناس عبيد الحياة، وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع. ها قد مرّ سبعة آلاف سنةٍ على ولادتي الأولى، لم أر غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبّلين. في ظلّ وادي الحياة المرصوف بالعظام والجماجم، سرت وحيداً في ليلةٍ حجب الضباب نجومها وخامر الهول سكينتها. هناك على ضفاف نهر الدماء والدموع المنساب كالحيّة الرقطاء المتراكض كأحلام المجرمين وقفت مصغياً لهمس الأشباح محدقاً إلى اللاشيء [...] ومنذ ذلك الحين، وأنا أحفر القبور وألحد الموتى»[11].

لا شكّ أن الإطلالة العامة على الفكر تري أن العقل البشري قد توقّف في معظمه ـ وليس كله بالطبع ـ عن إدراك الحقيقة الكبرى التي تنتظم الكائنات في سلكها، فحادت عن نظره منظومة كبريات حقائق الكون، ونظر إلى الحياة نظرةً ملؤها الحيرة والتشاؤم، ووقع في رعبٍ قاتلٍ ويأسٍ مخيف، وظلم للحياة البريئة الصافية، وتجلى ذلك في أفكار التيارات الماديّة والمذاهب الوجودية والماركسية والحسية والعدمية واللاأدرية وسواها، وأخذ يصوغ تلك الرؤى بأنواع فنون الأدب، ويرسّخ مشاعر القلق من نتائج الحياة والتشكيك في جدوى الوجود عبر العديد من أدوات النشر ووسائل التعبير. وغالباً ما يترافق ذلك مع الدعوة إلى الاهتمام بقضايا الإنسان ومصالحه كالحرية والمساواة وحقوق المرأة وحقوق الأقليات وغير ذلك.

لقد حكمت هذه الرؤى السائدة في العالم اليوم بأن العالم في معظمه شرٌّ، وأن الحياة مفضيةٌ إلى العدم. أما القانون الذي يحكم الوجود فهو التناقض، وذوو الحياة أسرى التوحش والافتراس، والإنسان شاهد المآسي. «فهذه الدنيا في نظره ـ أي إنسان التشكك في جدوى الوجود ـ بمثابة مأتمٍ عام، وجميع الأحياء أيتامٌ يبكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق، أما الإنسان والحيوان فمخلوقاتٌ سائبةٌ بلا راعٍ ولا مالكٍ، تتمزّق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته، وأما الموجودات الضخام كالجبال والبحار فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة»[12].

فالدنيا في هذه النظرات دار نياحةٍ ومأتم عويلٍ وأنينٍ لا ينتهي ولا يتوقف، وليس هناك أي معنىً لقداسة الحياة فيها، وليس للحياة أيّ سرٍّ أو أهميةٍ خارج نطاق المصلحة الآنية والمنفعة الخاصة الفرديّة، كما أنه ليس هناك من إمكانيةٍ لتحويلها إلى حياةٍ أخرى خالدةٍ كبرى، خارج نطاق العالم الحسيّ المشاهد المؤقّت الملموس.

وإذا ما قمنا بقراءة مشاعر الإنسان المعاصر نحو الوجود حوله فسوف ندرك

بأنه لا يشهد في الوجود إلا خلاءً كونياً رهيباً يتربّص ليفتك به، وأن الكرة الأرضية كوكبٌ طائشٌ من بين ملايين النجوم في ملايين المجرات، التي تسير ملايين الكيلومترات بلا هدفٍ ولا مغزى، ومع أنها تحتوي على ما لا يحدّ ولا يعدّ من الأحياء، إلا أنّ الأكثرية فيهم هي من المحتاجين الذين يسحقهم الموت والمرض كلّ دقيقة، فضلاً عن الخوف والجوع والقلق، فكأن الكرة الأرضية فوضى مكدسةٌ أو عبثٌ متراكم.

لقد أظهرت هذه النظرات المعاصرة الإنسان على أنه كتلةٌ لحميةٌ ترجع أجزاؤه إلى العناصر الأربعة، وهو مع جميع بني جنسه لا يعْدون أن يكونوا كقطرات ماءٍ في بحرٍ لجيٍّ بالنسبة إلى هذا الكون، أو حبة رملٍ على شاطئ، حتى كأنه يـتُـمٌ مجسّم، لا يعيش إلا حياةً قصيرةً لامحةً محدودةً محفوفةً بالمخاطر والأهوال، ومشوبةً بالحسرات والآلام، بينما لا تتحقّق سعادته إلا مقترنةً بإيذاء الآخرين، والتسلّـط على مصالح الضعفاء، واقتناص اللذائذ المشبوهة، والتشبّـث بالمنافع الأنانية، ثم يواجه المصير الأليم الحزين المحتوم.

لقد جمع العقل البشري أسئلةً كثيرةً تدور حول تحديد حقيقة الإنسان ومرتبته بين الكائنات، حتى يخيل لكاتبٍ مشهورٍ أنه «لم يدع الإنسان سؤالاً عن نسبةٍ من النسب لم يطلب جوابه [...] ولكن أجوبة القرن العشرين، مهما يكن من شأنها، فهي أجوبة العصر الذي يحلّ المشكلة الزمنية، ولا يتعدّاها إلى مشكلة الأبد، مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتي إلى غير نهاية»[13].

وهنا تكمن المشكلة الكبرى بالنسبة لإنسان الألفية الثالثة، فكيف يحدّد نفسه ووجوده وعلاقاته بالكون من حوله على ضوء أفكارٍ مليئةٍ بالكآبة والسوداويّة والعدميّة والنفعيّة البحتة؟ سيما وأن الإحصاءات الحاليّة تذهب إلى أن أثرياء العالم الكبار الذين يعدّون على أصابع اليد الواحدة يتحكّمون بمعظم ثروات البشر، ويستنزفونها بطرقٍ عشوائية، بل وبإدارة الصراعات والحروب لتكريس مكانتهم وتكديس ثرواتهم وضمان نفوذهم ونفوذ ذويهم ومن حولهم؛ كما تظهر أن نسبة المصابين بمرض الكآبة تتجاوز الملايين من البشر، وتتزايد أعدادهم كلّ يوم. ولا خروج من هذه الحالة إلا برؤيةٍ كونيةٍ جذريةٍ تعيد الأمل إلى أعماقهم، وتزوّدهم بمعنى الحياة وجدوى الوجود وحيز الكينونة والاطمئنان على الذات والمستقبل.

لقد تحوّلت حياة الإنسان المعاصر في هذه النظرات والممارسات إلى حياةٍ سئيمةٍ مملةٍ، وتحوّل الكوكب الأرضيّ إلى مسرحٍ للعمليات الحربية المنظمة والمتوالدة بعضها من بعض، وتحولت المجتمعات البشرية إلى مجموعاتٍ مغلقةٍ بعضها عن البعض الآخر، ومتناحرةٍ فيما بينها تحكم فيها شريعة الغاب المنظمة ـ إذا صحّ التعبير ـ وإن غاب عن الكثيرين كيفيّة إدارة شبكة هذه الشريعة، وكيفيّة تحكّمها بمصائر الأكثريّة البشريّة.

وإذا كانت هذه القوانين المستقاة من ممارسات بعض الحيوانات المفترسة الشاذة، والقائمة على مبدأ: «الحياة للأقوى» قد

دخلت دائرة التناقض العقلي، وأخذت شكل المنطق المغلوط أو المنطق اللامنطقي، أو طابع القانون غير القانوني ـ مع أنها رائجةٌ وجذابةٌ في عصرنا إلى حدٍّ كبير؛ فقد بات من المتعين على العقل البشري مراجعتها والوقوف على أضرارها، والتأكّد من مدى فساد الأسس المبنية عليها. إذ ما من شكٍّ في أنها إذا ما وضعت على محكّ التحقيق العلميّ المحكم المنضبط ـ كما سيأتي ـ سيظهر جليّاً بكلّ وضوحٍ لكلّ ذي عقلٍ مستنيرٍ أنها أحكامٌ خاطئة، ولا يمكن أن تكون نتيجة ملاحظاتٍ علمية، أو استقراءٍ منطقي، أو تجربةٍ حسية، أو مقدماتٍ بديهيةٍ أفضت إلى قانونٍ كليٍّ مطردٍ مجرد، ثبتت حقيقته في الواقع.

فلا يمكن لهذه النظرات العدميّة المرتبكة والشكّيّة والباعثة للقلق والأرق أن ترقى إلى درجة العلوم المنضبطة، ولا أن تبلغ مرتبة الأقوال الصادقة المعتمد عليها أو الموثوق بها بحال، بل لا بدّ أن تكون نتيجة أحكامٍ سطحيةٍ سريعةٍ، وتستند إلى أهواءٍ وجهالاتٍ مركبة، وامتزجت تمويهاً بالعلوم المنضبطة، ونسبت تشويهاً وتزويراً وتحريفاً إلى القوانين العليا المطّردة، وقرنت خطأً وضلالاً بقضايا الإنسانية ومبادئ البشريّة المقدسة. وكلّ ذلك مما يؤدي بالإنسان والبشرية إلى أحوالٍ سيئةٍ ومفاسد كبرى لا يمكن الوقوف على ضخامتها وشناعتها، ولا تخفى على أحد، ولا بدّ أن تسهم في تردّي الأوضاع النفسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والأمن الاجتماعيّ. وهذا ما يستدعي توقفاً عند حقيقة هذه الأقوال وتفنيدها، وبات من المتعيّن التأمّل في حقيقيّتها أو وهميّتها، وصولاً إلى إثباتها وتأكيدها وبيان تناسقها وترابطها وتكاملها إن صحّت، أو نقضها وإبطالها، وبيان تهافتها وتناقضها إذا ما جانبت الحقيقة والصواب، ومقابلتها بنظرة القرآن الكريم خاصةً والكتب السماوية عامّةً إلى الحياة وأهدافها العليا.

تحوّل النظرة العلمية لأصل الحياة..

أثارت نظريات التطور الطبيعيّ لدى علماء الفيزيولوجيا الرغبة الشديدة إلى التدقيق في أصل الإنسان، وراح العلماء والباحثون يتأمّلون أطوال الأوردة والشرايين، فوجدوا أعداداً هائلةً للخلايا داخل كل إنسانٍ، تقدر بثمانين تريليون خلية (80 وبجانبها 18 صفراً). وداخل كلّ واحدٍ منا شرايين وأوردةٌ يمكنها أن تلفّ الأرض لمرتين ونصف، بطول مائة ألف كلم. وهنا بدأت تتراجع نظريّة التطور أمام تقدم العلم لحساب نظرية البرمجة الخارجيّة، وضرورة استنادها إلى علمٍ لا متناهٍ مرتبطٍ بالوجود المحيط والكونً كله. وهي نظريّةٌ تلتقي مباشرةً مع عقيدة الخلق في الأديان السماويّة.

جاء في موسوعة الويكيبيديا ما يلي: «الجينوم البشري **Human genome**: هو كامل المادة الوراثية المكونة من (الحمض الريبي النووي منزوع الأكسجين) والذي يعرف اختصارا (د. ن. أ. **DNA**).

وتحدّد هذه البروتينات ـ ضمن أشياء

أخرى ـ هيئة الشخص، وطوله ولون عينيه وهكذا، إلى جانب كيف يستقبل **metabolize** جسمه الطعام أو يقاوم العدوى.

ويتكون جزيء الـ **DNA** في البشر والرئيسيات، من سلسلتين يلتفّ كلٌّ منهما حول الآخر بحيث يشبهان السلّم الملتوي. ويحتوي الجينوم البشري، على 3 مليارات زوجٍ من القواعد النتروجينية (لو رمزنا لكلٍّ قاعدةٍ بحرفٍ من حروف الكتابة لملأت 3 آلاف كتابٍ يحتوي كل كتابٍ على 500 صفحة، أي لشكل مجموعها كتاباً كبيراً يبلغ ارتفاعه ارتفاع ناطحة السحاب في مبنى إمباير ستيت، كلّ ذلك في نواة خليةٍ بشريةٍ واحدة). ويحتوي الجسم البشري على نحو 80 تريليون خلية»14.

ويقدّر بعض الباحثين عدد هذه الخلايا بمائة تريليون خلية. وأن الجينات الوراثية **DNA** عبارةٌ عن حلقاتٍ من سلسلتين مضفورتين على بعضها في ضفيرةٍ واحدة، مدفونةٍ ومطويةٍ بطريقةٍ مثيرةٍ داخل كلّ خلية. ويمثل قطر الجين في الخلية جزءًا من مائة جزءٍ من المليمتر. ومن العجيب أن هذه الخلية لو مدّت لأصبحت بطول مترين اثنين، ولو مددنا هذه الموادّ الوراثية فرضاً لأصبح طول شريط الجينات الوراثية أبعد من المسافة بين الأرض والشمس ما يوازي ألفاً وثلاثمائة وثلاث وثلاثين مرة. وكلّ جزيئةٍ من هذه الجينات تمثّل مكتبةً فيها ألف كتاب، في كل كتابٍ ألف صفحة، فالناتج يحصل مليون صفحةٍ، في كل صفحةٍ ثلاثة آلاف حرف، أي في كلّ واحدةٍ من هذه النوايا ما يوازي ثلاثة مليارات حرف(15).

فهذه التريليونات من الوحدات المتناهية الصغر داخل النواة التي تمثل جزءًا على مائة جزءٍ من الملم الواحد وتحمل من المعلومات ما يوازي مليون صفحةٍ من البيانات، وثلاثة مليارات حرف، أي موسوعةً ضخمةً من أهم الموسوعات، تجعل لكلّ إنسانٍ مواصفاته الخاصّة في مختلف تفاصيل حياته، وتعطيه خصائص اللون والبشرة والطول والعرض وغير ذلك من الفوارق الدقيقة لكلّ فردٍ والمحدّدة لهويته الشخصية.

وهنا يحقّ لنا أن نسأل دارون والقائلين بنظريّة التطور سؤالاً علمياً بحتاً: كيف يمكن لهذه التريليونات المعقّدة بحجم تعقيد النجوم والمجرّات الضخمة اللامتناهية أيضاً ـ بحسب إمكانيات الإنسان ـ أن تولد بنفسها دون تدخل إلهيٍّ حكيم يحيط بها علماً، ويبرمج نشوءها وينظم علاقاتها ويحدّد طرق استمراريتها؟ وكيف يمكن للمصادفة والتهارج والتداخل غير المراقب ولا المبرمج ولا المخطّط له بطريقةٍ هندسيةٍ منسقةٍ ومتناظرةٍ أن تضمن تماسكها للحظةٍ واحدةٍ فضلاً عن عشرات السنين؟ أليس هذا ضربٌ من المستحيل، بل أليس في الواقع ضرباً من مستحيل المستحيل؟

ومن هنا نلاحظ بحسب قراءاتنا أن كبار الباحثين والمدقّقين أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً عن فرضية أوهام المصادفات في تشكيل جسم الإنسان، ولو ظلّت مليارات المليارات من السنين، فإنّ تطاول الوقت عليها لا يزيدها إلا تخبطاً

وعشوائية؛ وأخذوا يرجّحون نظرية البرمجة البالغة الدقة في تركيبها وتعقيداتها الهائلة، والمرتبطة بالنظام الكوني كلّه، وصولاً إلى عالم الشمس والقمر والكواكب والمجرات. ورأى كثيرٌ من علماء ما بعد القرن التاسع عشر استحالة تشكّل الخليّة بنفسها، سواءٌ من خلال نظرية التطور أو غيرها من النظريات التي تعتمد الذاتيّة أو الصدفة أو غير ذلك من نظريّات العبثيّة والعشوائيّة واللاقصديّة المساوية في الحقيقة لمفهوم: «اللاعلميّة» والمطابقة له تماماً.

ذلك لأن نظرية دارون التطوريّة تحيل في النهاية سبب نشأة الحياة إلى اختلاط موادّ الإنسان وانتخاب بعضها بعضها الآخر ذاتياً دون تدخّل من غيرها، وتصرّ على استبعاد البرمجة والتنسيق العلميّ الهادف المنظم الحكيم. وهذا ما لا يمكن أن يقبله العلم، لأن احتمالات الفشل لا نهائيّة، واحتمال النجاح واحدٌ من ملياراتٍ مضاعفةٍ في تكوين أيّ كائنٍ حيّ. فهل يمكن مثلاً لصيدلية أن تختلط بعضها ببعض نتيجة زلزالٍ مدمر، فتنتج بالصدفة دواءً واحداً مفيداً فقط بنسبٍ دقيقةٍ؟ فإن قبلنا بهذا الفرض فكيف يمكن أن نتصور حصول مئات الأدوية الدقيقة المختلفة لحالات شتى؟ إنه يستحيل علمياً للفوضى في هذه الحالة أن تنتج إلا فوضى مضاعفةً، ولا بدّ أن يزداد التبعثر والاختلاط، بدلاً من توقّع النظام والعلميّة والدقة والوزن الدقيق المتناسب بمعايير هادفةٍ، وصولاً إلى ما يسبّب الحياة ويؤدي إليها.

وبهذا تحتاج كل خليةٍ من هذه التريليونات التي تشبه مدينةً كاملةً إلى مئات محطات التوصيل والنقل والإدارة بالنظر إلى ما يجري من تصنيعٍ داخلي وعلاقات مع من حولها من كرياتٍ بيضاء وحمراء وخلايا مخٍّ وأعصاب عينٍ وأذنٍ وغير ذلك. كلّ ذلك دفع أحد أنصار نظرية التطور ـ دكتور أوبارين الروسي ـ إلى الاقتناع بأن عملية تشكيل الخلية تشكل الركن المظلم من نظرية التطور. كما دفع أركان اكتشاف الجينات وجمهرةٌ هامّةٌ من أشهر علماء الحياة والفيزياء والفلسفة إلى رفض هذه النظرية جملةً وتفصيلاً(16).

وقد أوردت ويكيبيديا المشهورة بموثوقيتها قائمةً بأشهر الكتاب المعاصرين الذين رفضوا نظرية التطور، وأوردت أسماء أشهر الكتب التي أثبتوا فيها هشاشتها واعتمادها على التزوير والمغالطات. وأوردت رسماً كاريكاتورياً لدارون بنصف قردٍ ونصف إنسان. ولا شكّ أن هذه الكتابات لا تصدرها هذه الموسوعة العالمية مصادفةً بلا مغزى، بل لا بد أن القائمين عليها واثقون من أقوالهم بنسبةٍ كبيرة. ومما جاء في هذا الإحصاء لأشهر الرافضين لنظرية التطوّر: «ديفيد بيرلينسكي: عالم الرياضيات والبيولوجيا الجزيئية والفلسفة، وهو أشهر من انتقد التطور الذي يرى أنه يروج بين الناس باسم العلم والحقائق، وذلك بعدما زادت شكوكه الكثيرة حوله كلما تقدمت العلوم. وقد أعلن ذلك على الملأ في مجلة «كومينتاري» عندما قال: إنه متشكّكٌ في التطور، في مقالٍ بعنوان: إنكار داروين عام 1996م. وفي السنوات الأخيرة

قام بوضع كتابه الشهير» وهم الشيطان» عام 2008م، وله حواراتٌ مليئةٌ باعترافاته من سخرية العلماء الحقيقيين من التطور ومليئةٌ بالسخرية العلمية من افتراضات التطور الخيالية، ونقاط ضعفها القاتلة.

مايكل دنتون: عالم الكيمياء الحيوية الذي كان يؤمن بالتطور في السابق إلى أن بدأ يكتشف بنفسه مع التقدم الرهيب في البيولوجيا الجزيئية عشرات الثغرات القاتلة عن التطور، فقام ساعتها بوضع كتابه الشهير التطور «نظرية في أزمة». وهو من أوائل الكتب التي قلبت نظرية التطور في العصر الحديث رأساً على عقب، وذلك عام 1985، وله مشاركاتٌ عديدةٌ في وثائقياتٍ علميةٍ عن الدقة المتناهية، وعلامات التصميم الذكي في الحياة والأرض والكون وصولاً إلى الإنسان، فقد ترجم أعماله في كتابه: «قدر الطبيعة» عام 1986.

مايكل بيهي: وهو عالم متخصص في الكيمياء الحيوية وأستاذ بـ en:Lehigh University في بنسيلفانيا بأمريكا. وقد ساورته شكوكٌ كثيرةٌ أيضاً في التطور مع تخصّصه العلمي الدقيق، والاكتشافات العلمية الأخيرة، وخصوصاً عندما قرأ كتاب التطور «نظرية في أزمة» لمايكل دنتون، ووجد أن كلّ النقاط التي ذكرها بالفعل طعنت التطور الصدفي والعشوائيّ، فقام بتأليف كتابه الشهير، «صندوق داروين الأسود» عام 1996. ويعتبر من أشهر من أسّسوا ووضعوا قواعد التصميم الذكي أو الصنع المتقن في شكلها الأكاديمي الأخير. وخصوصاً نقطة التعقيد غير القابل للاختزال ودلالاته على استحالة التطور التدريجي العشوائي عبر الزمان، وعلى دلالاتها على الغائيّة لظهور الأعضاء المعقّدة مرةً واحدةً من جهة مصمّمٍ ما.

جوناثان ويلز: وهو عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكي. فمع دراسته للبيولوجيا الجزيئية ومع الاكتشافات الحديثة أيضاً الناطقة بعلامات الغائية والخلق تراجع عن إلحاده إلى المسيحية. وصار من أعداء نظرية التطور. وهو صاحب الكتاب الشهير «أيقونات التطور» عام 2002، وأيضاً له كتاب «تصميم الحياة» مشاركة مع ديمبسكي»[17].

نظرة القرآن إلى الحياة والوجود..

عند التأمّل الهادئ للحياة في لحظات النظر العقليّ الأنيق لا بدّ وأن نجدها في الحقيقة جميلةً شفّافةً صافيةً، ذات جوهرٍ لطيفٍ راقٍ وأصلٍ علويٍّ صافٍ. وفي الكتب السماوية، تعكس الحياة رحمة الله تعالى وجمال ذاته وجلال صفاته وإرادة الخير والعطاء للأحياء وللإنسان. وهذه النظرة القرآنية يمكن أن نعبّر عنها بالمقولة التالية:

{لقد خلقنا الله ليرحمنا، ويكرمنا، ونكون معه في الأبد المطلق. وجعل الدنيا جميلةً بمعانيها، بأناسها، بمعانيها السامية، بأيامها الغالية، بالقلوب الصافية، بالمناظر الأخاذة، بالعقول الراقية، التي تنبت فينا الأمل، وتشعرنا بالدفء والرقّة والحنان، وألوان الحكمة والمودة والكمال، لمن نظر إليها من الوجه المشرق الوضيء، ولم يقتصر على الوجه الأسود الكالح الحزين}.

وذلك يذكّر بالحكمة الأزلية الأبدية التي تكرّر مقولات الرحمة والمحبة واللطف الإلهيّ في خلق للإنسان، وإرادة الخير له ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[18]، والبعد عن العبثيّة والتسلية والتلاعب في جوهره والكون المحيط به ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[19]، مقابل قصر النظر الذي يتحكّم في رؤية الإنسان الهلوع للأحداث التي تجري عليه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[20]. وكذا في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[21].

وتنكر هذه الحكمة الأزلية المتأتية من رحابة السماء أن تكون الحياة مسرحيةً هزليةً تعرض على أنغام الحزن واليأس والفراق الأبدي، وتدفع مشاهديها إلى نظرة التفاهة والتشاؤم والاحتقار، ومن ثم إلى النحر والانتحار المعنوي أو الماديّ الحسّي ـ كما هو شائعٌ في عصرنا وللأسف ـ سواءٌ كان ذاك النحر الإراديّ المشؤوم للذات أو للآخر، وللأخ في الوطن أو في الإنسانية، أو لأي حيٍّ كائنٍ في الوجود، أيّ وجود!!!

والتعريف الأساسي للحياة في الفكر البشري الفلسفيّ يظهر أن «القوى النباتية والحيوانية هي قوىً غاذيةٌ تحيل جسماً آخر إلى مشاكلة جسمها، وقوىً يتمّ بها إدراك المحسوسات، وهي كمالٌ أول لجسم طبيعيٍّ آليٍّ من جهة ما يتولد ويربو ويغتذي ويدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة»[22].

أما الحياة الإنسانية، فهي ذات «نفسٍ ناطقةٍ وعقلٍ يقتدر به على إدراك الصور الكلية والماهيات المجردة إدراكاً مباشراً»[23].

لقد كانت نظرة القرآن الكريم إلى الحياة نظرةً ساميةً تغلّف الوجود الحيّ بوشاحٍ لائقٍ حيٍّ رائق. فالحياة لها قيمةٌ كبرى، وأهدافٌ عظمى، ومقاصد عليا، وهي تمضي في طريق التقدّم المتواصل والكمال المستمرّ الذي لا يتوقف عند حدّ، حتى تصل إلى الأبد المطلق الذي لا يعتريه فناء، وإلى الجمال المطلق الذي لا يشوبه عيب، وإلى الكمال المطلق الذي لا يطرأ عليه خلل، وإلى السعادة المطلقة التي لا تخالطها أحزانٌ ولا مخاوفُ ولا هموم.

بالمقابل يمكن القول إن القرآن الكريم قد انفرد بإيلاء الإنسان قيمةً عليا لم تتمكن أية نظرةٍ بشريةٍ من إيلائه إياها[24]. فهو المخلوق الأهمّ المستخلف في الأرض وما حولها، وهو المنتسب بوعيه إلى هذا الخالق ليكون أعجب مخلوقات الله وأكرمها، وهو الكتاب الجامع، والكون أشبه بصفحاتٍ رقيقةٍ من هذا الكتاب الضخم، وهو المخلوق الذي تباهى الله به على ملائكته وأكرمه غاية الإكرام، وجمع فيه خواصّ الكون كله، فكان مخاطباً عزيزاً له، مرشحاً لتبوّؤ أعلى المناصب وأرفع الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[25].

وواضحٌ أن الأسس الرئيسية التي تتميز بها النظرة القرآنية، والتي كانت سبباً هاماً في إظهار قيمة الحياة الإنسانية، لا يمكن لأيّ نظرةٍ أخرى أن تقدّمها لا قديماً ولا حديثاً ولا مستقبلاً، أو أن تظهر مثل ذلك التفضيل على أساسها ما دامت لا تمتلك تلك الأسس، ولا تحمل تلك الرؤية.

فالسرّ الكامن في ذلك التفضيل متصلٌ بأحكامٍ قيميةٍ شاملةٍ للوجود بأسره أولاً وللحياة والأحياء ثانياً من مبتدئه إلى ماهيته إلى نهايته. فالحياة قيمةٌ يجدر المحافظة عليها، وأشياء الكون حول الإنسان ذات أهدافٍ وغايةٍ ومعنى، والإنسان كائنٌ مسؤولٌ أمام هذا الوجود وأشيائه، وأمام الخالق ومقابل شرعه وقانونه.

ولا يمكن للإنسان أن يكون بينه وبين نفسه بعيداً عن أسئلةٍ ثلاثةٍ تحدّد أسس تفضيله، وهي: من أين، إلى أين، من أنا؟ ويتبع ذلك أسئلة هامةٌ مثل: كيف يتصور الإنسان حقيقة الوجود الخارجي؟ كيف يقرأ عالم الحياة؟ وكيف ينظر إلى وجوده فيها؟

إجابات القرآن على أسئلة أسرار الحياة الكبرى..

والجواب على السؤال الثاني هو موضوع البحث، أي ـ كيف يقرأ عالم الحياة ـ ولكنه مرتبطٌ بالسؤال الأول ارتباطاً وثيقاً وتظهر نتائجه في السؤال الثالث، فلا بد من بيان كل ذلك. فلقد أضفى القرآن الكريم على كلّ موجود أحكاماً هامة حين علّق عليه حِكماً عظمى وأناط بوجوده وظائف كبرى، وأوكل إلى كل موجودٍ ـ ولو كان ذرةً دقيقةً ـ مهماتٍ عديدةٍ بحيث ارتبط وجود هذه الذرة بدنىً كثيرة وأكوانٍ عديدةٍ، فكأن هذه الذرة الدقيقة مركز شبكةٍ معقدةٍ من الاتصالات والمهام والعلاقات، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[26]. ويقول أيضاً: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[27].

والأرض في القرآن الكريم يظهرها الله تعالى كصحيفةٍ مبسوطةٍ ممدودةٍ لكتابات يد القدرة الإلهية البديعة المشتملة على بديع الكلام ومحاسن الرسائل وجميل المعاني كي تعرض على ذوي الأنظار والأفئدة، وتشاهد فيها آثار التناسق والتناغم والانتظام، وتقرأ فيها بليغ الحقائق وتعرف من خلالها جليل الصفات ومحاسن الأسماء. قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[28].

فالله سبحانه وتعالى قد مهّد الأرض وأثبت فيها أعمدة محكمة ثم ملأها بالزروع والثمار المتناسبة المقدّرة بميزانٍ معلوم، وحكمةٍ مميزةٍ ومصلحةٍ مخصّصةٍ ومقدارٍ معين. وكل نباتٍ وزنت عناصره، وقدّرت بما يحتاجه. فقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾، أي مقدرٌ بقدرٍ معلومٍ موزونٍ بميزان الحكمة على وفق المصلحة بخواصّ وأوصاف معينة[29].

وقال أيضاً: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[30]. أي بقدرٍ واحدٍ لا يتجاوزه ولا ينقص عنه[31].

وبهذا الشكل تظهر آيات الوزن والتقدير من خلال انبثاق ذوي الحياة الكثيرة المختلفة. وهنا نشرع في الإجابة عن السؤال الثاني الذي يجيب عن كيفية قراءة الحياة قراءةً موضوعيةً مفيدة. فالحياة التي تحيط بالذرات والحجيرات الدقيقة والموجّهة الحركة تظهر فيها آثار الكمال والجمال والإبداع بشكلٍ واضحٍ جلي مركّز، وذلك بتسخير الأشياء لها أولاً، وبمخالفتها لقوانين الجمادات ونواميس الأشياء ثانياً، وبظهور جلوات الجمال والكمال فيها ثالثاً. وحتى يظهر هذا المعنى لا بد أن نتوقف مع بعض الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذا الموضوع.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[32].

فبينما الأرض الجامدة واحدة ذات تراب متشابه إذا بها تحتوي على (كلٍ) من الثمرات، كلٌّ منها مؤلفٌ من زوجين اثنين، وبينما قطعها المتجاورة متماثلةٌ في تكوينها وتسقى بماءٍ واحد، إذا بها تشتمل على جناتٍ مختلفة الأنواع من زرعٍ ونخيلٍ ذات الأغصان المتعددة أو ذات غصنٍ واحد، فيها من الثمرات المختلفة المتباينة الأطعمة والمتفاوتة الأذواق، وفي ذلك معجزات القدرة وخوارق العادة لذوي الفكر وأولي النظر وأهل الإدراك والإمعان.

ويقول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[33]. فالشجر الأخضر الذي يشتمل على الرطوبة ويخلق من الماء المضادّ للاحتراق إذا به هو نفسه يستحيل ناراً موقدةً للحرارة ومولّدةً لها وأصلاً ومادةً للاشتعال، حتى تظهر الحياة بذلك وكأنها مجمعٌ للمتناقضات وموطنٌ للمختلفات وموئلٌ للآيات البيّنات الواضحات. ومن الآيات التي تشير إلى هذا الاختلاف والتميز في قوانين الحياة في عالم الحيوان قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[34]. والمعنى: ألم يستدلّوا بإقدار الطير على الطيران في جو السماء على قدرتنا ليعلموا كيف يخلق الله الغرائب ويدبّر العجائب؟[35].

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[36]. أي وخلق الله لكم الأنعام ذات المصالح والمنافع المختلفة لكم من أصوافٍ وأوبارٍ وأشعارٍ للبس والأثاث، ومن ألبانٍ للشرب ونسلٍ للأكل، ولكم في هذه الأنعام جمالٌ وفيها مفاخرةٌ، لأن الفائدة فيها أتمّ وتملأ النفس سروراً والعين متعة[37]. وقد سميت الأنعام بذلك لأن كلّ ما فيها نعمٌ يستفاد منه.

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[38]. أي يخلقه الله لبناً خالصاً وسيطاً بين الفرث،

وهو الروث، وبين الدم المحيطين به، ويتخلّص بياضه وطعمه وحلاوته في باطن الحيوان من بين خلاصة المأكول، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله، ولا يتغير أو يتأثر به. وذلك دليل القدرة الإلهية والحكمة الباهرة[39].

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهَّ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[40]. ففي هذه الآية يبرز تحدٍ علميٌّ للبشر للإتيان بمثل خلقٍ صغيرٍ وحقيرٍ في النظر العامّ من مخلوقات الله، وهو مع ضعفه لا يستطيع الإنسان ولا معبوده أن يستنقذ شيئاً سلبه إياه كالطيب والزعفران.

إن هذا التقدير الخاصّ من الكتاب العزيز للموجودات عامةً وللأحياء خاصةً بما لا يمكن أن نجد له مثيلاً في أية نظرةٍ أو رؤيةٍ بشريةٍ في تاريخ الفكر البشري الطويل لهو الأساس القويّ الذي تتحدّد على ضوئه معرفة قيمة الإنسانية، بحيث يظهر ذلك واضحاً في قيمة انتساب الإنسان إلى خالقٍ عظيم، فتكون له قيمةٌ كبرى تضاهي السماوات والأرض والشموس والنجوم والأقمار، مقابل القيمة المادّيّة التي لا تساوي شيئاً يذكر مقابل تلك القيمة المعنويّة. ومن هنا كان بيان الحديث النبويّ الشريف الذي يظهر عجز الإنسان والإنسانيّة عن مواجهة التحدّي الإلهيّ الماثل للعيان والقائم في جميع الأزمان فيما يخصّ الخلق والإحياء، والذي يبيّن محوريّة مسألة التفرّد بالخلق من الناحية العلميّة والموضوعيّة. يقول فيه رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرةً أو ليخلقوا حبةً أو ليخلقوا شعيرة»[41].

الأثر التشريعي لنظرة القرآن إلى الحياة:

ما من شكٍّ أن لنظرة التقدير القرآنية المميزة إلى الحياة آثاراً تشريعيةً بالغة الأهمية، وتختلف اختلافاً بيّناً عن القوانين البشرية التي لا تعطي الحياة أبعادها الحقيقية الكبرى ولا تربط التصرفات الموجّهة إليها بالأبد والخلود، ولا توليها الأهمية التي يوليها الكتاب العزيز إياها.

وإذا كانت تلك النظرات تعتبر أن الحياة تخدم ذاتها لنيل اللذائذ العابرة دونما اعتبارٍ لغاياتها العظمى، فلا عجب ألا تعير الأهمية اللازمة للاقتصاد في استعمال الأشياء، وعدم الإسراف والتبذير أو العبث في إتلافها، ولو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر بذوي الحياة. وقد بات الكون حاليّاً مهدداً بالهلاك بسبب سوء استعمال النعم الممنوحة للبشرية، كما بات ذلك معلوماً وتتزايد التحذيرات منه يوماً بعد يوم.

كما لا تمانع تلك التشريعات من تعذيب الحيوانات بأبشع الأشكال وأشنعها في سبيل قضاء متعة التفرج وإشباع رغبة التفرج أو تسلية الصيد، ولو أدّى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإهدار دماء تلك الحيوانات البريئة. ومقابل ذلك نجد أن الشريعة الإسلامية شجعت على التعامل مع الكائنات بحكمةٍ وتدبرٍ،

وتقديرٍ وإتقانٍ، واقتصادٍ واجتناب للإسراف وسوء الاستعمال والهدر والعبثيّة والفوضى. وقد حثّ رسول الله ﷺ على الإكثار من الغرس، وإفادة الأحياء منه والمضي فيه ولو عند قيام الساعة.

ففي باب: «رحمة الناس والبهائم» يورد البخاري رحمه الله هذا الحديث الشريف: «ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»[42]. كما يورد فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «من لا يرحم لا يرحم»[43]. ويقول أحد الشراح ابن بطال: فيه الحضّ على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل فيه المؤمن والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدّي بالضرب»[44].

كما حثّ عليه الصلاة والسلام على إصلاح الطرق وأماكن الظلّ واجتناب الإسراف في الماء ولو كان المرء على نهرٍ جارٍ متدفّق. وفي ملاحظة إرفاق هذه المساعي والأعمال بالأجر والثواب مقاصد ودلالاتٌ ذات مغزىً لا تخفى، إذ يدلّ ذلك على ملاحظة أن الأسباب الكونية نهجٌ شرعيٌ قويم، كما يفيده الأثران المعروفان: «فَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَدًا»[45]؛ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ»[46].

كما حظرت الشريعة كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى تعذيب الحيوان النافع وغير الضارّ، أو إحراقه بالنار، أو قتله بطريقة مؤذيةٍ، أو اصطياده لغير حاجة، أو اتخاذه هدفاً للرماية. فقد ورد في الصحاح من الأحاديث النبوية ما يفيد تشديداً في النهي عن ذلك، ففي «باب النهي عن صبر البهائم» يورد مسلم رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً»، و«نهى عن صبر البهائم» أي حبسها لتتخذ غرضاً وتقتل بالرمي، و«أن النبي ﷺ لعن من فعل هذا»[47]. وقد ذكر العلماء أن السبب في ذلك ما فيه من تعذيبه وإتلاف نفسه.

وفي باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة والرفق بالذبيحة يورد الإمامان مسلم وأبو داود الحديث التالي: «إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»[48]. فالإحسان إلى الحيوان قبل الذبح وأثناءه أمرٌ عام مكتوبٌ على الإنسان، وفائدة الذبح أنه يسهل موتها. ولذلك نهى عمر رضي الله عنه عن سلخ الشاة بعد موتها قبل خروج الروح منها. كما نهى ابن عمر عن «النخع»، وهو القتل الشديد، وكلّ ذلك مع كثيرٍ مثله، من باب الإحسان إلى الحيوان[49]. قال النووي: «وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام»[50].

وفي باب «فضل ساقي البهائم المحترمة» يورد الأئمة حديثاً هاماً في موضوعنا ذا مغزى، وهو: أن رجلاً وفي روايةٍ امرأةً بغياً ـ «سقى كلباً كان يلهث، يأكل الثرى من العطش، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كلّ كبدٍ رطبةٍ

أجر»[51]. في هذا الحديث يتضح لنا أن الإحسان إلى الحيوان المحترم ـ غير المفترس ولا القذر ـ كسقيه أو إطعامه أو نحو ذلك مندوبٌ إليه، لما فيه من إحياء روح خلقها الله وأراد لها الحياة، ولما فيه من إيصال أسباب الحياة إليها ومساوقة تنفيذ مراد الله تعالى فيها. هذا في باب الترغيب باحترام كيانه. وأما في باب النهي عن إهانته فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت، إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث، فقال الناس: سبحان الله، بقرةٌ تكلم؟ فقال: إني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»[52].

وفي الترهيب من إيذاء الحيوان ورد «أن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[53]. وفيه دلالةٌ على وجوب الاعتناء بالحيوان على مالكه ومن يحبسه. وأورد أبو داود بإسناد صحيح «أن النبي ﷺ نهى عن قتل أربعٍ من الدواب: النملة والنحلة والصرد والهدهد»[54]. جاء في شرح مشكل الآثار للطحاوي: «فتأملنا ما في هذا الحديث طلباً منا لاستخراج ما أريد به فوجدنا الهدهد ما لا ينتفع بلحمه ووجدنا الناس يستقذرونه، ووجدناه لا مضرّة على الناس منه فكان قتله للعبث لا لما سواه، وذلك منهيٌّ عنه، كما قد روي عن رسول الله ﷺ فيما قتل من هذا الجنس بغير حقّه ما حدثنا المزني قال: حدثنا الشافعي قال: أنبأنا سفيان أخبرنا عمرو: أنبأنا صهيب مولى عبد الله بن عمر قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قتل عصفورة فما فوقها بغير حقّها سأله الله عز وجل عن قتلها، قيل يا رسول الله وما حقّها؟ قال يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها». وفي هذه المرويّات المتسلسلة جيلاً عن جيلٍ من الرواة دلالةٌ على أهمّيّة الحياة، واهتمامهم بقضايا الدماء والأرواح، وغرس كرامة الإنسانيّة وحرمة كل ذي روحٍ في ذهنيّة الأجيال، وقيمة احترام الكائنات الحيّة، وإشاعة ثقافة السلم وقدسية الحياة في الوعي الاجتماعيّ العامّ.

وأورد الإمام أحمد قوله عليه الصلاة والسلام: «من مثّل بذي روح ثم لم يتب مثّل الله به يوم القيامة»[55]. وأورد أيضاً عنه ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ»[56]. وفي روايةٍ أخرى: قال رسول الله ﷺ: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخٌ عند العرش، يقول: يا ربّ! سلْ هذا فيم قتلني في غير منفعة»[57]. وجاء في ذلك حديثٌ جامع هو: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ï قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ كُلِّ ذِي رُوحٍ إِلا أَنْ يُؤْذِيَ»[58]

ويمكن التعليق هنا بالقول: لَكَمْ تُزهق اليوم من أرواحٍ بريئةٍ من حولنا لأسبابٍ تافهةٍ وقضايا هامشيّةٍ قد لا يكون لهم علاقةٌ بها من قريبٍ أو بعيد، وكم تشتّت أسرٌ وتعذّب أطفالٌ وتمزّق أوطانٌ، ولكن للأسف لا تنظر محكمة الضمير الإنسانيّ المعاصر في قضاياها، ولا تعير لها أيّ انتباهٍ أو اهتمام!!

إذن ينهى القرآن الكريم عن قتل الحيوان غير المؤذي، لأنه مخلوق مسبحٌ لله تعالى وبمشيئته سبحانه، ففي قتله أو تعذيبه

مخالفةٌ للمشيئة الإلهية قد تؤدّي بالمرء إلى غضب الله عليه والتعرّض لعذابه الأبدي. وفي ذلك من تكريم الشرع الإلهيّ للحيوان وذوي الحياة عامّةً ما لا يخفى، ولا يمكن أن يضاهيه أيّ تكريمٍ على الإطلاق في مبادئ الإنسان.

ومما ورد في ذلك ـ وهي بلا شكٍّ أخبارٌ شيقةٌ ومثيرةٌ للانتباه ـ «أن نملةً قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمةً من الأمم تسبّـح؟» وفي رواية: فهلّا نملةٌ واحدة؟»[59]. قال النووي معقّباً: «قال العلماء وهذا الحديث محمولٌ على أن شرع ذلك النبي ﷺ كان فيه جواز قتل النمل وجواز الإحراق بالنار [...] وأما في شرعنا فلا يجوز الإحراق بالنار للحيوان، للحديث المشهور: «لا يعذب بالنار إلا الله»[60].

وبهذا يمكن التأكيد أنه لا يمكن للبشرية أن تحقّـق الإعلاء الحقيقيّ من قيمة الحياة وهي معرضةٌ عن حكمة القرآن العظيم، ولا أن تنال أمناً حقيقيّاً عامّاً متوازناً وكليّاً، نفسياً وحياتياً، اقتصاديّاً واجتماعيّاً، سياسياً وعالميّاً، ولن تطبّق نظاماً متوازناً يحمل أسس الاستقرار الذاتيّ من داخل ذلك النظام للبشرية خارج حكمته العليا ونظراته الثاقبة؛ التي تمثّل في جوهرها أسمى معاني القيم الإنسانية والإشفاق على مصالحها.

ويمكن لنا أن نلحظ ونتوقّع بكلّ ثقةٍ أنه ستبقى البشرية ولدى كل فردٍ منها، تعاني من الويلات والكوارث المتلاحقة والمتناسلة، مهدّدةً إلى حينٍ بكلّ أنواع المخاطر الجديّة المحدقة، ما لم يتمّ الإصغاء بكلّ إجلالٍ إلى هذه الحكمة القرآنيّة، والاهتمام برؤيتها ونواميسها وتشريعاتها القويمة.

وقد آن الأوان كي تشرق شمس القرآن على عصر العولمة، فقد بدأ شعاع فجرها الصادق يتنفّس، من خلال اجتماع الرأي على ضرورة النظر في مبادىء القرآن الكريم وقيمه السامية، فهل يوجد في كلّ مبادىء حقوق الإنسان مبدأٌ أعظم من المبدأ الذي اشتملت عليه الآية الكريمة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾؟[61].

إنه ما من شكّ أن البشرية ومنظماتها الخيرية لو أخذت به ـ ونرجو من رحمة الله أن يتحقّق ذلك يوماً ما ـ فسوف يرفل الكون ببهجة الحياة، وينعم الأحياء بالسعادة، ويشعر الإنسان برحابة الحرّيّة، وبأن له حيزاً في روح هذا الكون، وأثراً معيناً في قلب هذا الوجود، ودوراً مقدّراً في سيرورة التاريخ، وأهمّـيّـةً ما في هذه الحياة.

د. عبدالله توفيق شرقية

الهوامــش

1. انظر: الأصبهاني، أبو نعيم. حلية الأولياء، بيروت، دار الكتاب العربي، ج2، ص 155. وكذا: ج10، ص361.
2. ابن رجب، أحمد. جامع العلوم والحكم، بيروت، دار المعرفة، 1408هـ، ص 221.
3. المرجع نفسه.
4. العروسي، مصطفى. شرح الرسالة القشيرية، المسمى: نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية للأنصاري، بيروت، دار الكتب العلمية، 1439، ج1، ص 7.
5. مرحبا، عبد الرحمن. آينشتاين والنظرية النسبية، بيروت، دار القلم، ص 129. بتصرف يسير.
6. انظر على سبيل المثال: صالح، أحمد. ثقافة مجتمع الشبكة، دمشق، دار الفكر، 2004، ص ص 39 ـ 60.
7. للتوسع يمكن الرجوع إلى مجموعةٍ من المحاولات العديدة لإنجاز هذا المشروع النهضوي، مثل كتابات الدكتور محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ومجموعة مقالات كتاب العرب والعولمة، بإشراف السيد ياسين. نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
8. مثل الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهور. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، روني ألفا، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص47، وص575.
9. مثل الفيلسوف الشهير فريدريك هيغل، وكذلك فريدريك نيتشه وغيرهما. انظر: المرجع نفسه، ج2، ص ص571–573.
10. أبو ماضي، إيليا. ديوان إيليا أبو ماضي ـ شاعر المهجر الأكبر، بيروت، دار العودة، ص193 و865.
11. خليل جبران، جبران. المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1964، ص ص367–372.
12. سعيد النورسي، بديع الزمان. الكلمات، القاهرة، دار سوزلر، ص10.
13. العقاد، عباس محمود. الإنسان في القرآن الكريم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص8ـ9.
14. انظر: صفحة ويكيبيديا على الإنترنت، مادة مشروع الجينوم البشري، باختصار.
15. يمكن مراجعة بيانات الدكتور صبري دمرداش على صفحته الإلكترونية.
16. انظر: بلوت، آق شمس الدين. دارون ونظرية التطور، مؤسسة الجيل الجديد، إستانبول، 1987، ص 39. وكذلك: حامد، حامد. رحلة في جسم الإنسان، دمشق، دار القلم، 1991، ص 22 ـ 23. وكذا: نورباقي، خلوق. الإنسان ومعجزة الحياة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1998، ص 19 ـ 21. ويمكن مراجعة بيانات الدكتور صبري دمرداش على صفحته الإلكترونية.
17. موسوعة ويكيبيديا على الصفحة الإلكترونية، مادة نقد التطور، علماء يرفضون التطور.
18. سورة الانفطار، 7.
19. سورة ص، 27.
20. سورة الروم، 36.
21. سورة القيامة، 5ـ6.
22. صليبا، جميل. الفلسفة العربية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1986، ص80 و 251.
23. م. ن، ص:83.
24. رجا عبد الحميد عرابي، الكون والأرض والإنسان في القرآن العظيم، بيروت، دار الخير، ص239.
25. سورة الإسراء: 7.
26. سورة الإسراء، 44.
27. سورة سبأ، 3.
28. سورة الحجر، 19.

29. انظر: الزحيلي، التفسير المنير، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1991، ج 14، ص 24.
30. سورة الرعد، 8.
31. م.ن.، ج 13، ص 126.
32. سورة الرعد، 3-4.
33. سورة يس، 80.
34. سورة الملك، 19.
35. الزحيلي، م. ن.، ج29، ص 25.
36. سورة النحل، 5-6.
37. انظر: م. ن.، ج 14، ص 90.
38. سورة النحل، 66.
39. انظر: الزحيلي، م.ن، ج14، ص168.
40. سورة الحج، 73.
41. صحيح مسلم، بيروت، دار الجيل، ج 6، ص 162، رقم 5665.
42. صحيح البخاري، بيروت، دار طوق النجاة، رقم 6012.
43. صحيح البخاري، م، ن. رقم 6013.
44. ابن بطال، علي بن خلف. شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، 2003، ج9، ص219.
45. البيهقي، أبو بكر أحمد. السنن الكبرى، الهند – حيدر أباد، دائرة المعارف، ج3، ص19، حديث رقم4932.
46. صحيح مسلم، باب الأمر بالقوة وترك العجز، بيروت، دار الجيل، ج8، ص 56، رقم 6945.
47. صحيح مسلم، م، ن. ج6، ص 62 وما بعدها.
48. صحيح مسلم، م، ن. ج6، ص 72.
49. انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، ج 5، ص 426.
50. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث، ج 13، ص 107.
51. صحيح البخاري، ج6، ص634.
52. صحيح البخاري، ج6، ص635.
53. صحيح البخاري، م.ن، ج 6، ص441.
54. سنن أبي داود، القاهرة، وزارة الأوقاف، ج4، ص 538. والصُّرَدُ: طائر أبقع أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار له برثن ويصطاد العصافير وصغار الطير. انظر: الفيومي، أحمد. المصباح المنير، بيروت، المكتبة العلمية، مادة: صرد.
55. مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج9، ص 474.
56. مسند الإمام أحمد بن حنبل، م، ن، ج32، ص 220.
57. مسند الشهاب القضاعي،: مسند الشهاب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج1، ص 312.
58. الطبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير، المعجم الكبير، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، 1404 - 1983، ج 12، ص 116.
59. صحيح مسلم، ص5997. أقول: ويلاحظ أنه لا يمنع ذلك من قتل النمل المؤذي للإنسان في بدنه أو ماله مما لا يقدر على استبعاده. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، وزارة الأوقاف، ج17، ص 283.
60. انظر: شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج14، ص 239.
61. سورة المائدة، 32.

الإصلاح التربوي في الأردن

ـ قراءة نقدية في ضوء الفكر التربوي المعاصر ـ

د. فيصل خليل الغويين

لم يعد خافياً أنّ هناك قناعة متزايدة لدى المتخصصين وصناع القرار والرأي العام الأردني أنّ النظام التعليمي العام في المملكة يعاني من اختلالات على المستوى النوعي، وبالتحديد على مستوى كفاءة المخرجات التعليمية في المستويات كافة تقريبا، بل إنّ البعض يرى أنّ مخرجات النظام التعليمي تتراجع عاماً بعد عام، وأن الفجوة تزيد تباعاً في قدرة هذا النظام على إنتاج أجيال متمكنة ومنتجة، وقادرة على مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل، ومؤهلة علمياً وثقافياً ومعرفياً، وقادرة على مواجهة تحديات العولمة، والمنافسة في سوق العمل الوطني والخارجي.

وقد شهد العقد الماضي عدداً كبيراً من المبادرات التي تهدف إلى إصلاح التعليم المدرسي وتطويره إلا أن نوعية التعليم في الأردن ومخرجاته تراجعت عمّا كانت عليه في ثمانينيات القرن الماضي. ومن أبرز المؤشرات ذات الدلالة مؤشرات التقييمات الدولية التي تعكس حيوية وكفاءة هذه النظم وفاعليتها، وهي اختبار (TIMS) الذي يقيس معرفة الطلبة بالمفاهيم والمبادئ الأساسية في العلوم والرياضيات، واختبار (PISA)[1] الذي يقيس مهارات الطلبة في حل مشكلات الحياة اليومية من خلال العلوم والرياضيات والقراءة، وميزة هذه الاختبارات أنها تعمل على تحييد المتغيرات التي تعكس عدم مصداقية وموضوعية وشفافية نتائجها، ويعد هذا الاختبار أكبر مسح تعليمي دولي في العالم يشمل المدارس والطلاب في الدول المشاركة، وقد بدأ أول اختبار عام 2000 بمشاركة (43) دولة، والثاني عام 2003 بمشاركة (41) دولة، والثالث عام 2006 بمشاركة (57) دولة، وشاركت فيه ثلاث من الدول العربية فقط هي (الأردن ـ قطر ـ تونس)، وقد جاءت جميعها ضمن الدول التي احتلت مؤخرة الترتيب في مواد الاختبار الثلاثة، ولكن مع تميز بسيط للأردن. أما الدورة الرابعة في عام 2009، فقد كانت بمشاركة (74) دولة، واحتل الأردن المرتبة الأولى عربيًّا، وكان أداء الطلبة الأردنيين في عام 2009 أعلى مما كان عليه في عام 2006 في مجالي القرائية والرياضيات، حيث بلغ متوسط الأداء الأردني في عام 2009 في القرائية (405)، والرياضيات (387)، في حين كانت هذه المتوسطات عام 2006، في

القرائية (401) وفي الرياضيات (384)، أما في العلوم فقد انخفض متوسط الأداء الأردني في عام 2009 إلى (419) مقابل (422) في عام 2006.[2]

أما الدورة الخامسة فكانت في عام 2012، وبمشاركة (65) دولة، وشاركت فيها عربياً (الإمارات، الأردن، وتونس، وقطر) وعلى الترتيب بالنتائج أيضا، وكانت نتائجنا في الرياضيات (38)، وفي العلوم الثاني عربياً، والترتيب الدولي (61) من (65)، وفي العلوم(409) الثاني عربياً، والترتيب الدولي (57) من (65)، وفي القرائية (398)، الثاني عربياً، والترتيب الدولي (58) من (65)، بينما كانت الدورة السادسة في عام 2015، وبلغ عدد الدول المشاركة (72) دولة، وكانت نتائجنا في الرياضيات (380)، الثالث عربياً، والترتيب الدولي (66) من (72) دولة، وفي العلوم (409)، الثالث عربياً، والترتيب (63) من (72) دولة، وفي القرائية (408)، الثاني عربياً، والترتيب الدولي (60) من (72) دولة.[3]

المجال / العام	علوم	رياضيات	قرائية	المتوسط الدولي لعام 2015 لمنظمة (OECD)	
2006	422	384	401	علوم	493
2009	419	387	405	رياضيات	490
2012	409	386	398	قرائية	490
2015	409	380	408		

جدول يبن نتائج الأردن في اختبار **pizza** منذ أول مشاركة للأردن [4]

وفي عام 2017 أصدر المنتدى الاقتصادي العالمي تصنيفاً جديداً لجودة التعليم في العالم شمل(137) دولة. وقد قوّم التقرير هذه الدول بحسب درجة إجمالية تراوحت بين (1و7) انطلاقاً من درس وتحليل (12) معياراً أساسياً: المؤسسات، البنية التحتية، بيئة الاقتصاد الكلي، الصحة والتعليم الأساسي، التعليم الجامعي والتدريب، كفاءة أسواق السلع، تطوير سوق المال، الجاهزية التكنولوجية، حجم السوق، تطور الأعمال، الابتكار، وقد جاء ترتيب الأردن عالمياً على مستوى التعليم الابتدائي في المرتبة (69) عالمياً، والخامس عربياً بعد قطر، الامارات، لبنان، السعودية بمجموع نقاط (3، 4).[5]

وتظهر هذه النتائج أن نظامنا التعليمي لايزال غير قادر على تمكين الطلاب من أهم المهارات المطلوبة للنجاح في التخصصات العلمية التي يحتاج اليها الاقتصاد الحديث المبني على المعرفة، مقارنة بالدول التي نجحت في العقود الاخيرة في بناء اقتصاد مزدهر، يقوم على التكنولوجيا والبحث العلمي والصناعات الدقيقة.

ولعل الدراسات والتقارير المسحية المحلية التي يمكن أن تساعد في إيضاح مستوى تراجع مخرجات النظام التعليمي الأردني علمياً ومهنياً قليلة، لعدم وجود مركز متخصص للبحوث والدراسات التربوية يسهم في رفد صانع القرار برؤية علمية لواقعنا التربوي. ومن هنا فإن الاستفادة من التقارير والدراسات التي تصدرها المؤسسات العربية والدولية المعنية بتصنيف الدول بحسب معايير محددة للكفاءة والجودة تبدو متاحة بشكل أفضل. إضافة إلى المؤسسات المعنية بالاختبارات الدولية التي تقدم تقويماً دورياً لمستوى أداء الطلبة للدول المشاركة في مثل تلك الاختبارات.

ـ الاستراتيجية الوطنية لتنمية الموارد البشرية (2016 ـ 2025)

في 24 آذار 2015 وجه الملك عبد الله الثاني ابن الحسين رسالة إلى رئيس الوزراء آنذاك عبد الله النسور طالبه فيها بتشكيل لجنة وطنية لتنمية الموارد البشرية، والمهام المطلوبة منها، وعلى رأسها «إعداد استراتيجية وطنية ينبثق عنها خطة تنفيذية للأعوام العشرة القادمة تعنى بتطوير قطاعات التعليم الأساسي والتعليم العالي والتعليم التقني والتدريب المهني تحقيقاً لنقلة نوعية في قطاع التنمية البشرية، وتحديد مجموعة من السياسات الاصلاحية، التي من شأنها أن تدعم عملية التحديث والتطوير»[6].

وقد احتوت وثيقة الاستراتيجية الوطنية على تشخيص دقيق لمشكلات التعليم العام، ورصدت أهم جوانب القوة وجوانب الضعف التي تدل بأن هذا التعليم بحاجة إلى إصلاح يستند على رؤية علمية.

ـ جوانب القوة

1) يتمتع الأردن بمعدلات مرتفعة للالتحاق بالمدارس لمراحل التعليم الأساسي والثانوي والعالي مقارن مع الدول ذات مستويات الدخل المماثل، وقد حقق الأردن بالفعل التكافؤ بين الجنسين على مستوى الالتحاق بالتعليم الأساسي منذ عام 1979 مقارنة مع الدول ضمن الشريحة الأعلى من فئة الدخل المتوسط التي لاتزال تشهد نسبة التحاق أعلى للطلبة الذكور في مدارسها، كما يحظى الاردن بأعلى نسب تعلم للإناث في المنطقة والتي تبلغ (2، ٪95)[7].

2) تعتبر أكاديمية الملكة رانيا لتدريب المعلمين، ومبادرة التعليم الأردني، ومشروع القراءة والحساب للصفوف المبكرة بمثابة أمثلة حية على المبادرات الناجحة التي تهدف إلى الارتقاء بالمستوى التعليمي للطالب من خلال تدريب المعلمين.

3) ارتفاع معدلات التطعيم، والتأمين الصحي المجاني للأطفال دون سن السادسة، والرعاية المقدمة للأم قبل الولادة.

4) وضعت وزارة التربية والتعليم بدعم من منظم الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو) نظام معلومات إدارة التعليم(**EMIS**) لتسهيل اتخاذ القرارات اعتماداً على البيانات في مرحلتي التعليم الأساسي والثانوي.[8]

- أوجه القصور

حددت وثيقة الاستراتيجية الوطنية لتنمية الموارد البشرية التحديات التي تواجه مخرجات التعليم؛ فمهارات الخريجين لا تلبي متطلبات الاقتصاد الوطني وسوق العمل، وفي كل عام يخفق أكثر من نصف طلاب المدارس في اجتياز امتحانات الثانوية العامة، ويتركون المدرسة دون أن تتوفر لهم فرص بديلة واضحة، كما أن هناك تزايد في أعداد خريجي الجامعات مقابل نقص الحرفيين والفنيين المهرة، ونتيجة لذلك ما زالت معدلات البطالة مرتفعة في شريحة الشباب إذ تبلغ(31،8٪)، فيما لم تتجاوز نسبة مشاركتهم في القوى العاملة نسبة (41٪)، وهذه النسبة من أدنى المعدلات في العالم.[9]

وتضيف وثيقة الاستراتيجية: «تبقى هذه الحقائق والأرقام غير قادرة على عكس واقع الحال والقصص الشخصية والمعاناة التي يواجهها المتعلمون الذين يعجزون عن ايجاد فرص عمل أو بناء حياة كريمة لأنفسهم، ومعاناة الآباء القلقين على مستقبل ابنائهم، وأصحاب العمل الذين يجاهدون خلال البحث عن موظفين وعمال يملكون المهارات المطلوبة لتلبية احتياجات الوظيفة، ويسهمون في تطورها وتنميتها، إضافة إلى إيجاد قيادات وطنية شابة وواعدة».[10]

- أسباب القصور

ترصد الاستراتيجية مجموعة من الأسباب التي أدت إلى تراجع مستوى كفاءة منظومة التعليم العام، ومن أبرزها:

1) الحاكمية: تميل الحاكمية نحو المركزية في مراحل التعليم كافة والتدريب وغالباً ما تكون مشتتة بين أكثر من جهة واحدة دون تنسيق أو استراتيجية شاملة وواضحة.

2) ضمان الجودة: لا يتم فرض معايير ضمان الجودة بشكل منتظم لضمان استمرار عملية مراقبة النظام وتقييمه وتحسينه.

3) المدرسون: انخفاض كفاءة المعلمين في مرحل التعليم المدرسي (K-12)؛ وتعزي الاستراتيجية الأسباب إلى عدم اتباع آليات توظيف تركز على الكفاءة، وعدم كفاية التدريب ما قبل الخدمة وأثنائها، واستخدام طرق التدريس القديمة في كافة مراحل التعليم.

4) ضعف مشاركة القطاع الخاص في المنظومة التعليمية.

5) زيادة الطلب الأسري على التعليم الأكاديمي، وعدم الاهتمام بالمسارات التعليمية عالية القيمة مثل التدريب والتعليم المهني والتقني.[11]

6) اقتصار التمويل على المصادر التقليدية أي الحكومات والمساعدات المباشرة من الجهات المانحة، مع ضعف الشراكة بين القطاعين العام والخاص في هذا المجال.

7) التحديات التي تواجه الأردن بسبب تدفق اللاجئين السوريين، الذين تجاوز عددهم (3، 1) مليون لاجئ، مما أضاف أعباء على منظومة التعليم وسوق العمل والبنية التحتية في المملكة.[12]

وإضافة إلى ما أوردته الاستراتيجية الوطنية لتنمية الموارد البشرية يمكن إضافة جوانب أخرى للأزمة التي يعيشها

النظام التربوي في الأردن والملاحظة ميدانياً؛ كتدني مستوى تحصيل الطلبة، وتدني مستوى الخدمات التعليمية المقدمة لهم، فضلاً عن تدني مستوى طلاب التعليم المهني، وتدني نظرة المجتمع اليهم، إضافة إلى عدم اهتمام الطلبة بالتعليم وحرصهم على النجاح دون إنجاز، وتبني سلوكيات غير سليمة ودخيلة على مجتمعاتنا.

ـ الورقة النقاشية الملكية السابعة

طرح الملك عبد الله الثاني خلال السنوات القليلة الماضية سبع أوراق نقاشية[13]، عكست دراية كافية بالتحديات الواجب التعامل معها وطنياً، وتشكل هذه الأوراق بمجملها فلسفة حكم، من خلال الحوار المباشر مع كل فئات الشعب الأردني، والأهم أن فيها نظرة استشرافية واضحة لمستقبل الأردن الذي نريد، وعناصر التحول الديمقراطي والتنموي المطلوب.

وفي 15 نيسان 2017 طرح الملك عبدالله الورقة السابعة حاملة عنوان «بناء قدراتنا البشرية وتطوير العملية التعليمية جوهر نهضة الأمة». وجاءت الورقة الملكية لتضعنا جميعاً أمام عدة عناوين مركزية، يمكن اجمالها بما يلي:

1) إن التعليم قضية وطنية. 2) التعليم أساس النهضة. 3) التحديات التي تواجه التعليم. 4) علاقة التعليم بالتراث والمستقبل. 5) التعليم والسياسة(التوظيف السياسي). 6) التعليم الذي نريد. 7) مواصفات المدرسة الأردنية المطلوبة. 8) أهمية تكامل الجهود الرسمية والأهلية.

لا تسعى الورقة النقاشية السابعة لإطلاق نقاش عام فقط حول هذه العناوين، بل جاءت لدعم مسار انطلق بشكل فعلي، من خلال صدور توصيات اللجنة الملكية لتنمية الموارد البشرية ودخولها حيز التنفيذ، إضافة لتأسيس المركز الوطني لتطوير المناهج، إلا أننا بحاجة إلى المزيد من الخطوات الاصلاحية الحقيقية بعيداً عن التردد والخوف في اتخاذ القرار الذي حذرت منه الورقة، والذي «يهدر ما نملك من طاقات بشرية».[14]

ـ أسس ومقومات الإصلاح التربوي المنشود

إن قضية إصلاح التعليم تحتاج إلى رؤية شاملة، وإرادة حاسمة، وإدارة ذات كفاءة عالية، وتفاعل ودعم من المجتمع، حتى نستطيع اختصار الطريق، ورفع كفاءة النظام التعليمي في وقت قصير، والتركيز على نوعية المخرجات المطلوبة، أكثر من الجدال حول العمليات والوسائل والتفاصيل التي غرق بعضنا في جنباتها، حتى لم نعد نتبين طبيعة رسالة النظام التعليمي التي نعمل من أجلها، ولا هوية الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها.

إن أي برنامج وطني لإصلاح منظومة التعليم العام، لا بد أن يستند إلى مجموعة من الأسس والمقومات الأساسية، ومن أهمها:

1) إنّ تطوير واصلاح التعليم عملية هادئة ومنظمة ومتدرجة وشاملة، ولا ينبغي إحداثها بصورة مفاجئة، ومن الضروري أن يمهد لعملية الاصلاح بين المخططين والمنفذين والمستفيدين، من خلال حوار

منظم ومنهجي بين كافة أطراف العملية التعليمية، إلا أن ذلك يجب ألا يعيق أهمية سرعة الحركة في سبيل تغيير سبل الإدارة المركزية على مستوى الوزارة والمديريات والمدارس، وتحديث أساليبها، وتطوير وتعديل مسؤولياتها.

2) إنّ المدرسة هي وحدة التعليم والتعلم والتطوير والإصلاح الأساسية، ولا بد أن تتاح للمدرسة من الصلاحيات الإدارية والفنية ما يؤهلها للقيام بمهامها وتحقيق أهدافها.

3) إنّ المعلم هو أساس العملية التعليمية التعلّمية، وإن أي تطوير لا بد وأن ينبع من خلاله، حيث أنه صانع التطوير الأول وهو وسيلته.

4) إن المشاركة المجتمعية أساس حيوي لعملية الإصلاح التربوي، من خلال التوجه نحو قدر أكبر من اللامركزية، وتمكين الإدارة المحلية، وزيادة الاهتمام بدور الأسرة، والمجتمع المدني والقطاع الخاص، والخبراء والمثقفين ومراكز البحوث.

5) ضرورة تشكيل فرق علمية ولجان متخصصة من أجل تشخيص كفاءة النظام التعليمي، ومدى قدرته على إنتاج جيل من المؤهلين لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل، وأن يكون الميدان التربوي الركيزة الأساسية لهذه الفرق واللجان تقديراً لجهودهم، وإشعارهم بمحورية دورهم.

6) لعل من الجدير بالاهتمام ونحن نقرأ بعض ملامح واقعنا التعليمي في المملكة محاولين الوقوف على بعض الرؤى المستقبلية فيه، أن نطلع على تجارب الدول الأخرى التي حققت نجاحات ملموسة في هذا المجال، في أوروبا واليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وغيرها من الأنظمة التعليمية المتقدمة التي أصبحت مثار افتخار دولها، ونماء اقتصادها ورفاهية شعوبها، ونفيد منها وبما يتلاءم مع واقعنا وامكاناتنا.

7) الابتعاد عن الأسلوب المتبع في ملء الفراغ التربوي بالاستعارة من الخارج بحيث نأخذ الفكرة ونقيضها، دون أن يكون لخصوصيتنا دور كبير، ودون أن نقف منها موقفاً نقدياً، ودون فهم الشروط الاجتماعية التي أنضجت نجاحها.

8) إعداد برنامج واسع الانتشار لتعليم وتثقيف الوالدين، والقائمين على رعاية الأطفال وخاصة في المرحلة العمرية (4ـ 6) سنوات.

9) إن الحديث عن أي خطة استراتيجية لقطاع التعليم يجب أن يتم في اطار مؤسسي مالي وإداري يضمن لها النجاح، والبناء على المبادرات والبرامج التي تم تنفيذها، والتي هي في إطار التنفيذ حاليا، كما أن خطط التنفيذ لا بد لها من أطر زمنية محددة، وخطط واضحة للتمويل، ونظم صارمة للمتابعة والتقييم، وتحديد المسؤوليات والمساءلة، مع التأكيد على ضرورة الاهتمام بالبعد التنظيمي والمؤسسي في الاصلاح والتطوير، سواء على مستوى الوزارة وإداراتها، أو على مستوى العلاقة بين الوزارة والمديريات، أو على مستوى المدرسة وعلاقاتها مع كل الجهات.

محاور وأولويات الاصلاح التربوي في الأردن

أولا: في مجال البنية الأساسية للتعليم

بلغ مجموع المدارس في الأردن (6961) مدرسة للعام الدراسي 2015 ـ 2016، وتشمل المدارس التابعة لوزارة التربية والتعليم ومدارس وكالة الغوث والمدارس الخاصة، وارتفعت أعداد المدارس خلال خمس سنوات بحدود (789) مدرسة، وشكلت الزيادة ما نسبته(12.8٪) مقارنة مع عدد المدارس خلال العام الدراسي 2011ـ2012 والبالغ (6172) مدرسة، في حين بلغ عدد المدارس المستأجرة (893) مدرسة منها (781) مدرسة لفترة واحدة و(112) مدرسة لنظام الفترتين، بنسبة (24.17٪)، في حين بلغ عدد المدارس ذات الفترتين المملوكة للوزارة (350) مدرسة وبنسبة (10٪).[15]

وتشير التقديرات إلى حاجة المملكة إلى (600) مدرسة في الأعوام الـ 10 المقبلة للتخلص من نظام الفترتين والمدارس المستأجرة التي تشكل عائقاً أمام الطلبة لممارسة نشاطاتهم ومواهبهم المرتبطة بالعملية التربوية والتعليمية، في حين أن الامكانيات المادية المتاحة للوزارة لا تسمح ببناء أكثر من 20 مدرسة.[16]

وفي ضوء هذه المعطيات فإن من الضروري توفير الموارد المالية اللازمة لبناء مزيد من المدارس، على أن تكون على شكل مجمعات مدرسية مركزية ونموذجية، تستوعب أعداداً كبيرة من الطلبة، بحيث يمكن عندها تطبيق نظام تجميع المدارس الصغيرة، على أن توفر الوزارة وسائط النقل المناسبة، مما يؤدي إلى خفض الكلف التشغيلية للمدارس وزيادة فعاليتها، إضافة إلى صيانة المدارس القائمة، والتخلص من المباني المستأجرة، وخفض كثافة الصفوف، بحيث لا يتجاوز عدد الطلبة في الغرفة الصفية (30) طالباً على الأكثر، مما سيمكن المعلم من التعامل مع احتياجات كل طالب على حدة، واكتشاف ورعاية الموهوبين، حيث يلاحظ انخفاض حجم الأنشطة الطلابية كماً ونوعاً، وإكمال المنشآت الرياضية والمختبرات، وإيجاد بنية تعليمية تسمح بممارسة التعليم الفعال، والتفاعل بين المعلمين والطلبة.

ويعتبر الانفاق على التعليم في الأردن من أكثر مجالات الإنفاق الاجتماعي، إلا أنه لا يزال أقل مما يجب، وهناك علاقة وثيقة بين الإنفاق على التعليم وبين إتاحته وجودته، ومن الضروري للنهوض بالتعليم تخصيص ما لا يقل عن ٪5 من الناتج المحلي الاجمالي، و ٪20 من الموازنة العامة للإنفاق على التعليم وهو أمر ما يزال بعيد المنال، حسب توصيات الأمم المتحدة لتحقيق أهداف الألفية التنموية التي تنص أن الإنفاق على قطاع التعليم يجب أن يصل الى(6٪) من الناتج المحلي الإجمالي و(20٪) من الموازنة العامة على الأقل، وتشير أرقام الموازنة العامة في الأردن أن الإنفاق على التعليم للعام 2016 بلغ (1.062) مليار دينار

منها (941) مليون دينار نفقات جارية و(121.4) مليون دينار نفقات رأسمالية، بينما بلغ الإنفاق على التعليم في عام 2017 ما قيمته (883) مليون دينار، أي ما يقل عن (10٪) من إجمالي النفقات العامة بشقيها الجاري والرأسمالي التي وصلت إلى ما يقارب من (8.7) مليار دينار. وينفق الأردن في المتوسط ما بين (8 ٪) و(10٪) من الموازنة العامة على التعليم، ولذا لا غنى عن زيادة كفاءة الإنفاق، والبحث عن بدائل جديدة لتمويل التعليم.(17)

وعلى الرغم من تزايد الإنفاق على التعليم فإن الجزء الأكبر من هذا الإنفاق يغطي النفقات الجارية وخاصة الرواتب، والأنشطة ذات الطبيعة الادارية، في مقابل انخفاض الانفاق على الخدمة التعليمية ذاتها، والأنشطة المدرسية، والتدريب والبحث التربوي، والأبنية المدرسية.

ويمكن القول إن أهم المشكلات في مجال التمويل تعود إلى:

1) عدم البحث عن مصادر أخرى للتمويل.

2) ضعف مشاركة القطاع الخاص والمجتمع.

3) عدم ارتباط الموازنة بالأداء، حيث لا يتيح النظام المالي المتبع بيانات مالية مفصلة؛ وذلك مرجعه أن الموازنة هي موازنة بنود وليست موازنة أداء، ونظم موازنة الأداء تيسر التخطيط السليم للتعليم، وتهيء المجال للمتابعة والتقويم والمحاسبة.

4) عدم تحقيق الاستفادة القصوى من منح ومساعدات التعليم الاقليمية والدولية؛ ذلك أن العديد من هذه المساعدات تتماثل في أغراضها، ولا تتناول بالضرورة الأولويات، ومن ثم لا يتم توظيفها التوظيف الأمثل لتحقيق أفضل عائد.

5) انخفاض كفاءة استغلال الموارد المالية المتاحة على مستوى الوزارة والمديريات والمدارس.

ولمواجهة هذه التحديات يمكن تقديم المقترحات التالية:

1) إنشاء صندوق وطني خاص لدعم التعليم تتكون موارده من المساعدات والهبات والتبرعات المالية، ويمكن أن يسهم في ذلك رجال الأعمال والشركات والمواطنون والمغتربين والمؤسسات العربية والاقليمية والدولية.

2) زيادة المخصصات المرصودة لقطاع التعليم العام في الموازنة العامة والناتج المحلي الاجمالي بحيث لا تقل عن (20٪) على مستوى الموازنة العامة، و(5٪) من الناتج المحلي الإجمالي.

3) إيجاد وتعزيز مصادر بديلة للتمويل؛ مثل طرح سندات بمسمى "تمويل التعليم" وذلك بأسعار فائدة مرتفعة، ولآجال طويلة، وتحصيل رسوم موازية على المعاملات الحكومية، وطرح نماذج جديدة للتبرع من رموز المجتمع والطبقة الميسورة والتي استفادت من مجانية التعليم الحكومي.

4) إصلاح هيكل وأنظمة الادارة المالية على مستوى الوزارة والمديريات والمدارس، وذلك للتغلب على المعيقات الادارية للإنفاق، أو استقبال التبرعات والهبات، مما يتطلب بعض التعديلات التشريعية والإجرائية.

5) ضرورة ترشيد الإنفاق على مستوى الوزارة والمديريات والمدارس، من خلال حسن التنسيق، ومنع ازدواجية الطلبات، وتقليل الهدر، والتأكيد على ضرورة تكرار الاستخدام وإعادة التدوير، وإجراء مراجعة للفاقد في المواد والاستهلاك، وإعادة النظر بنظام اللوازم وخاصة الاتلاف.

6) ضرورة التفكير في توزيع ميزانية التعليم على المحافظات والمديريات بناء على حاجاتها وخطط التطوير المقدمة منها وأدائها، مع إيلاء مدارس الأطراف رعاية خاصة لتحسين بيئتها التعليمية.

7) تقديم الحوافز للقطاع الخاص للمشاركة في تمويل التعليم، كإعفاء قيمة المشاركة من نسب الضرائب، أو تسمية مدرسة أو جزء من مبنى أو مختبر أو مكتبة أو ملعب وغيرها من المرافق باسم الممولين، وبذلك تتحقق الشراكة بين الدولة والقطاع الخاص في مجال التعليم.

8) استحداث نمط ثالث من التعليم إلى جانب التعليم الحكومي والخاص يقوم على الشراكة بين القطاع الخاص والنقابات المهنية والجمعيات والحكومة من خلال تملك أسهم محددة في هذا النمط التعليمي، وهو نمط ليس حكومياً وليس استثماراً كاملاً إنما هو تعليم قائم على الشراكة بين القطاع الحكومي وأطراف المجتمع المدني الفاعلة.

9) الاهتمام بالتوظيف الكفء والمثمر للقروض والمنح سواء من المؤسسات الدولية أو الدول والهيئات الأجنبية، وأن تدرج ضمن حسابات الإنفاق والموازنة المخصصة للوزارة.

10) أن يكون للصناديق العربية دور مهم في تمويل جزء من المشروعات والبرامج التي تضعها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والموجهة بشكل خاص إلى البلدان العربية الأكثر حاجة.

11) تفعيل دور الوقف في مجال التعليم؛ فقد لعب الوقف في التاريخ الحضاري العربي الاسلامي دوراً أساسياً في تغطية جميع جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وإنّ مجمل الإنتاج الحضاري والثقافي للأمة أنجز من خلال الوقف. وقد خطت الوزارة خطوة أولية هامة من خلال إطلاق مبادرة الوقف التعليمي والشراكات المجتمعية بالتعاون مع وزارة الاوقاف، تحت عنوان "التعليم مسؤولية دينية ووطنية" من أجل حث المجتمع للتبرع لمختلف نواحي العملية التعليمية، كما أبدت وزارة الاوقاف استعدادها لتمويل المدارس من خلال صندوق الحج، وتخصيص محفظة استثمارية للمساهمة في تمويل المشروعات التعليمية[18]. وفي 18 كانون الثاني 2018 وافق مجلس الوزراء على انشاء أول وقف للتعليم، من خلال تخصيص قطعة أرض بمساحة (10 دونمات)، حيث تكفلت وزارة الاوقاف بتخصيص نصف مليون دينار لإقامة بناء مدرسي ومن ثم تسليمه لوزارة التربية والتعليم.[19]

12) ضرورة الاتجاه إلى تبني فلسفة الاستثمار في الصناعات التعليمية، من خلال إقامة مصانع خاصة بوزارة التربية والتعليم تعمل على تزويد المدارس

بالأثاث المدرسي، والأجهزة الرياضية والمخبرية، وطباعة الكتب المدرسية، وانتاج القرطاسية والوسائل التعليمية التكنولوجية المرئية والمسموعة التي تحتاجها العملية التعليمية.[20]

ثانياً: المناهج والكتب المدرسية

إذا كان اكتساب المعرفة والتكيف مع المجتمع، وتنمية الذات والقدرات الشخصية هي غايات أساسية لأي نظام تربوي في كل عصر من العصور، فإن عصر المعلومات قد أضاف بعداً تربوياً رابعاً ألا وهو ضرورة إعداد الانسان لمواجهة مطالب الحياة في ظل عصر المعلوماتية وما بعدها.[21]

وبالرغم من ذلك فإن معظم مناهجنا الحالية لا تزال تقليدية في محتوياتها، وتكتظ بمادة تعليمية متضخمة على حساب تنمية مهارات التفكير، ويغلب عليها الطابع النظري والتلقين المعرفي على حساب الجانب التطبيقي المهارى، كما أنها ضعيفة الاتساق بين محتوياتها وأهدافها وبين قدرات الطلبة ومهاراتهم وميولهم وواقع المجتمع ومشكلاته وحاجاته، وعدم الاهتمام عند التقويم بالمستويات المعرفية العليا، هذا إلى جانب قصورها عن إعداد الأفراد للتعامل مع معطيات العصر ومستجداته بوعي وعقل نقدي.

إن تنمية المهارات الذهنية الأساسية كالاستنباط والاستقراء، والتحليل والتركيب علاوة على مهارات التواصل كتابة وشفاهة واستماعاً هي بمثابة البنية التحتية التي تقام عليها البنى المعرفية.[22]

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي تبذلها الوزارة من خلال إدارة الكتب والمناهج في تأليف الكتب وإخراجها والتكاليف المالية المرتفعة لطباعتها وتوزيعها بالمجان، فلا يزال كثير من الكتب الدراسية ضعيفاً من النواحي المعرفية والتربوية مقارنة بما نشاهده في الكتب الدراسية (Text books) التي تنشرها المؤسسات ودور النشر العالمية، لصالح المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة، مع تزويدها بكافة الوسائل التي يمكن أن يوظفها المعلم بهدف إيصال المادة العلمية بطريقة تربوية صحيحة.

إن سبب تواضع الكتب الدراسية المؤلفة يعود إلى أن صناعة تلك الكتب بقيت في اطار هيمنة الوزارة التي تقوم بتكليف المختصين بتأليف تلك الكتب ضمن آلية بيروقراطية بطيئة التغيير والتطوير، ودون إعداد فني وإداري مناسبين، ومن ثم تدفعها إلى المطابع بالصورة التي توصل إليها أولئك المختصون، مما يفقد العملية مقومات التجديد والابداع، والتي يمكن أن تتحقق لو أوكلت عملية التأليف إلى دور نشر محلية ودولية مختصة، بناء على معايير المناهج والخطوط العريضة المعتمدة من قبل الوزارة.

ومن هنا جاء إقرار نظام تأسيس المركز الوطني لتطوير المناهج رقم (33) لسنة 2017 خطوة في الاتجاه الصحيح، وقد عرّف النظام الكتب المدرسية المقررة بأنها «الكتب التي يقرر استعمالها للتدريس في المؤسسات التعليمية في المملكة وتشمل

أصول الكتب وتجارب طباعتها وفقاً لأحكام القانون». في حين عرّف المناهج بأنها " مجموعة المقررات الدراسية المقررة في المؤسسات التعليمية". وجاء في المادة الرابعة من النظام أن المركز يتمتع بالاستقلال المالي والاداري.

أما المادة الرابعة فقد حددت مهام المركز المتضمنة تطوير المناهج والكتب المدرسية والامتحانات وفقاً لأفضل الأساليب الحديثة وبما يتماشى مع احتياجات المملكة ومسيرة التعليم الأمثل وفلسفة التربية والتعليم وأهدافها الواردة في القانون، وذلك من خلال:

أ) مراجعة وتطوير الإطار العام للمناهج والتقويم ابتداء من مرحلة الطفولة المبكرة وحتى الصف الثاني عشر، بما في ذلك النتاجات التعليمية العامة والخاصة بالمباحث جميعها واستراتيجيات التدريس والتقييم والتقويم.

ب) تطوير مؤشرات الأداء الرئيسة للمناهج وإجراءات التقييم والتقويم مع التركيز على النتاجات التعليمية للطلبة لكل مرحلة دراسية.

ت) تطوير الكتب المدرسية والمواد التعليمية وأدلة المعلمين.

ث) التنسيق مع الجهات المسؤولة عن تدريب المعلمين لتمكينهم من تطبيق المناهج بما في ذلك المواد التعليمية وإجراءات التقييم والتقويم.

ج) تطوير الاختبارات وامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة وغيرها من التقييمات المستحدثة للطلبة[23]. وقد بدأ العمل بهذا النظام من تاريخ نشره بالجريدة الرسمية بتاريخ 15/ 4/ 2017.[24]

وعلى الرغم من الجدل الذي دار ولا يزال حول المركز ومدى علاقته بالوزارة، وآليات عمله فانه من المبكر الحكم على الفكرة قبل بدء العمل بإنتاج مناهج جديدة، مع العلم أن دولاً كثيرة قد نحت مثل هذا المنحى.

ولكي تتوافق المناهج المطلوبة مع توجهات الفكر التربوي المعاصر، وتكون قادرة على الإسهام في بناء الانسان القادر على التعايش في ظل التحولات المجتمعية المحلية والعالمية فإنها يجب أن تسعى لتحقيق ما يلي:

1) تحديث مناهج التعليم باتجاه فتح مضامينها على ثقافة وقيم التسامح والمشاركة، واحترام الآخر، ونبذ العنف، والاعتراف بالحق في التنوع والاختلاف، وتأكيد مبدأ المواطنة، وإعلاء روح الجماعة والمصلحة العامة للحد من مظاهر الفردية والأنانية والتطرف والانغلاق.

2) أن تكون قادرة على إقامة توازن عقلاني بين الكم والكيف، وبين المعارف والمهارات، وبين ما ينبغي أن يظل مرتبطاً بالواقع المحلي والوطني والقومي من جهة، وبين ما ينمي القدرة على التفاعل مع المتغيرات المعرفية والقيمية العالمية.

3) أن تركز على تدريب الطلاب على تطبيق منهج النقد المجتمعي الذي يعتمد الدقة والموضوعية، وتنمية مفاهيم ومهارات النقد المعرفي والعلمي لدى الطلبة.

4) أن تدعو إلى إعادة قيم الانتاج المجتمعي، وتقديم ثقافة واعية بمشكلات المجتمع، بغية تكوين انسان لديه وعي اجتماعي وقادر على المشاركة الإيجابية في حل مشكلات مجتمعه.

5) الابتعاد عن أساليب التلقين والحفظ، والتركيز على مهارات النقد البناء، والتنويع في الاستراتيجيات والأساليب التي تنمي التفكير العلمي لدى الفرد لتعينه على التفكير الإبداعي.[25]

ثالثا: المعلم

لعل مسارات الإصلاح جميعها تصب في النهاية عند المعلم، فهو العنصر المؤثر والحاسم في نجاح العملية التعليمية التعلمية أو إخفاقها، وما لم يكن المعلم في مستوى كفء يجعله قادراً على إحداث التغيير بوسائل أكثر فعالية في عقلية الطالب وفي سلوكه وأخلاقه، فإن مسارات الإصلاح التربوي جميعها ستظل قاصرة وغير مؤثرة. فأي نظام تربوي لا يمكن أن يتقدم أعلى من مستوى المعلمين القائمين عليه، ومن هنا فلابد من إعادة نظر شاملة في أوضاع المعلمين، تؤسس لقوة تعليمية ممتازة علمياً ومكرمة اجتماعياً، ومؤمنة برسالة التعليم في تقدم المجتمع، وإعادة الألق للمهنة بما يجعلها جاذبة لأفضل العناصر، من خلال الارتقاء بشروط الانتساب إلى مهنة التعليم، وتطوير خطط إعداد المعلمين لكل مراحل التعليم، وتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمعلم، ووضعه على قدم المساواة مع المهنيين الآخرين كالأطباء والمهندسين ورجال القضاء.

لقد فقد معلم عصر المعلومات سلطة احتكار المعرفة ليتغير دوره من كونه مجرد ناقل للمعرفة إلى كونه مشاركاً وموجهاً يقدم لطلبته يد العون، وتتفق جميع الآراء على أن نجاح المؤسسة التربوية في عصر المعلومات يتوقف على نجاحها في إحداث النقلة النوعية في إعداد المعلم وإعادة تأهيله.[26]

ويمكن رصد العديد من الملاحظات والتحديات الخاصة بالمعلمين سواء فيما يتعلق بالاختيار أو الإعداد أو الدعم أو التدريب أو التقويم وغيرها من القضايا المهمة التي تؤدي إلى الارتقاء بمهنة التعليم؛ فعملية الاختيار والتأهيل للمعلمين لم تتطور كثيراً، بل تراجعت على مدى أكثر من عقدين؛ نتيجة الانشغال بتوفير الكم على حساب الكيف؛ فقد كانت الحلول تتجه دوماً إلى ملء المدارس بمن يتوافر فيه الحد الأدنى من المؤهلات، مما أضر بسمعة المهنة، وأصبحت قيمتها المعنوية والمادية محل تساؤل، إضافة إلى أن المعلمين هم نتاج النظام التعليمي نفسه الذي يعاني من مشكلات عميقة ومؤثرة على مستوى التعليم العام والعالي، تجعله غير قادر على تأهيل الأجيال الجديدة تأهيلاً متقدماً.

كما يلاحظ ضعف في التنسيق المؤسسي بين كليات التربية في الجامعات الأردنية ووزارة التربية والتعليم، وقلة فاعلية التربية العملية والتدريب الميداني في المدارس،

إضافة إلى ضعف الانتماء للمهنة والعزوف عنها، وشعور المعلم بأنه معزول عن المشاركة في الرأي وصنع القرار، وخضوعه لتعليمات محددة، ووجوده في مدارس قد لا يتوفر فيها الحد الأدنى من الإمكانيات المادية مقارنة بالمهن الأخرى، وما يلاحظه من ممارسات اجتماعية في تكوين الثروات واسناد المواقع القيادية مع فيها من بعد عن الموضوعية، وعدم ارتباط التقدم بالجهد والمقدرة والكفاءة، مما يدفعه إلى اليأس على ما في ذلك من ضرر على المتعلمين.

لقد أولت وزارة التربية والتعليم في السنوات القليلة الماضية اهتماماً ملحوظاً في آلية اختيار المعلمين من خلال عقد امتحانات للمرشحين للتعيين في ملاكها، ومن ثم إخضاع الناجحين منهم إلى دورة معلمين مستجدين، إضافة إلى البرامج التدريبية التي تقدمها أكاديمية الملكة رانيا لتدريب المعلمين قبل وأثناء الخدمة منذ انشائها عام 2009، وتشير أرقام الأكاديمية إلى تدريب حوالي 60 ألف معلم، إضافة إلى استحداث برنامج الدبلوم المهني لإعداد وتأهيل المعلمين قبل الخدمة، إضافة إلى الجوائز التي تقدمها الأكاديمية كجائزة المعلم المتميز، والمدير المتميز، والمرشد المتميز.(27)

وبالرغم من هذه الجهود إلا أن مردود برامج التدريب وأثرها لا يزال محدوداً في الغرفة الصفية، ويعزى ذلك إلى عدة عوامل، منها: غياب السّياسات العامة والشاملة للمعلّمين، وتعثّر برامج إعداد وتأهيل المعلّمين في الجامعات، وضعف الإمكانات الماليّة والبشريّة المخصّصة للتدريب في الوزارة والمديريات، وازدياد الطلب على المعلّمين نتيجة النّمو السكاني السريع وموجات اللجوء، واكتظاظ المدارس، وعزوف الكثيرين عن مهنة التعليم خاصة بين الذكور.(28)

وفي هذا المجال يمكن اقتراح ما يلي:

1) إنشاء مركز وطني لإعداد وتدريب المعلّمين يتولّى رسم سياسات المعلّمين المتعلّقة بالإعداد والتّدريب والتّنميّة المهنيّة، ووضع معايير وإجراءات البرامج، وترخيصها واعتمادها، ومراقبة تنفيذها، وتقييم نتائجها ومخرجاتها، وتعديل وتطوير مساراتها.

2) الارتباط الوثيق بين برامج إعداد المعلّمين قبل الخدمة، وبرامج إدماج المعلّمين الجدد، وبرامج التّدريب أثناء الخدمة، وبرامج التنميّة المهنيّة المستمرّة، والابتعاد عن المقاربات التجزيئيّة غير المترابطة.

3) أن تنحو برامج إعداد المعلّمين قبل الخدمة منحى تكامليّاً (تلازميّاً) قائماً على ترابط المعرفة العلميّة والبيداغوجيّة والممارسات العمليّة القائمة على أفضل ما توصّل إليه البحث العلمي والتّربوي.

4) إعطاء اهتمام خاص لتدريب (مدربي المعلمين) كالمشرفين التربويين ومدراء المدارس، وتحديث معلوماتهم ومهاراتهم، ومشاركتهم في انشطة البحث والتطوير.(29)

- تمهين التعليم

ولما كان التعليم الجيد يتطلب معلمين أكفاء فلقد ازدادت الدعوات على مستوى

العالم لتمهين التعليم بحيث يصبح التعليم مهنة بكل ما لهذه الكلمة من معنى؛ باعتبار أن تمهين التعليم يشكل الأساس المناسب لعمليات التطوير والاصلاح، إذ يشكل ضابطاً للنوعية في برامج إعداد المعلمين، ويشعر المعلمون بأنهم مهنيون ذوو استقلالية ومكانة في المجتمع مثلهم مثل سائر ممارسي المهن الأخرى كالطب والهندسة والمحاماة، ويزيد دافعيتهم، ويؤدي إلى الاعتراف بالدور الحيوي الذي يؤدونه في المجتمع، وبالتالي إلى رفع مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية.(30)

إنّ التعليم مهنة تحتاج إلى التنظيم، وإلى شروط لمنح الاجازات لمزاولة المهنة، وإلى ايجاد نظام جديد لرتب المعلمين بحيث توضع لكل رتبة مواصفاتها الدقيقة، ووضع الشروط العملية والمعرفية والأكاديمية والمهنية، التي تؤهل المعلم للانتقال من مستوى إلى مستوى آخر، وتحديد الكفايات والشهادات اللازمة للترقيات. مما يعني ضرورة إيجاد تشريعات خاصة بمزاولة المهنة ومنح الرخص الخاصة بذلك، وفي هذا الإطار طرحت نقابة المعلمين الاردنيين ووزارة التربية والتعليم مشروع نظام مزاولة المهن التعليمية وترخيص المعلمين والقيادات التربوية، وتضمن النظام فئات الرخصة والمسارات المهنية، ومستويات الرخصة لكل مسار، ومتطلبات الانتقال بين المسارات، وحقوق ومستويات الرخصة، والحوافز المالية والوظيفية المرتبطة بكل مستوى، وتتدرج مستويات الرخصة بين الرخصة المؤقتة وصولاً إلى مستوى المعلم الخبير، ومتطلبات الانتقال من مستوى إلى آخر. الأمر الذي يعني تحقيق تحول نوعي كبير سينعكس إيجاباً على المعلمين، ويسهم في رفع سوية التعليم في حال تم اقراره وتطبيقه.(31)

إن أي نظام لمسار مهني مقترح لا بد أن يتضمن الأسس والأهداف التالية:

أ) المحافظة على الحقوق المادية المكتسبة والبناء عليها.

ب) تقوية وتحديث مجال التخصص الأكاديمي.

ت) تنمية وصقل المهارات البيداغوجية والمهنية.

ث) المتابعة المؤسسية للتأكد من الالتزام بالأهداف والشروط المعتمدة لغايات منح الرخصة والترقية.

ج) أن تتبنى نقابة المعلمين ووزارة التربية والتعليم آلية منح الرخصة وتجديدها وفقاً لما يعرف بنقاط النمو المهني، بحيث يتم تحديد أنشطة النمو المهني المطلوبة من كل معلم وحسب تخصصه ومجال عمله تبعاً لعدد الساعات التي أمضاها في كل متطلب، بحيث تحول الساعات الدراسية والتدريبية إلى نقاط.

ح) أن تكون مدة صلاحية الرخصة خمس سنوات، ويكون لزاماً على كل معلم التقدم لتجديدها في العام الأخير من صلاحيتها. وفي حال عدم تقدم المعلم لتجديد الرخصة وفق الأطر الزمنية المعتمدة يتم ايقاف العلاوات أو الترقية، ويمكن اتخاذ قرار بتخفيض نسبة من الراتب الاساسي.

خ) إنّ الغاية الأساسية من تبني سياسة تجديد الترخيص تتمثل في العمل على ترقية

وصقل النمو المهني للعاملين في ميدان التعليم، وتشجيع كل تربوي على اجتياز العديد من الخبرات التربوية التي يثبت من خلالها مدى ما حققه من نمو مهني.

د) ايجاد دليل مفصل لعملية الترخيص، يتضمن إطاراً مرجعياً لكل تربوي وما يتطلبه نموه المهني من متطلبات، على أن يتضمن الدليل أسس موضوعية ونوعية حتى لا تتحول إلى مزيد من الروتين والاجراءات البيروقراطية.

ذ) يجب على كل معلم خلال مدة السنوات الخمس المشاركة في العديد من أنشطة النمو المهني عالية الجودة، كالدورات التدريبية، والمشاركة في المؤتمرات والحلقات النقاشية وورش العمل، والمشاريع البحثية ودراسة مقررات دراسية، وتحديد قراءات خاصة لكل مبحث، إضافة إلى القراءات البيداغوجية، كما يجب أن يؤخذ في الاعتبار ما يتوافر لدى المعلم من الهوايات في الفنون الأدبية، ومهارات الرسم والتصوير والموسيقى وغيرها مما يعزز فاعلية الأداء في العملية التعليمية.

رابعاً: نحو دور جديد لوزارة التربية والتعليم

تعتبر وزارة التربية والتعليم بهياكلها الإدارية الحالية على مستوى المركز والميدان أكبر منظومة إدارية في الجهاز الحكومي، وقد تضخمت مسؤولياتها؛ فالهيكل الإداري على مستوى الوزارة يشير إلى وجود (17) إدارة، و(8) وحدات ومديريات، في حين يبلغ عدد مديريات التربية والتعليم في المملكة (42) مديرية.[32]

مما يعني تضخم كبير في الأجهزة الإدارية، وما يرافقه من أداء بيروقراطي، ونفقات عالية، ولما كانت معظم مشاريع التطوير والتخطيط تتم في الإدارة المركزية، فإن هذا الأمر يحد من فرص التطوير والإصلاح الحقيقي والمرونة نتيجة الاجراءات المطولة، والتقاطع في الصلاحيات بين الإدارات المختلفة.

وكخطوة لإعادة هيكلة وزارة التربية والتعليم فقد صدرت الإرادة الملكية بالموافقة على نظام التنظيم الإداري لوزارة التربية والتعليم لسنة 2016، استناداً إلى قرار مجلس الوزراء بتاريخ 4/ 9/ 2016. وتم نشره بالجريدة الرسمية.[33]

وقد تضمن النظام تقليص عدد الإدارات إلى أربع إدارات، يتبعها عدد من المديريات، واستحداث إدارة عامة في كل محافظة تتبعها مكاتب للتربية والتعليم، وتقليص عدد اقسام المديريات لتصبح (13) قسم بدل (21) قسم. إلا أن هذا النظام لم يتم العمل به حتى الآن.

وفي ضوء تحليل واقع الإدارة التربوية في الأردن يتضح أنها تعاني من وجود بعض جوانب الضعف، مما يحد من قدرتها على إدارة النظام التربوي بكفاءة عالية؛ نتيجة غلبة النمط المركزي في اتخاذ القرارات، وضعف المشاركة الفعّالة من المتأثرين بهذه القرارات، وتقليدية العمل الاداري، وعدم مواكبته للتطور العلمي والتكنولوجي على صعيد جمع ومعالجة المعلومات وتحليلها، وعدم ضخ دماء

جديدة على أساس من الكفاءة، وبطء انتقال المعلومات، وضعف قنوات الحوار المنظم مع الميدان قبل اتخاذ القرارات.

وفي ضوء هذا الواقع يمكن العمل على:

1) ضرورة التفكير في تحويل مهمة وزارة التربية والتعليم إلى هيئة عليا مهمتها التخطيط الاستراتيجي، ووضع السياسات والخطط التطويرية، والإشراف والمتابعة لسياسات التعليم، وتحفيز الجهات المحلية على القيام بالدور المنوط بها، من خلال تنمية قدراتها، ومكافأة المتميزين بشكل مباشر مما يسهم في زيادة إنتاجيتهم، ووضع معايير للتقييم على مختلف مستويات الادارة، وكذلك على المنتج النهائي لعملية التعليم والتعلم، وتوزيع الموازنات بناء على معايير جديدة تكون الحاجة والأولوية والمنافسة بين المحافظات عاملاً مؤثرا فيها. ويمكن أن يتم ذلك من خلال إنشاء مجلس وطني أعلى للتعليم، مما سيؤدي إلى تخفيض الأعباء الادارية والمالية، والتفرغ لوضع الخطط والبرامج النوعية للتطوير والتحديث ومراقبة الجودة، وإطلاق المبادرات المحفزة للنظام التعليمي، والمساعدة على إطلاق روح المبادرة والمنافسة بين المديريات والمدارس لرفع كفاءة التعليم، ولتحقيق نتائج أفضل في الاختيارات الوطنية والدولية، وتحويل المسؤولية المباشرة في إدارة منظومة التعليم إلى مديريات عامة تتمتع باستقلالية مالية وادارية، مع إدخال مفهوم المشاركة في الإدارة والتخطيط من قبل الجهات ذات العلاقة، وانشاء مجالس محلية للتعليم، يشترك فيها ممثلون لمجالس المعلمين المنتخبة، ومجالس أولياء الأمور، على أن تعمل تلك المجالس ضمن تشريع معتمد ومدروس.

2) إن التوجه التدريجي نحو اللامركزية هدفه إدارة أفضل وكفاءة أشمل، كما سيتيح الفرصة أمام عدد كبير من العاملين في قطاع التعليم للمشاركة والابداع، كما سيزيد من كفاءة المؤسسات التعليمية، ويتيح الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة، بل ويعطي الفرصة لزيادة هذه الموارد. كما سيتيح هذا التوجه قدرة أكبر في متابعة المعلمين، ومكافأة الجادين والمنجزين منهم بشكل مباشر، مما يساهم في زيادة دخولهم ووضعهم الاجتماعي، كما سينعكس على المدرسة وشكل إدارتها وموازنتها وارتباطها بالمجتمع بشكل ايجابي، وإبراز مكانة المدارس المبدعة والتي تحقق نتائج متقدمة على مستوى التحصيل والأنشطة والاختبارات الوطنية.

3) تحقيق مبدأ الشراكة المجتمعية التي تعد في حد ذاتها هدفاً للتنمية البشرية، فالتعليم قضية وطنية وليست حكومية فحسب، والمشاركة المجتمعية وسيلة لتكوين رأي عام على وعي واهتمام بتلك القضية، مع ضرورة أن يرافق كل ذلك جهد لتدعيم الشفافية والمسؤولية والمحاسبة حتى لا يستغل البعض الصلاحيات المخولة إليه.

خامساً: تحقيق مبدأ الجودة الشاملة

اقترن التوسع بالتعليم عبر عقود مضت على مدخلات العملية التعليمية،

وهو أمر محمود، إلا أنه آن الأوان نحو تحسين الكفاءة الخارجية للنظام التربوي في الأردن، والارتقاء بجودة التعليم كأولوية هامة لبناء القدرات البشرية عالية التأهيل، وللتغلب على تحدي تراجع المنتج النهائي للتعليم لا بد من التفكير بإنشاء هيئة اعتماد وضمان جودة وطنية، تلتزم بمعايير وطنية وعالمية لقياس منتج التعليم، وذلك من خلال تطوير أساليب وضع المناهج التعليمية، وتحسين أداء المعلم من خلال وضع مصفوفات للكفايات التعليمية والمهنية للمعلم، والإدارة المدرسية، وتحديث أساليب التقويم، وتنشيط الحياة الطلابية، وتطوير المعايير اللازمة لتحديث مكونات العملية التعليمية وتنمية القيادات، اعتمادا على كفاءات بشرية متميزة، وآليات قياس معتمدة عالمياً، في إطار من الاستقلالية والحيادية والشفافية. على أن يتم ذلك بعد مناقشة التجارب الناجحة على المستوى الاقليمي والدولي، والتي يمكن الاسترشاد بها وتطبيقها في السياقات الوطنية.

وعلى المستوى العربي فقد تأسست المنظمة العربية لضمان الجودة في التعليم عام 2006 كمؤشر على اهتمام الدول العربية بتبني معايير للجودة الشاملة في أنظمتها التربوية [34]، وقد عقدت المنظمة مؤتمرها السنوي العاشر حول "الجودة والاعتماد في التعليم" في عمان، خلال الفترة 2/ 3 كانون الأول 2018 برعاية وزير التربية والتعليم. بهدف توفير المنصة العلمية للباحثين والأكاديميين والخبراء لتبادل الخبرات وعرض الأبحاث العلمية والتجارب حول جودة التعليم والاعتماد، ومناقشة التحديات والآفاق التي ستسهم في رفع سوية التعليم وتعزيز دوره في التنمية والرفاه الاقتصادي.[35]

خلاصة

إن اصلاح التعليم أمر صعب ـ ولكنه ليس مستحيلا ـ لأنه يجب أن يكون جزءا من منظومة إصلاح كاملة، كما أن أي حديث عن إصلاح تعليمي دون ربطه بإصلاح مجتمعي (سياسي واقتصادي وثقافي) سيكون مجرد محاولات ترقيعية محدودة النتائج.

ولا بد من الإدراك أيضاً أن أي حديث عن الإصلاح التعليمي هو حديث عن مشروع طويل الأمد، ويتطلب الكثير من الجهد والمثابرة، ويبدأ من أسفل إلى أعلى وكذلك من أعلى إلى أسفل في آن واحد، كما أن وضع الإصلاح موضع التنفيذ يجب أن تصحبه سياسة إعلامية على مستوى التوعية، فقابلية الإصلاح للتحقيق على الصعيد السياسي والاجتماعي تتوقف على درجة مصداقيته وشفافيته، وعلى مدى قبول الناس لأهدافه وغاياته.

وفي النهاية لا بد من الأخذ بمبدأ التكامل بين مكونات العملية التربوية مجتمعة في سبيل النهوض بالواقع التربوي، لأن أي مشروع لتطوير وتحديث النظام التعليمي سواء تعلق بالهياكل أو بالمناهج

والطرق والوسائل، لا بد أن يراعي التكامل والانسجام بين مختلف مكونات المنظومة التعليمية، حتى لا يؤول إلى ما آلت إليه الاصلاحات الجزئية التي حاولت النهوض بالتعليم.

د. فيصل خليل الغويين/ مشرف تربوي

المملكة الأردنية الهاشمية

وزارة التربية والتعليم

الهوامـــش

(1) للاطلاع على ترتيب الاردن والدول المشاركة في اختبار **pisa**.
http://www.compareyourcountry.org/pisa/country/JOR.

(2) و (3) المصدر السابق.

(4)محمد أبو غزله، قراءة تحليلية بنتائج مشاركة الأردن في الاختبار الدولي **pisa** للرياضيات والعلوم والقرائية للعام 2015. **http://www.jo24.net. 8/12/2016.**

(5) **http://aljazair24.com/selection/45077.html.**

(6)انظر نص وثيقة الاستراتيجية الوطنية لتنمية الموارد البشرية.
http://www.mohe.gov.jo/ar/Documents/National%20HRD%20Strategy.

(7)المصدر السابق، ص 20.

(8)المصدر السابق ص 20، 21.

(9)و(10) المصدر السابق، ص 21.

(11)المصدر السابق، ص 21، 22.

(12)المصدر السابق، ص 22.

(13) للاطلاع على الأوراق النقاشية كاملة، أنظر الموقع الرسمي لجلالة الملك.
https://kingabdullah.jo/ar/vision/discussion-papers.

(14)فيصل الغويين، قراءة في الورقة النقاشية السابعة، ورقة غير منشورة، مقدمة إلى الملتقى

التعليمي التنموي الأول بعنوان (تنمية القطاع التعليمي في ضوء تجربة اللامركزية) مجلس محافظة العاصمة، عمان 12/ 4/ 2018.

(15) http://www.jordanzad.com/index.php?page=article&id=175024.

(16) الرزاز ـ التربية ـ بحاجة ـ إلى 600 ـ مدرسة ـ في ـ الأعوام ـ الـ 10ـ المقبلة. / محليات/ http://alrai.com/article/10400373.

(17) http://assabeel.net/article/2017/4/24

خليل عليان، اقتصاديات التعليم في الأردن: تكلفة التعليم أكبر من عائده.

(18) (الأوقاف) و(التربية) تطلقان مبادرة (الوقف التعليمي) ـ صحيفة الرأي.
http://alrai.com/article/1041418. 21/ 11/ 2017.

(19) صحيفة الرأي، 17/ 1/ 2018.

(20) عبد اللطيف محمود محمد، الاستثمار في الصناعات التعليمية كمدخل لتطوير نظم التعليم العربية في القرن القادم "دراسة مستقبلية"، المجلة التربوية، جامعة الكويت، العدد 53، المجلد الرابع عشر، خريف 1999، ص 244 ـ 258.

(21) صلاح الدين عرفة، المنهج المدرسي والألفية الجديدة، مدخل إلى تنمية الانسان العربي وارتقائه، دار القاهرة، القاهرة، ط1، 2002، ص 162.

(22) نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 276، ديسمبر 2001، ص 311ـ312.

(23) أنظر نص نظام المركز الوطني لتطوير المناهج، الموقع الالكتروني لوزارة التربية والتعليم،.
http://www.moe.gov.jo/ar/node/22255.

(24) الجريدة الرسمية، العدد 5454، 15/ 4/ 2017، نظام رقم 33 لسنة 2017، نظام المركز الوطني لتطوير المناهج. www.pm.gov.jo

(25) علي أسعد وطفة، معادلة التنوير في التربية العربية، رؤية نقدية في اشكالية الحداثة التربوية، دراسة ضمن كتاب، التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص 78 ـ 87.

(26) علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، مرجع سابق، ص 338، 339، محمد السيد اسماعيل، التعليم والعولمة، قراءة في كيفية العلاقة، مجلة الفكر المعاصر، الاصدار الثاني، العدد الرابع، يوليو، 2016، ص 131.

(27) للاطلاع على برامج أكاديمية الملكة رانيا وأنشطتها. http://www.qrta.edu.jo/index.html.

(28) و (29) د. محيّ الدّين توق، نحو إطار متجدد لإعداد وتدريب المعلمين، جريدة الغد، 6 كانون أول 2017. http://www.alghad.com/articles/1977482.

(30) جاسم الكندري، هانئ فرج، الترخيص لممارسة مهنة التعليم "رؤية مستقبلية لتطوير مستوى المعلم العربي: المجلة التربوية، جامعة الكويت، العدد 58، المجلد الخامس عشر، شتاء 2001، ص 18، 19.

(31) http://www.lob.jo/View_LawContent.aspx?ID=1006.

(32) للاطلاع على الهيكل التنظيمي لوزارة التربية والتعليم والتوزيع الجغرافي للمديريات.
أنظر http://www.moe.gov.jo/ar.

(33) رئاسة الوزراء، الجريدة الرسمية، العدد 5775، نظام رقم (130) لعام 2016.

(34) للاطلاع على أهداف وبرامج ونشاطات المنظمة، http://events.aroqa.org/index.php?lang=ar.

(35) http://www.aroqa.org/ar/Article/page/.

الاستشراق بين التعصب والاعتدال*

د. إيمان مرداس

المقدمـــة

حظي الاستشراق منذ زمن باهتمام الباحثين العرب والأجانب، كونه ظاهرة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات، وقضية تتناقض حولها الآراء في الشرق والغرب، البعض يؤيدها لما لها من إيجابيات في معرفة أحوال الشرق بطريقة موضوعية، ونشر العلم خدمة للحياة الإنسانية وبناء الحضارة، والبعض الآخر يرفضها ويشكك في مصداقيتها لأنها تحمل في طياتها طابعًا نقديًا مرسومًا لأهداف تبشيرية استعمارية،

* **ملخص البحث**: يتناول البحث ظاهرة الاستشراق إحدى أهم القضايا جدلًا على الساحة الثقافية والفكرية بين الشرق والغرب، ولا يُخفى على الدارسين أن هذه الظاهرة قد ساهمت في تسليط الضوء على جوانب مهمة من تاريخنا وتراثنا، على الرغم من أنّ أغلبية الآراء فرضت على القارئ أن الاستشراق ولد من رحم التلسط خدمة لأغراض تبشيرية استعمارية، لذلك فالتعامل مع هذه الظاهرة درسًا وتقويمًا من المطالب العلمية الواجبة. فقد حاولت البحث في مفهوم الاستشراق ونشأته وتطوره، وأهدافة وغايته، مستعرضة آراء المستشرقين الذين أنصفوا الشرق وكتبوا بمنهج علمي دقيق، والمستشرقين المتأثرين بروح العداء، وقسمت الدّراسة إلى مقدمة تضمنت تعريقًا بمشكلة البحث، والمنهج المُتبع، ومبحثين رئيسين تطرّقت فيهما إلى أهمية الاستشراق والتساؤلات التي دارت حول هذه الظّاهرة والإجابة عنها، وخاتمة تضمنت الاستنتاجات والتوصيات التي توصل إليه البحث.

Abstract: The research deals with the phenomenon of Orientalism, one of the most important issues in the cultural and intellectual arena between East and West, and it is well known to scholars that this phenomenon has contributed to shedding light on important aspects of our history and heritage. Even though, the majority of opinions imposed on the reader that Orientalism was the authoritarian progeny in the service of Evangelism and colonial purposes. Therefore, analyzing this phenomenon with scrutiny is a learning obligation. I attempted to explore the concept of Orientalism, its origin, development, objectives, and purpose; reviewed the views of those Orientalists, who were fair to the East and wrote with a precise scientific approach, and Orientalists influenced by the spirit of hostility. The study was divided into an introduction that included a definition of the research problem, and the methodology, and two main sections that were I discussed the importance of Orientalism and the questions raised regarding this phenomenon and their answers. A conclusion that included the conclusions and recommendations reached by the research.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، المستشرقون، التعصب، الاعتدال.

Keywords: Orientalism, Orientalists, Intolerance, moderation.

لذا ليس من اليسير على أي باحث أن يسبر أغوارها، ويكتشف خطواتها وأهدافها، ولا يجوز التقليل من شأنها كونها مثلت جزءًا من الخلفية الثقافية للصراع بين الشرق والغرب على امتداد قرون عدة، ولا يُمكن إنكار تأثيراتها الفكرية القوية.

تمحورت دراسات عديدة حول مفهوم الاستشراق، إلا أن أغلبيتها اتخذت موقفًا معاديًا، وبالكاد نجد بحثًا لا يُرجع دوافع هذه الظاهرة وعوامل نشوئها إلى التبشير والسيطرة، بحيث أصبح الغرب قوة هدّامة خطيرة زرعت في نفوس أبناء الشرق الشكّ في معتقداتهم وقيمهم ومُثُلهم العليا، ودراسات اهتمت بتفنيد آراء المستشرقين وأفكارهم التي ساهمت بتحويل منطقة الشرق إلى بؤرة صراع مستمر، ومحور للعلاقات المتوترة داخليًا وخارجيًا.

والاستشراق حركة متشابكة الأطراف، ولدت من رحم الواقع التاريخي وتأثرت باتجاهاته خدمةً لأهداف متعددة، وتؤكد الحقائق التاريخية أن المهتمين بشؤون الشرق وضعوا الإمكانيات اللازمة لإجراء البحوث في مختلف الميادين، نتج عنها ظهور فريق من المستشرقين كتبوا بلغة المستعمر، متخذين منهج الصراع سبيلًا، وفريق من المستشرقين العقلاء بذلوا جهدًا كبيرًا في بناء جسور التواصل بين الطرفين. وتعود أهمية البحث إلى فرضية مفادها هل دوافع الاستشراق تحمل وجهين إيجابي الهدف أو سلبي الغاية؟ وهل علينا أن نعترف بالأثر الإيجابي للمستشرقين؟

يتضمن البحث تعريف مصطلحات الدراسة، ومقدمة تضمنت تعريفًا بمشكلة البحث، ومبحثين رئيسين تناولت في الأول: مفهوم الاستشراق ونشأته وتطوره، وأهدافة وغايته، وفي الثاني: تيارات الاستشراق وختمت البحث بالاستنتاجات والتوصيات التي توصلت إليه الدراسة، مستخدمة المنهج التحليلي الاستقرائي الذي يعتمد على جمع الحقائق والمعلومات ثم تحليلها وتفسيرها، والمنهج الوصفي الذي يقوم على استقراء المادة العلمية لوصف أبعاد الموضوع ثم تحليلها وفق أهداف الدراسة ومعطياتها.

I: الاستشراق

1. الاستشراق لغة

تتفق المعاجم اللغوية العربية على تعريف الاستشراق أنه[1]: "مشتق من الشرق، والشرق والمشرِق اسم الموضع أي جهة شروق الشمس للدلالة المعنوية على الضياء والنور". وجاء في المعجم الوسيط أن كلمة "الاستشراق"[2]: "مشتقة من مادة شرق، شَرَقت الشمسُ أي أضاءت، والإشراق انبعاث نور من العالم غير المحسوس إلى الذهن تتم به المعرفة"، وجاء في قوله تعالى[3]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي بُعد المشرق والمغرب. واستشراق على وزن استفعال مؤلفة من مقطعين (است) و(شرق)، ولفظ (است) يدل في اللغة العربية على إظهار ما كان مخفيًا، أو طلب معين، فيقال استغفر أي اطلبِ الاستغفار[4].

2. الاستشراق اصطلاحًا

يُعد مصطلح الاستشراق من التسميات الحديثة وإن كان مدلولها غير حديث، فقد عرّفه أحمد حسن الزيات بأنه[5]: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وأديانه ومعتقداته وأساطيره وتاريخه واتجاهاته النفسية وأحواله الاجتماعية، وخاصّة حضارة الإسلام والمسلمين في مختلف العصور"، وعرّفه آخرون بأنه[6]: "علم يدرس لغات الشرق وتراثه وحضارته ومجتمعاته وماضيه وحاضره".

أما تعريف الاستشراق عند الغرب، فيُشير العالم الألماني رودي بارت إلى أنّه[7]: "مصطلح يختص بفقه اللغة" وبذلك يكون قد خصص ماهية الاستشراق في مجال محدد وهو فقه اللغة، ويتابع فيقول: "الشرق بالقياس إلينا نحن الألمان ـ يعني العالم السلافي، أي مكانًا جغرافيًا في الناحية الجنوبية الشرقية بالنسبة إلينا"، ويعتبر أغناطيوس جويدي أن الاستشراق[8]: "العلم الذي بنى ارتباطًا متينًا بين الشرق والغرب، وهو باب من أبواب التاريخ الإنساني، وهو العلم الذي يتعمق بدراسة أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها".

من خلال التعريفات السابقة، نستنتج أن الاستشراق هو كل ما يصدر عن الغربيين من دراسات علمية تتناول قضايا الشرق بمعزل عن انتمائهم الديني أو العرقي، والمستشرقون هم جماعة من الكتّاب والمؤرخين الأجانب الذين خصصوا جزءًا كبيرًا من حياتهم لدراسة وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والاجتماعية في الشّرق.

II: التعصب والاعتدال

1. التعصب[9]

يأتي بمعنى الشّدّة، يقال لحم عصب أي شديد صلب، والعصب: الطي الشديد، وجاء في قوله تعالى[10]: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، أي شديد، ويأتي التعصب أيضًا بمعنى التجمع والإحاطة والنصرة، وعَصب الرجل: قرابته لأبيه، والتعصب من العصبية، أي أن يدعو الرجل إلى نصرة أهله ويحامي عنهم.

أما اصطلاحًا: يرتبط بالانتماءات الدينية والسياسية والعرقية والجنسية، والتعريف الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي، وهو التشدد وأخذ الأمر بعنف وعدم قبول الآخر المخالف لرأيه حتى ولو كان على صواب، كتعصب المرء لدينه أو لجنسه أو عرقه[11].

وقد أورد علماء النفس والاجتماع تعريفات عدة للتعصب، إلا أنها اقتصرت بغالبيتها على التعصب السلبي، واعتبروه حالة مرضية تتعارض مع التكيّف الاجتماعي، وذكر العالم الأمريكي كيومومب في كتابه "الاتجاهات الاجتماعية"[12] أنّ: "التعصب يُمثّل استعدادًا للتفكير والسلوك بأسلوب مضاد لأشخاص آخرين لكونهم أعضاء في جماعة معينة"، لذا فالاتجاهات المتعصبة تحدث عند الانحراف في التفكير المنطقي العقلاني.

2. الاعتدال

جاء في لسان العرب أنّ[13]: "الاعتدال

اسم على وزن "انفعال" من المصدر "عدل"، والعدل ما قام في النفوس أنه مستقيم ـ وهو ضد الجور"، وفي القاموس المحيط[14]: "العدل: ضد الجور، وما قام في النفس أنه مستقيم، وعدل الحُكم: أقامه، وعدل فلانًا: زكّاه، وعدل الميزان: سواه. وقال تعالى[15]: ﴿وَإِذَا قُلتُم فَاعْدِلُوا﴾، أي قولوا الحق وانصفوا ولا تجوروا، وجاء على لسان ابن الأعرابي: "العدل والاستقامة والاعتدال: توسط حال بين حالتين في كمٍّ أو كيفٍ كقولهم جسم معتدل بين الطول والقصر، وماء معتدل بين البارد والحار". أما اصطلاحًا[16]: "هو التزام المنهج العدل الأقوم، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطع، وبين التفريط والتقصير، فالاعتدال والاستقامة وسط بين الإفراط والتفريط.

المبحث الأول:

ـ جذور وأهداف الاستشراق

يتناول هذا المبحث إلقاء نظرة عامة حول نشأة الاستشراق، نتعرف من خلالها على آراء بعض الباحثين في تحديد بداية هذه الظاهرة، وأهم العوامل أو المؤثرات التي كان لها الدور الفعال في تطورها، مستعرضة أهدافها وغايتها وما صاحبها من تطور في نظرة الغرب للعرب والمسلمين.

المطلب الأول:

ـ جذور الاستشراق وعوامل ظهوره

من الصعب تحديد بدايات الاستشراق، وذلك لسببين، الأول[17]: الاختلاف في تحديد مفهوم الشرق جغرافيًا، كون البعض حدده بالعالم العربي الممتد في قارتي آسيا وأفريقيا وصولًا إلى الصين، والبعض الآخر حدده بالأقطار العربية المرتبطة بالعامل الديني والتي تطل على البحر المتوسط، بالإضافة إلى القسم الغربي من آسيا، مع العلم أنّ تسمية البلدان التي تقع في مشرق الشمس شرقًا، وإلى الغرب منها غربًا، والبحر المتوسط الفاصل الطبيعي بينهما كانت في عصر لم تكن حدود القارات فيه قد رُسمت بعد. والسّبّب الثاني[18]: ارتباط ظاهرة الاستشراق بدائرة الصراع بين الشرق والغرب وذلك منذ عهد الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، مرورًا بالحروب الصليبية والصراع العثماني الأوروبي وصولًا إلى عصر الاستعمار الأوروبي حتى الآن.

أما انطلاقة هذه الظاهرة فقد اختلف المؤرخون حولها، منهم من ربطها بصدور "مجمع فيينا الكنسي" عام 1312م، الذي أقر إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية[19]، بينما يرى البعض أن قيصر روما أول ملك اهتم بالإسلام، وربما سبقه هرقل في ذلك[20]، ويرجعه آخرون إلى يوحنا الدمشقي الرجل الشرقي الذي عاش في العصر الأموي وخدم في بلاط يزيد بن عبد الملك، كونه قام بتأليف كتابين الأول بعنوان "حياة محمد"، والثاني بعنوان "حوار بين مسيحي ومسلم"، ومنهم من رأى أن في العصر العباسي كانت البداية خاصة عهد الخليفة هارون الرشيد بسبب الصلة بينه وبين الإمبراطور شارلمان[21].

ويعتبر بعض المؤرخين أن الأندلس موطن الاستشراق الأول إبان مجدها بسبب التحاق الأوروبيين بدور العلم فيها،

واستيلائهم على نفائس الكتب العربية والمخطوطات النادرة بعد سقوطها[22]، بينما يردّها آخرون إلى الحروب الصليبية لقيام الرهبان بدور فعال في تطوّر حركة الاستشراق، ونشر ثقافة العرب ومؤلفاتهم بعد عودتهم إلى بلادهم خدمة للمجتمع الذي ينتمون إليه[23]، بينما يؤكد آخرون أن القوة الدافعة لهذه الحركة هو سقوط القسطنطينية عام 1453م[24]. وبالرغم من ذلك، يُمكننا القول أنّه حتى ذلك الوقت لم يكن الاستشراق نظامًا أكاديميًا صرفًا بل محاولات لمعرفة العلوم الشرقية.

أدرك الغربيّون ضرورة تنظيم العملية الاستشراقية، وبدأت مرحلة جديدة مع نهاية القرن الثامن عشر تظهر

ملامحها، من خلال مؤتمرات كان أولها عام 1873م في باريس[25]، ليس هذا وحسب بل تحولت ظاهرة الاستشراق إلى مؤسسة استراتيجية تعتمد على تقنيات ومناهج جديدة، لتبلغ ذروتها كمًّا وكيفًا في عصر الاستعمار الأوروبي للدول العربية، فقد أسهمت هذه الظاهرة بجزء كبير من قضية الصراع الحضاري بين الشرق والغرب عن قصد أو غير قصد، لذا لا يُمكن إنكار تأثيراتها القوية سلبًا كانت أم إيجابًا، ولا نستطيع تجاهلها، لذا يتطلب الأمر وقفة تأملية بحثية جادة لمعرفة أهدافه وغايته.

المطلب الثاني:

ـ أهداف ودوافع الاستشراق

الاستشراق حركة ذات تاريخ طويل، متشابكة الأطراف، نشأت خدمة لأهداف متعددة حاول فيها الغرب التعرف على الشرق علميًا وفكريًا، واستغلاله اقتصاديًا وسياسيًا. وقد حدد د.علي حسني الخربوطلي في كتابه "المستشرقون والتاريخ الإسلامي" سبعة دوافع رئيسة للاستشراق، هي[26]: "نفسية، دينية، تاريخية، اقتصادية، وأيديولوجية، واستعمارية، وعلمية. بالرغم أني أتفق مع الدكتور الخربوطلي في أن تلك الدوافع التي أشار إليها تُعدّ حقًا بواعث أساسية، ولكن يُمكن اختصارها في هدفين اثنين هما: التسلط، والتواصل، لأن جميع تلك الدوافع تحمل وجهين إما إيجابية الهدف أو سلبية الغاية.

الباحث في تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، تطالعهُ محطات عديدة من التسلط والصراع بين الطرفين، ومحطات من التفاعل والتواصل الحضاري الخلاق والمثمر بينهما.

وكما هو معروف أنَّ الشرق كان مركز إشعاع حضاري بامتياز، وموطن الحكمة وأرضية صالحة لأبحاث الغرب منذ أقدم العصور، قدمت حضاراته القديمة (الفرعونية، الفينيقية، بلاد الرافدين) للعالم الكثير من الابتكارات التي خدمت البشرية. وفي طور انتشار الحضارة العربية الإسلامية في الغرب، نجد أنَّ العرب طوال وجودهم في الغرب لم يطمسوا النشاط الحضاري لغيرهم، بل عَمِلوا على نشر العلوم، وقيم التعايش والتواصل بين أبناء الثّقافات المختلفة، مستندين إلى دينهم وجذورهم الفكرية، أضافوا وابتكروا عناصر جديدة

في بحثهم دفعت عجلة التطور[27]، حتى أنَّ أحد كبار المؤرخين الأوروبيين أثنى على أثر الحضارة العربية في تطور الغرب قائلا[28]: "لو لم يظهر العرب على مسرح الأحداث لَتأخرت نهضة أوروبا قروناً عديدة". وفي هذا الصدد يذكر روجيه جارودي[29]: "لا أحد ينكر ما قدمه المسلمون من حركة علمية وعمرانية في أوروبا".

وما هو مألوف لدى أغلبية الباحثين العرب أن الاستشراق يُمثل القاعدة الروحية للغرب في إمداده بمسوّغات الهجوم على الشرق بشكل عام والإسلام بشكل خاص، وفي هذا الصدد يذكر د. مصطفى السباعي[30]: "لا نحتاج إلى جهد في البحث لنتعرف على الدوافع الأولى للاستشراق عند الغربيين لأنه بدأ على يد الرهبان، الذين دأبوا على بث الوهن في نفوس المسلمين والطعن في الإسلام وتشويه محاسنه، لأنه دين لا يستحق الانتشار حسب رأيهم"، وقد حدد بعض الباحثين أن هدف الكنيسة في العصور الوسطى هو التصدي لخطر الإسلام والتسلط عليه، ولا يتم إلا بالإلمام بهذا الدين، والتشكيك بعلوم الشرق وعقيدتهم وتراثهم[31].

وهذا التسلط لم يقتصر على العصور الوسطى، بل شمل مختلف العصور، وبصور متعددة، تارة على يد الكهنوت المتسلط برفضهم المفاهيم والقيم الروحية المخالفة لإيديولوجيتهم الدينية، وتارة على يد المستشرقين المنحازين إلى معسكرهم السياسي، والدّليل على ذلك الموجة الاستعمارية التي قام بها الغرب تجاه الشرق تحت مسميات جديدة كالانتداب والوصاية والاستيطان، وظهور مفاهيم جديدة كالعولمة والحداثة وغيرها، التي عملت على بث الإرباك في عقول وتفكير الشرقيين والتشكيك بعقائدهم وتاريخهم، ليرتموا في أحضان الغرب وليستجدوا منهم النظم والقوانين، ويعترف أحد المستشرقين المعاصرين قائلا[32]: "لا تزال آثار التعصب والتسلط ظاهرة في مؤلفات العديد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب في الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية". ويؤكد أن التسلط لم يعد ظاهرًا الآن في مؤلفات المستشرقين ولم يختف أو ينتهي بإقصاء الاستعمار الأوروبي، بل مازال يعمل من وراء الستار، لكنّه غيّر مواقعه وأساليبه بعد استلام أمريكا باعتبارها الوريث الجديد للعالم، وتبدل اسمه إلى سياسة العلاقات الثقافية، أو الدراسات الإقليمية.

ولو تتبعنا حركة التاريخ وجرّدنا الأحداث من الدوافع التسلطية وأهداف الغرب في قهر الشرق والسيطرة عليه، نجد أن الروح الصليبية التي كانت المحرك الأساسي للتاريخ الأوروبي توقف أثرها، والصورة النمطية للعرب في أذهان الأوروبيين تغيرت عبر هذه القرون الطويلة، وذلك لسببين، الأول: تمزق وحدة العالم المسيحي، والثاني: لأن الحضارة العربية مثلت جزءًا حيًّا من الحضارات العالمية أثرت فيها وتأثرت بها، وندرك أيضًا أن ظاهرة الاستشراق ترعرعت في أحضان الواقع التاريخي وتأثرت باتجاهاته، فالمهتمون

بشؤون الشرق وضعوا الإمكانيات اللازمة لإجراء البحوث في مختلف الميادين للانتقاص من الحضارة العربية عن طريق الغزو الفكري من جهة، واستغلال ثرواتها الطبيعية وتسخير طاقاتها البشرية من جهة أخرى، وقد تبلورت هذه الغاية في تسلط الغرب سياسيًا وعسكريًا، حيث ظهر فريق من المستشرقين كتبوا بلغة المستعمر، موظفين أساليبهم ومناهجهم في تدعيم المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية الاستعمارية، متخذين منهج الصراع سبيلًا دون اللّجوء لوسائل التحاور أو التواصل بغزو الشرق فكريًا وأيديولوجيًا(33)، بحيث أصبح الغرب قوة هدامة خطيرة زرعت في نفوس أبناء الشرق الشك في معتقداتهم ومثلهم العليا، وحوّلوا منطقة الشرق إلى بؤرة صراع، ومحور للعلاقات المتوترة داخليًا وخارجيًا، وفريق بذل الجهد الكبير في بناء جسور التواصل بين الطرفين، وقفوا في وجه الظلم الذي تعرض له الشرق، وأتاحوا الفرصة للغربيين الاطلاع على الفكر الشرقي من خلال كتاباتهم وبحوثهم العلمية التي لم تكن منصبّة على دراسة الإسلام فقط بل توغلوا في حقول معرفية عديدة كالاقتصاد والتاريخ واللغات خاصة باللغة العربية لفهم الأسس الفكرية والعقائدية الّتي بنيت عليها الحضارة الإسلامية(34)، وقد مثلت تلك الفترة نواة الاستشراق العلمي الموضوعي في تصحيح مسار الأحقاد حول الحضارة العربية(35).

خلاصة القول، لا أحد ينكر أن النشأة الأولى للاستشراق ولدت في أحضان الكنيسة، وأن الحركة الثقافية الغربية كانت مليئة بالقلق المعرفي من أن يحقق الشرق طفرة فكرية بعد انتشار الإسلام فيه، ولكنه مع تطور العلم تضاءلت النزعة الدينية، وتحول عمل الاستشراق إلى علم تعمقت جذوره واتسعت مجالاته واختلفت موضوعاته والأهم تحددت ضوابطه.

المبحث الثاني:
ـ الإستشراق تيارات واختلافات

أثارت ظاهرة الاستشراق ولا زالت جدلًا حاميًا بين المؤيدين والمعارضين، وسوف تستمر هكذا لأحقاب طويلة وبعيدة، طالما بقيت تضم تيارات مختلفة حول مسارها وأهدافها.

ومما لا شك فيه أنّ المستشرقين خلّفوا تراثًا ضخمًا فيه من العلم الرصين وفيه من الخطأ الجسيم، وفيه إنصاف للشرق وتاريخيه وتراثه وفيه التحريف والتزييف، سأتناول في هذا المبحث المستشرقين الذين أنصفوا الشرق وكتبوا بمنهج علمي دقيق، والمستشرقين الذين اجحفوا بحق العرب والمسلمين متأثرين بروح العداء.

المطلب الأول:
ـ المستشرقون المعتدلون

اهتمّ عدّد من المستشرقين بالدراسات الشرقية رغبة منهم في البحث العلمي المجرد دون أن يكون مدفوعًا بدوافع تبشيرية أو استعمارية، وكان لهؤلاء الفضل في الكشف عن التراث والتاريخ والآداب والفنون، وفي جمع وصيانة المخطوطات،

وإنشاء دوائر المعارف ودور العلم والترجمة، للتعريف بحضارة الشرق إنصافاً للحقيقة دون تحيّز. وأثنى بعض المستشرقين على العلماء العرب وأعمالهم العلمية الّتي تتصف بالدقة وسعة الأفق، ويؤكد المستشرق غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" أنه[36]: "لا نرى في التاريخ أمة ذات أثرٍ بارز كالعرب، فجميع الأمم التي اتصل بها العرب اعتنقت حضارتهم، وإذا كانت هناك أمة نُقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم، فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى". وتساءَل لوبون لماذا ينكر علماء الوقت الحاضر تأثير العرب؟ فكان جوابه[37]: "إن استقلالنا الفكري لم يكن بالحقيقة في غير الظواهر، وإننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات".

وتذكر المستشرقة الألمانية زيغرد **Sigrid Hunke** في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"[38]: "في مراكز العلم الأوروبية لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يده إلى الكنوز العربية يغرف ما شاء الله له أن يغرف، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب"، ويُعد المستشرق الألماني هلموت ريتر **Helmut Ritter** الذي أمضى قرابة ثلث قرن بين التدريس والبحث في المكتبات التركية، نموذجًا للمستشرقين المعتدلين لأغراض البحث والدراسة[39]، والمستشرق الألماني ريتشارد سيمون **Richard Simon** الذي تناول في كتابه "التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم العرب" بوضوح واتزان مبديًا إعجابه بالعادات العربيّة والإسلامية، كذلك المشروع الفكري الكبير تحت عنوان "اللاهوت والمجتمع في القرون الثلاثة الأولى للهجرة"، الذي أنجزه عدد كبير من المستشرقين، وكتاب "الموسوعة القرآنية" شارك في تأليفه العشرات، تضمن دراسة مفردات القرآن الكريم لغويًا وتاريخيًا، ولا يستغني باحث في الدراسات العربية الإسلامية عن مؤلفات المستشرق الألماني كارل بروكلمان[40] **Carl Brockelman**.

وهذا المنحى لم يقتصر على مستشرق بعينه أو على جنسية أوروبية محددة، فقد استقطب الشرق عددًا كبيرًا من المستشرقين الرحالة في المغرب العربي وبلاد الشام وبلاد الرافدين والهند وفارس وأقاموا فيها لأغراض البحث العلمي، وليس بوسعنا هنا سرد جميع الشهادات والوقائع التي تتعلق بمكامن التأثير والإفادة في جميع الميادين ولا حتى في الميدان الواحد، بل الهدف إظهار وجهة النظر المعتدلة تجاه الشرق، لذا سأكتفي بذكر البعض على سبيل المثال لا الحصر:

المستشرق الفرنسي جيوم بوستل **Guillaume Postal** الذي يُعد من أوائل المستشرقين الحقيقيين والذي أسهم في إثراء المكتبات الأوروبية بالدراسات الشرقية، وقد سار على نهجه عدد كبير من المستشرقين الفرنسيين أذكر منهم: الفيلسوف بيير بابل **Pierre Bayle** من المعجبين بالتسامح في الدين الإسلامي[41]، وكتابات لويس ماسينيون **Louis Massignon** عن الطرق

الصوفية، وكتاب جيرار دو نيرفال **Gerard de Nerval** "رحلة إلى المشرق"، وكتاب "الإسلام" للمستشرق أندريه ميكيل[42] **Andre Miquel**.

ومن المستشرقين الذين رفضوا الادعاءات الكاذبة عن الشرق وطالبوا بإعادة تقويم الحضارة العربيّة الإسلامية، المستشرق الدانمركي بوهيل **Buhl**، والسويدي سترستين **Zettersteen**، والاسكندنافي دانيال دينيت الّذي أظهر الوجه السياسي العربي الأصيل للدعوة العباسية[43]، والعالم الإنكليزي روجر بيكون **Roger Bacon** الذي دعا إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية[44]، وكتاب مكسيم رودنسون "جاذبية الإسلام"، وكتاب "المسيحية وديانات العالم" للمستشرق هانس كونج، واللائحة تطول. كما أثمرت جهود المستشرقين الإنكليز في ازدهار الدراسات العربية، حيث بدأت أوائل القرن السابع عشر الدراسة المنظمة للغة العربية، وتأسيس مناصب الأستاذية لتدريس اللغة العربية في جامعاتها مثل: أكسفورد ولندن وكمبردج وغيرهم، والعمل على تأسيس مطبعة جامعية لنشر الكتب باللغة العربية[45].

أما الاستشراق الروسي وعلى الرغم من حداثته فقد أولى أهمية خاصة للفكر العربي والإسلامي معًا، وبفضل جهود الرواد الأوائل قدم الاستشراق في روسيا خدمة جليلة للثقافة الإنسانية وتوثيق عرى الصداقة والمعرفة بين الروس والعرب، فقد ارتبط الروس باللغة العربية بروابط دينية وثقافية نتيجة وجود عدد كبير من المسلمين في بلاد القوقاز، لذا تم تأسيس المدارس لتعليم لغات الشرق الأوسط، وكلية الدراسات الشرقية، كما تُرجم القرآن إلى اللغة الرّوسيّة لأول مرة عام 1716م، وأُنشئت أول مطبعة عربية في مدينة سامارا الروسية عام 1772م، والمتحف الأسيوي في بطرسبرغ[46].

ويقارن د. نجيب العقيقي بين جهود المستشرقين وجهود الشرقيين العلمية[47]: "لو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وصونه، وبين ما قمنا به في سبيله، لرأينا النتيجة تكاد تكون متساوية". إلا أنَّ هذه الأمثلة من المحاولات الجادة في التعرف على الشرق عن قرب، لم تستطع أن ترسخ تيارًا عامًا في القضاء على الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأوروبيين.

المطلب الثاني:

ـ المستشرقون المتعصبون

من الثابت تاريخيًا أن اليونان أخذت معارفها العلمية من منطقة العالم العربي، وأن أوائل فلاسفتها انكبوا على دراسة ما تركه مبدعي الحضارات القديمة[48]. كما أن هذه الأرض قد خصها الله تعالى بالديانات السماوية الثلاثة، لذا فإن الدراسات الشرقية في تلك الحقبة الزمنية لم تكن مرتكزة على التبشير والاستعمار، بل لبناء نهضة علمية في مختلف المجالات. ويؤكد إدوار سعيد أن[49]: "المستشرق كل من يعمل في مجال التدريس أو إجراء بحوث في موضوعات

تتعلق بالشرق سواء كان في العقيدة أو في العلوم الأخرى". إلا أن غالبية المؤرخين ربطوا ظاهرة الاستشراق بظهور الإسلام كونها اقتصرت في بداياتها على دراسة الإسلام وحضارته، بحيث لم يكن هدفها الإثراء المعرفي بقدر ما كانت أداة للصراع بين شطري العالم الغربي والشرقي.

بعد فشل الحروب الصليبية دعا الملك الفرنسي لويس التاسع إلى تحويل المعركة العسكرية إلى حرب الكلمة، وكان أبرز من حمل هذا التوجه الراهب بطرس الناسك الذي عهد إلى الراهب الإنكليزي روبرت كيتون **Robert Ketton** ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية عام 1143م، وتفنيد دعواه لمحاربة المسلمين في عقيدتهم، ورسم صورة خالية مشوهة في أذهان الغرب[50]، كما أمر البابا أنوسنت الرابع بإنشاء أول جمعية للمستشرقين تُعنى بالتنصير بين صفوف المسلمين وذلك عام 1253م[51]، وقد صرح قائلا[52]: أشد ما أخشاه هو انتشار الإسلام"، وقد أثار مسألة أصول الإسلام، والمصدر التشريعي الذي يستمد منه المسلمون كل أحكامهم الشرعية، ويذكر المستشرق مونتوجومري وات **watt** قائلا[53]: "على الإسلام أن يعترف بحقيقة مصدره ومدى تأثير الديانات السابقة من يهودية ونصرانية، والثقافات السورية والعراقية والمصرية على بنيانه". أما المستشرق جولدزيهر فقد اتهم القرآن بعدم الثبات قائلا[54]: "لا يوجد كتاب تشريعي فيه هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن". ويعلق د. عماد الدين الخليل على هذه الادعاءات، قائلا[55]: "إنَّ من المتعذر بل من المستحيل تجرّد المستشرقين عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة". وفي هذا الصدد يذكر د.عبد الصبور شاهين أن[56]: "بعض المستشرقين كانوا يغضون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقي(الطابع الإيماني) الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني، ويرفضون مناهج المسلمين في نقد الأخبار ورواتها".

حارب الغربيون اللغات الشرقية عندما أدركوا أهميتها وارتباطها بتاريخ وتراث الشعوب، وكان للغة العربية النصيب الأكبر فقد اتهموها بالعجز عن الوفاء بمتطلبات العلم، واستهزؤوا واستهانوا بها وبقواعدها، مقدمين لغتهم الأجنبية في دراساتهم على العربية[57]، داعمين بعض المستشرقين لاتّخاذ موقفٍ معادٍ إزاء التراث اللغوي العربي، ومن بين هؤلاء المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الذي افترض انقراض اللغة الفصحى قائلا[58]: "اللغة العربية لغة متحجرة لا تستعمل إلا للكتابة، وعلى الأرجح ستنقرض بعد قرنين من الزمن". كما قاد المستشرق الفرنسي "لويس ماسنيون" محور كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية[59]، وردًّا على هؤلاء وأمثالهم قدم المستشرق الألماني فريدهيلم هوفمان مجموعة من المقالات استعرض فيها استهانة المستشرقين باللغة العربية، مدعمًا رأيه بالأمثلة والأسماء، مؤكدًا على أنّ أغلبية المستشرقين الذين استهزؤوا باللغة

العربية لم يستطيعوا إتقانها رغم محاولاتهم العديدة[60]. كما شكك المستشرقون في أصالة الأدب العربي، ونسبوا جذور هذا العلم إلى الفلسفة اليونانية واللغة السريانية، ويصف المستشرق دايفيد صموئيل مرجليوث الأدب العربي بأنه[61]: "أدب شاذ مضطرب"، ليس هذا وحسب بل طعنوا في قدرة العرب على الإبداع، فقالوا عنهم[62]: "إنهم أقل أهل الأرض خيالًا، وليس علينا التحقق من ذلك إلا من خلال اختبار ديانتهم وأدبهم".

ويرى المستشرقون الذين جرعوا نار الحقد، أن تاريخ الشرق بشكل عام والعربي بشكل خاص سلسلة من الأكاذيب، لأنهم استنبطوا الأحكام الكلية من أحداث جزئية وفسروها وفقًا لأهوائهم ومصالح بلادهم في تشويه متعَّمد، وقدموه للعامة في صور البحث العلمي، ليصبحوا المرشدين للبحث والتحقيق والتأليف والمرجع الموثوق به لتدوين التاريخ، وفي هذا الصدد يذكر إدوار سعيد قائلا[63]: "أن الاستشراق لم يكن يومًا عملًا نزيهًا، فقد استعمل بناء على فرضية احتلال الأرض وإدارتها".

نستنتج أنّ الصورة النمطية التي رسمها الاستشراق للشرق وسوقها للمواطن الغربي في العصور الوسطى، انتقلت بطريقة دراماتيكية تراكمية في تشويه الأحداث إلى العصر الحالي، ويعترف بعض المستشرقين قائلين[64]: "رغم الجهد العلمي المبذول، لم نستطع اجتثاث آثار المواقف المجافية للحقيقة التي ولدتها العصور الوسطى". هذه المواقف الجافية سببها النظرة الاستعلائية المتحيزة إلى المجتمع الأوروبي على أنه مجتمع عقلاني إنساني راق، والعداء التقليدي بين الغرب والشّرق، وفي هذا الصدد يعلق د. فاروق عمر قائلا[65]: "أراد الغرب أن ينفض عنه الهزائم العسكرية ويبرهن لشعبه أن الحكم العربي الإسلامي وما أبدعه من حضارة لم يكن أكثر من خطأٍ عابر، ولم يقدم للإنسانية إلّا الشيء اليسير".

خاتمة واستنتاجات:

ما نستطيع استنتاجه من خلال هذا البحث، أن الاستشراق ظاهرة قائمة بذاتها لها خصائصها تضم في رحابها الكتاب الغربيين، قسم منهم تبحر في البحث والتنقيب ودراسة الشرق بطريقة علمية وموضوعية بعيدة عن النزعة التلسلطية، وقسم وظّف قلمه في تدعيم المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية الاستعمارية، وقد تمخض عن البحث جملة من الاستنتاجات وهي الآتي:

1) الاستشراق علم حاول أصحابه دراسة الشرق وكل ما يتعلق به من تاريخ ولغة ومعتقد، ظهر نتيجة عوامل عديدة.

2) إن فهم طبيعة ظاهرة الاستشراق ودوافعها وأهدافها ليست باليسيرة، وذلك لارتباطها بظروف الغرب ومصالحهم السياسية والعلمية والدينية والاجتماعية والاقتصادية.

3) إن ظاهرة الاستشراق لم تنتهِ بإقصاء الاستعمار الغربي الأوروبي بل غيرت

مواقعها وأساليبها بعد استلام الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الوريث الجديد والوحيد للعالم.

4) دخل عمل المستشرقين في صلب الميدان السياسي والاقتصادي وبتشجيع من الدول الأوروبية، للتغلغل في صفوف الشعوب لبث الأفكار التي تخدم دولهم، وتفجير الصراعات الفكرية والسياسية بينهم.

5) ظهور عدد من المستشرقين تخلوا عن النزعة المتسلطة، حاولوا دراسة الشرق بطريقة علمية وموضوعية، ودراسة الإسلام باعتباره حركة إصلاحية هدفها تحرير الإنسان من الموروثات الجاهلية التي لا تتفق مع الإنسانية.

6) انقسام العلماء العرب بين مؤيد ومعارض لحركة الاستشراق، منهم من اعتبرها دخيلة على المجتمعات العربية والإسلامية، ومنهم من إتكأ عليها في دراسة وتحليل المدونات التاريخية والحضارية.

التوصيات:

1) علينا التميز بين الاستشراق الاستعماري والاستشراق الموضوعي الذي وفد إلى الشرق لأهداف علمية.

2) إنشاء اتجاه مقابل للحركة الاستشراقية تعنى بدراسة الفكر العام الغربي.

3) علينا مواكبة مستجدات العالم، وتسارع التغيرات من ابتكار وابداع، التي شملت مجالات الحياة كافة، لأن تقدم الغرب يقابله انكفاءً علميًا ونأيًا شرقيًا.

د. إيمان مرداس

الهوامــش

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 10، ط3، 1993م، ص 173-174. انظر أيضًا: فاروق النبهان: الاستشراق (تعريفه، مدارسه،آثاره)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو،2012م، ص8.

(2) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسط، مكتبة الشرق الدولية، القاهرة، ج1، ط4، 2004م، ص 480.

(3) القرآن الكريم: سورة الزخرف، آية 38.

(4) السيد محمد الشاهد: الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، المركز الإسلامي للدراسات والبحوث، مجلة الاجتهاد، العدد 22، 1994م، ص 195. انظر أيضًا: هالة ماضوي: مفهوم الاستشراق في فكر إدوار سعيد، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الجزائرية، السنة الدراسية 2015/ 2016م، ص 6.

(5) أحمد ح. الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، ص 512.

(6) سعدون محمد الساموك: مناهج المستشرقين، جامعة بغداد، 1985م، ص 8.
(7) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكة، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011م، ص 17ـ18.
(8) هالة ماضوي: مفهوم الاستشراق في فكر إدوار سعيد، مرجع سابق، ص 8.
(9) المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2008م، ص 465. انظر أيضًا: خضر عبد الرحيم أبو العينين: معجم الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية الشائعة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2011م، ص 274.
(10) القرآن الكريم: سورة هود، آية 77.
(11) د. إسماعيل صديق عثمان: التطرف والتعصب الديني، أسبابه والعوامل المؤدية إليه، المجلة الليبية العلمية، العدد الثامن والعشرون، 25 أيلول/ سبتمبر 2017م، ص 8.
(12) السنوسي محمد السنوسي: إضاءات في الوعي: مداخل أساسية وقضايا شائكة، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط1، 2014م، ص 71م. انظر: د. عبد الرزاق الدليمي: الدعاية والشائعات والرأي العام، رؤية معاصرة، دار اليازوردي العلمية، عمّان، الأردن، ط1، 2015م، ص 166.
(13) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج العاشر، د.ت، ص 468.
(14) محمد يعقوب الفيروزي: قاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للنشر، دمشق، ج1، ط8، 2005م، ص 1331.
(15) القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية 152.
(16) د. عباس علي حميد العبيدي: الاعتدال والوسطية من زاوية نظر أصولية مقاصدية، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي في جامعة الإمام الأعظم، بغداد، بتاريخ 23/ 5/ 2011م، ص 5، نقلًا عن بدائع السالك: 1/ 242.
(17) د. محمد بسناسي: الدراسة الاستشراقية بين الأمس واليوم، مجلة دراسات استشراقية، العدد 9، السنة الثالثة، 2016م، ص 57.
(18) د.علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م، ص 13.
(19) عيدة جمعة مسعود عبد العزيز: مجمع فيينا الكنسي 1311 ـ 1312، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، جامعة دمنهور، مصر، العام الدراسي 2011م، ص 16.
(20) د. لخضر بن بو زيد: الدراسات الاستشراقية وخطرها على العقيدة الإسلامية، مجلة دراسات استشراقية، العدد الخامس عشر، 2018م، ص 16.
(21) كمال اليازجي: يوحنا الدمشقي، منشورات النور، بيروت، 1984م، ص 28. انظر أيضًا: د. أحمد علي صكر، د. محمد كريم الجميلي: العصر العباسي الأول قوة دولة وازدهار حضارة، الدار العلمية للكتب، بيروت، 2017م، ص 45.
(22) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، 1997م، ص 67.
(23) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوراق للتوزيع والنشر، عمّان، الأردن، ط4، 2003م، ص 18.
(24) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ج1، ط3، د.ت.ص 19.
(25) إبراهيم عبد الكريم: الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل، عمّان، الأردن، 1992م، ص 24.
(26) د.علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 65.
(27) د. حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(الأندلس ـ

صقلية ـ الشام)، دار النهضة العربية، بيروت، 2012م، ص 7. انظر أيضًا: د. إبراهيم الشريفي: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا الغربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1976م، ص31.

(28) د. مفيد أحمد سالم: الإعلام الإسلامي، الجنادرية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2015م، ص 183.

(29) روجيه غارودي: الإسلام في الغرب، ترجمة محمد مهدي الصدر، دار الهادي، بيروت، ط1، 1991م، ص29.

(30) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مرجع سابق، ص 15ـ16.

(31) د. نذير حمادو: الخلفية التاريخية للعلاقة بين الغرب والمسلمين ودور المستشرقين في تشويه صورة الإسلام، مجلة الأحياء، جامعة باتنة، الجزائر، العدد الثامن،2004م، ص334. انظر أيضًا: د. عبد الله خضر حامد: القرآن الكريم وشبهات المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2018م، ص 28.

(32) د. فاروق عمر فوزي: قراءات ومراجعات فكرية في التاريخ الإسلامي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008م، ص 149.

(33) د. لخضر بو زيد: الدراسات الاستشراقية وخطرها على العقيدة الإسلامية، مرجع سابق، ص17.

(34) د. عبد القادر بخوش: دور الاستشراق في تأزم العلاقة بين الشرق والغرب، مجلة الأحياء، الجزائر، العدد الثامن، 2004م، ص 401.

(35) د. محمد عبد الله الشرقاوي: الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2015م، ص 10.

(36) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص24.

(37) المرجع نفسه: ص 25.

(38) يغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فارق بيضوني وكمال دسوقي، دار الجيل بيروت، ط8، 1993م، ص 305.

(39) ميشا جحا: مستعربان ألمانيان بارزان: هلموت رينز ورودي بارت، دورية الاستشراق، بغداد العدد 3، 1989م، ص 113ـ114.

(40) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق، ص68.

(41) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق،ص 33.

(42) محمد الفلاح الزعبي: الاستشراق والإسلام، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2009م، ص 26.

(43) د. أحمد علي صكر، د. محمد كريم الجميلي: العصر العباسي الأول قوة دولة وازدهار حضارة، الدار العلمية للكتب، بيروت، ص 46. نقلاً عن: دانيال دينيت: مروان بن محمد الأموي، ص 132.

(44) د. يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، ص 28. انظر أيضًا: رشاء عبدالله الخطيب: الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2009م، ص 22.

(45) Toomer, G.J: Eastern Wisdom and Learning, The Study of Arabic in Seventeen-century England, Oxford, Clarendon press, 1996.p95-97.

(46) د. يحيى مراد: افتراءات المتشرقين على الإسلام والرد عليها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، ص 45ـ46.

(47) د. نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ج3، ط3، د.ت، ص 1150.

(48) فؤاد جرجي بربارة(الأب): الأسطورة اليونانية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2014م، ص 9.

(49) إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة د. محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2006م، ص 45ـ46.
(50) ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006م، ص 16 وما يليها.
(51) د. عبد الله خضر حامد: القرآن الكريم وشبهات المستشرقين، مرجع سابق، ص67.
(52) د. يحيى مراد: افتراءات المشتشرقين على الإسلام، مرجع سابق، ص 33.
(53) Montgomery Watt: Islam and the Integration of society, Society, Michigan, 1962, p 283.
(54) أجنتس جولدتهير: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955م، ص 4.
(55) د. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير، ط2، 2017م، ص 11.
(56) د. عبد الله خضر حامد: القرآن الكريم وشبهات المستشرقين، مرجع سابق، ص21، نقلًا عن: د. فضل عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار النشر، عمّان، الأردن، ط2، 1989م، ص 18.
(57) أحمد بناني: الدرس اللغوي العربي رؤية استشراقية، مجلة إشكالات، الجزائر، العدد الثاني، أيار/ مايو 2013م، ص 126ـ127.
(58) رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ج1، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م، المقدمة ص15.
(59) د. علي حجازي إبراهيم: الحملات الإعلامية وفن مخاطبة الجمهور، دار المعتز للنشر والتوزيع، ط1، 2017م، ص 24.
(60) فريدهيلم هوفمان: استهانة المستشرقين الألمان باللغة العربية، مقال بتاريخ 7 شباط/ فبراير 2018م على الرابط التالي: www.hespress.com.
(61) عبد الرحمن بدوي: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1986م، ص 96.
(62) خيري منصور: الاستشراق والوعي السالب، مجلة أوراق، رابطة الكتاب الأردنيين، عمّان، العدد الأول، 1991م، ص 202.
(63) إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، مرجع سابق، ص 41.
(64) شاكر عالم شوق: الاستشراق أخطر تحدٍ للإسلام، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، بنجلادش، المجلد الثالث، 2006م، ص72
(65) د. فاروق عمر: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1998م، ص 138.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم:

القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية 152.
القرآن الكريم: سورة الزخرف، آية 38
القرآن الكريم: سورة هود، آية 77.

ثانيًا: المراجع العربية

1ـ إبراهيم الشريفي: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا الغربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،

1976م.
2ـ إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسط، مكتبة الشرق الدولية، القاهرة، ج1، ط4، 2004م.
3ـ إبراهيم عبد الكريم: الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل، عمّان، الأردن، 1992م.
4ـ أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت.
5ـ أحمد علي صكر، د. محمد كريم الجميلي: العصر العباسي الأول قوة دولة وازدهار حضارة، الدار العلمية للكتب، بيروت، 2017م.
6ـ حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(الأندلس ـ صقلية ـ الشام)، دار النهضة العربية، بيروت، 2012م.
7ـ خضر عبد الرحيم أبو العينين: معجم الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية الشائعة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2011م.
8ـ سعدون محمد السامول: مناهج المستشرقين، جامعة بغداد، 1985م.
9ـ السنوسي محمد السنوسي: إضاءات في الوعي: مداخل أساسية وقضايا شائكة، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط1، 2014م.
10ـ عبد الرحمن بدوي: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1986م.
11ـ عبد الرزاق الدليمي: الدعاية والشائعات والرأي العام، رؤية معاصرة، دار اليازوردي العلمية، عمّان، الأردن، ط1، 2015م.
12ـ عبد الله خضر حامد: القرآن الكريم وشبهات المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2018م.
13ـ علي حجازي إبراهيم: الحملات الإعلامية وفن مخاطبة الجمهور، دار المعتز للنشر والتوزيع، ط1، 2017م.
14ـ علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م.
15ـ عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير، ط2، 2017م.
16ـ فاروق النبهان: الاستشراق (تعريفه، مدارسه،آثاره)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو،2012م.
17ـ فاروق عمر: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1998م.
18ـ فاروق عمر فوزي: قراءات ومراجعات فكرية في التاريخ الإسلامي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008م.
19ـ فضل عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار النشر، عمّان، الأردن، ط2، 1989م.
20ـ فؤاد جرجي بربارة(الأب): الأسطورة اليونانية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2014م.
21ـ كمال اليازجي: يوحنا الدمشقي، منشورات النور، بيروت، 1984م.
22ـ محمد الفلاح الزعبي: الاستشراق والإسلام، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2009م.
23ـ محمد عبد الله الشرقاوي: الااستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2015م.
24ـ محمود حمدي زقزوق: الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، 1997م.

25ـ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوراق للتوزيع والنشر، عمّان، الأردن، ط4، 2003م.
26ـ مفيد أحمد سالم: الإعلام الإسلامي، الجنادرية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2015م.
27ـ نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ج1و3، ط3، د.ت.
28ـ يحيى مراد: افتراءات المتشرقين على الإسلام والرد عليها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
29ـ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.

ثالثاً: المراجع المعربة:
1ـ أجنتس جولدتهير: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955م.
2ـ إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة د. محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2006م.
3ـ روجيه غارودي: الإسلام في الغرب، ترجمة محمد مهدي الصدر، دار الهادي، بيروت، ط1، 1991م.
4ـ رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكة، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011م.
5ـ ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006م.
6ـ رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ج1، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م.
7ـ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
8ـ يغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فارق بيضوني وكمال دسوقي، دار الجيل بيروت، ط8، 1993م.

رابعاً: الدراسات والبحوث
1ـ أحمد بناني: الدرس اللغوي العربي رؤية استشراقية، مجلة إشكالات، الجزائر، العدد الثاني، أيار/ مايو 2013م.
2ـ إسماعيل صديق عثمان:التطرف والتعصب الديني، أسبابه والعوامل المؤدية إليه، المجلة الليبية العلمية، العدد الثامن والعشرون، 25 أيلول/ سبتمبر 2017م.
3ـ خيري منصور: الاستشراق والوعي السالب، مجلة أوراق، رابطة الكتاب الأردنيين، عمّان، العدد الأول، 1991م.
4ـ السيد محمد الشاهد:الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين،المركز الإسلامي للدراسات والبحوث، مجلة الاجتهاد، العدد 22، 1994م.
5ـ شاكر عالم شوق: الاستشراق أخطر تحدٍ للإسلام، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، بنجلادش، المجلد الثالث، كانون الأول/ ديسمبر 2006م.
6ـ عباس علي حميد العبيدي: الاعتدال والوسطية من زاوية نظر أصولية مقاصدية، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي في جامعة الإمام الأعظم، بغداد، بتاريخ 23/ 5/ 2011م.
7ـ عبد القادر بخوش: دور الاستشراق في تأزم العلاقة بين الشرق والغرب، مجلة الأحياء، الجزائر، العدد الثامن، 2004م.
8ـ فريدهيلم هوفمان: استهانة المستشرقين الألمان باللغة العربية، مقال بتاريخ 7 شباط/ فبراير

2018م على الرابط التالي: www.hespress.com.
9ـ لخضر بن بو زيد: الدراسات الاستشراقية وخطرها على العقيدة الإسلامية، مجلة دراسات استشراقية، العدد الخامس عشر، 2018م.
10ـ محمد بسناسي: الدراسة الاستشراقية بين الأمس واليوم، مجلة دراسات استشراقية، العدد 9، السنة الثالثة، 2016م.
11ـ ميشا جحا: مستعربان ألمانيان بارزان: هلموت رينز ورودي بارت، دورية الاستشراق، بغداد العدد 3، 1989م.
12ـ نذير حمادو: الخلفية التاريخية للعلاقة بين الغرب والمسلمين ودور المستشرقين في تشويه صورة الإسلام، مجلة الأحياء، جامعة باتنة، الجزائر، العدد الثامن،2004م.

خامساً: الرسائل الجامعية

1ـ رشاء عبدالله الخطيب: الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، 2009م.
2ـ عيدة جمعة مسعود عبد العزيز: مجمع فيينا الكنسي 1311ـ 1312، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، جامعة دمنهور، مصر، العام الدراسي 2011م.
3ـ هالة ماضوي: مفهوم الاستشراق في فكر إدوار سعيد، مذكرة مقدمة لنيل سهادة الماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الجزائرية، السنة الدراسية 2015/ 2016م.

سادساً: المعاجم اللغوية

1ـ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 10، ط3، 1993م.
2ـ محمد يعقوب الفيروزي: قاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للنشر، دمشق، ج1، ط8، 2005م.
3ـ المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2008م.

سابعاً: المراجع الأجنبية

1- Montgomery Watt: Islam and the Integration of society, Society, Michigan, 1962, p 283.

2-Toomer, G.J: Eastern Wisdom and Learning, The Study of Arabic in Seventeen-century England, Oxford, Clarendon press, 1996.p 95 - 97.

المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا

أ.م.د. خالد هاشم محمد السرحان

الحمد لله والصلاة والسلام على خير نبي أرسله، لقد بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده حتى التحق بالرفيق الأعلى، وعلى آله وصحبه الذين اقتفوا أثره ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن سيرة الرسول محمد ﷺ هي السيرة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة، ولا يمكن أن تكون حياة أحد كائناً من كان مثالاً يحتذى به إلا إذا توافر لها عنصران: أولهما: الدقة والصحة في نقل تفاصيل تلك الحياة، والآخر: أن يكون صاحبها متصفاً بالكمال في جميع جوانب حياته.

وهذان الأمران لم يتوافرا لأحد في التاريخ البشري المدون كما توافرا لنبي الإسلام محمد ﷺ، وحياة رسولنا الأعظم ﷺ من ميلاده إلى وفاته معلومة للذين عاصروه وشاهدوه، وحفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم، ومعلومةٌ تفاصيل حياته، ليلها كنهارها.

فإنّ شخصية الرسول الكريم تعد نبراسا لكل من أحبّ أن يهتدي إلى الطريق السوي، هذا الإنسان الذي وهب حياته للخير أين ما كان وأين ما حلّ، ولما كانت الأمة الإسلامية مطالبة بتتبّع أثر الرسول لأنه ترجمان القران ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

لهذا تحتّم على الأمة معرفة حياته من أولها إلى آخرها، فإنّ خير ما يتدارسه النّاشئة وطلّاب العلم، ويعنى به الباحثون والمؤلّفون دراسة السّيرة النّبويّة، إذ هي خير وسيلة للتّعلّم والتّهذيب والتّأديب، وفيها ما يرجوه المؤمن من دين ودنيا، وعلم وعمل، وآداب وأخلاق، ورحمة وعدل، وجهاد واستشهاد في سبيل الله، ثمّ نشر العقيدة والشّريعة، والقيم الإنسانيّة النّبيلة.

فصنّفت في السّيرة النّبويّة مصنّفات خاصّة بها، صنفها علماء أعلام كثيرون، منهم من أطال، ومنهم من اقتصر، ومنهم من اعتنى بذكر الأسانيد، ومنهم من حذفها.

ومن بين هؤلاء الأئمة الأعلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى (476ـ544هـ/ 1083ـ1149م)، وكتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) الذي حظي من العناية ما قل نظيره، ونظمت فيه القصائد من حين تأليفه وإلى

الان، ففي الوقت الحاضر ترجم لاكثر من لغة[2]، وتلقاه علماء هذه الامة بالقبول فشمروا عن ساعد الجد فمن شارح ومختصر ومحش، ومن هؤلاء العلماء الحافظ، برهان الدين: إبراهيم بن محمد الحلبي، سبط ابن العجمي(المتوفى: 841هـ/ 1437م)، الذي كتب عليه شرحا وسماه "المقتفى في تحرير الفاظ الشفا" فرغ من تعليقه: في شوال، (سنة 797هـ/ 1397م) بحلب، وهو الكتاب الذي نحن بصدد دراسته وتحقيق قسم منه.

ولعل من أَهم الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الميدان البالغ الأهمية، هي: المكانة التي تبوأتها السيرة العطرة من السموِّ والرفعة عند أهل العلم، وكذلك المكانة العلمية العالية لمؤلف الكتاب تحتم على طلبة العلم اخراج هذا الكتاب إلى النور ووضعه بين يدي العامة للاستفادة منه، لاسيما أن هذا الكتاب متنوع الفنون، فقد اعتنى مؤلفه بالتفسير والحديث والتراجم واللغة، مما يجعله حديقة غناء يشبع نهم مطالعه فكيف بمن يتصدى لدراسته وتحقيقه.

وختاما أسال الله العلي العظيم أن يكتب لهذا العمل النجاح والموفقية

المطلب الأول: حياة المؤلف

ـ اسمه ونسبه

هو إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الأصل ـ طرابلس الشام ـ الحلبي المولد وإطلاق لقب سبط ابن العجمي عليه يرجع إلى جده من جهة أمه؛ لكون أمه ابنة عمر بن محمد بن الموفق أحمد بن هاشم بن أبي حامد عبدالله بن العجمي الحلبي، الذي درس عليه السبط واستفاد منه. وتعتبر عائلة العجمي أحد أشهر، وأعرق، وأقدم الأُسر التي كانت تسكن حلب، والتي كانت تشتهر بالعلم وبناء المدارس والتدريس فيها[3].

ـ كنيته وألقابه

جاءت لابن العجمي كنيتان في كتب التراجم[4]:

1. أبو الوفاء ـ وهي الأكثر استعمالاً.
2. أبو إسحاق ـ وقد ذكرت ولكن على قلة.

ويعرف بعدة ألقاب أطلقت عليه منها[5]:

1. سبط ابن العجمي: وهو أشهرها على الإطلاق، بل يكاد يكون علما يعرف به.
2. القوف: وقد لقبه به بعض أعدائه، وكان يغضب منه.
3. المحدث: وكثيرا ما كان يثبته بخطه.
4. الحافظ.
5. برهان الدين.
6. البرهان.
7. البرهان الطرابلسي.
8. البرهان الحلبي.

ـ مولده ونشأته

ولد في الثاني عشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بالجلوم ـ بفتح الجيم وتشديد اللام المضمومة ـ بقرب فرن عميرة ـ بفتح العين، وهما من بلبان حارة من حلب[6]، وقد أرخ سبط ابن العجمي مولده بنفسه كما جاء في سماع المؤرخ نجم

الدين عمر ابن فهد المكي عليه كتابه (التبين لأسماء المدلسين) حيث قال (ومولدي في ثاني عشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بحلب)[7].

ـ وفاته

أجمع المترجمون لسبط ابن العجمي أنه مات شهيدا بالطاعون، في يوم الاثنين السادس عشر من شهر شوال، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بحلب، وله من العمر ثمان وثمانون سنة وثلاثة أشهر، ولم يغب له عقل، بل مات وهو يتلو القران الكريم، وصلي عليه بالجامع الأموي بعد الظهر في مشهد مهيب يدل على علو مكانته ورفعة كعبه، ودفن بمقبرة بني العجمي[8].

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه

ـ شيوخه

جاء عن ابن العجمي أَنه قال: (مشايخي فِي الحَدِيث نَحْو الْمِائَتَيْنِ وَمن رويت عَنهُ شَيْئا من الشّعْر دون الحَدِيث بضع وَثَلَاثُونَ وَفِي الْعُلُوم غير الحَدِيث نَحْو الثَّلَاثِينَ)[9]، وسأذكر أشهر من أخذ عنهم[10]: 1. أبو جعفر الأندلسي (ت779هـ/ 1377م)، 2. أبو عبدالله بن جابر الأندلسي (ت780هـ/ 1378م)، 3. شمس الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الصفدي (ت790هـ/ 1388م)، 4. شهاب الدين ابن أبى الرضى (ت791هـ/ 1389م)، 5. شمس الدين محمد أحمد بن عبد االله بن مهاجر (ت794هـ/ 1392)، 6. عبد الأحد بن محمد بن عبد الأحد الحرانى (ت803هـ/ 1400م)، 7. الجمال يوسف الملطي الحنفي (ت803هـ/ 1401م)، 8. سراج الدين ابن الملقن (ت804هـ/ 1402م)، 9. شيخ الإسلام البلقينى (ت805هـ 1403م)، 10. الزين العراقى (ت806هـ/ 1404)، 11. نور الدين الهيثمي (ت807هـ/ 1405م)، 12. عمر بن إبراهيم بن العجمي، 13. مجد الدين الفيروزابادي، صاحب القاموس (ت817هـ/ 1414م)، 14. العز محمد بن خليل الحاضري (ت824هـ/ 1421م)

ـ تلاميذه

ولمكانة ابن العجمي العلمية وتبحره في عدد كبير من العلوم فقد افاد منه عدد كبير من طلابه سواءً من داخل بلده أو خارجها، من أشهرهم: 1. محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زريق (ت803هـ/ 1401م)، 2. ابن ناصر الدين الدمشقي (ت842هـ/ 1438م)، 3. الحافظ ابن حجر رحمه االله (852 هـ/ 1448م) قد استفاد من شيخه واطلع على العديد من مؤلفاته وتعليقاته وسمع عليه عدداً منها، وعلق عليها تعليقات قيمة. وعمل لشيخة مشيخة حيث قال: "وأحببت أَنْ أخرج له مشيخة أَذكر فيها أحوال الشيوخ المذكورين ومروياتهم ليستفيدها الرحالة فإنه اليوم أحق الناس بالرحلة إليه لعلو سنده حسا ومعنى ومعرفته بالعلوم فنا أثابه الحسنى آمين"[11]، 4. تقي الدين ابن فهد، صاحب (لحظ الألحاظ) (ت871هـ/ 1466م)، 5. زين الدين عمر بن محمد النصيبي الحلبي (ت873هـ/ 1468م)، 6. محمد بن محمد بن محمد ابن أمير حاج الحلبي

(ت879هـ/ 1474م)، 7.ابنه أنس بن إبراهيم بن محمد بن خليل بن برهان الدين (ت881هـ/ 1476م)، 8.ابنه أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل بن برهان الدين سبط ابن العجمي وقد كان بارعا في التاريخ، له كتاب «كنوز الذهب بتاريخ حلب» (ت884هـ/ 1479م)

المطلب الثالث: مؤلفاته وآثاره

كان جل اهتمام ابن العجمي منصبا على الحديث وعلومه، وله نصيب من العلوم الأخرى، فمن مؤلفاته[12]:

1. اختصار الغوامض المبهمات لـ ابن بشكوال. مخطوط.
2. الاغتباط بمن رمى بالاختلاط. مطبوع بتحقيق: علاء الدين علي رضا، دار الحديث ـ القاهرة، 1988 م.
3. املاءات على صحيح البخاري. مخطوط.
4. التبيين لأسماء المدلسين. مطبوع بتحقيق: يحيى شقيق حسن، دار الكتب.
5. تذكرة الطالب المعلَّم فيمن يقال أَنه مخضرم. مطبوع بتحقيق: مشهور حسن
6. التلقيح لفهم قارئ الصحيح وهو شرح مختصر ممتع، بسط فيه الأحاديث، وتعرض لها من نواحي شتى، وأضاف إليها فوائد عدة، مما يدل على غزارة علمه، ورسوخ قدمه في هذا العلم، «غاية السول في رواة الستة الأصول». مطبوع بتحقيق: د. عبد القيوم عبد رب النبي، إحياء التراث الإسلامي، ط1، 1421هـ ـ 2000 م.
7. ثبت بتراجم شيوخه، وهو كثير الفوائد. مخطوط.
8. حاشية على التجريد. مخطوط.
9. حاشية على السنن لـ أبي داود. مخطوط.
10. حاشية على ألفية العراقي. مخطوط.
11. حاشية على الكاشف. مطبوع بتحقيق: محمد عوامة الخطيب، دار القبلة.
12. حاشية على الميزان له وسماه «نثل الهميان في معيار الميزان». مطبوع بتحقيق: د. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان.
13. حاشية على تلخيص المستدرك. مخطوط.
14. حاشية على صحيح مسلم، لكنها ذهبت في الفتنة. مخطوط.
15. سلمان، دار الأثر بالرياض، 1414هـ.
16. العلمية ـ بيروت، 1406هـ ـ 1986 م.
17. الكشف الحثيث عمن رمى بوضع الحديث. مطبوع بتحقيق: صبحي السامرائي، مكتبة النهضة العربية ـ بيروت، 1407هـ ـ 1987 م.
18. المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا. مخطوط.
19. نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس الكتاب مطبوع وحقق في مشروع رسائل جامعية في جامعة أم القرى.

المطلب الرابع

ـ اسم المخطوط وتوثيق نسبته إلى المؤلف

لا خلاف في اسم هذا الكتاب كما اثبتناه، فقد ذكر المؤلف في خطبة هذا الكتاب اسمه فقال: "وقد وسمته بالمقتفى في ضبط الفاظ الشفا" وكذلك اثبته بهذا الاسم كل من ذكر الكتاب. اما عن نسبة الكتاب إلى مؤلفه، فليس من شك انه من تاليف سبط ابن العجمي، كما نسبه كل من ذكر هذا الكتاب[13].

المطلب الخامس: منهج المؤلف في كتابه ومصادره التي اعتمدها

ـ منهج المؤلف

اعتمد المؤلف في كتابه سبيل الاختصار ما استطاع، فجاء موجزا من غير اخلال خاليا من الاطناب، فبدأ الكتاب بخطبة مختصرة ذكر فيها بعد الحمد والصلاة: "احببت ان اذكر في مؤلف ما يتعلق به من شرح غريب أو اعراب، متواليا بابا بابا وفصلا فصلا ليسهل فهمه وقرءانه وليعم ما هو طريفه وتالده، وقد تكلمت على بعض أحاديث فيه والحكمة في ذكره اياها من ما كان وقد يكون في الكتب الستة أو بعضها"، ثم قال: "وكذا تكلمت على تراجم الرجال المذكورين فيه غير تراجم يسيرة من فقهاء المالكية أو غيرهم لم تكن تراجمهم عندي، وقد اخليت لكل ترجمة لم اقف عليها بياضا فمن وقع على شيء مما هنالك فليلحقه مثابا في ذلك" هذا ما ذكره من منهجه في خطبة كتابه. وفي ما يأتي ساذكر ما استطعت استقراءه من منهجه من خلال فراءة الكتاب:

1. اتصف اسلوب المؤلف بالوضوح، وكانت عبارته علمية رصينة خالية عن التجريح، والتعريض، وكان كلامه خالياً من حشو الكلام، والزوائد، وقد اتصف بسهولة اللفظ.

2. قسم كتابه إلى اقسام والقسم إلى ابواب والابواب إلى فصول كما هو اصله ـ الشفا ـ ولم يخرج عنه ولم يخالفه.

3. يذكر اسم الباب والفصل مختصرا فيذكر منه ما يمنع اللبس ثم يقول إلى اخره.

4. يأخذ كلمة أو كلمتين أو حتى جملة من كلام صاحب الشفا وذلك حسب ما يكفي لتحديد العبارة التي يريد شرحها، مصدرا اياها بكلمة (قوله)، ويبدأ بشرحها، وتبيان ما فيها، وهذا المنهج التزمه في جميع كتابه، الا في بعض الآيات فانه يورد كلمات الاية ويضمنها الشرح.

5. استدل في شرحه للغريب بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والآثار المروية عن الصحابة والتابعين، وكذلك الشعر، كما استدل باقوال علماء التفسير واللغة.

6. تعقب مؤلفنا مؤلف الشفا في بعض المواضع، مثاله: (قال الفقير مؤلفه، وفي تركيب كلام القاضي المؤلف هنا نوع نَبْوَةٍ).

7. كثيرا ما نقل من كلام القاضي عياض في كتابه هذا وكتبه الاخرى لشرح وتوضيح مقصده.

8. أحال في بعض المواضع إلى المصادر التي استقى منها كتابه، ولم يكثر، ولعل ذلك يرجع إلى طلب الاختصار، ولم يكن له في ذلك منهج واحد فاحيانا يذكر اسم المؤلف والكتاب، واحيانا يذكر الاسم الكتاب فقط، واحيانا يكتفي بذكر اسم المؤلف، وهو دقيق في عزوه، وفي بعض الاحيان كان ينقل بالمعنى دون الالتزام بلفظ من نقل عنه، وليس هذا بغريب عن المؤلفين، فانهم يلجأون لهذا طلبا للاختصار خصوصا عند نقلهم من المطولات.

9. احالاته إلى كتابه كثيرة جدا، وخصوصا في التراجم، فلم يترك عَلَما سبقت ترجمته الا واشار إلى ذلك بقوله: (تقدم) أو (وقد تقدم)، ولم يستثن احدا الا كبار الصحابة.

10. كان منهجه في التراجم الاختصار، فلم يكن يسهب في الترجمة الا نادرا.
11. بعض الاعلام لم يترجم لهم، وترك فراغا بعد ان اشار إليهم.

المطلب السادس: مصادر هذا الكتاب

لم يذكر المؤلف رحمه الله مصادره التي استقى منها كتابه هذا لا في خطبة الكتاب كما درج عليه بعض المؤلفين، ولا في خاتمته كما درج عليه اخرون، لكنه احال إلى بعضا من موارده في اثناء كلامه، ومن هذه الكتب اضافة إلى القرآن الكريم وكتب متون السنة النبوية المشرفة:

1. العين، الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ/ 786م)[14].
2. الام، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ/ 819م)[15].
3. السيرة النبوية لابن هشام، ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ/ 828م)[16].
4. التاريخ الكبير، البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ/ 870م)، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الدكن[17].
5. الضعفاء والمتروكون، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، (المتوفى: 303هـ/ 915م)[18].
6. الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ/ 939م)[19].
7. غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب العُزيري، محمد بن عُزير السجستاني، أبو بكر العُزيري (المتوفى: 330هـ/ 942م[20].
8. الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: 365هـ/ 976م)[21].
9. تهذيب اللغة، الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ/ 980م)[22].
10. مختصر العين، الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي(المتوفى: 379هـ/ 989م)[23].
11. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: 393هـ/ 1003م)[24].
12. مجمل اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ/ 1005م)[25].
13. الغريبين في القران والحديث، الهروي، أبو عبيد احمد بن محمد الهروي صاحب الازهري (المتوفى: 401هـ/ 1011م)[26].
14. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ/ 1036م)[27].
15. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ/ 1058م)[28].

16. رسائل ابن حزم الأندلسي، ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ/ 1064م)[29].

17. الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ/ 1071م)[30].

18. الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ابن ماكولا، سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر (المتوفى: 475هـ/ 1344مـ[31].

19. احياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ/ 1111م)[32].

20. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: 510هـ/ 1116م)[33].

21. كتاب الافعال، ابن القطاع الصقلي علي بن جعفر بن علي السعدي، أبو القاسم، (المتوفى: 515هـ/ 1121م)[34].

22. درة الغواص في أوهام الخواص، الحريري، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد البصري (المتوفى: 516هـ/ 1122م)[35].

23. شرح السنة، البغوي محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: 516هـ/ 1122م)[36].

24. مصابيح السنة، البغوي محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: 516 هـ/ 1122م)[37].

25. اكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ/ 1149م)[38].

26. مطالع الأنوار على صحاح الآثار، ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق (المتوفى: 569هـ/ 1174م)[39].

27. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (المتوفى: 581هـ/ 1185م)[40].

28. الأماكن، ما اتفق لفظه وافترق مسماه، الحازمي، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الهمداني، زين الدين (المتوفى: 584هـ/ 1188م)[41].

29. النهاية في غريب الحديث والاثر ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى: 606هـ/ 1209م)[42].

30. المغرب في ترتيب المعرب، المُطَرِّزِىّ، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي (المتوفى: 610هـ/ 1213م)[43].

31. اللباب في تهذيب الانساب ابن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ/ 1233م)[44].

32. صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط، ابن

الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: 643هـ/ 1245م)، المحقق: موفق عبدالله عبدالقادر، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط2، 1408هـ[45].

33. المغني في الانباء عن غريب المهذب والاسماء، ابن باطيش، عماد الدين، أبو المجد اسماعيل بن أبي البركات(المتوفى:655هـ/ 1257م).[46]

34. الرسالة الناصرية، الزاهدي، نجم الدين مختاربن محمود(المتوفى:658هـ/ 1260م[47].

35. تفسير العز بن عبد السلام تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، العز ابن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ/ 1262م)[48].

36. شرح مصابيح السنة، لأبي عبد الله: إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عبد الملك بن عمر، المدعو: بالأشرف الفقاعي(المتوفى: 670هـ/ 1271م)[49].

37. تهذيب الاسماء واللغات، النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ/ 1277م)[50].

38. رياض الصالحين، النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ/ 1277م)[51].

39. فتاوى النووي الُمسَّاةِ: "بالمَسَائِل المنْثورَةِ"، ترتيبُ: تلميذه الشيخ عَلَاء الدِّين بن العَطّار، النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ/ 1277م[52].

40. المجموع شرح المهذب النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ/ 1277م)[53].

41. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم النووي)، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ/ 1366م)[54].

42. التحرير والتحبير، لأقوال أئمة التفسير، في معاني كلام السميع البصير للشيخ، العلامة، جمال الدين، أبي عبد الله: محمد بن سليمان، المعروف: بابن النقيب المقدسي، الحنفي. المتوفى: (المتوفى: 698هـ/ 1298م)[55].

43. وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ/ 1282م)[56]).

44. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ/ 1310م)[57].

45. تهذيب الكمال في أسماء الرجال،المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي (المتوفى: 742هـ/ 1341م)[58].

46. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ/ 1344)[59].

47. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، الذهبي، شمس الدين أبو

عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: 748هـ/ 1347م)[60].

48. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: 748هـ/ 1347م[61]).

49. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (المتوفى: 751هـ/ 1350م[62]).

50. حدائق الأزهار، في شرح مشارق الأنوار، لوجيه الدين: عمر بن عبد المحسن الأرزنجاني (المتوفى: 800هـ/ 1397م[63]).

المطلب السابع: وصف النسخ الخطية

اعتمدت في التحقيق على نسختين خطيتين استعنت الحصول عليها، ولم استطع الحصول على ثالثة رغم ما بذلنا من جهود انا ومن تطوع للمساعدة، وهي على النحو الآتي:

- النسخة الأولى: نسخة الجامعة الاسلامية في المملكة العربية السعودية برقم 4405/ 8، بها 232 لوحة، في كل لوحة 25 سطر، بمعدل 15 كلمة في كل سطر، كتبت بخط التعليق بالحبر الاسود، وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة يوم الاثنين 28 شوال سنة 797هـ بالشرقية بحلب على يد المصنف، فيها إضافات كثيرة في الهوامش بخط المصنف.

- النسخة الثانية: نسخة الجامعة الاسلامية في المملكة العربية السعودية برقم 3538/ 63، مصورة عن نسخة مكتبة الاسكوريال، إسبانيا برقم 1448، بها 256 لوحة، في كل لوحة 29 سطرا، بمعدل 14 كلمة في كل سطر، كتبت بخط نسخ جيد بالحبر الاسود، كان الفراغ من كتابة هذه النسخة في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة 843هـ على يد محب الدين محمد بن محمد بن علي الوفائي، على نسخة نقلت من نسخة المصنف ومقروءة عليه، والنسخة التي بين ايدينا مراجعة ومقابلة على النسخة الاصل وفيها تصحيحات على الهامش. ولم اجد عليها اية تملكات.

المطلب الثامن: منهجي في التحقيق

من المعلوم أن الغرض من تحقيق أي مخطوط هو إخراجه وإبرازه على النحو الذي يريده مصنفه، وأن يصل المحقق بالكتاب إلى أفضل صورة ممكنة، حتى يستفاد منه على أحسن وجه وأفضله. وتلخص منهجي في خدمته في الأمور الآتية:

1. بعد أن استقر عزمي على تحقيق هذا المخطوط المبارك بحثت عن نسخ له فاستطعت ان أحصل على نسختين من المكتبات السعودية، وبعد النظر فيهما والمقارنة بينهما، اخترت النسخة الأولى لتكون النسخة الام ـ اسميتها: (الاصل)، والثانية اسميتها: (ب) ـ وذلك لان النسخة الأولى هي بخط المصنف.

2. بعد نسخ المخطوط المعتمد أصلا، قابلته على النّسختين الأخريين، فما كان بين النّسخ أدنى خلاف؛ أثبتّ ما في المخطوط المعتمد أصلا؛ وما في النسخة الثانية اثبته في الهامش.

3. كتبت العناوين والكلمات أو العبارات من الشفا بخط اسود غامق لتمييزها عن الشرح.

4. نسخت النص على وفق قواعد الإملاء الحديثة، من غير الإشارة إلى ذلك.

5. كتبت ما وجدته مثبتا في حواشي المخطوط في مكانه في المتن مسترشدا بالعلامات التي وضعها المصنف، من دون الإشارة إلى ذلك في الهامش.

6. نسخت النص معتمدا على علامات الترقيم الحديثة، من حيث التنقيط والترقيم والرموز والعلامات الدالة على الوقف والابتداء والاستفهام، وغير ذلك.

7. ضبطت النّصّ ضبطا أسأل الله العليّ العظيم أن يكون صحيحا خالياً من التصحيف والتحريف، قريبا إلى الصّواب، كما أراده المؤلّف ـ رحمه الله.

8. ضبطت الآيات القرآنية، وكتبتها بالرسم العثماني، وخرجتها بالإشارة إلى أسماء السور وأرقام الآي فيها معتمداً على العدد الكوفي، أي: المثبت في المصحف المكتوب برواية حفص.

9. ضبطت الأحاديث النبوية الشريفة وخرجتها من مظانها.

10. وثقت الإحالات التي أوردها المؤلف، وذلك بالرجوع إلى كتب مؤلفيها، وفي حالة عدم العثور على المسألة وثقت ممن نقل عنهم او من كتب غيرهم للاستئناس بها ووضعت رقم الهامش في نهاية النص.

11. اعتمدت في الهامش طريقة التوثيق المختصرة بذكر اسم الكتاب، ورقم الجزء والصفحة وأضع بينهما علامة، للفصل بينهما، وأضع اسم المؤلف إن وجد تشابه بين الكتب والأسماء، وذكرت بطاقات الكتب أول ورودها.

12. وثقت تراجم الاعلام الذين ترجم لهم المؤلف رحمه الله، واكتفيت بها ارتضاه من ترجمة لهم، اما الذين لم يترجم لهم ووجدت ترجمتهم في هامش الاصل فقد اثبت هذه الترجمة ووثقت لها من مصادر التراجم، اما من لم يترجم لهم والذين ذكرهم في شرحه فقد ترجمت لهم عند ورودهم أول مرة.

13. قمت بالتعريف بالكلمات الغريبة التي تحتاج إلى تعريف ـ وهي قليلة جدا ـ مستعينا بكتب اللغة والغريب ومعاجم الفقه.

14. شرحت في الهامش معاني بعض الكلمات التي قد يغمض معناها على بعض قراء الكتاب، وعرفت بعض المصطلحات الفقهية والأصولية والحديثية، ورجعت في ذلك إلى معاجم اللغة وكتب الاصطلاحات.

15. عرفت بالأعلام عند ذكرهم أول مرة تعريفا كاملاً.

16. علقتُ في بعض المواضع بما اقتضاه الأمر من تعليق بإيجاز ودون اسهاب، خشية اثقال الهوامش بما ليس من عمل التحقيق.

17. كما وضعت بين الأقواس بعض الأمور الواردة في الكتاب وكما موضح فيما يأتي:

أ) الأقواس المزهرة للآيات القرانية: ﴿.......﴾.

ب) الأقواس المزدوجة للأحاديث والآثار:((.......)).

ت) وضعت الأقوال والنصوص المنقولة بنصها بين قوسين:"........".

ث) في الهامش استعملت القوسين الكبيرين (......) لحصر الكلمات أو الجمل السقط والزيادة بالنسبة للنسختين.
ج) واستعملت القوسين المعقوفين [...] لحصر الزيادة أو التصحيح الضروري.

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اختم بخير وعافية[64]، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبشكره تنمّى البركات، وبجوده تعلو الدرجات، الذي أسبغ علينا نعمه الباطنات والظاهرات، وصرف عنا نقمه الخفيات والجليات، وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له رب الارض والسماوات، وأشهد ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أشرف البريات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي العزم والرغبات، ما دار النور والظلمات، وسلم وشرّف وابرّ[65] وعظّم.

أما بعد

فلما كان كتاب الشفا للعلامة الحافظ القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي برد الله ثراه وجعل في أعالي الجنان مأواه كتابا عظيما جليلا جسيما، وكيف لا وهو فيما يتعلق بالجناب الكريم الرؤوف الرحيم سيد السادات وخلاصة الخلاصات محمد صلى الله عليه وسلم ما دامت الارض والسموات، وقد جمع مؤلفه رحمه الله فيه الكلام على تفسير آيات، وأحاديث صحاح وشاردة، عن مشكاة النبوة واردة، ومسائل دقيقة، وتكلم فيه بطريق المجاز والحقيقة، وكان في قراءته صعوبة ما، ويشكل فيه بعض الاعاريب ربّما، وكنت ممن قرأته وسمعته من طرق عالية، احببت ان اذكر في مؤلف ما يتعلق به من شرح غريب أو اعراب، متواليا بابا بابا وفصلا فصلا ليسهل فهمه وقرءانه وليعم ما هو طريفه وتالده[66]، وقد تكلمت على بعض أحاديث فيه والحكمة في ذكره اياها من ما كان وقد يكون في الكتب الستة اوبعضها، وقد بلغني عن شيخنا حافظ الوقت زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن العراقي انه اراد ان يعزو أحاديثه ويتكلم عليها ثم رجع عن ذلك، وكذا تكلمت على تراجم الرجال المذكورين فيه غير تراجم يسيرة من فقهاء المالكية أو غيرهم لم تكن تراجمهم عندي، وقد اخليت لكل ترجمة لم اقف عليها بياضا فمن وقع على شيء مما هنالك فليلحقه مثابا في ذلك.

ولم ار عليه لأحد كلاما غير اني رأيت بالقاهرة عليه مؤلفا لمن ساذكره قريبا ولم أنظر ما في باطنه فلما وضعت عليه هذا المؤلف وقعت بالمؤلَّف المشار اليه بحلب ولم أنظر فيه الا بعد ان كتبت هذا، فذكرت بعض ما ذكره فيه بعد كلامي فيه غالبا، ولكن المؤلف المشار اليه غير هذا المهْيَع[67] الذي ذكرته هنا؛ لانه غالبا يتعلق بالمعاني أو البيان أو البديع، وفيه حل بعض الفاظ، وفيه ما هو غير صحيح بل تصحيف كما ستراه ان شاء الله تعالى، وقد وسمته بالمقتفى في ضبط الفاظ الشفا" جعله الله لوجهه الكريم، خالصا[68] ومبلغا جنات النعيم، انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قول المؤلف في أول الديباجة: الْحَمْدُ لِلَّهِ انما بدأ بالحمد لله لانه جاء في حديث حَسن رواه أبو داود وابن ماجة ورواه النسائي69 في اليوم والليلة ورواه ايضا أبو عوانة70 في مستخرجه على صحيح مسلم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: ((كل امر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله اقطع))[71]، وفي رواية: ((كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو اجذم))[72] وفي رواية ((ببسم الله الرحمن الرحيم))، والحمد هو الثناء على [المحمود بجميل صفاته وافعاله، والشكر هو الثناء عليه بانعامه][73] على الشاكر ونقيض المدح الذم ونقيض الشكر الكفر والحمد اعم، ومعنى اقطع ناقص قليل البركة، واجذم بمعناه[74] وهو بالذال المعجمة[75]، قال الواحدي[76]: "الالف واللام في الحمد يحتمل كونها للجنس أي جميع المحامد؛ لانه الموصوف بصفات الكمال في نعوته وافعاله الحميدة، ويحتمل: كونها للعهد، أي: الحمد الذي حمدته نفسي، وحمده أولياؤه"، واللام في (لله) للاضافة ولها معنيان الملك والاختصاص.

قوله: المختص بالملك[77] المختص أي المستأثر، الملك بضم الميم وإسكان اللام، وهذا ظاهر.

قوله: الأعز[78] هو خلاف الأذل.

قوله: الأَحْمَى[79] مقصور بالحاء المهملة وهو افعل تفضيل[80].

قوله: لَيْسَ دُونَهُ مُنْتَهًى[81] قال المعلق على الشفا الذي اشرت اليه قريبا وهو الشيخ الامام تاج الدين أبو اليمن عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله بن متى بن عبد المجيد القرشي[82] كذا رايته مكتوبا على تعليق على الشفا قد سماه بالاكتفا في شرح الفاظ الشفا، وهذا التعليق على طريق غير طريقة تعليقي ومنهج غير منهجه كما تقدم وهو شيء يسير وعلى الفاظ قليلة بالنسبة إلى ما وضعته، ولم أنظره الا بعد ان علقت جميع هذا التعليق ثم نظرته اجمع ولهذا جاء كلامه على طول هذا التعليق لا في الاصل ولم انقل عنه منه الا شيئا يسيرا جدا: دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية، وتقول: هذا دون ذلك. اي: أقرب منه، وهو مراد القاضي، يريد ان ليس للقرب منه نهاية يدركها الانسان اذا اراد القرب منه، كما ان الساعي لادراك قرب يحأوله لا بد له من غاية والله منزه عن الابتداءات والنهآيات، ويحتمل ان يكون اراد بدونه: اسفل فيكون السفلي والنهائي[83] مسلوبان انتهى ملخصا[84].

قوله: وَلَا وَرَاءَهُ مَرْمًى[85] قال ابن الاثير في نهايته: "أي ليس بعد الله لطالب مطلب فاليه انتهت العقول ووقفت، فليس وراء معرفته والايمان به غاية نقصد، والمرمى الغرض الذي ينتهي اليه سهم الرامي، قال النابغة[86]: وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلمَرْءِ مَذْهَبُ[87].

وقال في (رمى): "أي مقصد ترمى إليه الآمال وتوجه نحوه، والمرمى: موضع الرمي، تشبيها بالهدف الذي ترمى إليه السهام"[88]، قال ابن قرقول: "ليس وراء الله مرمى أي: مطلب لطالب، والمرمى: الغرض الذي يرمى إليه وإليه ينتهي

سهم الرامي، وبه يجوز السبق، كما إلى الله انتهت العقول ووقفت، ليس لها وراء معرفته والإيمان به ملتمس ولا غاية يرمى إليها"[89] انتهى، والمرمى بفتح الميمين مقصور بينهما راء ساكنة.

قوله الظَّاهِرِ لَا تَخَيُّلا[90] اي: لا ظنا[91].

قوله: ووَهْمًا[92] هو باسكان الهاء في نسخة صحيحة، قال الجوهري: "وهِمت في الحساب اوهم وهما يعني بفتح الهاء إذا غلطت فيه وسهوت، ووهمت في الشيء بالفتح اهم وهْما يعني بسكون الهاء إذا ذهب وهمك اليه وانت تريد غيره انتهى وفي افعال ابن القطاع: "ووهمت إلى الشيء وهما ذهب وهْمي اليه، ووهم وَهَما غلِط، واوهم في كتابه أو كلامه اسقط، ومن صلاته ركعة، ولا وهْم لي من كذا أي: لا بد لي منه، وقال ابن الاعرابي: وهَم ووهِمَ واوهم بمعنى"[93] انتهى، وقال ابن فارس: "وأوهمت[94] في الحساب تركت منه شيئا وأوهمت في الحساب غلطت اوهم وهما ووهمت اهم وهما إذا ذهب قلبي اليه" انتهى[95]، ومعنى ان الله متصف بالظهور وانما لم يثبت ظهوره على جهة الظن منا ولا على جهة الف [...] بل بالبرهان القطعي والله اعلم.

قوله: لا عُدْمًا[96] هو[97] بضم العين وسكون الدال المهملتين هو مصدر من قولك عدمت الشيء بالكسر اعدمه بالفتح عُدْما وعَدَما بالتحريك على غير قياس أي فقدته قاله بنحوه الجوهري، ومعنى الكلام انه غير مرئي في الدنيا لا على عدم ظهوره نقيض العدم لان قدمه ثبت بالدليل القطعي وما ثبت قدمه امتنع عدمه.

قوله: نِعَمًا عُما[98] النعم جمع نعمة وهي معروفة، وعُمّا بضم العين المهملة وتشديد الميم اي تامة وهو جمع عميمة قال الجوهري: "ونخلة عميمة ونخيل عُمّ اذا كانت طوالا، وامراة عميمة تامة القوام والخلق"[99] انتهى، ورايت في التعليق المذكور اعلاه ما لفظه: "وعما جمع عمة وهي التامة"[100]، والظاهر ان هذا غلط من الناسخ انما هو جمع عميمة كما تقدم والله اعلم. [6أ]

قوله: مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْفَسَهِمْ[101] انفسهم بفتح الفاء والسين أي: اعجبهم وعظم في نفوسهم، والشيء النفيس العظيم في النفوس المحروص عليه وقد نَفُس بالضم نفاسة وقال في التعليق المذكور: "وانفَسَهم بفتح الفاء أي: من اعلاهم وخيارهم وهو من النفاسة ولا يجوز ضمها؛ لأن الضمير عائد إلى الأولياء"[102] انتهى.

قوله: عُرْبًا وَعُجْما[103] هو بضم العين فيهما واسكان ثانيهما، كذا في نسخة صحيحة، ويجوز من حيث اللغة عُرْبٌ وعَرَب خلاف العُجْم والعَجَم، مؤنث وهم سكان الامصار[104]، وانتصبا على التمييز.

قوله: وَأَزْكَاهُمْ[105] أي أطهرهم[106].

قوله: مَحْتِدًا[107] المحتد بفتح الميم ثم حاء ساكنة ثم مثناة فوق مكسورة ثم دال مهملتين وهو: "الاصل يقال فلان من مَحْتِدِ صدق ومحفد[108] صدق" قاله الجوهري[109]، وفي القاموس لشيخي مجد

الدين[110] الفيروزابادي وهو كتاب جليل جامع لم يؤلف فيما اعلم في اللغة اجمع منه مع اختصاره: "والمحتد" الاصل والطبع "انتهى[111]، وفي الصحاح: ومحفد الرجل محتده واصله"[112]، وكذا في القاموس انتهى[113].

قوله: وَمَنْمًى[114] المنمى بفتح الميمين بينهما نون ساكنة وهو مصدر بمعنى النمو تقول نمي المال ينمى وفي لغة ينمو وهو ضعيف، واذا كان الفعل معتل اللام مثل نمى فقياس المصدر منه مفعَل مثل نمى منمى ورمى مرمى وسرى مسرى، منصوبان على التمييز اعني ان منمى ومحتدا منصوبين على التمييز وهذا ظاهر.

قوله: واوفرهم أي اتمهم.

قوله: رَأْفَةً[115] قال الجوهري: "الرافة اشد الرحمة"[116].

قوله: ورحما هو بضم الراء قال الجوهري: "والرُّحْم بالضم الرحمة والرحم، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[117]، وقد حركه زهير فقال:

ومن ضريبته التقوى ويعصمه

من سيء العثرات الله والرُّحُم

وهو مثل عَسْر وعُسر" انتهى[118]، وعطف الرحم على الرافة وان كانت في معناها لتغاير اللفظ[119]، قال المعلق: "واشترط من اجاز العطف ان لا بد من زيادة معنى في المعطوف"[120] انتهى ملخصا، وقال بعد هذا بقليل في قول القاضي زكاه روحا وجسما: "فيه دلالة [على جواز العطف وان تغاير اللفظان والمعنى واحد من غير زيادة"[121] انتهى، وهذا لا زائد ولا مساوي ولعله فعل ذلك للسجع.

قوله: زَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْما[122] أي: طهره[123]، وتزكية روحه كونها اشرف الأرواح، وتزكية جسده شق صدره واستخراج ما اخرج منه وغسله.

قوله: عَيْبًا[124] وَوَصْما[125] الوصم بفتح الواو واسكان الصاد المهملة قال الجوهري: "العيب والعار" انتهى، وحكمه في العطف حكم ما تقدم، ونصب عيبا ووصما على نزع الخافض أي: من عيبٍ ووصمٍ.

قوله: وَآتَاهُ حِكْمَةً[126] آتاه بمد الهمزة أي أعطاه وكل ما كان بمعنى اعطى فهو بمد الهمزة، وكل ما كان بمعنة جاء فهو بقصرها، والحكمة العلم[127].

قوله: وَحُكْما[128] هو بضم الحاء واسكان الكاف، قال الجوهري: "الحكم مصدر من قولك: حكم بينهم يحكم أي: قضى، ويحكم عليه، والحكم ايضا الحكمة من العلم" انتهى[129]، والمراد الأول، قال المعلق: وفي قوله: حكمة وحكما تجنيس التحريف[130]"[131].

قوله: وفتح به اعينا اعين جمع عين جمع قلة، وكان الأولى ان يأتي به جمع كثرة، لكنه تبع الحديث الصحيح والمراد به هنا وبالحديث الكثرة؛ لان القلة توضع موضع الكثرة كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[132] واتى[133] العكس كقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[134] أي اقراء والله اعلم.

قوله: وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ[135] التعزير الاعانة والتوقير[136]، والنصر مرة بعد اخرى، واصله المنع والرد، فكان من

نصرته قد رددت عنه اعداءه ومنعتَهم من اذاه، ولهذا قيل للتاديب الذي هو دون الحد تعزير؛ لانه يمنع الجاني ان يعاود الذنب، يقال عَزَرْتُه وعزَّرْتُه وهو من الاضداد[137]، قال المعلق بعد ان تكلم على التعزير: "وحمله ههنا على التعظيم أولى" يعني: أولى من حمله على النصر، قال: "لوجود النصرة ليختلف اللفظان"[138] وما قاله صحيح.

قوله: فِي مَغْنَمِ[139] المغنم والغنيمة بمعنى[140].

قوله: قِسْما[141] هو بكسر القاف واسكان السين الحظ والنصيب وهو معروف[142].

قوله: وَصَدَفَ عَنْ آياتهِ[143] أي: اعرض[144].

قوله: حَتْما[145] الحتم اللازم الواجب الذي لا بد من فعله[146].

قوله تَنْمُو ا وَتُنْمَى[147] لو قال تنمى عوض تنمو[148] لكان احسن من حيث انه جناس؛ لانه اللغة الكثيرة وتنمو قليلة، قال الجوهري: "نما المال وغيره، ينمى، وربما قالوا ينمو نموا وانماه الله انما قال الكسائي: ولم اسمعه بالواو الا من اخوين من بني سُلَيم ثم سالت عنه بني سليم فلم يعرفوه بالواو وحكى أبو عبيدة[149] نمى ينمى وينمو" انتهى[150]، وينمى نسخه ايضا في هامش النسخة التي وقفت عليها الان بالشفا وهي نسخة صحيحة وفيها بعض الشيء ولكن بعض يسير وقد قوبلت وقرئت ايضا على غيره وهي اصح نسخة بحلب فيما اعلم والله اعلم، وعلى ينمو ايضا علامة نسخة من غير تصحيح على احدى النسختين، وتنمى بضم التاء ثم نون ساكنة مفتوح الميم.

قوله: أَمَّا بَعْدُ[151] هو بضم الدال وفتحها اجازه هشام، وقال النحاس انه غير معروف[152] ورفعها منونة وكذا نصبها، وفي المبتدي بها خمسة اقوال: داود عليه السلام ـ وقد قيل انه فصل الخطاب المذكور في القران[153] ـ وقيل انه غيره أو قس بن ساعدة أو كعب بن لؤي أو يعرب بن قحطان أو سحبان وعن غرائب مالك للدارقطني بسند ضعيف لما جاء ملك الموت إلى يعقوب عليه السلام قال يعقوب في جملة كلام اما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، ومعنى اما بعد: مهما يكن من شيء، قاله سيبويه، وقال أبو اسحاق: إذا كان رجل في حديث واراد ان يأتي بغيره قال: اما بعدُ.

قوله: أَشْرَقَ الله[154] هو بالقاف أي: أضاء الله[155].

قوله: وَلَطَفَ لي وَلَكَ[156] كذا في النسخة التي وقفت عليها وعلى (لي) صح، يقال: لطف الله بعباده بفتح حروفه لطفا رفق بهم، وقال الجوهري: "واللطف من الله عز وجل التوفيق والعصمة"[157] انتهى، وفي المجمل اللطف من الله لعباده الرافة والرفق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾[158] وهذا يؤيد استعمال المؤلف، وكذا الذي قاله في المجمل، فقد قال المؤلف بعده: بما لطف به لعباده المتقين فجمع بين اللغتين والله اعلم.

قوله: بِنُزُلِ قُدْسِهِ[159] النزل بضم النون وبالزاي الساكنة وبضم: الطعام الذي ينزل عليه الشخص لأول الدخول، وهو الطعام الذي يهيأ للضيف، وفي نسخة صحيحة بالصحاح النزل ساكن الزاي بالقلم: "ما يهيأ للنزيل والجمع الانزال"[160].

قوله: قُلُوبُهُمْ حَبْرَةً[161] قلوبهم مفعول، وحبرة بفتح الحاء المهملة ثم موحدة ساكنة ثم راء مفتوحة ثم تاء التانيث منصوب على التمييز قال الجوهري: "والحَبْر ايضا الحُبُور، وهو: السُرور، يقال حَبَرَه يُحبِرُه حَبْرًا وحَبْرةً، قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[162]، أي ينعمون ويكرمون ويُسَرُّون"[163]، وفي غيره: الحبرة بالفتح النعمة وسعة العيش وكذلك الحبوروكله قريب.

قوله: لَهِجِينَ[164] هو بفتح اللام وكسر الهاء جمع لَهِج واللَهَج بالشيء الولوعُ بِهِ وقد لهِج به بالكسر وزان فرح يلهَج لهجا اغري به فثابر عليه[165].

قوله: بِقَدْرِ الْمُصْطَفَى[166] لو قال ببعض قدره كان احسن.

قوله: مَنْصِبِهِ[167] المَنصِبُ بفتح الميم وكسر الصاد المهملة القدر والشرف[168].

قوله: الجَلِيل[169] هو بالجيم وهذا ظاهر.

قوله: قُلَامَةَ ظُفْرٍ[170] القلامة ما سقط من الظفر والعرب تكني به عن الشيء الحقير[171]، والظفر ظفر الاصبع والجمع الاظفار، وجماعة الاظفار: اظافير، ويقال للظفر اظفور وجمعه اظافير، يقال: ظُفْر وظُفُر، قال صاحب المحكم: "واما قراءة ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾[172] بالكسر فشاذ غير مَأنُوسٍ به، إذ لا يعرف ظِفر بالكسر"[173]، وقال الثعلبي المفسر: "قرأ الحسن ظفر مكسورة الظاء ساكنة الفاء، وقرأ أبو السمال بكسر الظاء والفاء وهي لغة"[174].

وابو السمال بفتح السين المهملة وتشديد الميم وفي اخره لام واسمه قعنب بن هلال العدوي المقرئ روى عنه أبو زيد النحوي حروفا شاذة، قال الذهبي في الميزان: "لا يعتمد على نقله ولا يوثق به"[175] انتهى، وقال أبو البقاء في اعرابه كل ذي ظفر: "الجمهور على ضم الظاء والفاء، ويقرا باسكان الفاء، ويقرا بكسر الظاء والاسكان"[176]، وقال الجوهري: "الظفر جمعه اظفار واظفور واظافير".

قوله: أَمْرًا إِمْرًا[177] إمرا بكسر الهمزة وسكون الميم أي: عظيما، واما في الاية: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[178] أي ضعيف الحجة، رجل امر بكسر الهمزة وتشديد الميم المفتوحة ضعيف الراي أن يحتاج إلى يؤمر أو منكرا أو عجبا وقيل غير ذلك.

قوله: وَأَرْهَقْتَنِي[179] هو بتاء الخطاب المفتوحة كلفتني ما لا اقدر عليه من التحفظ عن السهو وهذا احد ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[180] قال الجوهري: ارهقه عسرا أي كلفه إياه.

قوله: فِيمَا نَدَبْتَنِي[181] أي: حثثتني[182].

قوله: وارقيتني يقال ارقاه إذا اصعده.

قوله وَالْكَشْفَ عَنْ غَوَامِضَ[183]

الكشف منصوب معطوف على: الكلام، كذا قاله شيخنا برهان الدين، وعندي انه معطوف على قوله تقرير والله اعلم.

قوله عَنْ غَوَامِضَ وَدَقَائَق[184] هما مجروران وعلامة الجر فيهما الفتحة والغوامض: جمع غامضة، وهي التي لا تدرك الا بعد روية[185]، والدقائق: جمع دقيقة، وهي في معنى الغامضة[186] وعطفها على الغوامض لتغاير اللفظ[187] وقد تقدم مثله[188].

قوله: مما يجب للنبي ﷺ يجب من الوجوب.

قوله: وَمَعْرِفَةَ النَّبِيِّ[189] معرفة مجرور معطوف على دقائق.

قوله: مَهَامِهُ فِيحٌ[190] المهامه: جمع مَهْمَه وهي المفازة والبرية القفر.

قوله: فيح هو بكسر الفاء واسكان الياء والحاء المهملة أي واسعة[191].

قوله: تَحَارُ فِيهَا الْقَطَا[192] تحار: بفتح المثناة فوق، يقال: حار يحار حَيْرة وحيرا أي: تحيَّر في امره فهو حَيْران، وقوم حيارى[193]، والقطا بفتح القاف مقصور، قال الجوهري: "القطا: جمع قطاة وقطوات، قال الكسائي وربما قالوا قطَيَات ولهَيَات في جمع لهات الانسان؛ لأن فعلتُ منهما ليس بكثير فيجعلون الالف التي اصلها واو ياءً لقلتها في الفعل انتهى وهو من الحمام[194]، قاله ابن قتيبة وانشد قول النابغة الذبياني[195]:

احكمْ بحكمِ[196] فتاةِ الحي اذ نظرتْ
إلى حمامٍ شـــراعٍ[197] واردِ الثمـــدِ

قال البطليوسي: "وليس في بيت الذبياني دليل على انه اراد بالحمام القطا، وانما علم ذلك بالخبر المروي عن زرقاء اليمامة انها نظرت إلى قطا فقالت:

يا ليت ذا القطا لنا ومثل نصفه معه
إلى قطاة اهلنا إذا لنا قطا مائة"[198].

وقد روي انشاد هذا البيت على خلاف ما ذكرته[199]، وسراع في البيت كان الاصمعي يرويه بالمعجمة والمهملة.

سؤال شارد يُسأل عنه الناس كثيرا وهو ان يقال: كم كان عدد هذا الحمام الذي راته زرقاء؟ وجوابه ستة وستون، فتمنت ان يكون لها هذا الحمام ومثل نصفه وهو ثلاثة وثلاثون ومجموع ذلك تسعة وتسعون إذا ضم إلى حمامها كان مائة[200].

تقول العرب: هو اهدى من قطاة[201]، قال ابن ظفر: لان القطاة تترك فراخها بالفراء[202] وهي الأرض الجماد وتترك بيضها في أُفحوصِها وهو الموضع الذي تفحصه بصدرها وتبيض فيه[203]، ثم تطلب الماء من مسيرة عشرة أيام واكثر فترده فيما بلغ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم ترجع فلا تخطئ صادرة ولا واردة[204].

قوله: وَتَقْصُرُ[205] هو بضم الصاد وفتح أوله.

قوله: وَمَجَاهِلُ[206] المجاهل مرفوع غير منون؛ لانه لا ينصرف جمع مجهل وهو المفازة لا اعلام فيها[207].

قوله: تَضِلُّ فِيهَا الْأَحْلَامُ[208] تضل

بكسر الضاد يقال ضل الشيء يضل ضلالا أي ضاع وهلك والاسم الضُّلّ، وهذا ظاهر[209].

قوله: بِعَلَمِ عِلْمٍ[210] بعلم بفتح العين واللام العلامة، والعلَم ايضا الجبل، والعلَم أيضا غير ذلك[211]، والظاهر ان مراده الثاني والله اعلم.

قوله: وَمَدَاحِضُ[212] هو مرفوع غير منون؛ لانه غير منصرف وهو من الدّحَضِ، والدحض وهو الزلق[213].

قوله: لما رجوته لما بكسر اللام أي الذي.

قوله: الجسيم أي العظيم يقال جَسُمَ الرجل أي: عَظُم فهو جَسيم وجُسام بالضم والجِسام بالكسر جمع جسيم.

قوله وَلِمَا أَخَذَ الله تَعَالى[214] لما أي للذي وكذا الثانية الاتية بعيدها وهذا ظاهر جدا.

قوله لِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو الْوَلِيدِ[215] هِشَامُ بنُ أَحْمَدَ الْفَقِيهُ.[216]

قوله: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بنُ مُحَمَّدٍ[217] هذا هو الحافظ أبو علي الغساني وساذكر قريبا ان شاء الله تعالى بعض ترجمته[218]، ولد في المحرم سنة سبع وعشرين واربعمائة روى عن حكم بن محمد الجذامي وابن عبد البر وغيرهما وعنه محمد بن محمد بن الحكم الباهلي وأبو علي بن سكرة وعبد الرحمن [بن أحمد][219] بن ابي ليلى وخلق توفي ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثمان وتسعين واربعمائة[220].

قوله: حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ النَّمَرِيُّ[221] عمر بضم العين والنمري بفتح النون والميم نسبة إلى نَمِر بكسر الميم وهو أبو قبيلة وهو نمر بن قاسط بن هنب بن اقصى بن دُعمي بن جديلة بن اسد بن ربيعة والنسبة اليهم نِمَري بفتح الميم استيحاشا لتوالي الكسرات لان فيه حرفا واحدا غير مكسور[222]، وهذا الرجل هو حافظ الغرب وشيخ الاسلام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ولد في شهر ربيع الاخر سنة ثمان وستين وثلاثمائة، ترجمته معروفة فلا نطول بها، وتصانيفه كثيرة، توفي بشاطبة ليلة الجمعة سلخ شهر ربيع الاخر سنة ثلاث وستين واربعمائة، واستكمل خمسا وتسعين سنة وخمسة ايام رحمه الله تعالى[223].

قوله: حَدَّثَنَا أبو مُحَمَّد بنُ عَبد الْمُؤْمِن[224] هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبي من قدماء شيوخ أبي عمر ابن عبد البر قال الذهبي في الميزان[225]: "كان تاجرا صدوقا لقى ابن داسة والكبار" قال ابن الفرضي: لم يكن ضبطه جيدا، وربما اخل بالهجاء انتهى[226].

قوله حدثنا محمد بن بَكْرٍ[227] هو أبو بكر بن داسة بفتح الدال والسين المفتوحة المهملتين وهو احد رواة سنن ابي داود عنه، مشهور الترجمة[228].

قوله حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بن الأَشْعَثِ[229] هذا هو الامام الحافظ سيد الحفاظ صاحب السنن أبو داود سليمان بن الاشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو

الازدي السجستاني صاحب السنن قال أبو عبيد الاجري: سمعته يقول ولدت سنة ثنتين ومائتين وصليت على عفان ببغداد سنة عشرين، سمع أبا عمر الضرير ومسلم بن إبراهيم والقعنبي وخلقا كثيرا بالحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة والثغر وخراسان، وعنه الترمذي والنسائي في الكنى وابنه أبو بكر وأبو عوانة وعلي بن الحسن بن العبد وابو اسامة محمد بن عبد الملك وله فوت وابو سعيد بن الاعرابي وابو علي اللؤلؤي وابو بكر بن داسة وابو سالم محمد بن سعيد الجلودي وابو عمر واحمد بن علي فهؤلاء السبعة رووا عنه سننه وكتب عنه شيخه احمد بن حنبل حديث العشيرة واراه كتابه فاستحسنه ترجمته مشهورة وكذا مناقبه، مات في سادس عشر شوال سنة خمس وسبعين ومائتين بالبصرة رحمه الله تعالى[230].

قوله: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ[231] هو أبو سلمة التبوذكي نسبة إلى تبوذك دار اشتراها وقيل نزل داره قوم منها وقيل انه نسب إلى بيع السماد وهو السرجين وقيل انه نسب إلى بيع ما في بطون الدجاج من الكبد والقلب والقانصة، حافظ روى عن شعبة وهمام وخلق وعنه خ د وابن الضريس وسبطه أبو بكر بن أبي عاصم قال عباس الدوري: "كتبنا عنه خمسة وثلاثين الف حديث"[232]، توفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ثقة ثبت اخرج له الجماعة اصحاب الكتب الستة له ترجمة في الميزان، اخرها قال الذهبي يعني موسى هذا للين فيه لكن لقول ابن خراش: صدوق وتكلم الناس فيه، قال الذهبي: "قلت: نعم، تكلموا فيه بانه ثقة ثبت يا رافضي"[233] ثم ارخ وفاته[234].

قوله: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ[235] هذا هو[236] ابن سلمة بن دينار الامام أبو سلمة احد الاعلام، يقال ولاؤه لقريش، [روى] عن أبي عمران الجوني وغيره، وعنه شعبة ومالك وغيرهما، "صدوق يغلط وليس هو في قوة مالك"[237]، وتوفي سنة سبع وستين ومائة اخرج له مسلم والاربعة، وله ترجمة في الميزان[238].

قوله: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَكَمِ[239] هو علي بن الحكم البناني[240]، [روى] عن انس وابي عثمان النهدي وطائفة وعنه الحمادان[241] وعبد الوارث وعدة، توفي سنة احدى وثلاثين ومائة، اخرج له ا ح 4 قال احمد ليس به باس وقال غيره صالح الحديث، قال الازدي فيه لين، قال ذاك الذهبي في ميزانه وعقبه بعد ان ارخ وفاته بانه ثقة.

قوله: عَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه[242] عطاء هذا هو ابو محمد عطاء بن أبي رباح[243]، وانما ميزت هذا لان جماعة يقال لكل منهم عطاء يروي عن أبي هريرة[244]، أبو محمد القدسي مولاه المكي احد الاعلام، عن عائشة وابي هريرة وخلق، وعنه الاوزاعي وابن جريج وأبو حنيفة والليث وامم توفي سنة اربع عشرة ومائة وقيل غير ذلك، وله ثمانون سنة اخرج له الائمة الستة له ترجمة في الميزان.

قوله: الجمه الله بلجام من نار الحديث[245]، الممسك عن الكلام في العلم مثل من الجم نفسه بلجام، والمراد بالعلم

ما يلزمه تعليمه ويتعين عليه، كمن يرى رجلا حديث عهد بالإسلام ولا يحسن الصلاة وقد حضر وقتها فيقول علموني كيف اصلي، وكمن جاء مستفتيا في حلال أو حرام فانه يلزم في هذا وامثاله تصريف الجواب في ومن منعه استحق الوعيد(246)، والحديث المذكور: ((من سئل عن علم..) الحديثن اخرجه د ت ق الأولان في العلم والثالث في السنة قال ت حسن، وقد اخرجه ايضا ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة والله اعلم.

قوله: إلى نُكَتٍ(247) النكت هو بالمثناة فوق جمع نكتة بالضم يطلق على ما خفي ادركه وهو المراد هنا، والنكتة: النقطة، والجمع نكات كبرام(248).

قوله: مُسْفِرَة(249) أي كاشفة وفي بعض النسخ سافِرَة(250) وهو بمعناه(251).

قوله: اخْتَلَسوهَا(252) كذا في هذه النسخة التي وصفت لك اني وقفت عليها الان بفتح اللام وضم السين وفتح الواو بالقلم وعليها صح وما ادري ما هذا ولعل صواب هذه اختلسها والاختلاس اختطاف الشيء بسرعة يقال خلست الشيء واختلسته وتخلسته اذا استلبته(253)، وفي الهامش اختلستها وعليها علامة نسخة والمعلق شرح هذه النسخة.

قوله: مِنْ شُغْلِ الْبَدَنِ(254) قال ابن القطاع: "شغلني الشيء شُغلا وشُغُلا وشَغْلا وشَغَلا واشغلني لغة ردية"(255)، انتهى، وكذا ذكر الجوهري هذه الاربع لغات وقال ان اشغلني لغة ردية.

قوله: وَالْبَالِ(256) البال القلب، والبال: الحال والشأن(257)، والمراد الأول لذكر البدن.

قوله: مِنْ مَقَالِيدِ الْمِحْنَةِ(258) هي بالنون، يريد بذلك مباشرته للاحكام، واي محنة اشد من مباشرة القضاء وقد اخبر عليه السلام انه من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين))(259) رواه الاربعة اصحاب السنن من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، قال ت حسن غريب وقال الحاكم صحيح الاسناد وفي رواية النسائي ((من استعمل على القضاء فكانما ذبح بغير سكين))، قال: عثمان الاخنسي ليس بذاك القوي.

قوله: إلى أسْفَلِ سَفْلٍ(260) سفل ضد العلو قال الجوهري: "السُفل والسِفل والسفول والسفال والسفالة بالضم نقيض العِلو والعُلو والعُلوة والعِلا والعِلاوة"(261).

قوله: لَجَعَلَ شُغْلَهُ(262) تقدم قريبا ان الشغل فيه اربع لغات.

قوله: فِيمَا يَحْمَدُ غَدًا أوْ(263) يَذِمُّ مَحَلَّهُ(264) يحمد بفتح أوله وثالثه أي يحمد هو عليه وعلى الانسان، ويذم بفتح أوله وضم الذال أي ذم هو عائد عليه ومحل منصوب مفعول(265).

قوله: فَلَيْسَ ثَمَّ سِوَى ثم بفتح التاء أي: هناك.

قوله: أوْ عذاب الجحيم(266) عذاب مجرور معطوف على حضرة.

قوله: بِخُوَيْصَتِهِ(267) الخويصة هو تصغير خاصة بتشديد الصاد فيهما(268)،

وخويصته يعني نفسه وايضا للامر الذي يختص بالانسان والمعنيان محتملان هنا.

قوله: وَيُحْظِينَا هو بضم أوله ثم بالحاء المهملة ساكنة ثم ظاء معجمة مكسورة أي: يفضلنا يقال حظي الرجل عند اهله يحظى حَظوة وحُظوة بالضم والكسر أي سعد بهم ودنا من قلوبهم واحبوه، "واحظيته على فلان إذا فضلته عليه" قاله الجوهري[269].

قوله: وَدَرَّجْتُ تَبْوِيبَهُ[270] درّج بتشديد الراء[271].

قوله: وَانْتَحَيْتُ حَصْرَهُ[272] هو بالحاء المهملة إذا ... وقصدت، يقال: نحى وانحى وانتحى[273].

قوله: تَرْجَمْتُهُ بِالشِّفَا[274] قصر ...[275] الشفا لمراعاة قرينة المصطفى، وهذا جائز للناثر كما هو للناظم، ويقال ... وهذا الكتاب يقصر عن حقوقه صلى الله عليه وسلم.

قوله: وَعِنْدَ التَقَصِّي لِمَوعِدَتِه وَالتَّفَصِّي عَنْ عُهْدَتِهِ[276] التقصي الأول: بالقاف يقال استقصى فلان في المسالة وتقصى بمعنى والتفصي الثانية بالفاء يقال تفصى الانسان إذا تخلص من الضيق والبلية والاسم الفصية بالتسكين[277].

قوله: يَشْرَقُ صَدْرُ العَدُوِّ اللَّعِين[278] يشرق بفتح أوله وثالثه وسكون ثانيه يقال شرق بذلك بكسر الراء أي: ضاق به صدره حسدا[279]، كمن غص لكن الشرق بالمشروب والغصص بالمطعوم يشرق بفتحها.

تنبيه: الجرض بالتحريك الذي ... ويغص به يقال جرض بفتح الجيم وكسر الراء وبالضاد المعجمة يجرض بفتح الراء مثل كبر يكبر وهو ان يبلع ريقه على هم وحزن.

قوله: وَيُشْرِقُ قَلْبُ المُؤْمِنِ[280] يشرق بضم أوله وكسر ثالثه وهذا ظاهر أي يضيء[281].

قوله: أنْوارُه جوانح صَدْرِهِ[282] انواره مرفوع فاعل، وجوانح منصوب مفعول، والجَوَانِحَ:الاضلاع التي تحت الترائب وهي مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر، الواحدة جانحة[283].

قوله: وَيَقْدُرُ النَّبِيَّ[284] يقدر بضم الدال.

قوله: وَمَا يَجُوزُ طُرُوُّهُ عَلَيْهِ[285] قال ابن القطاع: "طرأ على القوم طروءا، قدم، وطرا طروا وطروا بلا همز كذلك"[286]، وفي الاصل الذي وقفت عليه طروّه بتشديد الواو بالقلم فلهذا ذكرت كلام ابن القطاع.

قوله: مِنَ الْأَعْرَاضِ[287] الاعراض جمع عرض بفتح العين والراء ما يعرض للإنسان من مرض ونحوه[288].

قوله: شَانِئِهِ[289] أي: مبغضه[290].

قوله: وَالصَّلاةِ عَلَيْهِ ووِرَاثَتِهِ، وَفِيهِ عَشَرَةُ فُصُولٍ[291] كذا في النسخة التي وقفت عليها، وفي نسخة اخرى بخط مغلطاي وصوابه خمسة اعني عوض عشرة وعد ذلك تجده كما ذكرت لك[292].

قوله: يَنْتَجِزُ الْكِتَابُ[293] أي: ينقضي وهو مطاوع، نجز: يقول: نجز به

فانتجز قال ابن القطاع: «ونجزت الحاجة وانجزتها قضيتها فنجزت هي، وقالوا: "نجَز ونجِز" يعني بالفتح والكسر قال: وكأن نَجزَ قضى حاجته وكأن نَجِز فَنِي و"نجَز" الشيء نَجازاً حَضَر وأيضاً ذهب، و"أنجزت" الموعد أتممته»[294]، وقال في الصحاح: "نجز الشئ بالكسر ينجز نَجَزاً، انقضى وفَني"[295]، والمضارع والمصدر بالفتح فيهما، وفي المحكم تقديم الفتح على الكسرن وما قاله ابن القطاع من التشكيك قاله ابن السكيت.

قوله: وَتَتِمُّ هو بفتح التاء الأولى وكسر الثانية وهذا ظاهر.

قوله: فِي غُرَّةِ الإِيمَانِ[296] الغرة: بياض في وجه الفرس فوق الدرهم، وغرة القوم سيدهم، وغرة كل شيء أوله، ويريد بغرة الايمان أوله.

قوله: لُمَعَةٌ مُنِيرَةٌ قال المعلق: واما جعله كتابه بمنزلة اللمعة في الغرة فلا وجود له لوجود اللمع المنيرة فلا تكاد تظهر تلك اللمعة، فلو قال ويلوح في جبهة الايمان غرة منيرة لكان امس بالصناعة انتهى.

قوله: دُرَّةٌ خَطِيرَةٌ[297] أي ذات قدر وخطر[298].

قوله: تُزِيحُ كُلَّ لَبْسٍ[299] تزيح بضم أوله رباعي، يقال: زاح الشيء يزيحه زيحا، أي بعد وذهب وازاحه غيره[300]، وكل منصوب مفعول، واللبس: بفتح اللام واسكان الموحدة وهو مصدر من قولك: لبست عليه الامر خلطت، من قوله عز وجل: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[301] واللبس ايضا اختلاط الظلام.

قوله: وَتُوَضِّحُ كُلَّ تَخْمِينٍ وَحَدْسٍ[302] التخمين القول بالحدس والحدس الظن يقال: حدس بالفتح يحدس بالكسر أي: قال شيئا برايه[303].

تنبيه: في هامش النسخة التي وقفت عليها بقرب حدس ما لفظه: وحدس سقط من اصل المؤلف. انتهى.

قوله: وَتَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كذا في النسخة التي وقفت عليها، يشف بكسر الفاء بالقلم وينبغي ان يكتب بالياء لانه مرفوع لم يتقدمه جازم والله اعلم، ورايته بالياء في نسخة بخط مغلطاي[304] شيخ شيوخي، اللهم الا ان يقال انه قصد التلاوة فيكون صحيحا والله اعلم.

قوله: وَتُعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ[305] تعرض بضم أوله وكسر ثالثه رباعي أي تصد.

أ.م.د. خالد هاشم محمد السرحان
المديرية العامة لتربية الانبار
معهد الفنون الجميلة/ الفلوجة

الهوامــش

(1) سورة الأحزاب: الاية 21.
(2) منها: إلى اللغة الانكليزية، قامت بالترجمة عائشة عبد الرحمن بيولي، وطبعتها المدينة للطباعة، غرناطة، اسبانيا، 1992م، وإلى لغة الاوردو وقام بطباعتها اكاديمية عبد التواب، مولتان، باكستان.
(3) ينظر: الصيداوي، معجم الشيوخ(83)، شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.(1/ 140)، ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874 هـ) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1/ 131).
(4) ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي(1/ 131)، التونكي، معجم المصنفين، (92)، عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس(221).
(5) ينظر: ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874 هـ)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، المحقق: فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى ـ مكتبة الخانجي، (ص:36)؛ التونكي، معجم المصنفين (3/ 345)؛ الشوكاني، البدر الطالع(1/ 28)؛ السيوطي، طبقات الحفاظ(545)، البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (1/ 19)، ابن العماد، شذرات الذهب(237)، معجم المولفين(1/ 92).
(6) ينظر: الشوكاني، البدر الطالع(1/ 28).
(7) برهان الدين الحلبي، التبيين لأسماء المدلسين، (1/ 68).
(8) ينظر: شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: 1/ 145، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (1/ 152)؛ ابن حجر، المجمع المؤسس(3/ 15)؛ الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع1/ 24.
(9) شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: 1/ 141.
(10) ينظر: التقييد(1/ 441)، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (1/ 131)؛ الصيداوي، معجم الشيوخ(48ـ49).
(11) الضوء اللامع(1/ 131).
(12) ابن حجر العسقلاني، شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع(1/ 141)، تحقيق: أحمد شكور امرير المياديني، مؤسسة الرسالة؛ الطبعة: الأولى، 1417 هـ ـ 1996 م، (3/ 13)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي (1/ 153)؛ الصيداوي، معجم الشيوخ1/ 49، الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع1/ 23.
(13) ينظر: شرح الشفا للملا علي القاري (1/ 172)؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 1054)؛ البغدادي، هدية العارفين (2/ 196)؛ كحالة، معجم المؤلفين (9/ 288)؛ جهود العلماء في تصنيف السيرة النبوية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين (ص: 48).
(14) مطبوع: المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
(15) مطبوع: دار المعرفة ـ بيروت، 1410هـ/ 1990م.
(16) مطبوع: تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ ـ 1955م.
(17) مطبوع:.
(18) مطبوع: المحقق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ـ حلب، الطبعة: الأولى، 1396هـ.
(19) مطبوع: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ بحيدر آباد الدكن ـ الهند، الطبعة: الأولى، 1271هـ ـ 1952م.

(20) مطبوع: المحقق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة ـ سوريا، الطبعة: الأولى، 1416 هـ ـ 1995م.
(21) مطبوع: تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ـ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، 1418هـ1997م.
(22) مطبوع: المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.
(23) مطبوع: المحقق: علال الفاسي ـ محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، 1963م.
(24) مطبوع: تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ ـ 1987 م.
(25) مطبوع: دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطانن مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية ـ 1406هـ ـ 1986م.
(26) مطبوع: تحقيق: احمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ـ الرياض، 1419هـ ـ1999م.
(27) مطبوع: تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى 1422، هـ ـ 2002م.
(28) مطبوع: المحقق: الشيخ علي محمد معوض ـ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ ـ1999م.
(29) مطبوع: المحقق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 ـ 1987م.
(30) مطبوع: المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ ـ 1992م.
(31) مطبوع: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1990م.
(32) مطبوع: دار المعرفة ـ بيروت.
(33) مطبوع: المحقق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ.
(34) مطبوع: كتاب الافعال، عالم الكتب، الطبعة: الأولى 1403هـ ـ1983م.
(35) مطبوع: المحقق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1418/ 1998هـ.
(36) مطبوع: تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1403هـ ـ 1983م.
(37) مطبوع: تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، 1407هـ ـ 1987م.
(38) مطبوع: المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ ـ 1998م.
(39) مطبوع: تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة قطر، الطبعة: الأولى، 1433هـ ـ 2012م.
(40) مطبوع: المحقق: عمر عبد السلام تدمري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م.
(41) مطبوع: المحقق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1415 هـ.

(42) مطبوع: تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ـ محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت، 1399هـ ـ 1979م.
(43) مطبوع: دار الكتاب العربي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.
(44) مطبوع: دار صادر ـ بيروت.
(45) مطبوع:.
(46) مطبوع: تحقيق: عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 1991م
(47) مطبوع: تحقيق: محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، 1414هـ ـ1994م.
(48) مطبوع: المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ/ 1996م.
(49) ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 1701).
(50) مطبوع: عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
(51) مطبوع: تعليق وتحقيق: الدكتور ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1428 هـ ـ 2007م.
(52) مطبوع: تحقِيق وتعلِيق: محمَّد الحجَّار، دَارُ البشائرِ الإسلاميَّة للطبَاعَة وَالنشرَ والتوزيع، بَيروت ـ لبنان، الطبعة: السَادسَة، 1417هـ ـ 1996م.
(53) مطبوع: دار الفكر.
(54) مطبوع: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ.
(55) ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.
(56) مطبوع: المحقق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، 1994م.
(57) مطبوع: دار النفائس ـ بيروت 2005.
(58) مطبوع: المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1400 ـ 1980م.
(59) مطبوع: المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر ـ بيروت، 1420 هـ.
(60) مطبوع: المحقق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة: الأولى، 1413هـ ـ 1992م.
(61) مطبوع: تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، 1382هـ ـ 1963م.
(62) مطبوع: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ / 1994م.
(63) ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 1689).
(64) (اللهم اختم بخير وعافية) في بـ: (رب يسر واعن يا كريم بمحمد واله).
(65) في ب: (وكرم).
(66) في ب: (وتالدته).
(67) المَهْيَع: الطَّريق الواضح البيّن. ينظر: الأضداد لابن الأنباري (ص: 291).
(68) (جعله الله لوجهه الكريم، خالصا) في ب: (جعله الله خالصا لوجهه الكريم).
(69) (ورواه النسائي) في ب: (والنسائي).
(70) (ايضا أبو عوانة) في ب: (أبو عوانة ايضا).
(71) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (6/ 127، رقم 10328)، وابن ماجه (1/ 610، رقم

1894)، وابن حبان (1/ 174، رقم 2)، والدارقطني (1/ 229)، والبيهقي في السنن الكبرى (3/ 208، رقم 5559) جميعاً عن أبي هريرة.
والحديث حسنه بروآياته العجلوني في كشف الخفاء (2/ 156)، إلا أن الحافظ ابن حجر في فتح الباري (8/ 220) قال: الرواية المشهورة فيه بلفظ: «حمد الله» وما عدا ذلك من الألفاظ التي ذكرها النووي وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية.
(72) عدد النووي في شرحه على مسلم (1/ 43) الروآيات في هذا الحديث فقال: (كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع»، وفي رواية: «بحمد الله»، وفي رواية: «بالحمد فهو أقطع»، وفي رواية: «أجذم»، وفي رواية: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وفي رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم» وقال: روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن سالم الإنباري عنه، وروينا فيه أيضاً من رواية كعب بن مالك الصحابي ـ رضي الله عنه والمشهور رواية أبي هريرة).
(73) ما بين المعكوفتين في الاصل غير مقروء بسبب الطمس.
(74) الزيادة من ب.
(75) ينظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (3/ 245)؛ المخصص (4/ 290).
وينظر: شرح النووي على مسلم (1/ 43).
(76) التفسير البسيط (1/ 482).
والواحدي (ت: 468 هـ): هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، أبو الحسن. أصله من ساوة (مدينة على جادة حجاج خراسان). فقيه شافعي. واحد عصره في التفسير، كان إماما عالما بارعا محدثا. توفي بنيسابور. من تصانيفه: "البسيط" و"الوسيط" و"الوجيز" كلها في التفسير و"أسباب النزول". ينظر في ترجمته: طبقات الشافعية لابن السبكي (3/ 289)؛ والنجوم الزاهرة (5/ 104).
(77) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(78) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(79) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(80) ينظر: المخصص (4/ 452)؛ لسان العرب (1/ 802).
(81) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(82) ينظر في ترجمته: فوات الوفيات (2/ 246)؛ طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (3/ 26).
(83) في ب زيادة: كذا.
(84) ينظر: الاكتفا (لوحة 7ب ـ8أ).
(85) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(86) النابغة الذّبْياني. وصدر البيت: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة، مجموعة خمسة دواوين ص 12:
(87) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 269)؛ لسان العرب (14/ 336).
(88) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 269).
(89) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (3/ 154).
(90) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1).
(91) المحكم والمحيط الأعظم (5/ 258).
(92) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 1) وفيه: (ولا وهما).
(93) كتاب الأفعال (3/ 304).
(94) في ب: (ووهمت).
(95) مجمل اللغة لابن فارس (ص: 939).

(96) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(97) (هو): سقطت من ب.
(98) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(99) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1992).
(100) الاكتفا (لوحة 12ب).
(101) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(102) الاكتفا (لوحة 13ب).
(103) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(104) ينظر: القاموس المحيط (ص: 113).
(105) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(106) ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (1/ 322).
(107) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(108) في ب: (عقد).
(109) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 462).
(110) (مجد الدين): سقطت من ب.
(111) القاموس المحيط (ص: 275).
(112) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 466).
(113) ينظر: القاموس المحيط (ص: 277).
(114) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(115) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(116) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (4/ 1362).
(117) الكهف: 81.
(118) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1929).
(119) ينظر: نتائج الفكر في النحو (ص: 186).
(120) الاكتفا (لوحة 15أ).
(121) الاكتفا (لوحة 15أ).
(122) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(123) ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (1/ 322).
(124) ما بين المعكوفتين في الاصل فيه طمس بسبب التصوير.
(125) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(126) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(127) يقول التستري: (قال مجاهد وطاووس: الحكمة القرآن، وقال الحسن البصري: الحكمة: الفهم في القرآن، والحكمة النبوة، وقال قتادة: الحكمة: هي الفقه في دين الله عز وجل، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال السدي: الحكمة النبوة. وقال زيد بن أسلم: الحكمة العقل. وقال الربيع ابن أنس: الحكمة خشية الله تعالى. وقال ابن عمر: الحكمة ثلاث: آية محكمة، وسنة ماضية، ولسان ناطق بالقرآن). تفسير التستري (ص: 42) مختصرا.
(128) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(129) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1901).
(130) تجنيس التحريف: هو أن يكون الاختلاف في الهيئة، كـ (برد، وبرد). التعريفات (ص: 53).
(131) الاكتفا (لوحة 16ب).

(132) جزء من اية، تكررت احدى عشرة مرة، وجاءت أول مرة في سورة التوبة: 72.
(133) في ب: (ويأتي).
(134) البقرة: 228.
(135) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(136) تهذيب اللغة (2/ 78).
(137) هو نوع من المشترك، قال ابن فارس: من سُنن العرب في الأسماء أن يُسَمُّوا المتضادَّين باسم واحد، نحو الجَوْن للأسود، والأبيض. ينظر: فقه اللغة وسر العربية (ص: 263)؛ البلغة إلى أصول اللغة (ص: 118).
(138) الاكتفا (لوحة 18ب).
(139) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(140) جمهرة اللغة (2/ 963).
(141) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(142) تهذيب اللغة (8/ 319).
(143) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(144) في أ: (اعراض).
(145) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 2).
(146) النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 338).
(147) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 3).
(148) يقول الشمني: (كذا في غالب النسخ، وفى بعضها تنمى بفتح المثناة الفوقية وكسر الميم). حاشية الشمني على الشفا (1/ 3).
(149) في ب: (عبيد).
(150) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (6/ 2515).
(151) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 3).
(152) ينظر: عمدة الكتاب لأبي جعفر النحاس (ص: 242).
(153) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، ص: 20.
(154) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 3).
(155) العين (5/ 38).
(156) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 3).
(157) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (4/ 1427).
(158) يوسف: 100.
(159) هكذا في النسختين، والجملة في الشفا: شَرَّفَهُمُ اللهُ بِنُزُلِ قُدْسِهِ. الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 3).
(160) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1828).
(161) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(162) الروم: 15.
(163) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 620).
(164) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(165) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 339).
(166) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(167) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).

(168) غريب الحديث لإبراهيم الحربي (2/ 796).
(169) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(170) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(171) ينظر: العين (5/ 174).
(172) الأنعام: 146.
(173) المحكم والمحيط الأعظم (10/ 17).
(174) تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (4/ 201).
(175) ميزان الاعتدال (4/ 534).
(176) التبيان في إعراب القرآن (1/ 545).
(177) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(178) الكهف: 71.
(179) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(180) الكهف: 73.
(181) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 4).
(182) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 223).
(183) في ب: (الكشف)، والعبارة في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(184) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(185) أساس البلاغة (1/ 712).
(186) تهذيب اللغة (8/ 221).
(187) في ب: (لتغايرهما لفظا).
(188) تقدم (ص: ...) و (ص: ...).
(189) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(190) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(191) المحكم والمحيط الأعظم (3/ 451).
(192) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(193) تهذيب اللغة (5/ 149).
(194) ينظر: حياة الحيوان الكبرى (1/ 363).
(195) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، الطبعة الثالثة، 1416هـ ـ 1996 (ص: 14).
(196) كذا في النسختين، والذي في ديون الذبياني: (كحكم). ينظر المصدر السابق. وينظر: الكتاب لسيبويه (1/ 168)؛ شرح القصائد العشر (ص: 316).
(197) ضبطها المؤلف رحمه الله بثلاث نقاط فوق السين وثلاث اخرى تحتها، لعله يشير إلى انها رويت بالسين والشين كما سينقل بعد هذا عن الاصمعي.
(198) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (3/ 22).
(199) يحتمل هذا الكلام انه يقصد بيت النابغة وقد تكلمنا عليه، ويحتمل انه يقصد قول الزرقاء، فهناك رواية ثانية وهي: *ليت الحمامَ لِيَهْ إلى حَمامَتِيَهْ ونِصْفَهُ قَدِيَهْ تَمَّ القَطاةُ مِيَهْ*
ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1906)؛ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (3/ 22).
(200) ينظر: شرح المعلقات التسع (ص: 93)؛ جمهرة الأمثال (1/ 405).
(201) جمهرة الأمثال (1/ 167).
(202) في ب: (بالقرى) وما اثبته من الاصل. وينظر: لسان العرب (3/ 131).

(203) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب (ص: 353).
(204) روح البيان (6/ 329).
(205) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(206) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(207) جمهرة اللغة (1/ 494).
(208) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(209) المحكم والمحيط الأعظم (1/ 323).
وقال ابن قتيبة: (وقد يكنى عن العقول بالأحلام لأن الأحلام تكون عنها قال الله تعالى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾، (الطور: 32). غريب الحديث لابن قتيبة (1/ 332).
(210) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(211) ينظر: جمهرة اللغة (2/ 948).
(212) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 5).
(213) ينظر: أساس البلاغة (1/ 280)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 1075).
(214) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(215) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(216) وهو: أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالي، يعرف بابن بقوى، ويقال ابن بقوة (444 ـ 530هـ)، فقيه محدث أديب من أهل غرناطة، وسكن المرية وسمع من شيوخ المرية، مثل طاهر ابن هشام الأزدي، وأبي محمّد حجاج بن عليّ بن محمّد الرعيني، المعروف بابن المأموني، وغيرهم؛ ومن الطارئين عليها، مثل القاضي أبي الوليد الباجي، وأبي عبد الله محمّد بن سعدون القروي. وكان خروجه من المرية بعد سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة، وسكن غرناطة مدة، وولي الأحكام بعدة جهات من كورة ألبيرة. وكان من حفاظ الحديث مع التقدم في معرفة أصول الدين. روى عنه جماعة. ينظر في ترجمته: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص:619)؛ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص:485)؛ تاريخ الإسلام ت تدمري (36/ 190)؛ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (3/ 154).
(217) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(218) الأنساب للسمعاني (3/ 450).
وجَيّانُ هي: بالفتح ثم التشديد، وآخره نون: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا، وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلدانا تذكر مرتبة في مواضعها من هذا الكتاب، وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة، وينسب إليها جماعة وافرة. وحاليا هي عاصمة مقاطعة جيان إحدى مقاطعات إسبانيا، تقع في الجزء الجنوبي من البلاد، وفي الجزء الشرقي لمنطقة الأندلس، ويحدها كل من مقاطعة قرطبة وسيوداد ريال والبسيتي ومقاطعة غرناطة.
ينظر: معجم البلدان (2/ 195)؛ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع (1/ 364)؛ الروض المعطار في خبر الأقطار (ص: 183).
(219) ما بين المعكوفتين سقط من أ.
(220) ينظر ترجمته في: إكمال الإكمال لابن نقطة (2/ 196)؛ وفيات الأعيان (2/ 180)؛ تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (4/ 22)
سير أعلام النبلاء ط الحديث (14/ 172).
(221) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(222) ينظر: الأنساب للسمعاني (13/ 179).

(223) ينظر في ترجمته: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: 367)؛ ترتيب المدارك وتقريب المسالك (8/ 127)؛ الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: 640)؛ تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (3/ 217).
(224) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(225) ميزان الاعتدال (2/ 498).
(226) ينظر في ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (1/ 288)؛ تاريخ الإسلام ت بشار (8/ 663)؛ الوافي بالوفيات (17/ 268).
(227) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(228) ينظر في ترجمته: معجم الشيوخ لابن جميع الصيداوي (ص:89)؛ التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص:59)؛ تاريخ الإسلام ت بشار (7/ 839)؛ سير أعلام النبلاء ط الحديث (12/ 104).
(229) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(230) ينظر في ترجمته: الثقات لابن حبان (8/ 282)؛ تاريخ بغداد ت بشار (10/ 75)؛ تاريخ دمشق لابن عساكر (22/ 194)؛ التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: 279).
(231) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(232) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (29/ 24)؛ الكاشف (2/ 301)؛ سير أعلام النبلاء ط الحديث (8/ 424).
(233) ميزان الاعتدال (4/ 200).
(234) ينظر في ترجمته: الكنى والأسماء للإمام مسلم (1/ 384)؛ من روى عنهم البخاري في الصحيح (ص: 207)؛ فتح الباب في الكنى والألقاب (ص: 360).
(235) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(236) في ب: (هو).
(237) هذه العبارة للذهبي، ونص العبارة في الكاشف (1/ 349).
(238) ينظر في ترجمته: الثقات للعجلي ط الباز (ص: 131)؛ المعارف (1/ 503)؛ مشاهير علماء الأمصار (ص: 247)؛ رجال صحيح مسلم (1/ 157).
(239) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(240) ينظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (6/ 270)؛ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (6/ 181)؛ مشاهير علماء الأمصار (ص: 243)؛ تجريد الأسماء والكنى المذكورة في كتاب المتفق والمفترق (2/ 121).
(241) الحمادان: ابن زيد (ت: 179هـ) وابن سلمة، قال العجلي: (وكان حجاج ـ بن المنهال الأنماطي (ت: 217هـ) ـ إذا حدث عن حماد، قال: حدثنا حماد، وإذا حدث عن حماد بن زيد قال: حدثنا حماد بن زيد).
(242) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(243) ينظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (6/ 463)؛ التاريخ الكبير = تاريخ ابن أبي خيثمة ـ السفر الثالث (1/ 207)؛ مشاهير علماء الأمصار (ص: 133)؛ طبقات الفقهاء (ص: 69).
(244) في ب: (الشيخ).
(245) الحديث: ((مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).
أخرجه: سنن أبي داود [باب كراهية منع العلم] (3/ 321) رقم (3658)؛ معالم السنن (4/ 185)؛ شعب الإيمان (3/ 252) رقم (1612)؛ جامع بيان العلم وفضله (1/ 5) رقم (3).

قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (1/ 253): (وسند أبي داود سند حسن فإنه رواه عن التبوذكي وقد احتج به الشيخان عن حماد بن سلمة وقد احتج به مسلم واستشهد به البخاري عن علي بن الحكم وقد وثقه أحمد وأبو حاتم عن عطاء بن أبي رباح وقد احتج به الشيخان).
(246) معالم السنن (4/ 185)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 234).
(247) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(248) ينظر: العين (5/ 397)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 269).
(249) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(250) وهو الذي في المطبوعة التي اعتمدتها في مقابلة نصوص الشفا.
(251) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (2/ 247).
(252) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(253) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 923).
(254) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(255) كتاب الأفعال (2/ 177).
(256) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(257) العشرات في غريب اللغة (ص: 39).
(258) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 6).
(259) رواه أبو داود (٣٥٧٢) باب: في طلب القضاء، والترمذي (1325) باب: ماجاء عن رسول الله ﷺ في القضاء، ورواه ابن ماجة (2308) باب: ذكر القضاء، ورواه الإمام أحمد(7145)، وقال الحاكم في المستدرك 4/ 103: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، وقوى إسناده ابن حجر في تلخيص الحبير 4/ 184.
(260) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(261) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1730).
(262) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(263) كذا في النسختين والذي في طبعة دار الفكر: (ولا)
(264) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(265) الذي في طبعة دار الفكر في المتن ضبطت بالبناء للمجهول ورفع محله نائب فاعل، أما في حاشية الشمني فكما أثبت مؤلفنا، فيقول: (وكل من يحمد ويذم مبنى للفاعل وفاعله مستتر فيه عائد على العبد في قوله ولو أراد بعبد خيرا).
(266) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(267) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(268) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (1/ 243).
(269) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (6/ 2316).
(270) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(271) درّجت أي: طويت. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 313).
(272) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 7).
(273) مقاييس اللغة (5/ 403).
(274) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 8).
(275) طمس في ب.
(276) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 9).
(277) اصل تقصى تقصص استثقلوا ثلاث صادات فابدلوا من احداها ياء كما قالوا تمطى في تمطط

ونظائره. ينظر: جمهرة اللغة (1/ 151)؛ الزاهر في معاني كلمات الناس (1/ 423).
(278) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 9).
(279) تهذيب اللغة (8/ 251).
(280) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 9).
(281) ينظر: تهذيب اللغة (8/ 251).
(282) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 9).
(283) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 360).
(284) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 9).
(285) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(286) كتاب الأفعال (2/ 306).
(287) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(288) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 1083).
(289) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(290) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 57).
(291) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(292) وكذلك نبه عليه الشمني في حاشيته (1/ 10).
(293) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(294) كتاب الأفعال (3/ 215ـ216).
(295) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 897).
(296) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 10).
(297) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 11).
(298) ينظر: مقاييس اللغة (2/ 199).
(299) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 11).
(300) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 371).
(301) الأنعام: 9.
(302) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 11).
(303) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (3/ 915).
(304) مغلطاي بن قليج الحنفي الإمام الحافظ علاء الدين. ولد سنة تسع وثمانين وستمائة، وكان حافظا عارفا بفنون الحديث، علامة في الأنساب، وله أكثر من مائة تصنيف، كشرح البخاري وشرح ابن ماجه وغير ذلك؛ مات في شعبان سنة اثنتين وستين وسبعمائة. ينظر ترجمته في: أعيان العصر وأعوان النصر (5/ 433)؛ الوفيات لابن رافع (2/ 243)؛ تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: 304).
(305) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ وحاشية الشمني (1/ 11).

الانتحار ووسائل التواصل الاجتماعي: عامل خطر جديد

د.إلهام الحاج حسن

Une vie ne vaut rien, mais rien ne vaut une vie.

"إن الحياة لا تساوي شيئاً، ولكن شيئاً لا يساوي الحياة". (أندريه مالرو)

1. تمهيـد

ـ شابّة بعمر السادسة عشرة انتحرت بعد نشر صور فاضحة لها.

ـ شابّة في الرابعة عشرة خضعت للابتزاز بعد أن تعرَّت على كاميرا ويب مباشر لشخص غدر بها وظنَّت أنه يحبُّها.

ـ شابَّة في السادسة عشرة نُشرت لها صور فاضحة على وسائل التواصل الاجتماعي وشاهدها العديد من زملائها، فتمنعت عن الذَّهاب إلى المدرسة وانتحرت بعد فترة وجيزة.

«أنا صار لازم ودِّعكم وخبِّركم عني»، «بدِّي إرتاح وإخلص»، «تبقوا تذكروني»، «أحسن للكل لو كنت ميِّت»، «بدِّي بس موت»، «بدِّي روح لبعيد بعيد»، «ما عاد فيِّي إحمل»، «ما رح كون معكن بعد اليوم»، «مش حازعجكن بعد اليوم»، «ما إلي شي بهالحياة».

هي كتابات على منصَّات التواصل الاجتماعي لمراهقين لبنانيين انتحروا، وروايات الأهل والأصدقاء الذِّين عانوا فقد الأحبَّة دون القدرة على التحدُّث بذلك، لأن الانتحار «محرج» للأهل ومفجِّر لمشاعر الذَّنب ولتساؤلات مؤلمة في مدى مسؤوليتهم.

نحن أمام ظاهرة جديدة متمثِّلة بالانتحار العلني وعلى شاشات وسائل التواصل الاجتماعي، مع إحصائيات عالميَّة تشير إلى مدى تفشِّيها وانتشارها وخشية من تحوُّلها إلى ما يشبه الوباء بين المراهقين بشكل خاص.

فعلاً، بات الانتحار آفة تسبِّب أكثر من 800000 حالة وفاة في جميع أنحاء العالم كل عام (مجلة Santé ـ 2017). ففي فرنسا مثلاً، هناك 220 ألف محاولة انتحار في أقسام الطوارئ، بينما هناك 10500 شخص توفوا انتحاراً.

أما الإحصاءات الموثَّقة بحسب السلطات اللبنانية، تشير إلى أنَّه في العام

2018 وحتَّى شهر أيار منه، أي خلال خمسة أشهر، سُجِّلت مائة حالة، في وقت كان عدد الحالات في العام 2017 كلُّه 143 حالة، والعام 2016 ككلّ 128 حالة، والعام 2015 وصل إلى 138حالة، وفي العام 2014 وصل إلى 144. انطلاقاً من هذه الأرقام يقول الدكتور كرم (كرم، 2018) على أنَّ الوضع في لبنان ليس في مرحلة خطرة، خصوصاً أن النِّسبة تُقدَّر بنحو 2 في المائة من إجمالي عدد السكَّان، في وقت قد تصل في دول أخرى إلى 15 بالمئة.

بناءً على تقديرات منظمة الصحَّة العالمية، فإنَّ لبنان لديه أقلُّ بكثير من المتوسِّط العالمي لحالات الانتحار المكتملة (0.2٪ في لبنان مقارنة بـ 1.4٪ على الصَّعيد العالمي).

في المقابل، كشفت بيانات وطنية في لبنان، وكجزء من مسوحات الصحَّة العقلية العالمية (WMH) التي أجرتها جمعية IDRAAC (كرم، 2018)، أن نسب الانتحار في لبنان كانت متوسِّطة مقارنة بالدُّول التي شملها الاستطلاع (17 دولة) (2٪ في لبنان مقابل 2.7 ٪ من إجمالي العيِّنة التي شملتها الدراسة). أي أنَّه كان لدى لبنان أدنى نسبة، وهو أمر مستغرب، وقد يعزى السَّبب إلى نقص أو سوء في الإبلاغ أو ربَّما عدم الإبلاغ نهائياً عن حالات الانتحار، حرجاً أو مخافةً من الأحكام المجتمعية أو الدِّينية.

2. أسباب قد تؤدِّي إلى الانتحار

تعدَّدت الأسباب التي قد تؤدِّي للانتحار، تقليديا كنَّا نتحدَّث عن عوامل الخطر المتعدِّدة التَّالية: المشاكل الأسريَّة والشُّعور بالظُّلم والفشل واللاجدوى، التبخيس بقيمة الذَّات وعدم الرضى عن صورة الجسد، والكحول والمخدَّرات والعزلة الاجتماعية والعمر المتقدِّم والأمراض النفسيَّة. كلُّها عناصر قد تحفِّز الأفكار الانتحاريَّة. (علما أن الاكتئاب يمثِّل 70٪ من أسباب الانتحار).

بمناسبة اليوم العالمي لمنع الانتحار في 10 سبتمبر2018، كشفت **INSERM** عن تأثير عوامل خطر جديدة ومسبِّبة للانتحار، مثل مواقع التَّواصل الاجتماعي. إذ يبدو أنَّه في السَّنوات الأخيرة، ظهرت محرِّكات جديدة في التفكير الانتحاري، تشرح (Jousselme ـ 2017)، باحثة **INSERM** في وحدة «الصحَّة النفسيَّة والصحَّة العامَّة»، أنَّه مع الشَّبكات الاجتماعية يمكن أن يحدث الأفضل كما الأسوأ، فهي تسمح للإنسان في التعبير عن نفسه والتفريغ، لكنَّها بالمقابل تدفعه إلى العزلة. وتوضح قائلة: «عندما يشعر المراهق بالسوء، يكفي أن يشعر أنَّه موجود وأنَّه مهمٌّ للآخرين حتى يتحسَّن وضعه». والانتحار على منصَّات التواصل الاجتماعي يعطي الانطباع بالموت البطوليّ، أي «مات كبطل» وحصل على مكانة ودور، وتمَّ الاعتراف به بطريقة ما ودون إدراك لعواقب الأمور، وهذا مرتبط بعدم اكتمال النُّضج العقليّ في مرحلة المراهقة وعدم التبصُّر بالأمور غالباً.

هي حقيقة تفسِّر كيف أنَّ الانتحار هو السَّبب الرئيسيّ للوفاة بين 15ـ21عامًا. فبعد أن كان نكرة ومضطرباً وضائع الدَّور والمكانة، بات بعد انتحاره، وتبعا لعدم نضج فكره، بطلاً. وحتى أنه يتخيَّل ردود الأفعال والأحاديث التي قد تحصل بعد مماته.

يُظهر التحقيق، الذي تمَّ تنسيقه بواسطة **INSERM** والقطب الجامعي في مؤسَّسة **Fondation Vallée**، أنَّ محاولات الانتحار تبدو أكثر تواتراً من ذي قبل بين الشباب.

أما مجلَّة «علوم» فقد رصدت في العلوم النفسية الإكلينيكية (**sciences,** 2017) أنّضه وبعد عقود من التراجع المطَّرد، بدأت حالات الانتحار وأعراض الاكتئاب عند الشباب الَّذين تتراوح أعمارهم بين 13 و18 عامًا في الإرتفاع بشكل ملفت في الولايات المتحدة منذ عام 2010. وهناك اتِّجاه يثير القلق أكثر بالنِّسبة للمراهقات، حيث ارتفع معدَّل الانتحار بينهنَّ بنسبة 65٪ بين عامي 2010 و2015 وتضاعف منذ أواخر التسعينيات. هذه هي نتائج دراسة كبيرة أجراها فريق من علماء النفس المنتسبين إلى جامعتي سان دييغو وفلوريدا، استنادًا إلى استبيانين شمل 50620 شخصًا.

ـ كيف نفسِّر هذه الظَّاهرة؟

لا يجد العلماء أسباباً مباشرة لتعاظم ظاهرة الانتحار، لكنِّهم يشيرون إلى سببين محتملين: استخدام الشَّاشات عامة ووسائل التَّواصل الاجتماعي خاصَّة. وبالتَّالي ووفقًا لحساباتهم، فإنَّ المراهقين الَّذين يستخدمون هواتفهم الذَّكية لأكثر من خمس ساعات في اليوم معرَّضون لخطر الأفكار الانتحاريَّة بنسبة 66٪ أكثر من أولئك الَّذين يقضون ساعة واحدة فقط يوميًا على الشَّاشات. (**Jean M. Twenge,** **and all, 2017**).

بالإضافة إلى ذلك، يتزامن الارتفاع الكبير في معدَّلات الانتحار وأعراض الاكتئاب بين المراهقين مع الطفرة في الأجهزة الذكِّية والشبَّكات الاجتماعية. وهكذا فإنَّ استخدام منصَّات التواصل الاجتماعي على اختلافها، كشكل من أشكال الترفيه والتَّفاعل الاجتماعي، في ارتفاع ملحوظ في هذا العصر، يقابلها ارتفاع بنسب الانتحار وبشكل ملحوظ أيضا كما ذكر «توينج».

لقد تمَّ إقحام منصَّات وسائل التواصل الاجتماعي بشكل متزايد في العديد من جوانب الأنشطة اليوميَّة الخاصَّة للناس، وذلك نتيجة التطور الذي سمح بوضع التَّطبيقات على الهواتف المحمولة، مما سهَّل تصوير أو كتابة أو نشر تفاصيل الحياة اليوميَّة بلحظاتها المهمَّة. الأمر وصل ليس فقط لنشر الأنشطة اليوميَّة، إنما طال الوضع النفسي والذي كثيرا ما يُعبَّر عنه بقولٍ ما أو صورةٍ ..إلخ.

لطالما أثارت أنشطة البعض الترفيهية المنشورة على «أرصفة» الفايسبوك والإنستا والواتس أب، القلق والحسد لدى بعض

المتصفِّحين من أحباب أو خصوم، وخاصَّة في صفوف المراهقين. في اختصاصنا كنفسانيين صادفنا مراهقين قاموا بمحاولات انتحاريَّة ونجوا منها، ومع المتابعة النفسيَّة تبيَّن القلق الذي حملوه في أعماقهم، نتيجة لإحساسهم بالظُّلم واللاعدالة في هذه الحياة، إذ أنَّ المقارنة بين مظهرهم العاديّ وحياتهم العاديَّة والرَّتيبة ومظهر الفتيات والفتيان الجميلي الوجه و«الكاملي» الجسد، والذين يتمتَّعون بالحياة الجميلة، من تسوُّق وسفر ولهو وغرام ومال، والأهم العديد من المتابعين و«اللايك»، الذي يؤشِّر للمكانة الافتراضيَّة، هذه المقارنة تثير الحسد والغضب لدى الذين يسعون لإثبات ذاتهم واكتساب إعجاب الآخرين بهم وفرض أنفسهم وسحب الاعتراف بهم وبقدراتهم، ولا يصلون إلى ذلك بسهولة. ولعلَّ صورة الجسد «غير المكتمل» النموِّ تثير القلق، هل سيكون بمثل جمال ما يراه في المنصَّات الاجتماعية؟ لا وجود في هذا العالم الإفتراضي إلا للجمال. المقارنة مع الآخر في العالم الافتراضي قد يغرق الشبَّاب بالإكتئاب، فهو يتابع هذا الآخر المحظوظ والذي ينعم بحياة ملؤها الأنشطة الرائعة بينما هو قابع في منزله، في حياة رتيبة مملَّة لا تجديد فيها ولا متعة. كلها أمور تعزِّز إحباطه وثورته، المهيَّأ لها أصلاً كمراهق، وقد يزداد الشُّعور بالخيبة حين وضع صورة أو تعليق بأنَّه حزين ولا يتلقى أيَّة مشاركة أو ردًّ من الآخرين، فيشعر بالتخلي واللاقيمة والنَّبذ وأن لاوجود له.

صحيح أن لمنصَّات التَّواصل الاجتماعي فضل في التَّواصل والتَّرفيه والمعرفة، إلا أنَّها تخطَّت هذه المهام وباتت عبئا على مستخدميها، وشرُّها أنَّه لا بدَّ منها ولا يمكن التناغم مع هذا العصر من دونها.

في دراسة قام بها (Meik ـ 2017 Wiking) الدَّنماركي في معهد بحوث في السَّعادة، ظهر أنَّ الأشخاص الذين لايستخدمون "فيسبوك" هم أكثر سعادة من أولئك الذين يتابعونه باستمرار، كذلك من ليس لديه أي حساب هو أكثر سعادة.

مع معرفة المراهق أحيانا أنَّ انزعاجه واكتئابه سببهما الشَّاشات والألواح والهواتف، يبقى السُّؤال لما يفضِّل هذا النَّوع من الاتِّصال والتَّواصل على غيره؟ الإجابة تكمن في ما تمثِّله هذه الشَّبكات بالنِّسبة للشَّباب، حيث يتواجد الأصدقاء وبكثرة أحياناً على «أرصفتها»، متَّصلين برباط عاطفي يسري بينهم وليس مجرَّد رباط معلوماتيّ، هو ارتباط إنسانيّ هجين، لكنّ أكثر عمقا بين اولئك الذين يسعون لردم هوَّة الفراغ والنَّقص في حياتهم. كما أنَّها أداة الاتِّصال الفضلى للذين يشعرون بالوحدة والعزلة والتهميش، وهو ما ينطبق على ذوي الأفكار الانتحاريَّة، الذين يجدون أنفسهم محتضنين وموضع اهتمام وتعاطف من الأصدقاء الافتراضيِّين.

قديماً كانت «الأوراق الدَّفينة» وسيلة المراهقين الفُضلى في التَّعبير عن آلامهم وعدم استقرارهم كتابة. أمَّا اليوم فتعدَّدت سبل التعبير، من فيسبوك وتويتر وواتس أب وإنستاغرام ... هي أمكنة يبرز فيها الذكِّي بكلماته وإبداعاته، والجميل بصوره

وفيديوهاته، والخجول بتجزُّئه غير المعهود، والضَّعيف الحاقد البذيء والذي يختبىء وراء الشَّاشة ويبثُّ سمومه دون عقاب، والمكتئب الحزين الذي يرسل لنا رسائل تبدو بعمقها وداعية أو استغاثية، والمقموع المقهور الذي يصبح متسلِّطا ومتنمِّراً ومدمِّراً ومهدِّداً لحياة الآخرين، هي بعض النماذج من البشر على مواقع التواصل الاجتماعي.

معظم الدِّراسات الغربيَّة والجديَّة والمطوَّلة أظهرت علاقة ورابطاً بين وسائل التواصل الاجتماعي وارتفاع نسب الانتحار، وبخاصَّة لدى الشباب من 13 إلى 18سنة.

في لبنان لم تقم دراسات بهذا الخصوص، نظراً لعدم دقَّة الإحصائيَّات ولتمويه عمليَّات الانتحار وعدم الاعتراف بها مخافة الأقاويل المجتمعيَّة والنَّبذ الدِّيني. لكنَّ متابعة أخبار الصُّحف ووسائل الإعلام والتَّواصل الاجتماعي تخبرنا بتزايد حالات الانتحار، والنِّسبة الأكبر بين الشَّباب أو الشَّابات بشكل أكبر.

لوحظ حديثاً أنَّ التَّعليقات التي تبدو رسائل ما قبل الانتحار باتت منتشرة على وسائل التواصل الاجتماعي في لبنان وخارجه، وباتت موضع تعاطف أو لامبالاة أو سخرية أو حثٍّ على الإقدام على الانتحار. المهم أن الأمور تتعاظم وتتوسَّع وقد تدفع بالشَّباب للقيام فعلا بقتل أنفسهم أو قد تردعهم.

يمكننا الاستفادة من الرسائل أو نداءات الاستغاثة على وسائل التواصل الاجتماعي للعمل على الوقاية من الانتحار لأنَّ المشكلة إلى تفاقم في مجتمعاتنا كما كل المجتمعات.

ففي دراسة بريطانية لجامعة مانشستر (Manchester ،2018) تبيَّن ارتفاعاً كبيراً في المقالات التي تتحدَّث عن محاولات الانتحار بين الفتيات في بريطانيا، موجِّهة أصابع الإتِّهام إلى وسائل التواصل الاجتماعي. وأشارت الدِّراسة إلى أنَّه بين عامي 2011 و2014، ارتفعت حالات إيذاء النَّفس بين الفتيات في بريطانيا، الذين تتراوح أعمارهن بين 13 و16، بنسبة 68 في المئة. وقد ارتفع المعدَّل من 45.9 حالة لكلِّ 10 آلاف في عام 2011 إلى 77.0 حالة في عام 2014.

وتستنتج الدِّراسة إن مواقع التواصل الاجتماعي هي المسؤولة عن هذا المعدَّل المرتفع، حتَّى أنَّ فكرة حظرها حماية للشَّباب من الانتحار بدأت تنتشر في الإعلام البريطاني، وصولاً لتعيين وزيرة لمكافحة الانتحار.

صحيح أنَّنا نتحدَّث عن المراهقين ووسائل التواصل الاجتماعي كمحفِّز للانتحار، لكنّ لا بدَّ من ذكر الانتحار بين الأطفال بسبب الألعاب المنتشرة عبر تطبيقات الهواتف الذكيَّة، نحن هنا أيضاً أمام خطر تنمُّرٍ إجراميٍّ يصيب الطفولة، مثل لعبة «مومو» المُرعبة والمُقلقة للطّفل والتي تتلاعب بفكره وتسوِّق لأفكار ثلاثة: الشُّعور بالوحدة، وبالعِبء على الأهل، وعدم الخوف من الموت. هذا

عدا عن تهديد الطفل بالقتل إن أخبر أهله بالأمر، وفي مرحلة متقدِّمة من اللعبة، يطلب منه الانتحار. هي من أكبر الجرائم المرتكبة في العالم الافتراضي، وقد حملت بعض الأطفال على التفكير بالانتحار، إثر الهلع والرُّعب الذي انتابهم، مترافقاً بحالات أرقٍ شديدٍ وأوجاعٍ نفس جسديَّة (استفراغ، صداع، مغص، ضيق بالتنفس...). وسمعنا عن حالات انتحار نتيجة هذه اللعبة، لكن لم نعثر على أيِّ دليل ملموس وموثَّق بهذا الخصوص.

تطرَّقت العديد من الدِّراسات إلى الآثار السلبيَّة للألعاب الإلكترونيَّة، نوجزها باختصار شديد:

- الرُّسوب والفشل والخمول الذِّهني.
- مشاكل صحِّية مثل السُّمنة وزيادة الوزن وضرر في عضلات الكفَّين والأصابع كما تسبّب مشاكل في العيون، والظَّهر والكتفين.(Douglas et al.,2011).
- تنامي السُّلوك العدوانيّ تجاه الذات والآخرين إضافة إلى تقليد ما يُشاهَد. (Anderson, 2007).

3. الإشكاليَّة والدِّراسات التي تعاطت مع هذه الظَّاهرة:

دراسات عديدة وجدت رابطاً بأنَّه كلَّما زادت فترة التواجد على مواقع التواصل زادت بالمقابل فرص التفكير بالانتحار، خاصَّة إن كان ثمَّة ميول اكتئابية.

قرأت حديثاً عن مرض نفسي جديد هو (Nomophobie) أي الخوف من البقاء بدون هاتف محمول، هو نوع من الإدمان. لم يدرج هذا الاضطراب حتى الآن في DSM-V (الدَّليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية). ومع ذلك، يعتبره الباحثون في الطب النفسي من أمراض العالم الحديث، وليد التواصل الافتراضي. وقد برز وتنامى مع تعميم الهواتف الذَّكية.

يتسبب الـ «نوموفوبيا» بالقلق والضِّيق، ويمنع الشباب من تحقيق العديد من الأنشطة والمشاريع، مثل الخروج مع الرفاق أو إلى دور السِّينما أو ممارسة الرياضة أو حتى التنزُّه، والخوف يكمن في عدم وجود شبكة في الخارج أو فراغ البطَّارية مثلاً. هي ظاهرة حديثة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بظهور التقنيات الحديثة.

هذا المرض يحفِّزُ الدماغ ليتفقَّد مواقع التواصل الاجتماعي مرَّة كل 31 ثانية، وعدم تمكُّنه من ذلك يسبِّب له الخوف والقلق، ومع تكرار الأمر قد يصبح في خطر الضَّغط النفسي مع كلِّ ما يحمله من توتُّرات وقلق، والأمر نفسه يحدث مع كلِّ وسائل التواصل الاجتماعي، والنتيجة فقد التوازن والسيطرة على السلوك والفكر.

هناك جمعية تعمل على منع انتحار الشباب ومتواجدة في موناكو (Papyrus)، ذكرت أنَّ حوالي ثلاثين عائلة تواصلت معها شاكية مواقع التواصل الاجتماعي كمسببة لانتحار أبنائها.

بحسب مركز أبحاث (Getty Research Institute) ترتفع نسبة مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي بما نسبته 18 بالمئة شهرياً، وتشير دراسات

عديدة في الغرب تناولت هذا الموضوع إلى زيادة تدريجية في عدد الدِّراسات الباحثة في العلاقة ما بين وسائل التواصل الاجتماعي وانتحار الشباب بين عامي 2008 و2015 وارتفاع كبير فيها عام 2016، وهو دلالة على عمق المشكلة وتفاقمها.

فهل ثمَّة رابط بين وسائل التواصل الاجتماعي وانتحار الشباب؟ وهل التفسير لهذا الوضع الخطير هو أن المراهقين يمضون المزيد من الوقت أمام شاشاتهم ويتجاهلون الأنشطة التَّقليدية الأخرى؟

حين نلمس ميولاً انتحارية بسبب وسائل التواصل الاجتماعي، هل الحل الطَّلب بالانسحاب من هذه المنصَّات؟ وهل يمكن العيش خارجها؟ أم أنها باتت شرّاً لا بدَّ منه؟

تُعرِّف اليونسكو (2016) الشباب على أنَّهم فئة السكَّان الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و35 عامًا. ووفقًا لهذا التعريف، هي الفئة العمرية الأكثر عرضة للانتحار بين السكَّان في جميع أنحاء العالم ومع كل المجتمعات والثقافات (منظمَّة الصِّحة العالمية، 2017).

إن عبور هذه المرحلة من الحياة، والتي قد تعتبر أزمة، تتطلَّب من الشباب التعامل مع التغيُّرات في الهرمونات والنمُّو الجسدي، في المزاج والسلوك، في استكشاف الهويَّة والسعي نحو الاستقلالية والسيطرة على الحياة الشخصية. هي مرحلة حساسة مضطربة وغير مستقرة وينقصها النضج العقلي، لذا قد نجد فيها سلوكاً عبثياً مخاطراً بالحياة دون إدراك لعواقب الأمور، وصولاً للعديد من محاولات الانتحار لجذب الإنتباه، وانتهاءً بالانتحار.

تعدُّ فترة المراهقة مصدر قلق وتغيُّر كبيرين، حيث يواجه الفتيان والفتيات تحدِّيات الانتقال إلى مرحلة البلوغ. غالبًا ما تتسبَّب هذه المرحلة بارتباك يَعزِل المراهق عن أسرته وأقرانه، ويهدِّد توازنه النفسي وقد يحفِّز سلوكاً تدميرياً ذاتياً.

لسوء الحظ، فإن المراهقين يفكِّرون بالانتحار كحلٍّ دائم للمشكلات التي، في معظمها، مؤقَّتة فقط. وقد يتسبَّب انعدام الثِّقة بالنَّفس والارتباك في الأفكار والضَّغط للتَّوافق والنَّجاح بعواقب وخيمة على المضطربين منهم.

بشكل عام، تحاول الفتيات الانتحار أكثر من الفتيان، لكنَّ طريقة الفتيان الانتحاريَّة تجعلهم يموتون أكثر من الفتيات بأربع مرَّات. إذ غالباً ما يستخدمون وسائل مثل الأسلحة النارية أو الشَّنق، والتي تكون أكثر فعالية في التَّسبب بالوفاة من تلك التي تستخدمها الفتيات، كالجرعة الزَّائدة من الدَّواء أو المخدَّرات.

قديما كنَّا نرى لدى بعض الشَّباب أفكاراً انتحاريَّة مرافقة لسلوك «شبه» انتحاري، مثل القيام بسلوك خطر لإثبات الذَّات ومعرفة حدودها مثل: السرعة المفرطة في قيادة السيارات والدَّراجات، الإقدام على المخاطرة دون احتساب النتائج. كلُّها أمور وجب التَّعامل معها كما مع كلِّ تلك التحدِّيات البيولوجية والجسدية والنفسية والاجتماعية.

قديماً، عرفنا من الأسباب الكامنة وراء السُّلوك الانتحاري مشاكل الأسر المفكَّكة، التخلِّي والنَّبذ، العنف وإساءة المعاملة، التحرُّش الجنسي أو الاكتئاب، والإدمان. كانت محاولات الانتحار بمثابة نداء استغاثة كحل لمعاناة حياتيَّة قاسية.

أما اليوم، فقد تغيَّرت الأسباب التي تدفع بالشباب نحو الانتحار، فقد دخل العالم الافتراضي والتطوُّر التكنولوجي، فبدأ التَّشهير بالشِّخص والإذلال والتنمُّر والتحدِّي والوصم، كأسباب وجدت حديثاً. بتنا نجد صلة بين وسائل التواصل الاجتماعي وانتحار الشباب، والنِّسبة تتصاعد بسبب العدد الكبير والمتزايد لاستخدامات وسائل التواصل الاجتماعي في جميع أنحاء العالم. بات انتحار المراهقين تحدِّيًا في جميع أنحاء العالم وعلى اختلاف البلدان والثقافات.

لاحظت إحدى الدِّراسات زيادة كبيرة في عدد المدوَّنات ومنتديات النِّقاش التي توفِّر المعلومات حول طرق الانتحار، وهنا الخطورة عند التقاء الشخصية الانتحارية والإغراءات والأفكار التي تحثُّ على القيام بالخطوة.

الضحايا غالباً من الأطفال أو المراهقين ولأسباب قد تبدو تافهة للبعض. لكن حين يرتبط الأمر بالخجل والإذلال والمضايقة لأشخاص «معطوبين» أو ذوي هشاشة نفسية فالمسألة تأخذ معنى وجوديّاً مختلفاً. فهكذا شخصيات تصبح في خطر الانتحار إن تمَّ التقاط صور فاضحة لها ونشرها مثلاً، أو عند انهيار العلاقات الرومانسية.

في الأمور العاطفية قد يستخدم بعض الشباب وسائل التواصل الاجتماعي لتتبُّع علاقات شركائهم السابقين، فيبكون على الأطلال الفايسبوكية، ويتركون كلمات تعبر عن حزنهم ويأسهم وتلويحهم بعدم جدوى الحياة.

الخطر هنا على الشخصيات الهشَّة من الصَّفحات التي تنشر المعلومات حول تقنيات إيذاء النفس أو التي تتضمن محتوى مؤيد للانتحار على وسائل التواصل الاجتماعي، إذ تشكِّل عاملاً مشجعاً للشباب على الانتحار أو تحثُّهم للتفكير في قتل أنفسهم. (Biddle، 2016). كما نجد مقاطعاً لفيديوهات إيذاء النَّفس في يوتيوب، بحيث ينشر بعض الشباب أفكارهم ونواياهم الانتحارية على وسائل التواصل الاجتماعي وصولاً إلى الانتحار المباشر وبثِّه.

وقد وجد الباحثون في دراسة قام بها أوكسانين وآخرون (Oksanen and all, 2016) كيف أنَّ الشباب الأمريكي والبريطاني والألماني والفنلندي كثيراً ما يتعرَّض لمحتوى الانتحار وأفكاره على وسائل التواصل الاجتماعي. وهذا التعرض له تبعات نفسية مسيئة ومؤذية وقد تساهم في زيادة خطر الأفكار الانتحارية بين الشباب. يبقى الخطر الأكبر «أن وسائل التواصل الاجتماعي قد تساهم بنشر عدوى الانتحار بين الشباب» (Robertson and all, 2012).

يقول بروكس ولونجستريت (Brooks, and Longstreet, 2015) أنَّه عندما يقضي الشباب وقتًا أطول على صفحات الفيسبوك، يصبح عرضة للرَّسائل على أنواعها، والعاطفية منها بشكل خاص. هذه الرَّسائل يمكن أن تؤدِّي إلى تراكم المشاعر والإنفعالات السيِّئة وزيادة مستويات الاكتئاب والانتحار.

في بحث ذي صلة، لاحظ فيليبس (Phillips, 2014) أن وسائل التواصل الاجتماعي تعزِّز الطريقة التي يتواصل بها الناس وتخلق صلة فيما بينهم، ولكنَّ الصلة التي تنشأ بين الأفراد لا تخفِّف من الشُّعور بالوحدة لدى البعض. هنا نصبح أمام شعور بالعزلة الاجتماعية أضف إليها معلومات مضلِّلة تحمل كمّاً من الانفعالات والمشاعر والأفكار السلبية، تزيد في اضطراب الشباب، لا سيَّما أولئك الَّذين يعانون من الاضطرابات العقلية والنفسية.

4. كيف نحمي الشباب ونُحصِّنه من هذه الإفكار المدمِّرة للذات؟

لا بدَّ في البداية من التعرُّف على أفكار الشباب «الانتحاريِّين»، ولذلك علينا البحث في السلوك الحياتي كما المدوَّنات على صفحات التواصل الاجتماعي لتقصِّي المؤشِّرات الانتحارية، فما هي المؤشِّرات تلك والتي تستدعي تدخُّلا وقائياً.

من المهمِّ أن نعرف أن ثمةَّ علامات إنذار وعوامل خطر يمكن تتبُّعها عند من يحمل ميولاً انتحارية على منصَّات التواصل الاجتماعي.

لا تظهر الميول الانتحارية ببساطة في سماء هادئة: عادةً ما يظهر الناس عدَّة مؤشِّرات على الانزعاج، خاصة عندما تتردى شروط الحياة لدرجة يبدو معها الاستسلام هو الخيار الأفضل. مشكلتنا تطال بالدَّرجة الأولى الشباب المراهقين، ولأن المراهقة هي فترة من عدم الاستقرار الكبير، قد يكون من الصَّعب التمييز بين علامات الانتحار والسُّلوك غير المنتظم والمتغيِّر في كثير من الأحيان في كتابات وسلوك المراهقين.

في عرض لأهمِّ المؤشِّرات التي يجب التَّنبه لها لدى المراهق، يقول قصقص (قصقص، 2015) أنَّه بحسب آخر الدراسات العلمية التي نشرتها صحيفة «ديلي ميل» البريطانية، فإنَّ وسائل التواصل الاجتماعي تؤثِّر بشكل سلبي على حياة آلاف الأشخاص دون أن يدركوا، فالإفراط في استخدام الإنترنت ومواقع التواصل قد يؤدي إلى اكتساب العادات السيئة ومنها: عدم النوم باكراً، عدم الالتزام بالوعود، المماطلة وتأجيل المهام. هذا بالإضافة إلى الآثار النفسيَّة والجسديَّة: كالخمول الجسدي بسبب قِلَّة الحركة، الصُّداع، والشُّعور الدائم بالتَّوتر والتَّعب، خصوصاً عند انقطاع الإنترنت أو ضعف بطاريَّة الهاتف، أضف إلى العزلة، التشبُّث بالرأي، الهروب من مواجهة المجتمع الواقعي ورفض المشاركة في الأنشطة الأسرية الهامَّة، التسرُّع وعدم التركيز، المبالغة في الفضول والأنانية. كما يؤدي الإفراط في متابعة مواقع التواصل إلى

ضعف الترابط العائلي وضمور العلاقات الاجتماعية أيضاً. هذه المؤشِّرات قد تكون لها تردُّدات سلبية وتشَّكل طريقاً مختصرة للعبور نحو الموت عندما تصعب أمور الحياة.

ثمَّة دراسة مهمَّة تساعد في اكتشاف الشباب المعرَّضين لخطر الانتحار من خلال منشوراتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، بحيث توفِّر هذه المنصَّات فرصة للكشف السَّريع عن الميول الانتحارية في سنِّ المراهقة.(Robert, 2015).

لقد وُجِدَ أنَّ بعض المشاركات تحتوي على رسائل انتحارية مقلقة ويجب الإهتمام بها، خاصَّة تلك التي يكتبها الشباب ويتقاسمونها، مثل:

- التي تنمُّ عن مشاعر يأسٍ ومللٍ وحزنٍ وغضبٍ لا يمكن السَّيطرة عليها.
- التي تؤشِّر للإكتئاب، والتنمُّر، والقلق بشأن المرض والمصاعب المالية.

كما على المحيط (الأسرة والأصدقاء) التنبُّه إلى التغييرات السلوكيّة التاليّة :

- انخفاض التَّفاعل مع العائلة والأصدقاء.
- قِلَّة الإهتمام بالأنشطة.
- صعوبة التَّركيز على الدِّراسات.
- إهمال المظهر الشَّخصي.
- تبدُّل واضح في السلوك.
- تغيُّر في عادات الأكل، مثل فقدان الوزن المفاجئ أو زيادة فيه.
- تغيُّر في أنماط النَّوم.
- تعاطي المخدَّرات أو الكحول.
- أعراض نفس جسديّة مرتبطة غالبًا بالإنفعالات، مثل الصُّداع والتَّعب واضطراب المعدة...
- التَّعبير عن تصوُّرات انتحارية على وسائل التواصل الاجتماعي.
- الحديث عن محاولة انتحارية سابقة مترافقة مع صور أثناء القيام بالفعل، أو جرح الجسد وتشطيبه أو أذيته بطريقة ما.
- رسائل وداعية وتعهُّدات أو عقد انتحار على النِّت أو وصيَّة.
- تبنِّي أفكاراً عدميَّة وعبثيَّة حول الحياة.
- التَّبخيس بالذَّات ولا جدوى الوجود.
- إطلاق طُرف حول الانتحار والإستهزاء بالموت والتحدُّث عن ما يمكن فعله بعد الموت.
- ذوي الأفكار الانتحارية يبحثون في المنصَّات الانتحارية كما في تلك التي تناهض الانتحار.
- كلما تعاظمت الأفكار الانتحارية كلما كان الانتحار وشيكاً.(Mars et al. 2015).

5. الانتحار ووسائل التَّواصل الاجتماعي:

لوحظ أن الرَّغبة الشدِّيدة في الانتحار تتضمَّن عاملان خطران مشتركان: عدم الانتماء (الشُّعور بالاستبعاد، والعزلة، والاقصاء عن العالم)، العبء (الانطباع بأنَّه عبءٌ على من حوله). والاستهلاك المفرط للشبكات الاجتماعية يمكن أن يعزِّز هذه الأفكار ويشجِّعها، إذ أنَّ هذا الإستهلاك ضارٌّ بشكل خاص بالصِّحة النفسية للمراهقين. إذ نرى زيادة كبيرة

في الأفكار والأفعال الانتحارية في هذه المرحلة. يشير المؤلفون إلى أنَّ الشَّباب الأميركي ارتكب المزيد من الانتحار بين عامي 2010 و2015، دون ظهور أعراض إكتئابية. (McClellan, 2017).

يمكن أن تؤدِّي العديد من المواقف الصَّعبة والمدمِّرة إلى التَّفكير في الانتحار. لكن من المحتمل أن يتمكَّن الأشخاص الذين لديهم شبكات دعم جيدة (مثل العائلة أو الأصدقاء أو الرياضة أو المجموعات الدينية أو الأنشطة اللاصفِّية)، من مشاركة مشاعرهم مع شخص يمكن أن يساعدهم. أولئك الذين لا يملكون مثل هذه الشَّبكات هم أكثر عرضة للخطر عندما يواجهون الاضطرابات الانفعالية، وقد يشعرون بالوحدة في العالم الواقعي كما الافتراضي.

بالإضافة إلى الضغوط التي تمارس عادة على المراهقين، قد تدفعهم الظروف الخاصة إلى التفكير في الانتحار، ويصعب الوضع بشكل خاص عندما يتعيَّن عليهم التَّعامل مع المواقف التي لا يتحكَّمون فيها، كما هي الحال على منصَّات التواصل الاجتماعي. فهم يرمون بنداء الاستغاثة وينتظرون تفاعل الآخرين وتعاطفهم معهم. ولكن في كثير من الأحيان فإن رسالتهم تشبه الزجاجة في البحر، بانتظار من سيعثر عليها في محيط اللامبالاة أو اللإهتمام. لكن المشكلة في مدى إمكانية معرفة الصادق من نداءات الاستغاثة والكاذب المتلاعب منها، وهذا الأمر قد يجعل الوقاية صعبة.

تُعتبر التعليقات المهينة والتدنّي في احترام الذات من الأسباب الرئيسية في السُّلوك الانتحاري للمراهقين. يتحدَّث البعض منهم علانية عن تفكيرهم بالانتحار أو يعبرون عنه كتابةً. يجب أن تؤخذ هذه الإجراءات على محمل الجد. الأفضل عدم التجاهل والمتابعة على أمل أن تكون هذه مجرَّد مرحلة عابرة. جميع محاولات الانتحار السابقة هي بوضوح طلب للمساعدة أو نداء استغاثة تتطلَّب التَّدخل قبل فوات الأوان.

وفي دراسة المؤتمر الأوروبي السادس والعشرون لنظم المعلومات (ECIS, 2018) حول الرَّابط بين وسائل التواصل الاجتماعي والانتحار، تمَّ تقديم أدلَّة مؤيِّدة وداعمة لنتائج وردت في 82 دراسة حول العالم، تبيَّن فيها وجود رابطين رئيسيَّين بين وسائل التواصل الاجتماعي وانتحار الشباب:

الرّابط الإيجابي، وهو عبارة عن مساهمة وسائل التواصل الاجتماعي بمنع الانتحار بين الشَّباب. والرّابط السلبي، وهو استخدام وسائل التواصل الاجتماعي كأداة لتحفيز انتحار الشباب والضَّغط عليهم من أجل فعل ذلك.

أ) الرّابط الإيجابي:

يقوم الشباب في هذا العصر، بالتعبير عن الأفكار الانتحارية على وسائل التواصل الاجتماعي قبل التحدُّث وجهاً لوجه مع الأصدقاء أو أفراد الأسرة أو المتخصِّصين في الرعاية الصِّحية حول

القضايا النفسية الخاصة بهم. هم على تواجد دائم على منصَّات التواصل لا يفارقونها.

لذا أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي أداة مراقبة قوية للأفكار الانتحارية بين الشباب، بحسب (Goh, and Huang, 2009). من هنا فإنَّ الرّابط الإيجابي يتبدَّى على الشَّكل التالي:

1- اكتشاف وتقصِّي الشباب المعرَّضين لخطر الانتحار من خلال منشوراتهم على مواقع التواصل الاجتماعي. أي أنَّ الأمر يتعلَّق أساسًا بمنع انتحار الشباب كما الكشف عن الشباب المعرَّضين لخطر الانتحار.

2- إقامة ورش وقائية وحملات توعية على منصَّات التواصل الاجتماعي لمنع انتحار الشباب.

3- تقديم الإستشارات عبر الإنترنت للشباب المعرَّضين لخطر الأفكار الانتحارية عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

في الصين، تمَّ تطوير نظام استخراج البيانات والمعطيات التي تسمح بتقصِّي وفهم اتجاهات الانتحار في سن المراهقة، باستخدام بيانات من صفحات الويب والمدوَّنات الصِّينية. كما نظام لإنتاج مجموعة من المؤشَّرات للإبلاغ عن الأفكار الانتحارية. في دراسة مماثلة تنظر إلى أنماط اللُّغة والمدوَّنة، يمكن التنبؤ بمؤشِّرات الميول الانتحارية بين الشباب الصيني. علاوة على ذلك قام الباحثون بإنشاء قاموس انتحاري لاكتشاف علامات محتملة لخطر الإقدام على الانتحار بين الناطقين باللغة الصينية. (Li and all, 2015).

نحن بحاجة إلى برنامج مماثل لتتبُّع عوامل الخطر في انتحار الشباب، من خلال تحديد وتحليل الكلمات الرئيسية والعبارات السائدة في مجتمعنا، والعمل على الحدِّ من نشر الأفكار الانتحارية التدميرية منعاً للتعاطف وربما التقليد.

وبحسب دراسة لمورينو (Moreno, 2014)، أطلق فايسبوك أداة، في عام 2011، لتساعد الناس في الإبلاغ عن محتوى كتابات تلمح للانتحار. أي يمكن للمستخدمين الإبلاغ إذا رأوا أن أصدقاءهم على فايسبوك قد نشروا رسائل الانتحار. تمَّ تصميم ميزة فايسبوك هذه للتعرُّف على الأشخاص الذين لديهم إمكانية إيذاء النَّفس، وبعدها يقوم بربط الشَّخص بالخطوط الساخنة لمنع الانتحار (Bell, 2014) وحثِّه للموافقة على تلقي العلاج النفسي والطبي.

يمكن أن تساعد الاستخدامات الإيجابية لوسائل التواصل الاجتماعي على منع انتحار الشباب، من خلال دعم الأقران للشباب ذوي الأفكار الانتحارية، وتعزيز برامج الوقاية وبثِّ الوعي للوصول إلى جمهور أوسع. (Luxton, all, 2012).

هناك بحث من قبل جوردن (Jordan, 2012) يشير إلى أنَّ الشباب الذين كان لديهم تفكير انتحاري شعروا بالحاجة لمزيد من التواصل الاستباقي والحملات الوقائية على وسائل التواصل الاجتماعي لمساعدتهم في الوصول إلى

الرعاية الصِّحية النفسية قبل إنهاء حياتهم. وهو ما يستدعي ضرورة التَّدخل قبل فوات الأوان.

تُعتبر منتديات النقاش عبر الإنترنت مكانًا يناقش فيه العديد من الشباب محاولات انتحارهم، لذا يمكن أن تساعد الرَّسائل العاطفية والمتعاطفة والداعمة في بثِّ الإحساس بالحضانة والحماية والمحبة وبالتالي تدفع بالبعض بالتراجع عن الانتحار.

على سبيل المثال، مشروع «It Gets Better»، فكرته تقوم على رصد ومنع الانتحار على يوتيوب، وتسعى إلى إنشاء مجموعة فاعلة وناشطة على الإنترنت لإعطاء الأمل وخلق الإستراتيجيات وإطلاق الحملات الداعمة والمساندة في جميع أنحاء العالم من خلال إعلامهم بأن مواقفهم الصَّعبة سوف تتحسَّن(Muller, 2012). بدأت الحملة في عام 2010 على موقع يوتيوب وتمَّ تعميمها لاحقًا إلى منصَّات التواصل الاجتماعي الأخرى (Honda, 2016).

ب) الرّابط السلبي

كما تمَّ العثور على روابط سلبية بين وسائل التواصل الاجتماعي وانتحار الشباب كمثل:

ـ استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لتشجيع الشباب والضَّغط عليهم للانتحار، من خلال التنمُّر عبر الإنترنت، والرَّسائل الجنسية المؤذية، والفضائح، والسُّخرية، والإذلال.

ـ نشر المعلومات حول تقنيات إيذاء الذات والمحتوى المؤيِّد للانتحار وأحياناً الممجِّد له، على وسائل التواصل الاجتماعي.

في دراسة حول التنمُّر عبر الإنترنت ومن خلال وسائل التواصل الاجتماعي، تبيَّن في العديد من حالات الانتحاربين الشباب، نشر رسائل مؤذية ومهينة بحقِّهم، كمصور الفاضحة ومقاطع فيديو لوضعيَّات غير مناسبة، وغالباً الضَّحايا هم الشباب المراهق. (Alvarez, 2012).

الغيرة أيضاً، تشكِّل عنصراً من عناصر التنمُّر عبر الإنترنت بين الشباب. ولعلَّ الشّابَّات هنَّ أكثر ضحايا التنمُّر والاضطِّهاد والتشهير والابتزاز.

وثمَّة مجتمعات ظلام على الإنترنت تُشجِّع الشباب على الانتحار جماعة أو من خلال توقيع إتفاقية الانتحار، كما يتمُّ تبادل المعلومات المتعلِّقة بأساليب الانتحار في بعض المنصَّات، وسعيٌ لتجنيد أشخاص للانضمام إلى منتديات المناقشة وهو أمر جدُّ خطير على شباب ذوي هشاشة نفسية وفي أوضاعٍ خطرة (Bell, 2014).

6. كيف يمكن استخدام الإنترنت للوقاية من الانتحار؟

هناك واجبٌ لحماية الشباب من الإقدام على الانتحار المرتبط بالتنمُّر والتهديد والابتزاز عبر الشَّبكات. هو واجب المشرِّعين والآباء والمربِّين والأمنيِّن في العمل معاً لمكافحة هذا الأمر.

تحتاج نظم المعلومات والعلوم الصحِّية إلى العمل سويًّا لتحقيق ذلك، كما

يتطلَّب الأمر فريقاً متعدد التخصُّصات. من المفيد أيضًا تطوير المزيد من أنظمة المعلومات لتحديد الأشخاص المسيئين والذين يستقوون على الآخرين، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، كما سنِّ القوانين ومعاقبتهم. لكن أيضاً يجب التعامل مع المسيئين أولاً بغرض تقديم المشورة والمساعدة النفسية للحدِّ من أذيَّتهم.

عمليّاً، قامت فيسبوك بمواجهة التنمُّر عبر الإنترنت عن طريق حذف أو حظر مستخدمي منصَّات التواصل الاجتماعي المسيئين، لعله يُفيد في التقليل من الضَّرر وإن كان لا يردع.

ثمَّة سبل وقائية أخرى يمكن تطبيقها في مجتمعاتنا وبالتعاون مع الأهل والأصدقاء وهي:

- التواصل الدائم مع الأبناء منذ الصغر حول مجريات الأحداث اليومية وتنبيههم على عدم الوقوع ضحية المتنمرين، وما لم يُفتح باب الحوار في الطفولة قد يُغلق إلى الأبد.
- تقصِّي الحالات «الخطرة» والتي تحمل أفكاراً انتحارية والتوجُّه نحوها ببرنامج دعم نفسي وقائي.
- وضع رسائل إيجابيَّة على صفحات الفايسبوك ومشاركتها مع الشباب ذوي خطر الانتحار.
- وضع منصَّات للاستشارات النفسية المجَّانية.
- إعداد متخصِّصين نفسيِّين للعمل على الوقاية من الانتحار.
- التَّعريف بالاكتئاب وعوارضه باعتباره حالة قابلة للشِّفاء. نظرًا لأنَّ الغالبية العُظمى من المراهقين الذين ينتحرون لديهم أعراضاً مختلفة من الاكتئاب.
- وضع مقاطع فيديو يوتيوب حول تجارب حقيقيَّة في التنمُّر عبر الإنترنت من أشخاص وقعوا ضحيَّة التسلط والإبتزاز، ومشاركة تجاربهم الرهيبة وكيفية مواجهتها وعدم الوقوع فريسة المتسلِّطين.
- وضع منتديات حوار حول الانتحار على الإنترنت، وقد ثبت أنَّها مفيدة إلى حدٍّ كبير للشباب ذوي التفكير الانتحاري. (Doane, 2016), (ziomek, 2016).

إنَّ مناقشة الانتحار تساعد الشباب الذين هم قرَّاء المنتدى في الحصول على مزيد من التبصُّر والدَّعم، دون ضرورة الكشف عن هويَّتهم. فتبادل الخبرات مهمٌّ لإلهام الشبَّاب الآخرين، والأهمّ من ذلك، أنَّ الوصول لهذه المعلومات متاحٌ في أيِّ وقتٍ عبر الإنترنت وبشكل مجَّاني.

الأمر شبيه بما يحصل مع المرضى النفسيين، حيث يمكن القيام بالتدخُّلات بأشكالٍ مختلفةٍ مثل تقديم الاستشارات الجماعية المغلقة عبر الإنترنت لمرضى بأفكارٍ انتحارية، من خلال تقديم الدَّعم والتوجيه حول كيفية الوصول إلى خدمات الصِّحة النفسية. (Scherr, and Reinemann, 2016).

- العمل على وضع برنامج للوقاية من الانتحار، بالتعاون مع مبرمجي معلوماتية لرصد الشَّخصيات التي تحمل خطر الانتحار، ووضع ما أمكن من تصنيفات لها ولكلماتها الأكثر تواتراً.
- الحرص على عدم وجود أسلحة ناريَّة

وذخيرة في متناول المراهق، كإجراء وقائيٍّ مهمٍّ، إذ تزيد الأسلحة المخزَّنة في المنزل من خطر وفيات الانتحار لأنَّها تزوِّد بالوسائل الكفيلة بإنهاء الحياة

ـ هل الحلّ بمنع الإنترنت؟

التناقض واضح هنا، فمن جهة لدينا النتّ الذي يحتوي على معلومات حول الانتحار ووسائله وكم قد تكون مؤثِّرة ومحفِّزة للبعض، ومن جهة أخرى هناك النتّ كوسيلة معلومات هامَّة حول الصِّحة الجسدية والنفسية والوقائية من الانتحار. فما العمل؟

لا يمكن وضع المراهق خارج «الزَّمن» بحجب وسائل التواصل الاجتماعي عنه، يمكن تدريبه، إذا ما تأزَّمت أمور حياته، على التخفيف من استعمالها أو التوقُّف عنها إذا ما ارتأى ذلك، أو ترشيده لكيفية استعمالها، من حيث نوعية الصَّفحات والوقت الذي يقضيه أمامها. والأفضل أن يقوم بهذه المهمَّة إما أخصَّائي نفسيّ وإما شخصٌ ذو حكمة ومقرَّبٌ من المراهق.

فالمراهق عامَّة يرى أن والديه «غير قادرين على فهمه»، وهو أمر طبيعيٌّ ويجب تفهمه في هذه المرحلة من النموّ والسعيّ لإثبات الذات والاستقلال عن الأهل، لذا الأفضل التوجُّه إلى شخص آخر له مكانة وتقديراً لدى المراهق، قد يكون من أفراد الأسرة أو مرشدًا روحيًا أو مربيًا أو مدربًا أو طبيبًا، للاستماع له وإسداءه النصح، في العالم الواقعي وليس الافتراضي.

تساعد وسائل التواصل الاجتماعي في بناء الشُّعور بالانتماء ودعم الآخرين، ومجرَّد قضاء وقتٍ على منصَّاتها يُشغل ويمنع من التفكير في المشاكل النفسية. لذا يجب استغلال هذا الأمر وإشغال المعنيين، ومن الضَّروري إراحة هؤلاء بتذكيرهم بأنَّه من الممكن حلّ أيِّ مشكلة عبر طرق أخرى غير الانتحار. إن إتاحة الفرصة للشباب في التعبير عن مشاعرهم سيساعدهم على تخفيف الضِّيق الذي قد ينجم عن هذه المشاعر الأليمة، ويساعدهم على الشُّعور بالدِّفء الإنساني وليس الوحدة والعزلة. إذ يحتاج المراهقون إلى معرفة أنَّهم موضع اهتمام الآخرين واعترافهم بمعاناتهم وآلامهم واستعدادهم للاستماع إليهم ودعمهم، دون أيَّة أحكام مسبقة.

تتيح المساعدة النفسية للمراهقين في تطوير آليَّات فعَّالة تسمح لهم بالتعامل مع مشاكلهم، وتساعدهم في التغلُّب على عدم الاستقرار الانفعالي، الذي قد يدفع في كثير من الأحيان إلى الانتحار. وهو ما يزوِّدهم بمهارات مفيدة قد تقوِّي مناعتهم النفسية عندما يواجهون ضغوطات الحياة في المراحل اللَّاحقة.

من الضَّروري التَّعامل بجدِّية مع أيِّ سلوك انتحاري وأيِّ محاولات انتحار سابقة وأن تَحوَّل للمساعدة الفورية.

7. التحدِّيات

لا شكَّ أنَّ ثمَّة تحدِّيات تفرض نفسها، لعلَّ أبرزها:

ـ صعوبة تقييم الوضع النفسي والانفعالي

وتقدير الخطر من خلال الكلمات المنتشرة على المنصَّات، ودون التفاعل والتبادل الإنساني الحي.

ـ فقدان الخصوصية والحياة الحميمة في عرض المشاكل على منصَّات التواصل الاجتماعي.

ـ خطر الوقوع في عدوى التقليد التي كثيراً ما نراها لدى المراهق. إذ أنَّ ثمَّة خطر يجعل من هذه المدوَّنات والصَّفحات عُنصر تحفيز لبعض الشَّخصيات الهشَّة على الانتحار، حتَّى وإن كانت الرسائل إيجابية. والسبَّب هو خطر التقليد، وهو معروف قبل الشبكات الاجتماعية، وحتَّى قبل التلفزيون، إذ كان هناك ما يسمى «الانتحار بالتقليد» لشخصيَّة ما، وقد يشعر شخص ما بالتَّماهي مع انتحاريٍّ مرَّ بنفس معاناته فيقول لنفسه: «بما أنَّه انتحر كحلٍّ لمشاكله، يمكنني الانتحار». هذا هو السبَّب في توخِّي الحذر إزاء هذا النَّوع من التواصل، لأنَّ التعاطف مع شخص يُشابهه بمُعاشِه وقد وجد الخلاص عبر قتل الذات، وبما أنَّ التقليد ينطوي على تماهي مع الآخر الشَّبيه فخطوة الانتحار تبدو مقبولة من قبل الحالات الأكثر هشاشة. وعلى شبكات التواصل، هناك مستخدمون يتواصل بعضهم مع البعض، لذلك هناك خطر التقليد وتفشِّي الظاهرة.

السُّؤال الذي يُطرح هنا، هل ثمَّة خطر من أنَّ المنصات التي تعمل كوقاية وإرشاد من الانتحار تُطوِّر، ودون قصد، فكرة أنَّ الانتحار أمرٌ طبيعيٌ وخيارٌ يمكن للّجوء إليه لحل المشاكل عندما تسوء الأمور؟. ذلك أن الأمر حصل مع المدمنين في بداية الحملات ضدَّ الإدمان ومخاطره، بحيث كان يسمح للطبيب والنفساني والمعلِّم ورجل الدين والشُّرطي والقانوني التحدُّث بالأمر واطلاق العظات حوله، لكن تبدَّى بعد دراسة عقبت الأمر أن الحملات حفزت تعاطي المخدِّر وتعاظمت نسبة المدمنين، وخصوصا لدى المراهقين.

لكن وفي دراسة حول «السلوك المساعد على الفيسبوك» لعينة من 299 مراهق بأفكار انتحارية، تبَّين الأثر الإيجابي لهذه الصفحات في لجم الأفكار الانتحارية (Berger, 2014) وهو أمر مطمئن بعض الشيء لكن علينا إجراء بحث في بيئتنا وعلى عيِّنة محليَّة للتأكُّد من سلامة الأمر، لكن إلى ذلك الحين يجب أن يتوكَّل المتخصِّصون في علم النَّفس التعاطي الإرشادي مع ذوي الأفكار الانتحارية على شبكات التواصل الاجتماعي وليس أيُّ متخصِّص آخر، نظراً لحساسيَّة الموقف وخطورته.

ختاماً، هو اجتياح لعالم جديد غزانا، عالم تواصل افتراضي، من لم يدخله بات خارج الوجود، فحيثما توجهنا نُسأل عن البريد الإلكتروني والرقم الخليوي كبطاقة تعريف ووسيلة تواصل. حتى المناسبات الاجتماعية بأفراحها وأتراحها باتت تمرُّ من خلال الفيسبوك والواتس أب، وما لم يتمّ التعليق عليها، يظهر العتب والشُّعور بالإحباط والغضب واللااعتبار.

هواتفنا الذكية كما الكمبيوتر باتا المرافق الدائم، لا يهمُّ أين نحن ومع من، نحن دائماً متَّصلون ومتواصلون بالآخرين،

نتفاعل ونتناقش ونتبادل المعلومات، وقد نمضي أوقاتاً سعيدة كما قد يسيء بعضنا للبعض الآخر. لا بدَّ من مرور بعض الوقت لمعرفة المساوىء الجسديَّة والنفسيَّة والعقليَّة لهذا التحوُّل التكنولوجي السَّريع، لكن وككلِّ جديد، هناك قلق مرافق، ولا شك هناك إيجابيات جمَّة إذا ما أُحسن استخدام هذه التكنولوجيا باعتدال دون الوصول لعتبة الخطر.

لعلَّنا تناولنا جانباً مُظلماً من استخدام المنصَّات الاجتماعية، لأنَّ الظاهرة منتشرة عالميَّاً ومحليَّاً، ووجب التنبُّه لها وأخذ الإجراءات الوقائيَّة اللازمة قبل استفحالها. لكن لا يمكن إنكار الجوانب المضيئة وسط هذا السواد الذي ذكرناه، فهي وسيلة للتَّواصل والتَّغيير والتَّطوير والثَّورات، وأداة معلومات لأحدث التطوُّرات والأخبار، وصلة وصل بين الأهل والأصدقاء في المهجر، ووسيلة للعثور على أصدقاء قدامى وأحبَّة قُطع التواصل معهم، ولتطوير علاقات جديدة من صداقة أو حب. ولعلَّها أفضل علاج للوحدة والملل، فالشعور بالوحدة والفراغ لا يحتمل، والشبكات الاجتماعية تردم جزءاً من هذا الفراغ العلائقي، وغالباً ما تلجم الأفكار الاكتئابية أيضاً.

لكن هل نحتاج حقًا إلى مائة أو خمسمائة صديق؟ وهل هي فعلاً صداقة صادقة؟ أم أن الصَّداقة هي أكثر من مجرد وجه على شاشة.

بالنهاية، الشَّبكات الاجتماعية والإنترنت قادرة على الأفضل كما الأسوأ، وعلى الأهل والمربِّين إرشاد الأطفال والشباب نحو الأفضل.

د.إلهام الحاج حسن

المصادر والمراجع:

1- Alvarez, A. (2012). Confronting cyberbullying and exploring the use of cybertools in teen dating relationships." Journal of Clinical Psychology 68 (11), 1205-1215.

2- Anderson, C. Gentile, D. & Buckley, K. (2007). Violent video game effects on children and adolescents: Theory, research, and public policy. New York, NY, US: Oxford University Press.

3 - Bell, J. (2014). "Harmful or helpful? the role of the internet in self-harming and suicidal behaviour in young people." Mental Health Review Journal 19(1), 61-71.

4- Biddle, L., Derges, J., Mars, B., Heron, J., Donovan, J. L., Potokar, J Gunnell, D. (2016)."Suicide and the internet: Changes in the accessibility of suicide-related information between, pubmed:NY.

5- Berger, E., Hasking, P. Reupert, A. (2014). "We're working in the dark here": Education needs of teachers and school staff regarding student self-injury. School Mental Health 201-212.

6- Brooks, S., and Longstreet, P. (2015). "Social networking's peril: Cognitive absorption, social networking usage, and depression." Cyberpsychology 9.

7- Doane, A. N., Boothe, L. G., Pearson, M. R., and Kelley, M. L. (2016). "Risky electronic communication behaviors and cyberbullying victimization: An application of protection motivation theory." Computers in Human Behavior 60, 508-513.

8- Douglas A. Gentile, Hyekyung Choo, Albert Liau, Timothy Sim, Dongdong Li, Daniel Fung, Angeline Khoo. ( ), - Pathological Video Game Use Among Youths: A Two-Year Longitudinal Study, in PEDIATRICS 127 (2): e319-29. February 2011.

9- ECIS, Social media and youth suicide: A systematic review ,Twenty-Sixth Europea Conference on Information Systems, Portsmouth, UK, 2018 .

10- Getty Research Institute,.Goh, T., and Huang, Y. (2009). "Monitoring youth depression risk in web 2.0." VINE vol 39, n(3), 192-202. Los Angeles , USA

11- Harris, F. M., Maxwell, M., O'Connor, R., Coyne, J. C., Arensman, E., Coffey, C., Cserhati, Z. (2016).Exploring synergistic interactions and catalysts in complex interventions: longitudinal, mixed methods case studies of an optimised multi-level suicide prevention intervention in four european countries (Ospi-Europe). BMC public health, 16.

12- Honda, L. P. (2016). "Motivations for activists' participation in the 'it gets better project'." Public Relations Inquiry 5(3), 253-276.

13- Jousselme Catherine INSERM. Santé.Suicide: les réseaux sociaux, un nouveau facteur de risque ? Publié le 08/09/2017 .

14 - INSERM. Créé en 1964, l'Inserm est un établissement public à caractère scientifique et technologique, placé sous la double tutelle du ministère de la Santé et du ministère de la Recherch.

15- Jordan, J., McKenna, H., Keeney, S., Cutcliffe, J., Stevenson, C., Slater, P., and McGowan, I. (2012)."Providing meaningful care: Learning from the experiences of suicidal young men."Qualitative Health Research 22(9), 1207-1219.

16- Karam E, IDRAAC Symposium on suicide in Lebanon, Suicide in Lebanon: Where Are We? February 17, 2018. Beirut

17- Li, T. M. H., Chau, M., Yip, P. S. F., and Wong, P. W. C. (2014). "Temporal and

computerized psycholinguistic analysis of the blog of a Chinese adolescent suicide." Crisis 35(3), 168-175.

18- Luxton, D., June, J., and Fairall, J. (2012). "Social media and suicide: A public health for, information about suicide and self-harm on the Internet: Prevalence and predictors in a population based cohort of young adults. Journal of affective disorders, 185, 239-245. ISO 690.

19 - McClellan, C., Ali, M. M., Mutter, R., Kroutil, L., and Landwehr, J. (2017). "Using social media to monitor mental health discussions - evidence from Twitter." Journal of the American Medical Informatics Association 24(3), 496-502.

20- Moreno, M. A., Christakis, D. A., Egan, K. G., Jelenchick, L. A., Cox, E., Young, H., and Becker,T. (2012). A pilot evaluation of associations between displayed depression references on Facebook and self-reported depression using a clinical scale. Journal of Behavioral Health Services and Research 39(3), 295-304.

21- Moreno, M. A., Jelenchick, L. A., Egan, K. G., Cox, E., Young, H., Gannon, K. E., and Becker, T.(2011). "Feeling bad on Facebook: Depression disclosures by college students on a social. networking site." Depression and Anxiety 28(6), 447-455.

22- Muller, A. (2012). "Virtual communities and translation into physical reality in the 'It gets better'.

23- Oksanen, A., Näsi, M., Minkkinen, J., Keipi, T., Kaakinen, M., and Räsänen, P. (2016). "Young people who access harm-advocating online content: A four-country survey."Cyberpsychology, 10(2).project." Journal of Media Practice 12(3), 269-277.

24 - Sueki H (2013) The effect of suicide-related Internet use on users' mental health: A longitudinal study.Crisis34: 348-353.

25- Phillips, J. A. (2014). "A changing epidemiology of suicide? The influence of birth cohorts on suicide rates in the United States." Social Science & Medicine 114, 151-160.

26- Robert, A., Suelves, J. M., Armayones, M., and Ashley, S. (2015). "Internet use and suicidal behaviors: Internet as a threat or opportunity?" Telemedicine and e-Health 21(4), 306-311.

27- Robertson, L., Skegg, K., Poore, M., Williams, S., and Taylor, B. (2012). "An adolescent suicide cluster and the possible role of electronic communication technology." Crisis 33(4), 239-245.

28- Sastre ,P.(2017).Les réseaux sociaux sont-ils en train de pousser les ados au suicide? Sciences, 16 novembre.

29- Scherr, S., and Reinemann, C. (2016). "First do no harm: Cross-sectional and longitudinal evidence for the impact of individual suicidality on the use of online health forums and support groups."Computers in Human Behavior 61, 80-88.

30- Twenge, Jean M. Thomas E. Joiner, Megan L. Rogers et Gabrielle N. Martin,(2017)

Increases in Depressive Symptoms, Suicide-Related Outcomes, and Suicide Rates Among U.S. Adolescents After 2010 and Links to Increased New Media Screen Time. Journal of Affective Disorders1 4 Nov. 190, 370-375.

31 - UNESCO. (2016). What do we mean by "youth"?, http://www.unesco.org/new/en/social-and-humansciences/themes/youth/youth-definition.

32- Ziomek-Daigle, J., and Land, C. (2016). "Adlerian-based interventions to reduce bullying and interpersonal violence in school settings." Journal of Creativity in Mental Health 11(3-4), 298-310.

– مجلة العربي الجديد، الخميس 13/ 08/ 2015 م مقالة ل عمر قصقص. مواقع التواصل تؤدي إلى الانتحار؟ ص 33.

– بعض المواقع الألكترونية ذات الصلة:

- https://www.happinessresearchinstitute.com/experts

- https://www.research.manchester.ac.uk/portal/en/media/the-week-why-selfharm-among-teenage-girls-has-doubled-in-two-decades(b8dcdb65-70f5-42eb-9604-d1d4ccecfeac).html" 2018.

دراسة نقدية لرواية "الاعترافات" للروائي ربيـــع جابـــر

د. هبة الحشيمي

المقـدمـــة

"الاعترافات" رواية لبنانية للكاتب "ربيع جابر" تتحدّث عن أحداث جرت خلال الحرب الأهلية اللبنانية من العام 1975 وما حدث بعدها. سرد الروائيّ قصة الطفل الصغير "مارون" الذي عاش حياته متلبساً شخصيتين. عاش في حضن أسرة ليست أسرته، وتقمص في صورة طفل لم يره إلا في الصورة، التي تتوسّط غرفة الجلوس التي تتزيّن بشريط أسود من زاويتها. رأى "مارون" ذاك الطفل من خلال مرض أمّ الولد، وهي الأم التي ربته والتي لم تفارق فراشها، بفقد ابنها التي انجبته ومات في الحرب، ومن خلال حقد والد الطفل ـ مارون الأول الطفل المتوفى ـ والذي حضنه ورباه وأنقذه من الموت المحتم ـ والذي لم يره في أثناء الاشتبكات، بل عرفه من خلال عيون إخوته الحائرة، ونظرات جيرانهم المتسائلة.

لم يدرك "مارون" معنى تلك العيون والنظرات حتى أخبره أخوه "إيليا"، عندما أوشك والده على الموت، وهم ينتظرون خبرًا من الممرّض في صالة الانتظار، فاعترف باقتراف والده جرائم القتل، وهو من قتل أهله وقتل والده عمدًا في السيارة، ولم يقوَ على تصفية طفل بعمر ابنه وشبيهٍ له ـ الذي خُطف وقُتل من ملعب كرة القدم، ورُمي في منطقة المتحف ـ فحمله مسرعًا إلى السيارة متوجهًا إلى المستشفى لمعالجته، ونادمًا على عملته في محاولة قتل الطفل.

من هو ربيع جابر؟

ربيع جابر (مواليد 1972)، هو روائي وصحفي لبناني، محرّر الملحق الثقافي الأسبوعي آفاق في جريدة الحياة منذ سنّة 2001. روايته الأولى سيد العتمة حازت جائزة الناقد للرواية سنة 1992. منذ ذلك الوقت أصدر 16 رواية منها: شاي أسود، البيت الأخير، يوسف الانجليزي، رحلة الغرناطي (صدرت بالألمانية في برلين عام 2005), بيريتوس: مدينة تحت الأرض (صدرت بالفرنسية عام 2009 عن دار غاليمار) وأمريكا التي وصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام 2010.

ـ حياته

وُلد في بعقلين، لبنان عام 1972.

درس الفيزياء في الجامعة الأمريكية في بيروت. نشر روايته الأولى سيد العتمة عام 1992، ونالت جائزة النقاد للرواية. بعد ثلاث سنوات صدرت روايته الثانية شاي أسود. في 1996 نشر ربيع جابر تحت اسم مستعار هو نور خاطر رواية عنوانها الفراشة الزرقاء.

ـ أعماله

سيد العتمة، 1992 ـ شاي أسود، 1995 ـ البيت الأخير 1996 ـ الفراشة الزرقاء 1996ـ رالف رزق الله في المرآة، 1997 ـ كنت أميراً 1997 ـ نظرة أخيرة على كين ساي 1998 ـ يوسف الإنجليزي 1999 ـ رحلة الغرناطي 2002 ـ بيروت مدينة العالم 2003، 2005 ـ بيريتوس: مدينة تحت الأرض 2005 ـ تقرير مهليس 2006 ـ أمريكا 2009 ـ دروز بلغراد 2010 ـ طيور الهوليداي إن 2011.

تعريف عن رواية "الاعترافات"

مكتوبة عن الحرب، ولكنها هادئة إنسانية عميقة تثير الذكريات في النفوس، ذكريات حزينة تارة وأخرى رقيقة كنسيم البحر، تعبر عن الجانب الآخر للحروب، الجانب الإنساني ربما الجانب النفسي والاجتماعي، ذلك الطرف من ذاكرتنا البعيد جداً عن الصخب في فترة الحرب..

اعتدنا أن نقرأ روايات عن الحروب مملوءة بالصخب والدماء وأصوات العنف والأعمال الشنيعة التي ترتكب و.. وغيرها من مآسي الحروب والقتال..

ولكن هذه الرواية ليست كذلك، نعم رغم أنها تتحدث عن الحرب ولكنها ليست كذلك ببساطة... هي رواية راقية تكتب بلغة بسيطة جداً، ولكن تظهر تفاصيل ممتعة وراء تلك الكلمات،وتحتاج فقط أن تركز مع تلك الكلمات.

هذه الرواية تتحدث عن الحرب اللبنانية حيث قصة ذلك الصبي الذي ينقذه المسلحون من براثن الموت بعد قتل أفراد عائلته حيث يعيش مع عائلة أخرى وهو يتصور أنهم عائلته الحقيقية،ويصور ربيع جابر تلك العلاقة مع العائلة الجديدة واندماجه معهم.. لا يعلم حقيقة عائلته إلا في نهاية الرواية تقريباً ويحاول أن يتأقلم مع المعرفة الصادمة عن حقيقته وكينونته.

يقول في بداية الرواية (وهي طبعاً أكثر جملة مؤثرة وحزينة طبعاً): "أنا لست أنا، وحياتي ليست هي حياتي وأبي ليس أبي"، شعرت بألم حقيقي كبير وأنا أقرأ تلك الكلمات أحسست بما يمكن أن يشعر به شخص يمر بتلك المحنة.

"أبي كان يخطف الناس ويقتلهم!"، هكذا ببساطة يبدأ الراوي في سرد تلك الرواية الغريبة، رواية من الماضي، من أدغال الذكريات رواية من أعماق الوجع ونزيف القلب، رواية صغيرة تتحدث عن حياة أحدهم في وقت الحرب الأهلية اللبنانية.

كيف تمزق الحروب الأطفال، كيف تُنتزع منهم عائلاتهم ليجدوا أنفسهم بين مصيرين؛ إما يُلقون في الشوارع والملاجئ، وإما تنقذهم أحدى العائلات الحنون

من المصير الأول. كان مصير البطل هو المصير الثاني، لكنه أصبح ممزق بين عائلتين بين ذاكرتين إحداهما تسعى إليه حتى بتفاصيلها الصغيرة التي يتعجب كيف يتذكرها والأخرى يسعى هو إليها ويريد اللحاق بها.

يريد أن يمسك بخيوط ليفك طلاسم تلك الرؤى التي يراها، ولا يفهم منها شيئًا ولا يستطيع أن يحدد ماهيتها. أين رآها؟ متى مرّ بها؟ ومن هؤلاء؟

يظل يُفكر ويُفكر حتى يطن رأسه وتنزف أذنه! هذيان وحالة انفصام في الشخصية واضح حتى في طريقة سرد الذكريات. أن هذا هو أكثر ما أبدع فيه الكاتب، فحتى مع التخبط في السرد وعدم ترتيب الأحداث بترتيبها الزمني. وقفزنا معه بين السطور ومحاولة تركيب الأحداث في ذهنك بترتيبها الزمني لتكون قطعة البازل كما هي.

إلا إن أكثر ما كان يجذب، هو قدرته على التعبير عن تمزق البطل ما بين شخصيتين، وتساؤلاته الحائرة، وردوده على نفسه بحالة لا وصف لها من الهذيان. ربيع جابر يكتب عن جنون وعبثية الحرب

سرد بارع وكأنه يوثق به أحداث الحرب في بلده، بداية من الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975.

في أقل من 150 صفحة استطاع أن يرسم صورة واضحة لأثر الحرب على حياة ونفسية وهوية الإنسان من خلال اعترافات وذكريات الراوي.

ـ الإشكالية

يقوم هذا البحث بالكشف عن الفضاءين المكانيّ والزمانيّ، وتأثيرهما في منزلة العواطف التي أثّرت على المنظورين السّابقين، فضلاً عن العلاقة التي أقامها الرّاوي بينهما مع المكوّن العاطفي، مسترسلاً بالسرد حينًا والوصف أحيانًا.

وينطلق البحث من فرضيّة هلنرى أنّ العواطف يمكن أن تكون موضعًا للتنازع بين طرفين مختلفين من حيث المعتقد والاتّجاه والمناطق؟أم ان هذا التنازع من شأنه أن يكون العاطفة ويتأثّر بها المنظور المكانيّ والمنظور الزمانيّ على السواء؟ وهل هذه العاطفة جعلت من أبنية الرواية قائمة على الوصف والتحليل والسرد لتحقيق الإقناع، وأم أنها قائمة على قدرة الراوي في إثارة المشاعر والعواطف؟

ويمكن، في هذا الصدد، استحضار كلام أرسطو على العواطف بما لها دور في الإقناع في خلال عمليّة التخاطب، وذلك في كتابه "مقاربة العواطف" (الباطوس) [1]، حيث إنّ العواطف ليست مجرّد حجّة يستخدمها الخطيب إلى جانب حجج أخرى، بل هي لتحقيق قدر فعليّ من النجاعة يضمن تحقيق الإقناع.

ـ دلالة العنوان

يثير عنوان الرواية "الاعترافات" فضول القارئ؛ ذلك أنّ "أل" التعريف جعلت من "الاعترافات" اعترافات قريبة من الصدق إلى حدٍّ ما من المجتمع اللبناني، وخاصة أثناء الحرب الأهلية. فوضعها

الكاتب بصيغة الجمع ليرفض فرضيّة الاعتراف الواحد؛ فهذا الجمع أعطى إيحاءات سريّة سيعترف بها الرّاوي لأوّل مرة للقارئ.يقدّم العنوان وثائق تاريخيّة تمثّل ذاكرة لبنانيّة إنسانيّة تُختصر في الثنائيّة (حرب/ حبّ). وهذه الثنائيّة تجسّدت في الوقت ذاته في شخصيّة شاركت بالحرب والخطف والقتل. لذا جاء العنوان اعترافًا من الراوي بأحداث لم تروَ من قبل "أبي كان يخطف الناس ويقتلهم. أظن أنّه رأى أبي يتحوّل في الحرب من شخص يعرفه إلى شخص لا يعرفه"[2].

يمكن القول إنّ العنوان تأويل لبناء الرؤية المنتمية إلى ثقافة عدم الانكسار أمام الحياة بل هي كل ما يرويه الراوي من إعادة تشكيل لما يراه كل الناس من الواقع الحقيقي والمرجعي. أما الفضاء الروائيّ فيتجسّد في عمق رؤية الأديب لما لمجتمعه من تأثير عليه. لذلك، أنتجت سرديّته انكسارًا أمام العطف والحنان والحب، فوضعت يدها على تقنيات لا يمكنها أن تضع بين أيدينا إلا عمق النظر التي يريد أن يطلقها الراوي لنا لنكشف الحقائق، وأن يمسح الغشاوة على أعيننا، ونعيد ترتيب علامات الزمان من الديمومة، والتردد، والترتيب، والدوائر، وغيرها من التقنيات، التي تعامل معها الرواي ليرتقي بنا إلى عالم المودّة والاحترام والحب، وكشف الستائر عن قلوب ماتت مع موت فلذات كبدها، وهذا ما جعل المنظور الايديولوجيّ مكوّنًا أساسًا من مكوّنات الرواية، وذلك لإمساكه بالعالم الواقعيّ وتقديمه رؤية مستقبليّة صادرة من أعماق تجربة شخصيّة.

المبحث الأول: بناء المكان وتأثيره في عاطفة الراوي

ـ تمهيد

يتناول هذا المبحث بناء المكان في رواية "الاعترافات". ويعني ذلك أنه يعاين مساحة العمل الروائيّ على مستوى المكان وسكانه وشخصياته وأشيائه. ويشمل المكان الروائيّ جميع الأماكن التي تدور حولها، وفيها أحداث الرواية، كما "يقدّمها الوصف المنتظم في سياق حركة تشكل البناء الروائي"[3]، فـ "لا يمكن تصوّر الفضاء الروائيّ من دون تصوّر الحركة التي تجري فيه. في حين أنه يمكن تصوّر المكان الموصوف من دون سيرورة الزمن"[4]. وهذا دليل على أنّ المكان عامل أساسيّ من عوامل سرد الرواية، في وقت يرى حسن بحراوي أنّ "المكان لا يتشكّل إلا باختراق الأبطال له... وتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال"[5].

إنّ المكان في الرواية هو المكان الذي تدور فيه الأحداث التي تترك أثرًا في حياة الشخصيّات. لذا يتأثّر المكان بالعاطفة والحدث إن كان مفرحًا أو محزناً، وهذا يعني أنه ذو وجود فني وعاطفي واضح المعايير، سواء أتعلّق الأمر بأسماء المناطق أم بأسماء الأشخاص أم بأسماء السيارات واتجاهاتها، والتعامل معها كأنها شخصية مشاركة في السرد والأحداث. هذا وأنّ العاطفة تعدّ

المسلك الأساس داخل الخطاب السردي، فتساعد على تبرير ما يشعر به المتكلم من عواطف، وتحميل المخاطب على الاعتقاد في صحة ذلك الشعور، ومن ثم على تبيّنه.

ويقتضي فهم المكان الروائي درسنا المكانَ الروائي في رواية "ربيع جابر" وتأثير العاطفة وفق مجموعة من المستويات:

أ) دوائر المكان ومكوّناته

الدوائر المكانيّة الأولى خارجيّة وتدور في بيروت: بين الحمرا والصياد وجسرالباشا والمتحف، وخطّ التّماس، وطلعة أوتيل ديو، الأشرفية، ملعب الفوتبول، الريفييرا ثم الجامعة الأميركية.

الدوائر المكانية الثانية داخلية وتدور في المنزل: الملجأ، المطبخ، والتتخيتة، والحمام، والصالون، والكنبة الطويلة ذات الغطاء المخمل الزيتي، والنظرات المتّجه نحو الزاوية والصورة ذات الشريط الأسود.

الدائرة المكانية الثالثة نفسيّة وتدور في المجهول: يقول "هذا ليس بيت الأشرفية! هذا بيت آخر!".

الدائرة المكانية الأولى: "على طريق الشام خطف، على ساحة البرج خطف، وراء العازاريّة خطف، على المتحف خطف، على بشارة الخوري خطف، على السوديكو خطف، على مستديرة الصياد خطف، على المنتيفردي خطف، على جسر الباشا خطف، [...] كان يدور ويدور ويدور، يخطف ويقتل، يخطف ويقتل"(6). وينتقل من مكان إلى آخر ضمن "بيروت"، ويقول: "في أحد الزواريب المجاورة لساحة البرج، في أحد الزواريب غير البعيدة عن الساحة، أوقف سيارة بيضاء اللون وطلب الهويات..."(7)، يدور ويدور في المكان ويجعل الدائرة المكانية صغيرة ضمن العاصمة "بيروت".

يعدّ الصالون وزاويته شديدي الدلالة على المأساة النفسيّة والجسديّة للشخصيّة الرئيسة "مارون"، فيقول: "عند الغروب تركض أمي إلى المطبخ؛ تنبّه عليّ ألا ألحقها إلى المطبخ لكنني ألحقها"، " أذكر أختي الآن كأن هذه السنوات كلّها لم تمرّ، مرّت ولم تمرّ، أذكرها الآن"(8).

يمكن القول إنّ الدائرة المكانية الثانية كانت نتيجة للدائرة المكانيّة الأولى. فالحرب دائرة في تلك المناطق والنظرات حائرة في الدائرة الثانية. فالخطف والقتل ورمي الجثث يقابله حزن وألم وحيرة ومرض في الدائرة الثانية، والقنص من كل جهة وصوب وقتل الأطفال والنساء والرجال يقابله تشتّت للعائلة ولإعدادها أثناء تلك الأحداث، والدليل على ذلك قوله: "لا أذكر أبي في الملجأ. أذكر إيليا يبعد صناديق ثقيلة ويفرش لأمي. أذكر رجلاً مع زوجته في زاوية (هؤلاء آل بطرس)، يحضن زوجته بيد وأولاده بيد: كلهم يرتجفون، وإذا فتحوا عيونهم ترى البياض، حتى في الظلمة ترى بياض عيونهم [...] ومن زاوية يأتي شخير عجوز [...] وأحيانًا يلتحق بنا في الملجأ ناس من خارج الحي: عابرو سبيل يباغتهم القصف فيركضون إلى مدخل البناية"(9).

أما الدائرة الثّالثة فتكشف عن صورة جبليّة أو بقاعيّة غير ساحليّة؛ ويقول "أرى الجلسة ذاتها لكنني أرى وجوهًا أخرى [...] أرى وجاقًا كبيرًا يتوسط الغرفة وعلى سطح الوجاق أرى شرائح البصل المشوي..."[10]، فتتشكّل هنا مقارنة بين بيت الأشرفية وبيت الجبل؛ وهي مقارنة بين منطقتين مختلفتين، ومناخين مختلفين، يجدهما مارون في العقل الباطني له، ويعيد تذكّرهما بين الحين والآخر. يستعمل الوجاق سكان الجبل المختلفون تماما عن سكان الساحل بمعتقداتهم وطرق عيشهم وكسب رزقهم وتحضير مآكلهم. ويذكر بينما كانت أمه في الأشرفية تحضر وتعدّ أقراص المعمول لمناسبة عيد ما، يقابله مشهد آخر "المكان الدافئ، الفرن يملأ المكان حرارة [...] أبي يحرق أشياء .."[11].

ب) وظيفة المكان التوثيقيّة

مهما كان "مارون"مسلمًا درزيًّا، أو سنّيًّا، أو شيعيًّا، من منطقة الأشرفية، وهي معقل المسيحيّة، أو كان مسيحيًّا حضر من الجبل فهو يصوّر اهتمام تلك الأسرة به منذ إصابته، "الطبيب قال إن الولد سيموت بسبب النزيف. مع هذا وضعوا له كيس دم تلو كيس دم. واستخرجوا الشظايا الرصاص والزجاج من جسمه. الطبيب قال إن الطفل سيموت وسأل أبي أين عثر عليه. الطبيب يعرف أبي. قال وجدناه على الطريق"[12].

لم يكن حبّه مستمدًّا من أسرته فقط بل من معظم الحيّ أيضًا. فتعامل أسرته بمحبّة معه ينعكس إيجابًا على سكان الحيّ. فيقول: "لكن هذا كان نادر الحدوث: أن يضربني أحد. كنت محبوبًا في الحيّ [...] ـ صاحب مطعم الفول يناديني مرّات وأنا أعبر أمام المحل ويقول "تعال" ويضع لي صحن الفول على الطاولة. ولا يأخذ المال[13]...".

وتأتي الكنيسة لتُشكّل العلامة الدّالة على الحضن الذي يجمع المواقف بين الفرح والحزن وبين القلق والضعف. فيقول الراوي: "لا أثناء القداديس، أذكر أمي تضع يداً حارة على رأسي، وأذكر اليد ترتجف. أسمعها تبكي ولاأعرف لماذا [...] الوجوه تلتفت وتحدّق إليّ لا أدري. لا أرى الوجوه تلبس هذه الأقنعة الغامضة وهي تنظر إلى أخواتي..". وهكذا، شكّلت الكنيسة الدائرة المكانيّة التي تمثّل مسرح الرواية، ووقفة الروائي أمام هذه الدائرة، هي أقرب إلى الدراسة منها إلى مجرّد الوصف. يصف "حنان" أمه وحرارتها، ويذكر إرتجاف يدها ولا يعرف لماذا؟ يسمع بكاءها، يشعر بالتوتر، بالاضطراب، ولا يدري لماذا؟ يشعر بنظرات المارّة إليه بغرابة، يميّز تعجّبها به، ولا يجد هذا التعجب مع إخوته"[14].

يقدّم "ربيع جابر" هذا المكان بوضوح مع أسماء الأحياء والشّوارع والمدينة، حتى الفوّال الذي يتناول عنده الفول، والأماكن التي ذكر فيها الأحداث، وبخاصة عندما دخلت السّيارة إلى شارع فارغ من المارّة والمحلات التجارية الفارغة، فيقول: "لعل الرجل أضاع الطريق بسبب المطر. بسبب

الخوف من الأمكنة الفارغة. الساحة فيها دكاكين ومكاتب ومطاعم مواقف بنايات وصالات سينما. لكن المكان مهجور. هذه منطقة التماس والرجل الخائف أضاع الطريق"[15].

هذا المشهد هو وصف للدائرة المكانيّة الأساسيّة في هذا العمل، ووقفة الروائي أمام هذه الدائرة، جعلت الراوي يصف وسط بيروت كخطّ التّماس الذي يفصل بين الشرقية والغربية، ويصف المكان الذي قُتلت فيه أسرته، ويحدّد الشارع ويصفه بصالات السينما. وباختصار، يبرز الروائيّ خصائص مكانيّة يمكن التأكد منها في الواقع؛ فيقدّم الأماكن بأسمائها ومقوّماتها المعروفة لها. ويقول: "على طريق الشام خطف، على ساحة البرج خطف، وراء العازاريّة خطف، إلى تسمية بعض المناطق التي عانت من الأحداث أكثر من غيرها، على المتحف خطف، على بشارة الخوري الخطف، على السوديكو خطف، على مستديرة الصياد خطف، على المنتيفردي خطف، على جسر الباشا خطف، [...] كان يدور ويدور ويدور، يخطف ويقتل، يخطف ويقتل"[16]، وهذه كلّها أماكن يستطيع القارئ التحقّق من وجودها على أرض الواقع ويدخل هذا في التاريخ والتأريخ.

ج) الوظيفة التّفسيريّة

نجح "ربيع جابر" إلى حدّ كبير في جعل الأماكن التي وصفها علامات دالة، إن من الناحية المكانية أو من الناحية العاطفية؛ فهو يصوّر عودته من الكنيسة وهو يشعر بالذنب والقلق، ويقول: "وهل أنا واهم، أرجع إلى البيت وأنا أشعر بالضعف"[17]. وهكذا، تشكّل الكنيسة مسرحًا بسيطًا من العالم السيميولوجي الذي عاينه "مارون"، "وذلك من خلال نظرات الناس التي كانت غريبة بينه وبين إخوته، فنظراتهم مختلفة"[18]. فهذه النظرات الغريبة تفسّر محاولة إقناع العائلة باحتضانه وجعله ابنًا لها؛ ليملأ مكان ابنها المفقود "مارون"، غير أنّ نظرات إخوته وأمه والجيران والأقارب منعته من الراحة والاستقرار في كثير من الأوقات، إلاّ أنّ هذا الشعور بالقلق ازداد عندما أخبره "إيليا" أنّ "أبي تحوّل من إنسان إلى وحش" [...] و"إيليا" بذاته "تغيّر وهو يسمع تلك الأشياء [...] كان يخرج الناس من السيارات ويضربهم، ويقوّص عليهم ويرميهم عن الجسر"[19].

وهذه الأخبار هدفها توثيق الأحداث، والاعتراف بمشاركة والده وأخيه بالأحداث التي جرت أثناء الحرب الأهلية. وبالإضافةإلى ذلك، إن هذه الأخبار هي إشارة إلى الرعب الذي عاشه "مارون"، وضخامة المشهد الذي صوّر في ذهنه، وما كان فيه من ردات سلبية على نفسيته، ومن ثم اعتياده على هذه المشاهد.ويكمل الرواي ويقول: "إيليا كان يخبرني تلك الأشياء من دون أن يرتجف صوته"، وهذا دليل على أنّ "إيليا" اعتاد على مشاهد الحرب والقتل، ولم يعد خائفًا، بل أصبح يتحدّث بكل ثقة وراحة. فهذان الموقفان يشكلان علامة تشير إلى تفاقم الوضع في بيروت، وتأزّم الحياة الاجتماعية، وبعدم تقبل الآخر.

تضاف وثيقة أخرى إلى تلك المشاهد من خلال ذاكرة "مارون" اليقظة؛ فذاكرته تحفظ اللّحظات المهمة من تواريخ الأحداث، فيذكر مرضه من بداية 1976، ثم يكمل عن "حرب السنتين" و"السبت الأسود" وحرب "المئة يوم"، ويقول: "ليس في الـ 1975، هذا ثابت، لكن في الـ 1976، وليس في بداية 76 لأنني في بداية الـ 76 كنت طريح الفراش، مريضًا، محمومًا، أتقلّب بين الحياة والموت [...] نجوتُ وكُتبت لي حياة جديدة"[20].

تقدّم هذه الذاكرة تأريخًا لبداية الحرب التي جرت في المدينة، وأنه دخل الأسرة وهو مصاب بإصابة بالغة، ليتقلب بين الحياة والموت. وهذه الأسرة متدينّة بالديانة المسيحيّة، ويظهر ذلك، من خلال زياراتهم المتتالية لحضور القدّاس في الكنيسة "القريبة" في الأشرفية. ويصوّر الرّواي مشاهد من الحياة اليوميّة التي كانت تعاني منها العائلة، مثل كل أسر المجتمع اللّبناني الذي عانى الحرب، "أذكر النار والعيدان والموقد المعمول من حجارة كبيرة [...] حيث أرى أمي تضع قدر الغسيل (كانت الكهرباء تنقطع كثيرا، وكنت أرى أمي مع أخواتي يغسلن الغسيل باليد تحت الخوخة)"[21]. وهذا التأريخ هو تأريخ لحال الراوي المشتت، في النظرات، وفي الخوف، "ما زلت حتى هذه اللحظة أذكر خوفي، لم أكن أفهم ماذا يحدث [...] أذكر نفسي ولا أذكر. كأنني أتذكّر حياة عاشها غيري. غريب هذا الاحساس"[22].

د) التباس الزمان والمكان

لازم "مارون" أخته الفراش حين وقعت من التتخيتة أثناء "حرب المئة يوم"، "وهو يحضر لها كل ما تتطلبه بسرعة"[23]. في تلك الفترة تعرّف أكثر على إخوته، فسردت له قصة أخيه مارون، كيف قتل ومات، وهو لم يتجاوز العشرة. وتأخذه المأساة ليخرج من دائرة المكان والزمان إلى زمان خطف أخيه مارون من ملعب الفوتبول، وقتله ورميه على طريق المتحف، من ثم أخذه إلى المستشفى للتعرف على جثته.

يخرج المتحف من ثقافته التاريخية ليشهد على تاريخ جديد من خطف البراءة، وقتلها في حرب لا يعرف الأخ أخاه. كان الالتباس بداية من الملعب، فالمتحف، ثم إلى المستشفى، وحضن المتحف. في هذا الكلام ثنائية (تاريخ/ لاتاريخ)، لتنبثق عنها مجموعة ثنائيات مترتبة عليها: (الحياة/ الموت)، (البراءة/ البغض)، (الحضارة/ الدمار)، (الهوية/ الزوال).

هذه الثنائيات المتجذّرة ما بين الهوية والضياع، وبين الحياة والموت، يوضّح مكان الرواية بمن سكنه وبتاريخ من عمّره. وجود المتحف على خط التماس إشارة على وضع الحضارة والثقافة على خطر الزوال؛ وهذا يعتبر نداء لأبناء هذا الوطن إلى حضانة تراثهم وحضارة تتجاوز خمسة آلاف سنة. وتتظلل تحت تلك الحضارة حضارة الحرف والفن، حضارة العزم والإصرار، حضارة السلام والاستقرار، فهذه الحضارة مهدّدة بالاقتلاع من جذورها، إذا بقي الوضع على

ما هو عليه. وما كان المكان ينهزم أمام هذا الزمان أي أمام تاريخنا الحديث الذي سيهدم كل الحضارات التي تعب الأجداد في بنائها.

ويتجاوز المكان المجال التاريخيّ إلى أسطوري حين صوّر مشهد الأسرة وهي برحلة على نهر إبراهيم، لما يحمله من رمزيّة أسطورية لأدونيس، وهذا واضح في قوله: "مرّات كنا نصعد إلى مار شربل، ومرّات كنّا نذهب إلى نهر إبراهيم. أذكر مياه النهر تقترب من وجهي ثم تبتعد، بينما أبي يخطو بين الصخور والماء يغمر ساقيه ويصل إلى قماش البنطلون الذي طواه إلى فرق الركبة"24 من القديس "مار شربل" وأخبار الحوادث الخارقة الأسطورية عنه، وتماوج الزوّار في أروقة الدير، إلى نهر إبراهيم ونسبه إلى أسطورة "أدونيس" و"عشتروت" الذي صارع الخنزير البرّي، ويستفيض النهر كل عام من شهر تموز بدم "ادونيس" الذي صُرع بذاك الحيوان البرّي. هذه الرموز القدسيّة لا يقف أثرها لمجرد الترميز إلى إسهام المكان في تشكيل الإنسان القاطن فيه. بل تتجاوز ذلك إلى إيحاءات بأن "مارون" الذي قُتل، أعيد بعثه للحياة مجددًا، كما بُعِث "أدونيس" للحياة، وكما "مار شربل" قدّم المعجزات؛ فكان وجود "مارون" مرّة أخرى في هذه الأسرة عبارة عن معجزة بالنسبة إلى الأم.

هـ) إفساد المكان

نجد أول مظاهر الإفساد قرب المتحف، حيث وُجد "مارون" الصغير ممزّق الثياب مقتولًا. ونجد تكرارًا للكلمة "منطقة التماس" ومرادفاتها، أكثر من خمس مرّات في مقطع لا يتجاوز أكثر من خمسة عشر سطرًا، وهذا لأهميته في مسرح الرواية. هذا وأنّ هذه المنطقة تعدّ سببًا في تغيّر مسار حياة عدد كبير من الأشخاص، من موت "مارون"، إلى تحوّل أبيه إلى وحش (ييخطف، يقتل..)، إلى أمه التي لازمت الفراش وحاولت أن تقتل نفسها عدة مرات، وإلى تحوّل أخيه ليقلّد والده بالقتل، إلى حزن أخواته.

ثم ينتقل إلى المشهد الثاني في مكان آخر، ويقدّم مشهدًا جديدًا بلمحة سريعة (رائحته تغيّرت) من خلال هاتين الكلمتين، ينتقل بنا إلى مكان جديد، إلى "تل الزعتر" و"الكرنتينا". هما منطقتان وقعت فيهما مجازر، وكان كل من والده وأخيه يشاركان في تلك المجازر، فيقول "مارون": "لن أخبرك ما فعله أبي في الكرنتينا، ولا ما فعله أخي بعد ذلك. أبي ارتكب شناعات وأخي أيضًا". وتكرار كلمة "الكرنتينا" وما يرادفها، ورد خمس مرات في مقطع لا يتجاوز ثلاثة عشرسطرًا. وهذا التكرار هو تعبير مرير عاناه مارون، وكان سببًا في اضطراب حياته، ويلفت نظرنا انتقال فن القتل والمجازر من الوالد إلى ولده. ويكمل المشهد الأليم ضمن دائرة المكان ذاتها "كانوا يفصلون العائلات، يأمرون الرجال بالتجمع تحت الدرج، ويأمرون النساء والأطفال بالخروج إلى الطريق قالوا إنّهم سيأخذون الرجال إلى التحقيق. لكنهم رشّوهم بالرصاص تحت الدرج"(25). أصبح للكرنتينا وظيفة دلالية، وهي

إفساد المكان بالمجرمين والتعدي على الرجال وأسرهم، وكان سببًا في انتشار الدمار والتشرّد من البيوت والهجرة.

يذكر منطقة "السيوفي"، أيضًا، لينتقل بنا إلى مشهدٍ جديدٍ، فهو يقوم بالحواجز الطيّارة، مع رفاق تساعده، حيث ذاع صيته في "السيوفي". فيقتل ويأسر ويشرد أطفال، حتى "لم يبق أحد في السيوفي إلا وعرف ماذا يفعل. نصف الحواجز الطيّارة من تنفيذه. معه رفاق لا يتركونه لحظة [...] خطف عائلات وقتلها"[26].

و) تقاطب المكان في الرواية

تشكّل ذاكرة مارون مأوى للصراعات الوحشيّة، مأوى لصور الخطف والقتل والدمار. "إيليا مرّة ـ بعد سنوات ـ أوقفني وراء مدرسة الفرير في الجميزة ودلّني على آثار رصاص في أحد الحيطان، وقال: "هنا كنّا نصفيهم"[27]. فاستعمال وظيفة ذاكرة مارون لتلك الصّراعات الوحشية ما هي إلّا دلالة كافية على ويلات الحرب وكيفيّة تتعامل القتلة مع شرعة حقوق الإنسان، والتعدّي على حريّة الآخر وسببًا في خسارة الأحياء.تتسع دوائر المكان وتتقاطب من خط التماس إلى "السيوفي" (حيّ في الأشرفية) فـ "الجميزة"، ويدور إلى "جسر الباشا" و"الكرنتينا"، و"عين الرمانة"، و"الصّياد". ليعود إلى صالون البيت إلى الصورة التي تتوسط الحائط مزدانة بشريط أسود من زاويتها. وفي هذا الصدد، يقول ميشال بوتور: "لا وجود لقصة جميع حوادثها في مكان واحد منفرد، فإذا لم نجد مكانًا آخر للقصة خلقنا أوهامًا تنقلنا إلى أماكن أخرى"[28].

ويدور الراوي في دائرة المكان، ويصور السيّارة التي دخلت بالمحلّة الخاطئة، والتي تاهت بين المحلّات الفارغة والصّالات المقفرة والمنطقة المهجورة قائلاً: "ساحة فيها دكاكين ومكاتب ومطاعم مواقف وبنايات وصالات سينما لكن المكان مهجور. هذه منطقة التماس"[29]. وجود هذه السيّارة الغريبة في خطّ التّماس جعلتها منطقة خطرة يواجه المارّة فيها الموت المحتّم. وإنقاذ الطفل بعد قنصه ونقله إلى المشفى يخلق تقاطب المكان الواضح، وأبناء الجبل على خط التماس، ووجود أطفال في ساحات الأحداث، ومساعدة أبناء الأشرفية لأبناء الجبل من خلال نقل الطفل إلى المستشفى هذه كلها دلالة جديدة على تقاطب (الحب/ الكره) بداخل ابن الأشرفية. والتقاطبي النفسي بذاك "الوحش" الذي أظهر ضعفه أمام مشهد الطفل وهو ينزف بحضن أمه المصابة. وباختصار، هذه الأماكن الضديّة تجمع بين قوى وعناصر متعارضة الفكر والعاطفة.

فبقدر ما يتقاطب المكان يتقاطب الفكر، وتصبح بيروت مقسّمة على ما يناسب فكر قاطنيها. كلّ معتقد سياسيّ دينيّ فكريّ احتلّ زاوية من زوايا بيروت، وشكلّت كلّ زاوية وظيفتها حماية مواطنيها من القتل العشوائي والمحافظة على حياتهم. سكن "مارون" ببيت من أسرة فقدت ابنها الصغير فاستقبل مكانه، ولكن دائرة المكان هذه لم تمدّ مارون بما حلم به من سكون، واستقرار، ودفء، وحنان، وهدوء. وكيف

يجد كل هذا في ما يحوي أسرتين على خط التماس؟ وكيف ينسى صورة أمه الحقيقية وهي تحضنه والدم يفرّ من ظهرها؟ لذلك، يمكن القول إنّ الاجرام والحنان اجتمعا في هذا البيت في الوقت ذاته. هذا البيت يمثل الوطن المجروح وهو ينزف، ويومئ هذا الرمز إلى أبناء الوطن الواحد الذي يجمع ثنائية (الحب/ الكره)، و(الحياة/ الموت) و(التضامن/ التصارع).

من هذا الرمز البيت الصغير، إلى كل الوطن، قرار السلام والدمار ينبع من كل مواطن يسامح أخاه المواطن. من هنا ينبع الاستقرار، وهنا تزرع البذرة الأولى للحضارة ورقيّ المجتمع.ويظهر هذا المسكن علاقة دقيقة؛ إذ إنّ للإنسان دورًا في إضفاء بعد بنّائي على المكان، و"ذلك لأن بنية المكان مضاف إليه تفاصيله الطبوغرافية لا تؤدي في النهاية سوى دور أساسيّ وثانويّ بالمقارنة مع الدور الذي تنهض به علاقة المكان بالإنسان"(30)

ز) فضاء مدينة بيروت

أمضى "مارون" عمره في مدينة "بيروت" منذ وصوله من الجبل مع أسرته الأولى، ولم يتركها في أزمتها ولا حتى في وقت السلم. مضي وقته متنقلاً بين أحياء "الأشرفية"، في أروقة المستشفى إلى أروقة منزله في "الأشرفية". وقد خرج منها إلى الغربية عندما عمّ الاستقرار بين المنطقة الشرقيّة من "بيروت" والمنطقة الغربية منها فقط.

المشهد الأول على خط التماس حيث تبدأ الحبكة في جوٍّ ممطر يتطاير فيه رذاذ المطر، ويغطي زجاج السيارة، ويكون سببًا في ضياع السيارة ودخولها في شارع خالٍ من البشر إلا من السفاحين والوحوش. يترك الرذاذ بصمته في الذاكرة وخوفه وقلقه وسرقة شجاعته لطرح الأسئلة ومعرفة الأسباب.

المشهد الثاني في المدرسة حيث تنتقل دوائر المكان مع الشخصيات الجديدة ومع الانعكاسات الجميلة، كانعكاس الحب مثلاً. وعلى الرغم من خوفهم من القذائف أثناء وجودهم في المدرسة، تعرف "مارون" على "هيلدا"، وزاد حبّهما مع الصعاب والخوف أثناء رمي القذائف بالقرب من المدرسة، وهروبهما إلى الطوابق السفليّة (الملاجئ) في المدرسة للاحتماء من القصف. فهذه الذكرى على الرغم من سوادها تركت "هيلدا" في سعادة لا توصف؛ من بصمة القلق والخوف في الدائرة الأولى إلى بصمة الأمل والفرح بالمدرسة مع "هيلدا".

يدور المشهد الثالث في أحياء الأشرفية ومحيطها. فتتشكّل دائرة المكان بشكل دوائر؛ فيلتقي "مارون" مع "هيلدا" بعدة أماكن، أمام محطة البنزين، وعلى مفرق الحديقة، وفي مطعم الفول الذي تحوّل إلى فرن، إلى أن خرجا إلى السينما حين هدأ وضع المدينة، ومن ثم إلى حديقة السيوفي وإلى الكسليك. رافقت "هيلدا" "مارون" إلى تلك الأماكن، وتعداد الراوي لتلك الأماكن لم يكن مصادفة، بل قدّم مشاهد قد فعلت فعلها مع "مارون"، وتركت

بصمات فرح في ذاكرته. فالمكان، إذًا، ارتبط ارتباطًا عاطفيًّا بالإنسان، إن كان سيئًا أو فرحًا، ومهما يكن، فإنّ هذه الأماكن ارتبطت بما أكسبها "مارون" من عواطف.

يتمحور المشهد الرابع حول الجامعة. فسكن غرف الجامعة الإميركيّة في الحمرا، والتنقّل بين أبنيتها بعدما أزاح "مارون" الغمامة السوداء التي تغطّي هذه المنطقة أمام أعينه، ونيله منحة من الجامعة بسبب تفوقه بعد انتهاء الحرب، واستقراره فيها وإكمال طريقه في تلك الجامعة كلّها ساهمت في أن يصبح أستاذًا محاضرًا. وهذا المشهد تابعه حتى نهاية الراوية. فهو لم يغادر الجامعة التي تقطن في منطقة "الحمرا" الواقعة بين "بيروت" الغربية و"بيروت" الشرقية. فخاطر في عدم مفارقة أحد؛ لأن الاثنين أهله وأسرته. وهذا المشهد كشف عن عمق ثقافي تشكّلت منه خيوط حياته المستقبلية والذي نظر إليها بعين المتفائل.

ح) بين الأماكن الأليفة والأماكن المعادية

تلمع العاطفة في عين أمه وهي شاخصة على ملعب الفوتبول، وهو ضمن محطة القطار المعطلة. وهذه العين هي التي تعكس الحزن العميق في قلوب الأسرة، فيمنع مارون من اللعب في الملعب، لما يعكس هذا الملعب همًا في قلوبهم. هكذا ارتبط كل حدث عاطفي بدائرة مكانه، وتحوّل كتمان العاطفة إلى قوة مضمنة، أما أثرها في التخاطب فقد فاق ذاك المنطوق. رأى "مارون" كل تعبير عاطفي يقف حاجزًا أمام سعادته؛ لأن هذه الدائرة قد قطفت السعادة من هذه الأسرة مع "مارون" الأول. فدائرة المكان خرجت من وظيفتها الحقيقة إلى وظيفة معادة ووظيفة عاطفية، وقد أدّت دورًا عزلت فيه التفاعلات الحواريّة، وأخفقت في حركة تطور سير الرواية، واتجهت نحو دائرة العاطفة إلى الخوف والقلق والتردّد.

قدّمت الأماكن في هذه الرواية من خلال مواقف الشخصيّات ورؤيتها. فهناك أماكن أليفة وأخرى غير أليفة. تدخل الأماكن في دائرة الخوف والعدائيّة. فالملعب هو مكان معادٍ لأم "مارون" لأنه مكان كان سببًا مباشرًا في خطف مارون وقتله فيما بعد. لم يعد ملعب الفوتبول مكانا للرياضة وللهو والتسلية بل هو مكان يرمز إلى الخطف والموت. ولادة الخوف من هذا المكان ولّد الكذب ليواجه والدته لكي يمارس هوايته. فهذا يعني أن المكان في رواية "الاعترافات" قد تمثّل مكانا غير حيادي، فهو أليف لمارون ومعادٍ لأمه وأهله، وخصوصًا في زمن الحرب الأهلية وحرب السنتين1975ـ1976. لذلك، فإن مساحة المكان الأليف تقلصت إلى حدّها الأقصى. وهذا طبيعي في حرب بدأ فيها القنص والقتل على الاسم والهوية وعلى اتجاه سير السيارة.

ط) تمثيل المكان

إن تمثيل المكان سندرسه من خلال مستويين: زاوية الرؤية والمكان المتخيّل والمكان الواقعي.

أولا: زاوية الرؤية

إنّ تصوّر المكان يكون من خلال

زاوية رؤية عين الراوي غير العارف بكل شيء، أما حضور "إيليا" راويًا يساعد على مسك الخيط الأول، ويروي الأسباب التي أدّت إلى دخول "مارون" البيت، ويروي الأحداث والمجازر التي قام بها والدهما في الحرب، وشاركه بها بعد ذلك "إيليا"، ويقول "مارون": "إيليا أخبرني لاحقًا أشياء فظيعة كثيرة. هو أيضا تغير وهو يسمع تلك الأشياء [...] كان يخبرني تلك الأشياء من دون أن يرتجف صوته"، و"كان يخرج الناس من السيارات ويضربهم، يقوص عليهم ويرميهم عن الجسر". لقد قدّم الراوي لنا رؤية والده وهو في "السيوفي" على "جسر الباشا" يقتل، ويرمي في النهر، ويرعب الناس ويتحوّل إلى وحش. ولكن الأمر لا يبقى هنا، فعين الراوي نظرت إلى الجسر، وإلى خط التماس، وإلى سبب وجوده مع هذا الوحش. وهي عين عرفت كل شي بعدما كانت جاهلة وقلقة لما يدور حولها من نظرات واستنكار لوجوده، وبخاصة من أهل حبيبته "ايلينا". وهي أيضا عين غير معرفية بما يدور حولها من أمور. كان الراوي لا يرى أبعاد الأماكن في الرواية من خلال وصف "إيليا"، فحسب، إنما من نظرات أقارب الرواي حين كان يذهب إلى الكنيسة للصلاة، ويصف ذلك قائلاً: "الوجوه تلتفت إليّ، لا أكون متأكدًا، لعلها تحدّق إلى أمي، لعل العيون تنظر [...] لا أدري. لا أرى تلك الوجوه تلبس هذه الأقنعة الغامضة وهي تنظر إلى أخواتي". تعبّر هذه النماذج عن عين قلقة غير واعية ويقظة على الموضوع على الرغم من وجود العائلة في المكان المقدس وهو الكنيسة حيث تصدق القلوب والعقول والنظرات.

ثانيًا: المكان المتخيّل والمكان الواقعي.

إنّ المنحى الذي اتبعه الروائي في كتابه يعتمد على الواقع وحده كمرجع لمكانه الروائي، وذلك بعيدًا عن العالم الخياليّ، إلّا حين يخيّل له الجبل ورائحة معمول العيد والحرارة التي تنبعث من المدفأة التي تتوسط الغرفة. فذكر الأمكنة في هذه الرواية (الأشرفية، أوتيل ديو، المتحف، الجامعة الأميركية، الرميلة، جسر الباشا، الصياد، الكرنتينا..). تضع القارئ أمام عمل روائي حقيقي، وتضعه في دراسة الأجواء التاريخية الجغرافية والاجتماعية، حتى ليشعر بأنه أمام وقائع لا تقبل المساس بصدقيتها. وتناول الأماكن كأنها تنطق بتاريخ الحرب وتشهد على وقائع وثائقية ومعاناة اجتماعية بغياب كليّ للدولة وللجيش. وحين فقد والد "مارون" ابنه الذي لا يتجاوز السنين العشرة، شعر بأنه غير محمي من السلطات، فجعل سلطته تتكلّم وجعل حزنه وانتقامه يتكلمان أيضًا؛ فقد جاءت سلطته بالانتقام والقتل بالأعداد الكبيرة من المواطنين اللبنانيين وغيرهم. وهذا يعني "أن المكان في الرواية من بدايتها إلى نهايتها هو مسرح لأحداثها، يستطيع القيام بعبء علاقة بنائية داخلها، خصوصًا أننا نستطيع أن نتحقق من وجود هذا المسرح في عالمها المحسوس"[31].

ي) وظيفة المكان وتأثير العاطفية عليه

إنّ دور الناقد لا يقف عند استخراج ملفوظات العاطفة التي بواسطتها يثبت

المتكلم ما يريد إثباته من عواطف. فذلك لا يمثل إلا الوجه الظاهر من العاطفة أو التجلي الأول لها الذي عادة ما يسعى المتكلم إلى تبريره بملفوظات أخرى تسمى مواضع العاطفة **les topiques des émotions** التي يعرّفها بلانتان بأنها "مجموعة القواعد التي تكثّف عملية توجيه ملفوظ واقعي نحو إثبات عاطفة ما"[32]. فالملفوظة "اللحام ذابح" في الجملة: "المرة الأولى التي سمعته يقول فيها وهو يشرب قهوة الصباح "اللحام ذابح"، كانت المرة الأولى؟ أذكر وجوه أخواتي تفرح وأذكر أمي تضحك وأذكر إيليا يضحك أيضًا" تمثّل القدرة على استثارة العاطفة من دون استخدام لفظ من ألفاظ التعبير المباشر وغير المباشر. فمدار الأمر هنا على العاطفة التي تترك أثر الكلمة في نفوس سامعيها من عاطفة (فرح أو حزن) يمكن تفسيرها بأنّها "ملفوظات استسلهمها "بلانتان" من الخطابة القديمة، وتحديدا من كتاب "فن الخطابة" الذي تحدث فيه أرسطو عن وجود مواضيع مثيرة في حد ذاتها. يكفي أن يستحضرها الخطيب حتى يثير عاطفة السامع. في سياق تطرّق الراوي إلى عاطفة الشفقة، أشار إلى جملة من المواضيع التي تقدر على توليد هذه العاطفة، مثل، "لا أذكر أبي في الملجأ، إذا بدأت الاشتباكات يختفي. من قبل أن تبدأ يختفي. أبي الذي يخطف الناس ويقتلهم منذ قتلوا ابنه الصغير ورموه دامي الجثة مقطع الثياب [...] المرأة ساعدت المختار على تزوير بطاقة ثبوتية لي ما زالت على قيد الحياة.."[33].

أما الملفوظة "لا أذكر أبي في الملجأ" فتخلو من كل عاطفة، لأنها لا تحتوي على لفظ من ألفاظ العاطفة، ولا على عبارة جاهزة، ويقوم مقامها "أبي الذي يخطف الناس ويقتلهم" أو فعل مسند إلى فاعل أو أثر فسيولوجي يظهر على ذلك الفاعل، ويمكن اعتباره معادلاً لفظ العاطفة؛ اعتبر عدم وجود الأب في الملجأ، ووجوده في المعارك حتى أنه سبب من أسباب قيام المعارك، لأنه يختفي قبل ابتداء الحرب ومع نشوبها. ونكتشف أنّه يتّجه نحو تعبير عن عاطفة معينة وهي القتل والتيتّم والتشرذم والقلق والحزن. ومن خلال القنص على خطّ التّماس؛ فهذا الملفوظ يجرح القلب ويحرق الأعصاب ويولد البغض والفتنة والحروب الدامية. وأيضًا لهذا الملفوظ معانٍ وعبر، فهي حل المشاكل سياسيًّا قبل أن تتولّد المعارك، وتفادي قتل الأرواح وولادة الحرب الأهلية، هذه الحرب هي درس لا ينساه اللبنانيّون.

تتولّد هذه العاطفة من خمسة مواضع أوّلها الشخص المتحدث عنه (من؟ أبناء الوطن، الشهداء)، وثانيها الحدث الذي ينقله الموضوع (ماذا؟ الحرب)، وثالثها المكان الذي يجري فيه ذلك الحدث (أين؟ بيروت)، ورابعها السبب الباعث على وقوع الحدث (لماذا؟ الانتقام والحقد والكراهية)، وخامسها تفادي ذلك السبب (هل يمكن السيطرة عليه وتفادي وقوعه مرّة ثانية؟). فكل واحد من هذه المواضيع الخمسة يسهم في جعل الملفوظ

موجّهًا نحو عاطفة الندم والشفقة، بدءًا بالموضوع الأول المتمثّل بأبناء الوطن الذين يدافعون عن وطنهم ومبادئهم، والذين يعتبرون حدود الوطن لهم، وليس منطقة ومدينة أو قرية، ويكفي ذكرهم لإثارة جملة من المشاعر سرعان ما تتحدّد وجهتها، مثل الدفاع عن بيتهم وأرضهم وأسرهم. فهذا الشعور بالدفاع يولد الانتقام والحقد والكراهية، إن من ناحية الغريب أو من ناحية المواطن الذي يشاطره أرضه، ومدينته وحيّه. لذا انقسمت مدينة "بيروت" منطقتين، تمثّل كل منطقة فكرها ومعتقداتها الخاصة. وأصبحت المنطقتان بمدار الصراع والحرب والقتل؛ وهذا المدار موضع معروف في الخطابة القديمة الذي يثير فينا الشعور بالظلم والشفقة في آنٍ معًا. فموت المواطنين يعني وجود أطراف مسؤولة عن السبب والمفروض أن تقف حاجزا لمنع تلك التجاوزات وتتدخّل قبل حدوثها.

إنّ الجريمة الإنسانيّة تنهض بدور مهم في بناء العاطفة ومضاعفة درجتها؛ فيموت الأطفال ويتولّد الحقد والكراهية، فتشتعل الحروب للانتقام والدفاع عمّا بقي من الأطفال؛ فلا شكّ في أنّ حجم الشفقة والأسى والحزن المتولد عن موت طفل لا يقارن بما خلفه هلاك آلاف الأشخاص في النفس من آلام وأحزان. وكذلك ساعد ما حصل لهؤلاء الأطفال في ملعب الكرة على وسم الملفوظ بالانفعال لما يحمله موضوع الجرائم الإنسانيّة من شحنة عاطفيّة قويّة يمتدّ أثرها إلى الأحداث التي ينقلها الراوي من خطف وقتل.

ك) كلمة أخيرة عن المكان

يلفت القارئ في رواية "الاعترافات" الجملة الآتية "على طريق الشام خطف، ساحة البرج خطف، بشارة الخوري أيضًا، السوديكو، المنتيفردي"، وهذا يساعد على كشف عالم واقعي إلى حد بعيد؛ لأن الأماكن في هذه الرواية لها مرجع واقعي، ومن هذه الأماكن الأشرفية، والمتحف، وطلعة أوتيل ديو، ونهر إبراهيم، ورميلة، وبيروت الغربية، والحمرا، والجامعة الأميركية. هذه كلها اماكن موجودة في الواقع. ولقد كان همّ الراوي همًا وطنيًّا واجتماعيًّا وإنسانيًّا استدعى من مقوّمات المكان ما يتناسب مع هذا الهمّ. لذلك، يبدو أنّ هدف الراوي هو تصوير فظاعة الحرب وويلاتها ونتائجها القاسية؛ لذلك تبدو دوائر المكان فيه مستقطبة حول أماكن وجود "مارون"، فكان تمثيله متعلقًا بهمّ معرفة أصله الحقيقي، والعودة إلى دياره. أما المكان فهو أليف ومعادٍ بالنسبة إلى البطل بصراعاته النفسيّة والاجتماعية التي حوّلت الأماكن إلى موضوع غير مستقرٍ وآمن.

يعكس "ربيع جابر" صورة واقعيّة عن مدينة "بيروت" والصراعات في حرب السنتين وما بعد 1975 من خلال رؤيته الدينيّة والسياسيّة والاجتماعية والاقتصاديّة. ويقدّم الحقائق بهدف إلقاء الضوء لتخرج وظيفة المكان من الهمّ الرئيسي للبطل وهو وجود أهله.

قد نجح "ربيع جابر" نجاحًا واضحًا بتطويع المكان وتكيّفه وفق مشتهاه، وعكس صورة الحرب الأهليّة، وأومأ بها إلى واقعنا الحالي؛ والتعلّم من هذه الانقسامات التي خسر فيها لبنان أبناءه وحضارته وثقافته وتطوّره. وجعل "مارون" يمثّل الطوائف في لبنان، وكسر الانقسام بين مسلم ومسيحي وبين شرقية وغربية، ومسامحة كل من قتل وخطف، هذا لأنّه أراد الاستقرار في "الحمرا "بين المنطقين واختار الوحدة وعدم الارتباط.

المبحث الثاني: بناء الزمان في رواية "الاعترافات"

ـ تمهيد

الزمن مقياس اتفاقي ابتدعه الإنسان لينظم شؤون حياته، وليس كائنًا حسيًّا ملموسًا[34]، وكان زمن الحرب ومناخه المأساوي، قد أخذ حيزًا ودورًا معينين في رواية "الاعترافات". وشكل زمن الرواية وقائع تاريخيّة حقيقيّة ملموسة، نسجها الواقع المأساوي للحرب الأهلية اللبنانية، سرد ربيع جابر الأحداث حسب تسلسلها الزمني من خلال رؤيته وانطلاقا من منظوره الايديولوجي والزماني. فتحضر روح الراوي في كل مشهد خضع له البطل وأثّر في عواطفنا، ويصور تلك الأحداث التي اكتوى بلسعتها وله عدة مواقف منها. لقد صور ربيع جابر تلك الحرب بأخلاقها وبعدم أخلاقها، بالتعدي على حدود الآخر وبالوقت ذاته الشعور والشفقة والحزن والاضطراب.

لذلك نلاحظه يحشد عواطفه بموت ابن "فيليب" "مارون"، وهذه العاطفة ببداية شعلة الحرب، وشكلت حقول معجمية عن الحرب بأخلاقها ولا أخلاقها. حيث تلغى الإنسانية في كثير من الأماكن وتولد في اللحظة ذاتها. وهذا ما يزيد الإحساس العبث بالحرب لتحقيق وجود عجزت أو تخلت الدولة عن القيام بدورها، مما سمحت بنشوء الحرب واستمرارها لمدة ثلاثين عاماً.

أ) بناء الزمان وتأثير العاطفة فيه

إذا قام المبحث الأوّل على تتبّع حضور العاطفة وصداها ضمن دائرة الزمان وحضور الزمان القائم على العاطفة، فما هي الصلة التي أقامها الراوي بين العاطفة ودائرة الزمان؟

لا يختلف اثنان في أنّ الخلاف بين الأفراد قد يكون عن عاطفة عرضية، أي متولّدة عن حادث ظرفي كالحزن الذي ينتاب الفرد عند فقدان عزيز له. وربما يكون ميلاً طبيعيّاً طويل المدى نحو عاطفة معيّنة تظهر عند فرد، ولا يشاطره غيره. ويكون الخلاف، أيضًا، في عاطفة يتوقّع الفرد ظهورها عند الآخرين، ولكنه يعدمها عندهم. وهذا ما عبّر عنه "بلانتان" بقوله: "يحتج المتكلمون لعواطفهم فيقدمون حججًا لتبرير ما يشعرون به ولما ينبغي أن تشعر به. وهم إذ يفعلون ذلك، فلأن العواطف ليست من الأشياء التي تقع على الناس مثلما يسقط الكتاب على الأرض بفعل قانون فيزيائي"[35]، وهذا

ما تمثّله الجملة الآتية: "أذكر أختي [...] تنظر إليّ من تحت رموشها الطويلة [...] أذكر البلل على الرموش تنظر إلى وجهي إلا وتشعر بقلبها يتقطع، ينفصل إلى قطعتين.أخي الكبير لا يضيق وجهي يكشّر عن أسنانه مثل ذئب [...] وقت طويل مرّ وحتى الآن لا أدري كيف أحكي"[36].

نحن أمام الكيفيّة التي ينبغي التفاعل بها، حول الموت الذي أصاب "مارون" الصغير، وتحديدًا العاطفة حول هذا الحدث التي يجب إظهارها مع "مارون" الجديد. لذلك، ألقينا للراوي في كلّ من المثلين اللذين يسعى فيهما إلى تبرير عاطفته والاستدلال على صحتها وبنائها داخل الخطاب.ففي الانتقال من المقدمة (أخي الصغير [...] لأنهم قتلوه وهو صغير) نجد النتيجة (الحزن/ الكراهية)، وهي حركة معقولة لاستناد المقدمات إلى أفكار عامة (مواضع) مسلم بصحتها عند أغلب الناس. فهذه المقدمة تترك في الراوية آثارًا واضحة أو خفيّة تهدينا إليها وتيسّر لنا التعرف عليها. وهذا قريب من مقولة أنّ "مقاربة النص في الرواية، اللحظات التي تتداخل فيها الأزمنة، فتحيا الشخصية خلالها، تجربة داخلية عميقة تسمى حال الاستغراق الزمني (la durée)، فلا يكون هذا الزمن[37]، الزمن المتحيّز في مكان ما أو الذي يقيس فيه زمان الديمومة كما يسميه برغستون وهو الواقع نفسه، وهو "تثبيت شيء آخر غير الزمن الذي تمّ إدراكه والإحساس به، الزمن الذي يتحوّل إلى إحساس[38].

ب) علامات الزمان في الرواية

يمتدّ زمن الأحداث حوالي ثلاثين عاماً، حيث تظهر الرواية اهتمامًا شديدًا. فهي تقدم للقارئ زمنًا موضوعيًّا؛ لكونها رواية مستندة إلى أحداث واقعية ليست بعيدة. يُبدي الزمان فترة الحرب الأهلية التي عرفت أحداثًا مصيريّة، وأحداث خطف وقتل وقنص بين الأحياء في المدينة الواحدة. وهذا الحدث الذي حصل مع "مارون" هو مجموعة أحداث حصلت خلال الحرب وما بعده، فيكون حدثًا جماعيًّا وليس فرديًّا. مع أن هذه الرواية تقوم في الظاهر على حكاية "مارون". لهذا تتخذ هذه الرواية بعدًا قوامه الانتماء إلى وطن عبث به مواطنوه ليحققوا هويّتهم على مزاجهم، ومع هذه الفوضى يصبح تحقيق الهوية أمرًا صعبًا، فيومئ بالهواجس التي عصفت به وإلى الهواجس التي تصيب الوطن، وإذا بقي هكذا ستتكرّر الحرب.لذلك تنقل إلينا الرواية أنموذجًا حيًّا للإنسان المضطهد في وطنه، ولم يجد الاستقرار؛ لأنّه ولد في وسط الحرب، وأضاع هويّته ولكنه وجد العطف في بيت قدم له التيتّم في الوقت نفسه. نلاحظ أن السرد كان على لسان "مارون"، وجاء ترتيب الأحداث ليشكل جزءًا أساسيًّا من تشكيل الرواية. فقد انزاح السرد عن خط الزمن الحقيقي للرواية مقسمًا أمام الزمن الفني الروائي لكي يتحكّم بتسلسل الحداث المرويّة. بعد انتهاء الزمن الفعليّ للأحداث،ما زال الأثر يسيطر في ضياع

الهوية، وفي حقد الطوائف. غير أن الحقيقة لا ندركها حتى بعد نهاية الرواية، وهذا ما كان مصدرًا لتطوّر أكبر في الأحداث مع تقدّم الزمن، فيعلمنا عن "إحدى جمعيات المخطوفين والمفقودين في الحرب الأهلية نظّمت ندوة ووزّعت على الحاضرين قوائم: كانت قوائم باسماء أشخاص فُقِدوا في الحرب [...] أقرأها وأسأل أين اسمي؟ هل اسمي بين هذه الأسماء وأنا لا أعلم؟ وأمي ؟ وأبي؟ وأخواتي؟... ربّما ما زالوا أحياء [...] ربما كنت خارجًا مع عائلة أخرى. مع أقارب [...] ربّما أهلي بانتظاري حتى هذه اللّحظة!"[39].

من خلال ظهور هذه الجمعيّة وغيرها من هذه الأسئلة، ينفتح أمامنا خطّ زمنيّ جديد لأنه يتضمن مستقبل مارون المرتبط بالماضي "كنت أشعر بالفتاة هناك، وراء البرّاد البعيد، وأسمع موسيقى خافتة. لكنني لم أكن أفكّر فيها. كنت في ذلك الباتيسري، ولم أكن. كنت في مكان آخر"[40]. من الواضح، عبر هذا الاستشهاد بالراحة والاطمئنان، أن السرد يشير إلى زمن سابقٍ على الحاضر الروائي المفترض، من خلال استرجاع الزمن وتوجيه المستقبل. فالانطلاق من حاضر الرواية والعودة إليه دليل إلى هذا الراوي الذي يرتبط بذاك الحاضر المستقبل؛ إذ يعود في منتصف الرواية ليتسلّم مهمة الرواي من جديد معيدًا إيّانا إلى حاضره. فوضعنا أمام مستقبله الغامض الذي نخمّن به أنه سيحظى بأهله وعائلته بعد هذا الضياع. نجد الزمن يعمل على إثبات الرواية بفاعليّة كبيرة خصوصًا أن الرواية اعتمدت على تاريخ مجدد ومرتبط ببداية الحرب الأهليّة في بلادنا، وهو تاريخ أثّر في كثير من المواطنين اللبنانيين، كما أثّر على الهجرة والعودة إلى الذات.

نرى أن الزمن السردي لم يتوقف مع الزمن الحكائي، ما يعني أن الرواية داخلة ضمن الأطر الحديثة في القصّ محاولة التركيز على ثنائية (الذات/ الآخر) لتضع القارئ في المحورية لأحداث القصة. فنجد أنفسنا مضطرين إلى تقسيم الزمن على مراحل قبل دخول السيّارة في خطّ التماس بعد القنص وبعد موت والده الثاني. وباختصار، تتآلف هذه الأزمنة وتتضارب، فيتشعّب الزمن بشكل شبكيّ ليؤدي الرسائل التي تسعى الرواية إلى إيصالها.

ج) تقنية الاسترجاع

عند الخوض في الاسترجاعات على حدة ودراستها بشكل دقيق، نجد أن الرواة يلجؤون إلى مثل هذه التقنية من أجل ملء ثغرة سبق القفز عنها، أولاً تساعد في فهم مسار بعض الأحداث، أو لأنها تفسّر بعضها الآخر تفسيرًا جديدًا في ضوء المواقف المتغيّرة أو لإضفاء معنى جديد[41]. يمكننا رؤية تفاصيل الاسترجاع التي مرّ بها "مارون" والتي أدت إلى اتخاذ قرار ترك المنزل والبعد عن إخوته. وفي استرجاعنا الخارجي الأوّل، صورة واضحة عن الأسرة "أبي كان يخطف الناس ويقتلهم [...] أخي الصغير لم

أعرفه كان يشبهني [...] لأنهم قتلوه [...] أخواتي ساكتات في الصورة كأنهن في جنازة [...] يروق القصف عند المغرب"(42). وحين تنهمك الأم بالإسراع إلى المطبخ لتحضير السندويشات مرتديلا والخيار، يقدّم لنا الراوي استرجاعًا خارجيًّا لصفات أسرته التي سكن معها. ويعقب هذه الفترة استرجاع داخليّ وهو الضياع والذكريات والأحلام بأسرة أخرى تسكن الجبل، فيجتمعون حول موقد ويتذكرون رائحة معمول العيد والشجر، فيقول الراوي "أرى الجلسة ذاتها لكنني أرى وجوهًا أخرى. أكثر من ذلك أرى. أرى وجاقًا كبيرًا يتوسط الغرفة وعلى سطح الوجاق أرى شرائح البصل [...] المشهد كله يتغيّر: هذا ليس بيت الأشرفية! هذا بيت آخر!"(43). فهذه المقارنة السريعة عرضها الراوي في بداية الرواية ليبدأ بأحداث متتالية ومتراكمة، وليقدّم لنا انطباعًا للضياع لنعرف سبب هذا الضياع. وتكرار (أنا لست أنا) بقي مرافقًا لشعور الرواي إلى نهاية الرواية؛ ذلك أنّ الكلام هو كناية عن صراع مع ذاكرته ورغبةً منه لإشراك القارئ في قراءة حياته وضياعها.

إنّ صورة هذا الضياع ستتغلّب عليه حين يستقر في وسط المدينة، وهذا الضياع سببه الألم والجرح المتراكم في خلال وجوده في بيت الأشرفية؛ إذ يتمكن الراوي من تلخيص تلك المرحلة في الرواية في تصوير القلق والاضطراب في قوله: "كم مضى على حرب السنتين؟ 32سنة، 33سنة؟ الآن أنا أحكي أشعر أنني أكثر من شخص واحد: هناك شخص داخلي يريد أن يحكي ويحكي ويحكي. هناك شخص آخر يريدني أن أسكت، أن أسكت أبديًّا"(44). وما يمكننا استنتاجه أن البطل عانى القلق الشديد بسبب ضياع ماضيه وحقيقة والده. فهو عاش مع أم ليست أمه، ومع إخوة ليسوا إخوته. ويشعر بالحزن والأسى، مستخدمًا تقنيّتي الاسترجاع الخارجي والداخلي، يلّف حياته مهما هرب من واقعه. ثمّ يجيء مرض أمّه ليحفر في ذاكرته الأيام القليلة التي استطاعت فيها النهوض من الفراش، وبخاصة صورة أمّه الحقيقية التي ماتت وهي حاضنته "حضنت الأولاد بينما الرصاص يخرج نوافير دم من جسمها"(45). وها هو الاسترجاع يلاحقه في الرواية حتى وصوله إلى الجامعة حين تعرّف على حبيبته، وذهب للقاء أهلها ورفضوا هذا الارتباط؛ لأنه مرتبط بماضيه. فكأننا أمام دوائر زمانية لا تكاد أن تنتهي دائرة حتى تعود إلى الانطلاق مجددًامن الماضي والعودة إليه، ثم تستكمل الدائرة إلى المستقبل. بعد "حرب السنتين"، يذكر "السبت الأسود" هو حرب ليوم واحد، قتل فيها العشرات من المدنيين، وهذا بارز في الجملة: "أبي لم يقاتل كان هناك أيام يختفي فيها كثيرًا، لكنه خطف وقتل عددًا لا أعرفه من البشر، دفعة واحدة مئة شخص أو مئتين أو ثلاث مئة"(46).

يمكن ملاحظة الاستباق في معرض كلامه لتصديق ما يحصل، والفترة الزمنية التي مرّت وقضت في الحرب، يقول: "لا

أصدق لأننا تحاربنا خمسة عشرة سنة وبعد خمسة عشرة سنة علينا أن نرتاح، وربما بعد أربعين سنة أو خمسين نتحارب مرّة أخرى، هكذا يقول إيليا لا أنصح أحدًا أن ينجب سلالة في هذا البلد"[47]؛ غير أنه استبق الأمور مرتين؛ المرة الأولى حين توقع الحرب مرة أخرى؛ هذا لأننا شعب اعتاد على الحروب وقتل بعضنا الآخر، والمرة الثانية حين توقّع عدم انجاب الأطفال في هذا البلد ما دامت الحروب قائمة، وهو استباق ربما لا يتحقق. فانتهاء الحرب والعيش بسلام يصوّر فظاعة الأمور وذلك غاية بذات الراوي ليصف القلق للمستقبل اذا بقي على ما هو عليه، فيكون مساعدًا لنشر المحبة ونسيان البغض.

تطرّق البطل إلى البحث عن أسرته الأولى من خلال الجمعيات، والمؤسسات الخيرية، وسجلّ المفقودين. ويبقي مستقبل روايته غامضًا بعدما أنهكه البحث والتفتيش، إن من الناحية النفسية أو من الناحية الجسدية؛ ففضّل الرضوخ للحاضر والوحدة مع ذاته "لم أتزوج لكنني أشعر بالراحة. كانت هناك مراحل وجدت فيها صعوبة في البقاء وحدي، الآن تعوّدت على هذا"[48]. هذه النقطة هي دلالة واضحة على إرادته في تخطّي الأزمات التي مرّ بها في وقت رسم مستقبلاً غامضًا لوحدته المرتبطة بهذه اللحظة.

د) تقنية المناجاة

تسيطر تقنية المناجاة على حيّز كبير من الرواية؛ ذلك أنّ "المناجاة هي تفكير بصوت مرتفع، يقوم إهمال الحوادث في سبيل إضاءة داخليّة للشخصيّة"[49]، وهذا التفكير يتغلغل في الماضي الحاضر معًا ليستخرجهما إلى الحاضر الذي تتمّ فيه المناجاة.

تحكم المناجاةَ الأحداثُ غير العادية التي جرت مع الراوي في ظلّ حروب داخليّة وأهليّة. بدأ الرواي بعقدة من بداية الرواية، وترك الأوضاع تتأزّم في نفسية البطل أكثر من التأزّم الخارجي، وذلك في قوله: "أنا الصبيّ الذي خطفوه [...] أحلف ولا أخاف أن أذهب إلى جهنم، ماذا تكون هذه؟ أحلف ولا أخاف أن يحرقني إبليس، لماذا يحرقني؟ لأنني ألعب الفوتبول مع أصحابي؟ لا أخاف من هذه الأكاذيب الصغيرة"[50]. بعد تأزّم نفسيّة الراوي فقد "الاتصال مع الأنا الجماعية"[51]. ويمكن وصف حياته بالقول إنّها"خضعت لخللٍ في السلام والمحبة والقيم في معايير حقوقٍ الطفل والتعامل السيّئ من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية"[52]. فشخصية "مارون" تأثرت إلى حدٍّ بالغ بالضياع بضياع الوطن وعدم استقراره، يقفُ به الحال عند ممارسة رياضته المحبّبة، فيقول: "لكنني من الإشارات المتفرّقة والكلمات القليلة ركّبت هذه القصّة في رأسي: أخي الميت كان مثلي يحبّ الفوتبول بسبب الفوتبول كان يخرج كثيرًا من البيت. في إحدى المرّات خطفوه.."[53]. يستحضر الموت كل لحظة من حياته اليوميّة، ونتيجة لذلك أصبح الضياع رفيقه، وفي سياق الهمّ ذاته، أيضًا، قال: "ماذا

يحدث للذين يخطفون ولا تظهر جثثهم؟ هؤلاء أين هم؟ ماذا يفعلون بهم؟ كل ذلك كان أسود غامضًا، ومحركًا للكوابيس"(54). ويعني هذا النوع من المناجاة رصد القلق الذي يعتري المناجي، ووصوله إلى الهدف الأخير ورؤيته. فهو يراهن على الأموات بعدم البحث عنهم لأنهم خطفوا وقتلوا في الوقت ذاته. فهو يعترف بالواقع المرير الذي عاش فيه وشاهده وسمع عنه من أخيه، وهذا الواقع هو الذي عاشه معظم اللبنانيين بفقدان أحد أبنائهم.

غدت العواطف موضوعًا أصليًّا يستقطب بناء الزمان بحيث أمسك الجدل التام بين المكان والزمان، بهدف إما تبرير الانتصار على الزمان، أو الانتصار على المكان. أما الخلاف بيد الأفراد قد يكون عاطفة عرضية، أي مولودة عن حادث ظرفي ينتج عنه الخلاف بين الطوائف من خطف وقتل وانتقام.وهكذا، سرد الراوي الأحداث وتتابعها ابتداءً من "حرب السنتين" إلى "المئة يوم" وإلى "السبت الأسود" [...] وكل هذه الأسباب جعلته يعبّر عن تلك العاطفة التي شاركنا بها من بداية الرواية حتى نهايتها، حتى تغدو عواطفه مشروعة تُظهر البطل من أصحاب الضحايا لتلك الحرب؛ وهو من أصحاب الحقوق الذين يحقّ لهم التعبير عن عواطفهم.

خاتمة البحث

وجّه "ربيع جابر" نقطته المركزية نحو البيت اللبناني الحاضن، المسلم ـ المسيحي أو ربما المسيحي ـ المسيحي؛ لأن المسحيين، أيضًا، يسكنون الجبل. فهذا المسكن الذي حضن (الحب/ الكره) و(الحرب/ السلام) مثّل لبنان ولكن بدائرة أصغر. وهذا البيت، الذي جرح من أعماقه، حاول تضميد هذا الجرح بتضميد جرح طفل لم يعرف ماضيه، سوى أنّه وجد بالخطأ على خطّ التماس ببداية الحرب 1976. كان هذا الجرح نقطة مفصلية بتغيير وجهة حياتهم؛ فالأم لم تفارق الفراش بسبب المرض الذي أصابها من أثر الحزن الشديد، والأب لم يفارق ساحات القتال والاشتباكات، وتحوّل إلى وحش يخطف ويقتل ويقنص. فإذا بالابن الكبير يقلّد والده بعد فترة ويتباهى بعمل والده وعمله؛ وكانت هذه المرحلة مفصلية، أيضًا، في حياة "مارون"؛ إذ تغيّر مكان سكنه وتغيّرت أسرته ومفاهيمه. هذا المسكن هو أنموذج صغير للوطن الذي يسكن فيه أبناؤه من جميع الطوائف، ومن جميع الثقافات. لذا إن بذرة الحُبّ التي تزرع في أرضه الخصبة هي التي تنتج الاستقرار والثقافة والحضارة.

نجد "مارون" يلخصّ حياته في عبارة "أنا لست أنا"؛ لا بالدم ولا بالروح، ولا بالاسم، ولا بالثقافة ولا حتى بالطقوس. فحكم عليه أن يعيش حياة غير حياته، ويقرر مستقبله بعدما ضاعت هويته، وضاعت فتاة أحلامه. وفي علامات الترتيب الزمني، نجد التاريخ الدقيق للوقائع، وأسماء المعارك وأسماء المناطق بالتفصيل، مع ذكر التوقيت الصحيح لكل حدث من أحداث الحرب الأهلية. ويكون "ربيع جابر"، بذلك،

قد قدّم عملاً واقعيًّا عانى منه عدد كبير من الأطفال الذين فقدوا أسرهم ومستقبلهم، وقد برز دور العامل النفسي والاجتماعي والإنساني في مواجهة الطائفية وفي هدم الثقافة والحضارة.

نجح "ربيع جابر" في تصوير ويلات الحرب بالكلمات وقدّم واقعًا سيئًا للرواة؛ وذلك لجعل هذه الحرب عبرة للبنانيين كي لا تتكرّر، لأننا ما زالنا نعاني من الأحداث ذاتها تقريبًا. وحين أنهى روايته بوجود "مارون" في منطقة "الحمرا" وهي تقع بين المنطقتين المتخاصمتين، وليس على خط التماس إنما في موقع الجامعة الإميركية، وهي رمز التطور والحضارة، وهذا يعني أنّه علينا أن نفتش عن العلم والمحبة في عصرنا هذا.

د. هبة الحشيمي

الهوامــش

(1) أنظر الولي (محمد): السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية، ضمن كتاب الحجاج... مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، المجلد الرابع، ص60ـ78، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.

(2) جابر ربيع، الاعترافات، ص9.

(3) عبد المجيد زراقط، فن بناء الرواية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1999، ص 997.

(4) جابر ربيع، ص 97.

(5) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990.

(6) جابر ربيع، الاعترافات، ص 28.

(7) جابر ربيع، الاعترافات، ص 29.

(8) جابر ربيع، الاعترافات، ص 9.

(9) جابر ربيع، الاعترافات، ص 54.

(10) جابر ربيع، الاعترافات، ص 12.

(11) جابر ربيع، الاعترافات، ص 13.

(12) جابر ربيع، الاعترافات، ص 30.

(13) جابر ربيع، الاعترافات، ص 46.

(14) جابر ربيع، الاعترافات، ص 16.

(15) جابر ربيع، الاعترافات، ص 29.

(16) جابر ربيع، الاعترافات، ص 28.

(17) جابر ربيع، الاعترافات، ص 17.

(18) جابر ربيع، الاعترافات، ص 16.

(19) جابر ربيع، الاعترافات، ص 18.

(20) جابر ربيع، الاعترافات، ص 18

(21) جابر ربيع، الاعترافات، ص 11.
(22) جابر ربيع، الاعترافات، ص 27.
(23) جابر ربيع، الاعترافات، ص 44.
(24) جابر ربيع، الاعترافات، ص 14.
(25) جابر ربيع،الاعترافات، ص 26.
(26) جابر ربيع، الاعترافات، ص 26.
(27) جابر ربيع، الاعترافات، ص 28.
(28) بوتور ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت، دار عويدات، ط1، 1971.
(29) جابر ربيع، الاعترافات، ص 29.
(30)حسن بحراوي،بنية النص السردي،ص89.
(31) سيزا قاسم، في بناء الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984، ص71.
(32) Plantin,Ch (1997) "L'Argumenta- tion dans l'emotion", Pratiques 86: 1997.
(33) جابر ربيع، الاعترافات، ص 32.
(34) عبد المجيد زراقط، في بناء الرواية اللبنانية، ص702.
(35). Plantin, Ch, "L'Argumentation dansl'emotion" , Pratiques -12: 1999
(36) جابر ربيع، الاعترافات، ص 10.
(37) زراقط عبد المجيد، بناء الرواية اللبنانية، بيروت 1999، ص703.
(38)Nelly corneau, physiologie du romon, Nizet, Paris,. 1978.
(39) جابر ربيع، الاعترافات، ص 140.
(40) جابر ربيع، الاعترافات، ص 142.
(41) زراقط عبد المجيد، في بناء الرواية اللبنانية، ص 699.
(42) جابر ربيع، الاعترافات، ص 9.
(43) جابر ربيع، الاعترافات، ص 12.
(44) جابر ربيع، الاعترافات، ص28.
(45) جابر ربيع، الاعترافات، ص 29.
(46) جابر ربيع، الاعترافات، ص 27.
(47) جابر ربيع، الاعترافات، ص 26.
(48) جابر ربيع، الاعترافات، ص 139.
(49) زراقط عد المجيد، في بناء الرواية اللبنانية، ص 707.
(50) جابر ربيع، الاعترافات، ص 54.
(51) مراد مبروك، بناء الزمن، ص 16.
(52) الموضع نفسه.
(53) جابر ربيع، الاعترافات، ص 38.
(54) جابر ربيع، الاعترافات، ص 41.

المصادر والمراجع:

1. الولي (محمد): السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية، ضمن كتاب الحجاج... مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، المجلد الرابع، ص60ـ78، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
2. بوتور ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت، دار عويدات، ط1، 1971.
3. جابر ربيع، الاعترافات، دار الآداب، بيروت لبنان، ط2، 2015.
4. عبد المجيد زراقط، فن بناء الرواية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1999.
5. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي،بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990.
6. سيزا قاسم، في بناء الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984، ص71.
7. Plantin,Ch ,"L'Argumentationdansl'emotion" , Pratiques-86: 1997.
8. Plantin, Ch , "L'Argumentationdansl'emotion" , Pratiques -12: 1999.
9. Nelly corneau, physiologie du romon, Nizet, Paris,1978.

توجهات سياسة مصر الخارجية خلال مرحلة الثمانينيات

د. جان خليل طعمة

مقدمـــة

عندما تولى الرئيس حسني مبارك الحكم في مصر عام 1981، كان الوضع السياسي يعج بحالة من الغليان، إثر اغتيال الرئيس أنور السادات وصعود جماعات متطرفة إلى الحكم، مما أدّى إلى تعرّض النسيج الاجتماعي والقومي للاهتزاز والتوتر الداخلي، وعدم الاستقرار، وهذا ما أدّى إلى بروز شخصيات ذات انتماء سياسي يميني أو يساري. ممّا دفع إلى الافراط في تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي.

ومن هنا كان ضرورياً على الرئيس حسني مبارك أن يستعيد الاستقرار إلى الواقع السياسي والاجتماعي، ولم تكن الحاجة إلى استعادة وتحقيق عنصر توازن في السياسة الخارجية، بأقل أهميّة، وكان في مقدّمة أولوياتها تصحيح العلاقة مع العالم العربي. فعلى الرغم من أنّ الشعور العام يدعو إلى عدم تورّط مصر في الواقع العربي المعقّد، إلّا أنّ شعوراً شعبياً مماثلاً بأنّ خصومة مصر مع محيطها العربي هو أمر مناف لطبيعة الأشياء.

هذا الاعتبار الأخير هو الذي جعل من أقوى تحديات التواصل إلى صيغة تجمع بين استمرار علاقة مصر ومكانها التقليدي في العالم العربي، وبين استمرار التزامها بسلامها التعاقدي مع الكيان الصهيوني، وقد كان هذا حقاً تحدّياً قوياً إلّا أنّ السياسة المصرية تحلّت بالصبر والشروع في سياسات تتميّز بالتوازن ممّا أمكنها التوصّل إلى هذه المعادلة، الأمر الذي وجده هؤلاء المراقبون إنجازاً دبلوماسياً حقيقياً. فقد وازنت الدبلوماسيّة المصرية بشكل محكم بين تأكيدها واستمرار احترامها لمعاهدة السلام مع الكيان الصهيوني، ورفضها للمفهوم الاسرائيلي للحقوق الفلسطينية وإدانتها الحازمة للسلوك الممارس على الأراضي المحتلّة.

وقد جاء الغزو الاسرائيلي للبنان عام 1982 ليعطي مضموناً عملياً لسياسة مصر المتوازنة التي تسمح لمعاهدة اتخذت مع اسرائيل من أن تكون عبئاً على التزاماتها العربية، فقد أدانت مصر الغزو وقررت، وخاصة بعد مجازر صبرا وشاتيلا سحب سفيرها من تل أبيب، واشطرطت لعودته انسحاب اسرائيل من لبنان، وقد بقيت مصر على موقفها رغم كل الضغوط الامريكية التي مورست عليها. كذلك أثبتت في هذه الفترة نوايا مصر تجاه الفلسطينيين حين ساعدت على إجلاء منظّمة التحرير

الفلسطينيّة من طرابلس وهي الفترة التي أعقبها تحسّن التواصل التدريجي بين مصر والمنظّمة، وكدليل على وفاء مصر بالتزاماتها العربيّة الأشمل. وقد توج التصالح التدريجي بين مصر والعرب بقرار قمّة عمان في مؤتمر عام 1987 بتأييد استئناف الدول العربية لعلاقاتها مع مصر.

التاريخية السياسية في مرحلة الثمانينات

تميزت مرحلة الثمانينات من القرن الماضي بسمات خاصة، ظهرت من خلال قطع العلاقات العربية مع مصر، لتعود هذه العلاقة من جديد إثر سلسلة تطورات سياسة عرفها المشرق العربي خلال هذه الفترة. وهي مرحلة حكم الرئيس المصري السابق حسني مبارك.

كان حكم الرئيس مبارك عام 1981 استمرارية وامتداداً لحكم الرئيس السابق أنور السادات، فورث مبارك أيضاً معظم مشاكل وأعباء الرئيس السابق وهي متعددة:

1) الاسلام السياسي واتساع نطاق معارضته.

2) المعتقلات تزخر بالآلاف السجناء السياسيين.

3) تردي الوضع الاقتصادي.

4) العلاقات العربية ـ المصرية التي وصلت إلى حد القطيعة.

5) العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية محدودة.

هكذا تسلم مبارك رئاسة البلاد ومسؤولية الحكم والأوضاع الداخلية والخارجية المتردية. فبرزت سلسلة استفهامات أبرزها:

1) مدى إمكانية إحداث تغير في السياسة الخارجية.

2) هل للرئيس الجديد القدرة على إخراج مصر من أزمتها.

3) كيف سيتمكن من ايجاد الحلول للأزمات الاقتصادية[1].

تطلع الجميع إلى الرئيس حسني مبارك، وانتظروا حلولاً لكافة أزمات مصر المتراكمة طوال عهد الرئيس أنور السادات. فالرئيس في العالم الثالث هو من يحدد السياسة الخارجية، وهو من يرسم السياسة الداخلية بكافة مندرجاتها، وهو أيضاً من يختار رجالات السلطة الذين سيعبّر عنهم في اتخاذ القرارات، مع غياب الرأي والرأي الآخر، واللاأهمية للرأي العام أو حتى للسلطة الرابعة المتمثلة بالإعلام الفاقد لشرعيته الشعبية[2]. وقد ظهر من خلال الممارسة مدى الفروقات بين الرئيسيين أنور السادات وحسني مبارك، فالأول اعتبر نفسه رب العائلة وأفراد الشعب هم أولاده، كما اتخذ منحى التوجيه نحو الغرب مبتعداً عن أحضان الاتحاد السوفياتي. وكانت رؤيته للمنطقة من منظور شرق أوسطي أكثر منه نظام عربي. كما استفرد في اتخاذ القرارات، حيث اعتبر نفسه مطلق اليد في تصريف شؤون مصر[3].

بينما بدا الرئيس مبارك أكثر ميلاً للمشاركة في اتخاذ القرار، معتبراً نفسه مواطناً اختارته الناس رئيساً لها.

وحتى عندما أتفق الرجلان في تقديم مصريته على عروبته، إلا أن مبارك كان يعتبر

مصر جزءاً من العالم العربي، بتأكيده الدائم على عروبة مصر. كما تميّز بالتأني في اتخاذ القرار وعدم التسرّع. وهذا ما سيلعب دوره في رسم سياسة مصر الخارجية، والتخطيط للسياسة الداخلية وإيجاد الحلول الاقتصادية اللأزمة[4].

اقتنعت السلطة الجديدة في مصر بدورها العربي، وبأهمية البقاء ضمن الحضن العربي، فالشعب المصري يمثّل نصف الشعب العربي تقريباً، كما أنّ التفاعل الثقافي بين مصر والعالم العربي لا يمكن إلغاؤه، بل أنّ التأثير الثقافي المصري على العالم العربي راسخ وثابت منذ عشرات السنين، يضاف إلى ذلك أنّ هنالك الآلاف من العاملين المصريين (2 مليون) يتوزعون على أنحاء العالم العربي، والآلاف من العرب يصلون إلى مصر بهدف السياحة. لذلك فإنّ عزلة مصر العربية غير واردة، بل هي مجرّد عزلة سياسية ـ إعلامية ـ تكتيكية مؤقتة. فلا يمكن للعرب أن يتخلوا عن مصر، ولا تستطيع مصر التخلي عن العرب[5].

لقد واجه مبارك المقاطعة العربية متحدياً أيضاً الأنظمة التي أعلنت مقاطعة مصر بسبب علاقتها مع اسرائيل. عندما صرَّح قائلاً: "فإين أحيلهم على ما قاله جلالة الملك الحسن ملك المغرب عندما هاجموه على عقد المؤتمر اليهودي في بلاده حيث قال: "إن لديه ملفات كاملة بالمستندات للاتصالات السرية بين اسرائيل وبين بعض الأنظمة"[6].

هكذا تحرك الرئيس المصري مبارك في عملية استعادة العلاقة مع العالم العربي، مستخدماً العصا والجزرة في خطاباته ولقاءاته التي أبرز ما ورد فيها:

1) مصر والعالم العربي كيان واحد.

2) لا يمكن محاسبة مصر التي أعلنت عن علاقة مباشرة وواضحة مع اسرائيل، وأنتم تقيمون هذه العلاقة سراً؟

3) الوصول إلى حد أدنى من التوافق العام لإيقاف تردي الوضع العربي[7].

4) التزام مصر بالاتفاقيات الدولية والرسمية التي عقدتها مع العالم العربي كما مع اسرائيل.

5) التزام مصر بالقضية الفلسطينية والتسوية الشاملة[8].

لا بُدَّ من أن نضيف هنا، إلى أنّ الرئيس حسني مبارك اعتبر نفسه غير مسؤول عن أفعال الرئيس أنور السادات، إلا أنّه لا يمكنه التراجع عن بعضها، وأهمها هي اتفاقية السلام المعقودة مع دولة اسرائيل. وأعلن أنّه متمسكٌ بالمعاهدات التي عقدها سلفه كاملة. وأرفق ذلك بتحذير اسرائيل من انتهاك المعاهدات المعقودة، وهو بذلك حاول تهدئة الشارع المصري الداخلي المعادي لمعاهدة السلام مع اسرائيل، وساعده في سياسته هذه انسحاب اسرائيل عام 1982 من سيناء عدا ـ طابا.[9].

وقد ساعد الرئيس حسني مبارك على تطبيق سياسته أمور عديدة أهمها:

1) حسن العلاقة الشخصية مع ملوك ورؤساء العرب.

2) علاقته مع اسرائيل تتسم بالاتزان والجدية[10].

فهو لم يزر اسرائيل مطلقاً ـ كما فعله سلفه السادات ـ وقد برر ذلك بأنّ تصريحات رجالات الكيان الاسرائيلي متعنتة، وتعدياتها مستمرة على استقلال مصر ووحدة أرضيها من خلال عدم الانسحاب من منطقة طابا.

واذا اجرينا مقارنة بين الرئيسيين: أنور السادات وحسني مبارك. نلاحظ الآتي:

1) ان ترحيب الرئيس السادات بالاسرائيليين ترحيباً مبالغاً به.

2) الرئيس مبارك قنن هذه العلاقة مع الاسرائيليين، وكان حذراً منها أو أنه أظهر عدم رغبته بتوطيد هذه العلاقة ـ بداية ـ لكسب الشارع المصري[11].

لقد كان مبارك أكثر رصانة وهدوءاً، كما كان أكثر مرونة مع العالم العربي.

ويمكننا القول أكثر دهاءً من السادات: بتقرّبه من العالم العربي. ومطالبة بضرورة الاعتراف بمنظّمة التحرير الفلسطينية من قبل اسرائيل. ناهيك عن رفضه أي تنازلات جديدة لاسرائيل.

هذا ما دفع اسرائيل بإطلاق اسم "السلام المجمد" على العلاقة مصر خلال بداية فترة حكم مبارك[12].

وكل هذا كان يصب في مصلحة الرئيس مبارك، وسياسته الخارجية، ويؤثر على سياسته الداخلية أيضاً. حيث ظهر أمام الشعب المصري أنّه الرئيس التي فرضت عليه معاهدة سلام لا يستطيع أن يتراجع عنها. كما صدق العرب هذه المقولة، مما ساهم في نجاح سياساته على كافة الأصعدة.

وقد ساعد مبارك على تحقيق سياسته بعض الأحداث الاقليمية الطارئة:

1) الغزو الاسرائيلي عام 1982، حيث سارع الرئيس مبارك إلى التنديد بهذا الغزو الذي وصل إلى العاصمة بيروت، وكان موقفه هذا أول اختبار مع بداية توليه الحكم. كما طالبهم بالإنسحاب الفوري من لبنان، حيث سارع إلى سحب السفير المصري من تل أبيب، مما أدى إلى تراجع العلاقات الاقتصادية والسياحية بين الدولتين[13]. لقد كان موقف مبارك حازماً من رفض تقسيم لبنان وإثارة الفتن الطائفية بين أبنائه، ووقف بناء المستوطنات، واحترام حقوق العرب داخل دولة اسرائيل، وحل مشكلة طابا[14]. ولم ترضخ مصر حينها للضغوط الاسرائيلية بإعادة سفيرها إلّا ضمن الشروط المسبقة التي طرحتها.

2) الغارة الاسرائيلية في أكتوبر عام 1985 على مقر قيادة منظّمة التحرير الفلسطينية في تونس. حيث وضعت وزارة الخارجية المصرية العدوان الاسرائيلي بالمجرم تجاه الفلسطيني، وبالتطرف والعنف، وهي تهديد لمسيرة السلام[15].

أرفقت مصر بيانها هذا بسلسلة تدابير منها:

1) رفض استقبال وفد اسرائيلي يشارك في محادثات طابا.

2) رفض اشتراك اسرائيل في معرض القاهرة الدولي عام 1986.

3) تأييد قرار مجلس الأمن بإدانة الغارة الاسرائيلية[16].

كانت هذه المواقف المصرية ـ في عهد الرئيس حسني مبارك تجاه اسرائيل، مجرد

غطاء لسياسة محنّكة من قبل النظام المصري، لتمرير أزماته الخارجية والداخلية، وكانت تبقى مجرّد تصاريح إعلامية ليس إلّا، وقد بدا ذلك من خلال استمرار العلاقات مع الاسرائيليين وبشكل يزداد صلابة ويترسخ مع الزمن، واتخذ الرئيس مبارك طابع رجل الحلول الذي سيعمل على وضع العالم العربي في جو علاقات سلام مع اسرائيل ـ بما فيهم منظّمة التحرير الفلسطينية نفسها.

وقد ظهر ذلك من خلال:

1) لقاء مبارك مع وزير الخارجية لاسرائيل شمون بيريز في أول سبتمبر 1986، والتأكيد على مؤتمر السلام ليتكرر هذا اللقاء في جنيف.

2) سعي الرئيس المصري إلى مؤتمر سلام دولي يجمع الدول العربية مع اسرائيل، ومنظّمة التحرير الفلسطينية، لحلِّ أزمة الشرق الأوسط[17].

لم يكن أمام مبارك إلّا سياسة شد الحبال في السياستين الخارجية والداخلية ـ في العلاقة مع اسرائيل ـ خصوصاً مع الانتفاضة الفلسطينية وتفاعل الشعب المصري معها بشكل كبير.

وقد بدا بأنّ الرئيس المصري على صعيد السياسة الخارجية كان أكثر عقلانية ودهاءً من سلفه السادات حيث استطاع تأمين التوازن المقبول حفاظاً على صورة مصر في العالم العربي، على معاهدة كامب ديفيد في الوقت عينه، حفاظاً على صورة المصري أمام شعبه.

العلاقات المصرية العربية.

ورد سابقاً، فرغم القطيعة العربية لمصر، إلّا أنّ الرئيس مبارك ومع تسلّمه السلطة 1981، عمل على عدة محاور، فقد حافظ على اتفاقية السلام والتزم بها، وأوقف بعض الحملات الإعلامية ضدّ دول عربية ومنها سوريا وليبيا[18].

وهي الخطوة الأولى التي قام بها مبارك ليبدأ به عهده من خلال تخفيف الاحتقان الموجود مع العالم العربي. ترافق ذلك مع اهتمام مصر بالقضية اللبنانية تحديداً:

1) دعم الحكومة اللبنانية الشرعية.

2) رفض التدخل الأجنبي في شؤون لبنان الداخلية.

3) الدعوة إلى إنهاء حالة الفوضى التي يمرّ بها لبنان[19].

ولم تكن مصر بعيدة عن أحداث الخليج العربي، فساندت العراق سياسياً وعسكرياً، وأكّدت على عدم القبول بتمكين إيران من منطقة الخليج، وقد كان موقف مبارك واضحاً عكس موقف سلفه السادات، الذي كان حيادياً، أو مراقباً[20].

وأكّدت مصر في هذا الشأن على:

1) ضرورة ايقاف الحرب.

2) رفض وقوف بعض الدول العربية ضد العراق (سوريا) (وليبيا).

وقد أرفق مبارك مواقفه هذه بالقيام بأكثر من زيارة إلى بغداد، رغم انقطاع العلاقات المصرية ـ العراقية:

1) زيارة العاصمة العراقية سنة 1985 برفقة الملك الأردني حسين.

2) استقبال مصر لوزير الخارجية العراقي عام 1985.

3) استقبال مصر للنائب الأول لرئيس الحكومة العراقي وتوقيع اتفاقيات اقتصادية وزراعية بين البلدين[21].

أما العلاقة مع القضية الفلسطينية، فقد ارتكزت على:

1) تخلي اسرائيل عن سياسة الاحتلال والتوسع.

2) اجراء مفاوضات شاملة، وتبادل مشترك ومشروط بمشاركة الشعب الفلسطيني.

3) اعتبار منظّمة التحرير الفلسطينية الممثّل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني[22].

هذه السياسات مع العالم العربي، هي إعادة فتح الباب أمام العرب للقبول بمصر ـ كما هي ـ من جديد وهذا ما سوف نلاحظه.

عودة العلاقات المصرية ـ العربية.

كان لعودة العلاقات المباشرة والدبلوماسية بين العرب ومصر ظروف مختلفة دفعت بالعرب إلى أحضان مصر من جديد ـ ورد بعضها سابقاً ـ منها:

1) موقف مصر المؤيّد والداعم للعراق في حربه مع ايران.

2) اعتبار العرب بأنّ مبارك لم يقف وراء اتفاقية كامب ديفيد، بل فرضت عليه.

3) توجيهات مصر الإعلامية المؤيّدة للقضايا العربية رغم السلام مع اسرائيل.

4) تصريحات المصريين بأنّ كامب ديفيد هي اتفاقية حسن جوار مع اسرائيل لن ترتقي إلى مستوى العلاقات الخاصة.

5) حالة التوازن السياسي الخارجي التي اعتمدتها مصر خلال هذه المرحلة (الثمانينات)[23].

6) موقف الملك الأردني حسين وعمله الدؤوب على إعادة هذه العلاقات، معتبراً أنّ النسق العربي من دون مصر أشبه بحلف الأطلنطي بدون الولايات المتحدة[24].

7) إيقاف مصر لكل الحملات الإعلامية المعادية للعرب.

8) عودة العلاقات الأردنية ـ المصرية في 25 سبتمبر 1984.

9) استعادة العلاقات مع جيبوتي.

10) تحسّن العلاقات المصرية ـ الفلسطينية.

11) تحسّن العلاقة مع العراق ـ كما لاحظنا ـ والسعودية واليمن الشمالي[25] ويعود ذلك إلى موقف مصر الداعم للعراق ضدّ ايران.

12) تطويرالعلاقات مع العالم العربي ـ رغم المقاطعة ـ من خلال الزيارات والاتفاقيات المشاركة في شتى المجالات.

لقد كان لموقف مصر الواضح ضدّ ايران، والداعم للعراق ـ عسكرياً ـ خلال حرب الخليج الأول، أن ساهم في اقتناع العرب، وخصوصاً الدول المعادية لايران ـ عقائدياً ـ بأنّها لن تتمكّن من الوقوف أمام المارد الإيراني منفردة من دون دعم دولة عربية قوية كمصر، خصوصاً مع دعم سوريا وليبيا لايران ضدّ العراق. من هذا المنطلق وهذه الخلفية، بدأت العلاقات العربية ـ المصرية تعود إلى مسارها السابق، بل واتخذت منحىً جديداً، باعتبار مصر الدعامة العربية التي سوف تعيد التوازن للقوى العربية، وتؤمّن سلامة كياناتها. لذلك لم تعد هذه الدول تهتم بمسألة كامب ديفيد، واتفاقية السلام، خصوصاً

بعدما صرّح المسؤولون المصريون بأنّ هذه الاتفاقية هي مجرّد اتفاقية حسن جوار، وبدا الموقف المصري داعماً للقضايا العربية وبشكل واضح[26].

وبالحقيقة، أنّ العلاقات المصرية ـ العربية لم تنقطع بالمعنى المطلق، كان الموقف السوري والليبي الأكثر تطرّفاً عربياً، بينما باقي الدول العربية بقيت على تواصل دائم مع الإدارة المصرية، وخصوصاً الأردنية منها، وهو ما لاحظناه سابقاً ـ كما الموقف الجزائري المتشدد الذي توافق مع السوريين والليبيين[27].

ورغم ذلك لم تستطع أيّ دولة عربية عدم الاعتراف بوزن دور مصر الاقليمي والدولي، حتى سوريا وليبيا والجزائر، فإنّ هذه الدول لم تستطع البقاء بعيداً عن مصر، أو عزلها بالكامل. وذلك يعود لحجم الضعف العربي وتشتتهم، وقوة اسرائيل وامتلاكها للسلاح النووي ودعم الغرب لها[28].

يضاف إلى ذلك قبول جزء كبير من العرب بالحل السلمي، بداية بشكل غير رسمي، إلّا أنّ المواقف الداخلية لعدد من القادة العرب لم يكن يعترض على الحل السلمي، إنّما كان ينتظر مخرجاً لهذا الحل، وقد ساعد هؤلاء الزعماء على السير في هذا المسار، مواقف مصر العلنية التي أخذت تقنع الشارع العربي بالقبول بمصر التي أقامت سلاماً مع الاسرائيليين، وبشكل قتالي وبمؤازرة من الإعلام العربي نفسه، ظهرت مصر مجبرة على القبول بالسلام مع اسرائيل وهو ما صرّح به الرئيس مبارك الذي ذهب إلى أبعد من ذلك معتبراً اتفاقية كامب دايفيد أصبحت من الماضي[29].

وقد جاء خطاب مبارك أمام مجلس الشعب في 12 أكتوبر 1987 عقب انتخابه للمرة الثانية موضّحاً سياسة مصر الخارجية مؤكّداً على التغيير الذي طرأ على مواقف مصر العامة، إقليمياً المتمثّلة بالآتي:

1) التمسّك بالسلام العادل لمصر وللدول الشقيقة.

2) الالتزام بسياسة مستقلة مرتبطة بالمصالح العليا للبلاد.

3) تعزيز التضامن بين الدول العربيّة والدول التي تشكل دوائر اهتمام لمصر.

4) استقلال الإرادة العربية وقرارها.

5) تسوية المنازعات العربيّة فيما بينها[30].

لقد كان موقف مبارك مؤكّداً على سياسة مصر المستقلة وعلى علاقتها وارتباطها بالعالم العربي وعدم تنازله عن معاهدة السلام.

كما ساعد مصر على استعادة موقعها العربي، عدة أحداث هامة عرفتها نهاية الثمانينات وبداية التسعينات من القرن الماضي:

1) نهاية الاتحاد السوفياتي 1990.

2) تفرد الولايات المتحدة ـ المؤقت ـ في حكم العالم.

3) حرب الخليج الثانية، على أثر قيام العراق باحتلال دولة الكويت.

لقد فقد العالم العربي، في هذه المرحلة، تماسكه وقوته فمع خروج مصر، إثر اتفاق كامب ديفيد ـ سقطت الكويت بيد العراق، ودخلت المنطقة العربية في صدام حقيقي بين مجموعتين من الدول:

1) دول الخليج العربي ومصر وانضمت

اليهم سوريا فيما بعد، ضدّ العراق واحتلاله للكويت.

2) الأردن وفلسطين إلى جانب العراق.

3) موقف بعض الدول العربية الداعي إلى التسوية الداخلية متمثلة بالسودان واليمن والمغرب العربي.

في هذه المرحلة الحرجة طرأت تغييرات مهمة على العلاقة بين سوريا ومصر، حيث أستؤنفت العلاقات بينهما في 27 كانون الأول 1989، على الرغم من تناقض مواقف النظامين السياسيين لكلا الدولتين. فتدخّل سوريا إلى جانب مصر في حرب الخليج الثانية جاء لتحمي نفسها خصوصاً مع انهيار الاتحاد السوفياتي، حيث وجد النظام السوري نفسه وحيداً في عالم يتفرد في حكمه الولايات المتحدة، التي سارعت وتحت غطاء مجلس الأمن إلى حشد الجيوش في الشرق الأوسط لاستعادة دولة الكويت. كما وفرضت حصاراً خانقاً على العراق. عندها لجأت سوريا إلى مصر، ودخلت في التسوية السلمية وبرعاية أميركية بغية أنهاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي. فظهر نظام عربي جديد مع بداية التسعينات: نواته: مصر وسوريا ودول الخليج العربي الست، دون العراق[31].

استنتاج

لاحظنا من خلال ما ورد، أن فترة حكم الرئيس المصري السابق حسني مبارك، والتي دامت حوالي ثلاثين عاماً، قد حفلت بالكثير من الأحداث وشأنه شأن من سبقه من رؤساء مصر. كان مبارك عسكرياً، أعتمد أسلوباً براغماتياً في معالجة القضايا المصيرية التي واجهتها مصر وعلى الرغم من نجاح سياسته الخارجية- كما لاحظنا- إلا أنه فشل في حل المعضلات الداخلية، كالبيروقراطية والبطالة والتضخم وتنامي عدد السكان، فوصم عهده بالفساد وغياب الرؤية الشاملة. لذلك لم يكن يحصل على رضا شعبي داخلي، مما ساهم في الاطاحة به في 11 شباط 2011.

إلا أنه نجح في السياسة الخارجية:

1) استعادت مصر الأراضي التي كانت اسرائيل تحتلها في نيسان 1982، وحل مشكلة طابا عام 1989.

2) انتخب رئيساً لمنظّمة الوحدة الافريقية عامي 1989 و1993.

3) نجح في إعادة مصر إلى أحضان العالم العربي، على أثر القطيعة العربية لها بعد اتفاقية كامب ديفيد.

4) انضمت مصر إلى مجلس التعاون العربي عام 1989.

5) تميز بالدهاء والحنكة فهو حافظ على اتفاقية السلام مع اسرائيل وعلى العلاقات التاريخية والثقافية مع العرب[32].

د. جان خليل طعمة

الهوامــش

(1) اسماعيل صبري تقلا، الاستراتيجية والسياسة الدولية، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1979، ص 95.

(2) Frankel, Joseph, The Making of Foreign policy, Oxford University Press, 1963, p. 559.

(3) سلوى شعراوي جمعة، الدبلوماسية المصرية في عقد السبعينات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988، ص 67 – 74.

(4) مصطفى علوي، التعامل الدولي من منطلق الاستقلال الوطني، القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، 1982، ص 175 – 176.

(5) بطرس بطرس غالي، سياسة مصر الخارجية في مرحلة ما بعد السادات، مجلة السياسة الدولية، عدد 69، يوليو 1982، ص 84 – 85.

(6) جريدة السياسية الكويتية، 17/ 10/ 1984.

(7) بطرس بطرس غالي، الدبلوماسية المصرية في عهد مبارك (81 – 84)، مجلة السياسة الدولية، عدد 78 أكتوبر 1984، ص 5.

(8) مجلة أكتوبر 1/ 11/ 1981.

(9) جورج المصري، نحو رؤية عربية لمفهوم الأمن القومي، الموقف العربي، عدد 95، 1988، ص 77.

(10) فاروق يوسف أحمد، مصر والعالم العربي، القاهرة: مكتبة عين شمس، 1984، ص 106 – 108.

(11) صلاح عيسى، اتجاه لتعريف كامب ديفيد، مجلة الموقف العربي، عدد 88، أغسطس 1987، ص 60 – 61.

(12) هالة مصطفى، العلاقات المصرية الاسرائيلية بعد أحداث لبنان، السياسة الدولية، عدد 71، يناير 1983، ص 94.

(13) هالة مصطفى، المرجع السابق، ص 93 – 95.

(14) مجلة أكتوبر، 26/ 7/ 1982.

(15) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، 1985، ص 376.

(16) عبد الرحمن الصالحي، اتجاهات سياسة مصر في الثمانينات، مجلة دراسات عربية، العدد 9، تموز 1990، ص 37 – 38.

(17) مركز الدراسات والاستراتيجية، التقرير الاستراتيجي العربي 1987، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية 1988، ص 397.

(18) أحمد يوسف أحمد، السياسة العربية لثورة يوليو، مجلة السياسة الدولية، العدد 69، ص 125.

(19) بطرس بطرس غالي، منجزات الدبلوماسية المصرية 1987، السياسة الدولية، العدد 91، يناير 1988، ص 6.

(20) جمال علي زهران، أبعاد الدور المصري تجاه الحرب العراقية الايرانية ـ السياسية الدولية، العدد 79، يناير 1985، ص 167 – 168.

(21) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الاهرام، المرجع السابق، ص 37.

(22) مجلة أكتوبر، خطاب مبارك في الأمم المتحدة، 28/ 9/ 1983.

(23) مجلة التضامن، العدد 88، 15/ 5/ 1984، ص 65.

(24) سعد الدين ابراهيم، توصيف النظام العربي المعاصر، مجلة الباحث العربي، عدد 16، يوليو،

1988، ص 29.
(25) مجلة السياسة الكويتية، 17/ 10/ 1984.
(26) محمد المجذوب، مصر والعرب، مجلة الشاهد، عدد 35، يوليو 1988، ص 21.
(27) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، التقرير الاستراتيجي العربي 1987، ص 384.
(28) محمد حسين هيكل، أحاديث في العاصفة، القاهرة: دار الشروق، 1987، ص 610 – 613.
(29) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، 1987، المرجع السابق، ص 204 – 205.
(30) خطاب الرئيس مبارك 12/ 10/ 1987 ملحق الاهرام الاقتصادي، العدد 979، 19 أكتوبر 1987، ص 35 – 40.
(31) هيثم فرحات صالح، العلاقات المصرية ـ السورية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 28 – 40.
(32) نبذة عن الرئيس المصري السابق حسني مبارك، 29 ت2 2014، BBC NEWS.

المماليك والمذاهب الدينية في الشام

د. عماد غملوش

قام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام 663هـ/ 1265م، بتعيين أربعة قضاة[1] للمذاهب السنية الأربعة[2]، وكان هذا التعيين على حساب المذهب الشافعي المذهب الرسمي الوحيد، للدولتين الأيوبية والمملوكية، بعد أن اختلف الظاهر بيبرس، مع القاضي الشافعي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز[3]، كان قد خالف الظاهر بيبرس في حكم حول مسألةٍ ميراثية، ولم يمض أمر السلطان في التركة، فأوغر صدر السلطان وقرر نصب أربعة قضاة من المذاهب الأربعة[4]، ونظرا إلى قوة المذهب الشافعي آنذاك، اختص السلطان الشافعية النظر في الأوقاف وأموال الأيتام دون المذاهب الأخرى[5].

هذا التقسيم في المذاهب طبق في الشام والقدس واقتصر القضاء فيها على الشافعي، حتى عهد السلطان برقوق الذي أضاف إليه المذهب الحنفي عام 784هـ/ 1382م[6]، وأضيف بعد ذلك المذهب المالكي، نتيجة هجرة الكثير من المغاربة والأندلسيين إلى القدس والمناطق المجاورة لها[7]، أما المذهب الحنبلي، فقد تأخر وجوده في القدس حتى عام 804هـ/ 1401م؛ وكان ذلك التأخير ناتجاً عن قلة أتباع المذهب الحنبلي في الدولة المملوكية خاصة في مصر وأجزاء واسعة من بلاد الشام سوى دمشق[8].

وبالنسبة للمدن الشامية الأخرى فقد عين فيها القضاة على المذاهب الأربعة كما هي الحال في مصر، وقد استأثر القاضي الشافعي في دمشق بتعيين القضاة الشافعية في باقي المدن الشامية حتى في مدينة القدس، إلى أن صار السلطان يعين قضاة القدس بنفسه[9].

وقد ارتبط وجود المذاهب الفقهية الأربعة في الشام بوجود المدارس التي حرص الأيوبيون والمماليك على إنشائها لإحياء المذاهب السنية الأربعة[10].

فكانت أغلب المدارس تدرس المذاهب الأربعة ومنها من تخصص في تدريس مذهب معين أو مذهبين أو أكثر[11].

إن وجود المذاهب السنية في الشام ارتبط غالباً بسياسة الدولة المملوكية حيال الشام، من باب تنظيمها دينياً وإدارياً،

ولتأكيد السلطة المملوكية فيها خاصة أن الأيوبيين قبلهم، عززوا وجود المذهب الشافعي، في الشام دون المذاهب الأخرى، وهذا ما لم يفعله المماليك، حيث شجعوا وجود المذاهب الأربعة في الشام من خلال المدارس والقضاة الأربعة[12] واشترط السلاطين على من يدرس المذاهب الفقهية والعلم، إمعاناً في نشر المذاهب الأربعة وتقويتها في الشام، وألزموا القضاة بالعمل ضمن هذا المرسوم[13].

ذكر الباحث سهيل زكار أن أكثر المذاهب انتشاراً في الشام المذهب الشافعي، يليه المذهب الحنفي، وكان الحنابلة والمالكية أقلية[14].

إلا أن انتشار المذهب الشافعي والحنفي في الشام لم يأتِ مصادفة، بل كان نتيجة دعم وتشجيع السلطة المملوكية للمذهبين، حيث أعطتهم الكثير من الامتيازات مثل قضاء العسكر، النظر في الأوقاف، ودار العدل، وأصبح تولي القضاء فيهما من الأبواب السلطانية[15] وقد بلغ من قوة المذهب الشافعي في الشام وحدها أن استأثر القاضي الشافعي بتعيين النواب في دمشق وسائر مدن الشام الأخرى[16]، حتى أن القاضي الشافعي يعين قاضي المذهب الحنفي في القضاء والولاية[17]، وهذا الرأي يدل على قوة المذهبين وانتشارهما.

وبلغ من النفوذ الكبير للمذهب الشافعي في الشام أن يجمع القاضي الشافعي بين قضاء القدس والرملة ونابلس، عدا عن الخطابة والمهام الجليلة، وقد أتاحت لهم هذه المناصب الأموال الطائلة مما دفع الكثير من أتباع المذاهب الأخرى إلى التحول للمذهب الشافعي بسبب حظوته عند السلطة المملوكية[18].

وتم الاتفاق أن القضاة الأربعة الذين ولاهم الظاهر بيبرس كان لقبهم الأول شمس الدين مما أثار سخرية أهل الشام[19].

على أن هذا التعيين للقضاة الأربعة في الشام، لم يلزم كثيراً من علمائها بالتقيد به حيث قام شمس الدين الصفدي محمد بن علي قاضي الحنفية في دمشق، بعدم التقيد بمذهب أبي حنيفة، بل حكم تارة بالمذهب الشافعي ومذهبي مالك وأحمد بن حنبل[20]، وكان هذا برأي الباحث اعتراضاً على تخصيص قضاة للمذاهب الأربعة.

كان المذهبان الشافعي والحنفي الأكثر حضوراً بين العامة والخاصة في الشام خصوصاً الشافعي، وتعود بدايات انتشار المذهب الشافعي في الشام إلى عهد صلاح الدين الأيوبي الذي كان على المذهب الشافعي، وهو الذي أقام الشافعية في ديار مصر والشام، ولتعزيز مذهبه الشافعي في الشام بنى صلاح الدين في القدس المدرسة الصلاحية الشافعية وشجع انتشار المذهب في دمشق والشام عموماً، ويدل على ذلك كثرة نواب الشافعية في الشام في عهده[21].

وكان لحضور المذهب الشافعي في الشام أثر كبير حيث ألزم السلاطين الإقرار بوجوده كأقوى مذهب في الدولة ولم يكن تعيينهم لقضاة المذاهب الأخرى يغير شيئاً

في واقع قوة المذهب الشافعي وانتشاره في مصر والشام، فقد ذكرت بعض المصادر أن السلطان قانصوه الغوري عندما صلى في جامع دمشق الأموي لم يستطع الاعتراض على قيام القاضي الشافعي بالخطبة والإمامة، برغم وجود قضاة المذاهب الأخرى في حضرة السلطان[22] ومثل هذا حدث مع السلطان برسباي[23]، في الجامع الأموي، وقد كان القاضي الشافعي يفخر بسلطانه وعزه أمام السلطان حتى غبطه القضاة الثلاثة من المذاهب الأخرى[24].

أما المذهب المالكي فقد زاد عدد أتباعه في الشام بسبب الحج إلى الديار المقدسة في مكة والمدينة والقدس الشريف، ونتيجة لحروب الاسترداد المسيحي حيث زاد عدد المغاربة والأندلسيين من أتباع المذهب المالكي في القدس وغيرهما مما أجبر السلطة المملوكية على استحداث منصب قاضي قضاة المالكية عام 802هـ/ 1399م[25].

أما الحنابلة، فقد كان مذهبهم الأقل انتشاراً في الشام حيث كانت بدايات تواجده في المدن الشامية الشمالية مثل حلب وحمص ولاحقاً تواجد في دمشق والقدس وكان أغلبهم مهاجرين أمام الزحف المغولي من بغداد وحران، فاستحدث لهم منصب قاضي القضاة الحنبلي سنة 804هـ/ 1401م[26].

ومن معايير القوة والنفوذ التي تميزت بها المذاهب في الشام كثرة نوابهم فكان للشافعية عشرة نواب وللحنفية خمسة نواب والمالكية أربعة، والحنابلة نائبان[27]، ونشأت في مؤسسة القضاء وظائف عديدة، مثل كاتب القاضي وحاجبه، وشاهد العدل، ووكلاء القاضي الذين يساعدونه في تبيان الحقوق، والأمانة التي تحفظ الأموال للأيتام والغائبين، وتولى الشهود كتابة العقود، والنظر في صحة الإجراءات القضائية[28]؛ وظهر على هامش تلك الوظائف حوانيت الوراقين، والنساخ والخطاطين والكتبة[29].

ومع مرور الوقت تحولت مناصب القضاة الأربعة في الشام إلى مؤسسة رسمية سميت (بالمجلس السامي) الذي يتبع مؤسسة القضاء في مصر، والتي سميت (بالمجلس العالي)، وكان لها نفوذ كبير في الدولة والمجتمع[30].

ومن الأدلة التي تظهر رسوخ المذاهب في الشام كثرة مدارسها ومؤسساتها الأخرى، والتي خرجت آلاف الطلبة الإخصائيين في مذاهبهم مما ألقى بظلاله على العامة وزاد أتباع المذاهب الأربعة، وزادت مدارسها ومساجدها والتعصب لها ونشوء الخلاف المذهبي[31].

وهكذا نرى مدى انتشار المذاهب الفقهية السنية الأربعة في الشام، ومدى نفوذها وقوتها في الدولة والمجتمع وكثرة مؤسساتها التعليمية والدينية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه ما هو تأثير المذاهب الدينية على تلك المؤسسات التعليمية والدينية.

أثر المذاهب الدينية في الحالة التعليمية

المؤسسات الدينية في الشام تأثرت تأثراً كبيراً بالمذاهب السنية الأربعة وظهر ذلك في تقسيمات تلك المؤسسات على

أسس مذهبية، حيث نرى مدارس وزوايا ودور قرآن وحديث شافعية، وحنفية ومالكية وكذلك المؤسسات الدينية التي اعتمدت المذهب الحنبلي.

وكان من يعين في المدارس الشافعية من قضاة وعلماء الشافعية فقط، فقد ذكر النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس في معرض حديثه عن دار القرآن الكريم الصابونية[32] أن واقفها اشترط أن يكون خطيبها وإمامها شوافع[33].

بعض المصادر ذكرت زهاء خمس وستين مدرسة اقتصرت على تدريس المذهب الشافعي بالدرجة الأولى وهذا يظهر مدى قوة ونفوذ المذهب الشافعي في الشام، حيث حرصت الدولة المملوكية على دعم مؤسسات ذلك المذهب بالأموال الوفيرة حتى غدت المؤسسات الدينية الشافعية من مدارس وغيرها تستقطب أتباع المذاهب الأخرى لشدة الإنفاق عليها[34].

ولا ينكر أحد أن الدولة المملوكية قامت بجهد كبير لإنشاء المدارس والربط والزوايا وغيرها من مؤسسات، وأحيت كذلك المدارس والمؤسسات الدينية الأيوبية[35].

وكان هذا الاهتمام من قبل الدولة المملوكية في بناء المؤسسات الدينية يهدف بالأساس إلى خدمة الدين الإسلامي[36] ومحبة العلم وأهله، ومحاولة للتقرب من العلماء وهم في الأساس قادة الشعوب الحقيقيون والمؤثرون فيهم.

ولذلك ظهر تأثير المذاهب الدينية في المؤسسات الدينية والأوقاف جلياً، بعد أن أوكل السلاطين للقضاة الأربعة، صرف رواتب للموظفين في تلك المدارس والمساجد وغيرها وكانت هذه الرواتب تختلف من طائفة إلى أخرى[37]، وهذا ما بذر بذور الخلاف والتنافس منذ بدأ نظام المذاهب الأربعة بالظهور والاستقرار.

وفي الغالب ارتبطت كثير من الأوقاف والمؤسسات الدينية، بوصية الواقف والتي يشترط فيها غالباً أن يلي التدريس في تلك المؤسسات أبناؤهم وأحفادهم، وهذا مما يحرم تلك المؤسسات من نوابغ العلماء وفضلائهم من أن يعلموا في تلك المدارس، وبذلك حرمان الطلاب من العلم النافع فقد ذكر المقريزي مثلاً أن قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن كمال الدين ابن العديم الحنفي قد جعل ابنه مكانه في التدريس برغم "صغر سنه وكثرة لهوه"[38]، حتى دفع ذلك المقريزي للتهكم فقال "فيا نفس جدي إن دهرك هازل"[39].

وفي وصفه لمدرسة الأمير جمال الدين أتابك العسكر في عهد السلطان المؤيد شيخ ذكر المقريزي أن مدرسي المذاهب الأربعة في المدرسة جلسوا، وكل واحد بعيد عن الآخر، ومعهم طوائفهم من الطلاب وكانوا يتنافسون في أرزاقهم[40].

ويعتبر الدعم المادي لتلك المؤسسات ونشوء الخلافات فيها نابعاً من التغالي في الصرف على مؤسسات مذهب دون غيره، فقد ذكر المقريزي أن الامتيازات التي تمتع بها المدرس كوظيفة النظر في أوقاف المدرسة بالإضافة للتدريس كانت مثار تنافس شديد على تولي مهنة التدريس في الدولة المملوكية.

ونجد ارتباط هذه المدارس بالمذهب الإسلامي واضحاً فيختص بعضها بالفقهاء الشافعية وبعضها بالمالكية وبعضها بالحنفية، وكان الطلاب يتأثرون بميول معلميهم المذهبية كثيراً ويسعى أغلب المعلمين للتأثير على طلاب مذاهب الأخرى، حتى يغير مذهبهم إلى مذهبه مستخدماً عدة وسائل منها الناحية الاقتصادية، فقد ذكر المقريزي أن الأمير يلبغا الناصري[41] أوجد درساً في جامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً وإردبا من قمح، فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية[42].

إلا أن الترهيب كان له الدور الكبير في بعض المؤسسات الدينية حيث أجبر كثير من الحنابلة على ترك مدارسهم ومساجدهم وبقائهم في بيوتهم حتى أنه جرد فقهاءهم من كثير من المناصب وطرد المدرسين من المدارس وغيرها[43].

أما المساجد فقد نالت نصيباً كبيراً من أثر المذهبية، فكانت توجد بها محاريب لكل مسجد وفي نفس الجامع الواحد، وكان لكل مذهب إمام وجماعة يصلى بهم[44].

أثرت فتاوى كثير من علماء المذاهب في المساجد، وأنشأت خلافات بين المصلين ومن فتاواهم في العهد المملوكي، تحريم الاقتداء بالمخالف، وبطلان صلاته فلا يجوز الصلاة بمذهب مخالف ويجب إعادتها[45]، وهذا بلا شك سوف يؤثر على مسيرة المسجد ودوره في المجتمع.

ونذكر هنا الصراع بين الحنابلة والشافعية في دمشق عام 835هـ/ 1431م، والذي أثاره الشيخ علاء الدين البخاري الشافعي ضد الحنابلة في مسجد دمشق، كان من آثارها حدوث ملاحم بين الطائفتين في المسجد وغيره من مساجد دمشق[46].

وقد ذكر الباحث علال مثلاً أن المؤسسات الدينية تعرضت للضرر الشديد في فتنة الحنفية والشافعية وذكر أنه تم نهبها وإحراقها[47].

والمعروف أن المؤسسات المذهبية من مدارس ومساجد وغيرها قد خرَجت الآلاف من معتنقي الفكر المذهبي، فالمدارس الحنبلية مثلاً كانت قد دربت فقهاء ومفسرين ومحدثين وتولى علماؤهم الخطب في المساجد والمدارس والزوايا لتكثير أتباعهم ومريديهم[48].

وعكف كبار علمائهم في تأليف الكتب والرسائل التي تركز على العقيدة التي رأوا أنها تأثرت وتأذت من الفكر الأشعري الشافعي والصوفية[49]. إلا أن السبكي كان له رأي راجح في أسباب هذه الخلافات المذهبية، وقد عزى هذا الخلاف إلى العلماء الذين "يتوسعون في الدروس ولا يعطونها حقها ويبطلون كثيراً من أيام العمل، وإذا حضروا اقتصروا على مسألة أو مسألتين من غير تحقق ولا تفهيم، ثم رأيناهم يقلقون من تولي ناس جهلة وظيفة التدريس ويعيبون الزمان وأولياء الأمور، فالرأي يقال لهم أنتم السبب في ذلك"[50].

وانتقد السبكي بشدة العلماء وواقفي المدارس وباقي المؤسسات الدينية

حيث يقول: "ومدارس وقفها واقفوها على الفقهاء والمتفقهة، والمدرس يكون من الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنبلية"[51] فهو ينتقد ضمناً هذه التقسيمات ويحذر منها، ويري مؤلف كتاب معيد النعم ومبيد النقم أن التنويع في تدريس العلوم مفيد في المدرسة الواحدة، ويندب إلى تعلم المذاهب الأربعة في مدرسة واحدة ويشترط في المدرسين الإحاطة بكل علم وفن[52].

أوضح السبكي "أن الرياسة وولاية الجهال ووصولهم إلى وظائف القضاء ومناصب الدين ليس عدلاً"[53]، ويرد أسباب الخلاف المذهبي إلى تكلم العلماء بعضهم ضد بعض، وأخبر أن "بعضهم تأخذه الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول إلى العصبية، ولقد رأيت طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع عن الصلاة خلف بعض"[54].

وإن كل ما ذكره السبكي كان يقع في المدارس، وباقي المؤسسات الدينية مما سيؤثر في المؤسسة التعليمية والوقف، ويحيد بها عن مسارها الذي رسم لها.

ومما يرثى له حقاً تعصب التلاميذ لآثار أئمتهم، وحملهم ذلك على الجمود عليها والدعوة إلى التمذهب وظهرت منهم طبقة اقتصرت على دراسة وحفظ المختصرات في المذاهب وظهر ما يعرف بالتقليد الذي كرسته المدارس المذهبية[55].

وإمعاناً في تأثر المدارس بالمذهبية، كان يكتب على أبواب بعض المدارس شروط الواقف، فقد ذكر صاحب كتاب الكواكب السائرة أن المدرسة السلطانية في حلب كتب على بابها "يشترط دخول المدرسة للشافعية فقط"[56]، وفي حادثة مماثلة ذكر أن زكي الدين بن رواحه توفي سنة 622هـ/ 1224م الشافعي المذهب، بأنه أنشأ مدرستين في دمشق وحلب وكتب على بابها "ألا يدخلها مسيحي أو يهودي أو حنبلي"[57].

هل نستطيع أن ننكر ما لهذه العبارات من تأثير كبير على الناس وعلى المؤسسة الدينية التعليمية.

ولم تسلم مؤسسة المسجد والخانقاوات والربط والزوايا وغيرها من الأوقاف والمؤسسات من آثار التعصب المذهبي، فكم عطلت الصلوات، وجمدت علوم ومعارف، ففي دمشق منع الحنابلة الشافعية والأشاعرة من حضور الجماعات وأغلقوا مساجدهم، وكان ذلك بسيف الإرهاب والقتل[58]. ونتيجة لذلك حدثت المصادمات وحوادث الشجار بين مجموعات الطلبة كظاهرة بارزة في المدارس، فكثير ما كان أتباع المذهب الواحد يستقدمون شيخاً من رجال مذهبهم لإلقاء درس أو محاضرة عامة، ويجري التعريض بالمذاهب الأخرى، فتنشب الفتن وتثور الخصومات[59].

وعلى الرغم من كل ذلك فكانت من حسنات هذه المدارس خدمة المذاهب، وتعلم فقهه، ونشر بعض العلوم، وتقوية الحوار والمناظرة والبراهين، وتنشيط الحياة العلمية.

في المقابل وجدت محاولات للجمع بين المذاهب في مدرسة واحدة، وكانت محاولات جمع المذاهب في مدرسة واحدة

فكرة قديمة، حيث بدأت في العراق في المدرسة المستنصرية زمن الخليفة العباسي المستنصر بالله، وكذلك في المدرسة البشيرية في بغداد والمدرستين الصلاحية والمنصورية بالقاهرة والعديد من المدارس المشتركة في الشام[60]، لكن هذه المحاولة لم تلغِ الفرقة بين تلك المذاهب فإن تلك المدرسة لم تكن مشتركة إلا في عمرانها ومرافقها. ولكن كان لكل مذهب رواق، به أساتذة المذهب وطلابه، وبرنامجه الخاص المغاير للأروقة والمذاهب الأخرى، فهو إن خفف نوعاً ما من التعصب والنزاع، فإنه من جهة أخرى قد كرس الفرقة والتمذهب والتعصب في المدرسة الواحدة[61].

كما حدث ذلك في المسجد الأقصى، فقد كان لكل مذهب محراب خاص به، وتعقد فيه حلقات علمية خاصة بكل مذهب، وكذا في مسجد الخليل ما عدا الحنابلة الذين لم يكن لهم فيه إمام[62] وكذلك قسم الجامع الأموي الكبير في دمشق إلى محاريب وحلق مذهبية متنافرة[63].

وهكذا نرى أن تأثير المذاهب والتعصب كان له أثر كبير على مسيرة المؤسسة التعليمية والدينية في مصر وبلاد الشام، وأثر ذلك على سياسة الدولة تجاه تلك المؤسسات، فسياسة دعم مذهب معين على المذاهب الأخرى ليس جديداً، فقد كان الوزير السلجوقي نظام الملك توفي سنة 485هـ/ 1092م في العراق شافعياً أشعرياً، مكن للأشاعرة في دولته وكان يتعصب لهم وبنى لهم المدارس[64].

كذلك السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي توفي سنة 569هـ/ 1174م كان حنفياً ومال إلى الشافعية، فاختص المذهبين وبنى لهم الكثير من المدارس الحنفية والشافعية[65].

وكذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي وابنه العزيز توفي سنة 595هـ/ 1198م كانوا منتصرين للشافعية والأشعرية، وناصب العزيز الحنابلة العداء، وكان يريد الفتك بهم لولا موته[66].

وسار المماليك بعد ذلك على نفس طريقة من سلفهم في تكريس التمذهب ودعم مؤسسات كل مذهب حسب ما يخدم سياستهم، ويصب في صالحهم[67]، وفرض عليهم ذلك مهادنة المذاهب الكبيرة في دولتهم كالمذهب الشافعي والحنفي وأغدقوا عليهم الأموال والأوقاف طمعاً في استقرار دولتهم[68].

كذلك كان الوضع في المؤسسة القضائية حيث أثر التعصب المذهبي في مجمل أحداث واجتماعات وأحكام وفتاوى العلماء مما أحدث صراعاً غذته سياسة الدولة المملوكية واستغل السلاطين القضاة في السيطرة على الأوقاف غير مرة، كما ذكرنا في ثنايا هذا البحث[69]، وبعد عرض أهم التأثيرات المذهبية على المؤسسات الدينية في العهد المملوكي يجب أن لا نغفل الخدمة التي قدمتها تلك المؤسسات برغم مذهبيتها فقد أسهمت بشكل كبير في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي من الضياع وأسهم علماؤها في إعادة كتابة وصياغة أمهات الكتب

بمختلف مجالات المعرفة، وما الكتب المحققة التي بين أيدينا والتي أثرت مكتبتنا العربية إلا من إنتاج تلك المؤسسات وعلمائها من الفقهاء والمؤرخين وغيرهم.

أثر المماليك في تسيس المذاهب الدينية

كان هناك دور فاعل في دعم وتوظيف المذاهب الدينية سياسياً من قبل سلاطين المماليك خدمة لسياستهم، ولتوطيد الحكم، فسياسة العمل بمقتضى المذاهب الأربعة التي طبقها السلطان الظاهر بيبرس(70)، ليكسب ود أتباع المذاهب الأربعة، كذلك سياسة ناجحة، استطاع من خلالها صهر المذاهب الدينية في بوتقة السلطان المملوكية وتقوية وجوده في مصر والشام.

وبالرجوع إلى العهد الأيوبي، كان المذهب الشافعي مدعوماً في الدولة الأيوبية مما سمح بزيادة نفوذ المذهب الشافعي على حساب المذاهب الأخرى، وفي العهد المملوكي كان المذهب الشافعي المذهب الرسمي للدول المملوكية(71)، حتى بدأ يتراجع لصالح المذهب الحنفي في عهد السلطان طومان باي المملوكي 923هـ/ 1516م عندما بدأ النفوذ العثماني يظهر في الشام. ومن المعروف أن الدولة العثمانية حنفية المذهب حتى أنهم جعلوا ولاية القضاء بيد الأحناف وحدهم(72).

وقد أدرك المماليك أن فقهاء وشيوخ المذاهب هم حماة الشريعة والمعتمدين في تأويل المذاهب وتمثيلها في المجتمع والدولة(73).

لذلك حرصوا على استمالتهم وتعيينهم في وظائف الدولة الهامة، إلا أن الشافعية كانوا أكثر المذاهب عدداً ونفوذاً في مصر والشام، لم يرق لهم تعيين المناصب للمذاهب الأخرى كي تنافس المذهب الشافعي، ولذلك كثرت الأقاويل حول شرعية فعل الظاهر بيبرس، وقيل أنه رأى رؤيا بعد استحداث المذاهب الأربعة بأن الإمام الشافعي قال له: "بهدلت مذهبي في مصر، وفرقت كلمة المسلمين، والله لأعزلنك أنت وأولادك إلى يوم القيامة"(74).

وذكر أيضاً أنه "ما جلس سلطان على كرسي مملكة مصر وكان متقلداً بغير مذهب الإمام الشافعي إلا عزل سريعاً أو قتل وقد جرب ذلك في الملك قطز فإنه كان حنفياً فلم يمكث إلا يسيراً وقتل"(75).

وهذا الكلام غير موضوعي لأن السلطان الناصر محمد مثلاً كان يميل إلى المذهب الحنفي واستمر حكمه طويلاً برغم تجاهله للمذهب الشافعي وتفضيل المذهب الحنفي(76).

وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا من قبل على المذهب الحنفي، إلا أنهم حافظوا غالباً على التقيد بالمذهب الشافعي لحضوره وسطوته، فالسلطان المنصور قلاوون كان يتقرب للشافعية ودعا إلى صلاة الغائب على الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس على المذهب الشافعي(77).

وكان سلاطين المماليك يختصون المذهب الشافعي أولاً، ثم المذهب الحنفي ثانياً، في التعيين بقضاء العسكر، ونظارة بيت المال، وغيرها من الوظائف الهامة(78).

ولكن قد يشذ بعض السلاطين كالناصر محمد ويفضل المذهبين الحنفي

والحنبلي على الشافعي والمالكي، فقد ذكر ابن كثير أنه اختص المذهب الحنبلي والحنفي وجعلهما عنده في دار العدل دون سواهما من المذاهب[79].

وبقى المذهب الشافعي حاضراً بقوة في الحياة الدينية والسياسية للدولة المملوكية، فكان المذهب الرسمي للدولة، وتقلد قضاته أرفع المناصب، وكان له الأولوية على سائر المذاهب، فالقاضي ابن حجر العسقلاني مثلاً تولى أهم المناصب في الدولة المملوكية ولم ينافسه فيها أي من قضاة المذاهب الأخرى[80].

وقد قرب بعض السلاطين المذهب الشافعي والحنفي والمالكي دون المذهب الحنبلي، وذلك لقلة أتباع المذهب الحنبلي وانعدام تأثيره في المجتمع المملوكي آنذاك، وكان بعض السلاطين يصطحب القضاة الثلاثة يعني الشافعي والحنفي والمالكي – في أسفاره ويستشيرهم[81]، ونلاحظ أن معيار ميل السلاطين إلى المذاهب هو حسب كثرة شعبيتها وتأثيرها على العامة.

وعرف عن الناصر حسن بن محمد قلاوون[82]، أنه كان يناصر الشافعية على الأحناف، مما أثارهم ودفعهم إلى تأليف الكتب للطعن في المذهب الشافعي وطلب بعض الأمراء والأحناف سنة 659هـ/ 1260م، من القاضي الحنفي الرد على كتاب فخر الدين الرازي الشافعي الذي طعن فيه على الحنفية، وسماه (الغرة المنيفة في تحقيق مسائل أبي حنيفة)[83].

وكان عندما يستشعر السلطان أن نفوذ بعض المذاهب قد زاد عن حده في السلطنة، يقوم بعزل القضاة، والتخفيف من نوابهم، وتجريدهم من صلاحياتهم، فقد أزال السلطان الناصر محمد القضاة الثلاثة دون المالكي[84].

فليس من المستغرب أن يقوم السلطان بالاستئثار بتعيين قضاة المذاهب الأربعة، بفرمان خاص منه شخصياً[85]، إمعاناً في التدخل في شؤون المذاهب، وتطويعها لخدمة سياسته.

فكان بعض السلاطين يعمد إلى عزل الفقهاء والقضاة من أتباع المذاهب إن خالفوا رغبته أو اعترضوا على سياسته، فذكر المقريزي مثلاً أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أراد إضافة بعض الوقف إلى قطعة أرض له من أوقاف الظاهر بيبرس، وأراد الفتوى في ذلك فعارضه القضاة في ذلك، مما أغضب السلطان وعزل بعضهم[86].

وقد حاول السلاطين التدخل غير مرة في شؤون القضاء، وحاولوا فرض رغباتهم على قضاة المذاهب ونجحوا حيناً، ولكن كانت أغلب محاولاتهم تبوء بالفشل نتيجة لقوة الفقهاء والقضاة ووقوفهم بوجه السلطان منهم على سبيل المثال الفقيه الشافعي نور الدين علي بن يعقوب البكري[87].

وكان بعض السلاطين والأمراء يصطحبون معهم القضاة، ويسيرون معهم في مواكبهم كأنهم ملوك[88] إدراكاً منهم لدور المذاهب في الحياة المملوكية، وحتى يكسبوا عطف العامة أتباع المذاهب السنية.

وقد حظي القضاة بمنزلة عالية في البلاط السلطاني المملوكي، حيث حظوا

باحترام السلاطين كما تمتعوا بمكانة رفيعة، وكلمة مسموعة في المجالس العالية، وقدرهم الأمراء الذين تربوا على احترام وتقدير العلماء والقضاة، وحرصوا على الإسباغ عليهم في الأعطيات والألقاب، والوظائف رغبة في كسب تقديرهم وتأييد سياستهم[89].

وقد كان لقضاة المذاهب دور في إدارة الدولة المملوكية، وتنفيذ سياستها خدمة للسلطان، حتى وصل بهم الأمر أن يتولوا مناصب تنفيذية، وكان لهم سجون خاصة بالقضاة يضعون فيها المخالفين، ويعزلونهم ويحبسونهم بعد المحاكمات[90].

وانطلاقاً من إدراك السلاطين والأمراء لدور قضاة المذاهب لما لهم من أهمية عظيمة في سياسة الدولة وقوتها، فقد كانت مسؤولياتهم جسيمة إذا شملت علاقتهم بالسلطان والعلاقات مع الأمراء ومهمات الحكم، والإفتاء والشورى، إلى جانب التدريس والنظر في الجوامع والأوقاف ودور العدل، وبذل النصح للسلطان، والدعوة إلى وحدة المسلمين، وطاعتهم لولي الأمر[91].

وكان للمماليك سياسة دقيقة في بناء الجهاز القضائي، حيث تم استحداث منصب قاضي القضاة كمؤسسة رسمية حكومية تتبع للسلطة مباشرة وتمثل المذاهب الفقهية الأربعة ويتبع هذه المؤسسة جهاز إداري متخصص في شؤون القضاء والشرع[92]، وهذا من تأثير السلاطين والامراء، ومحاولة استغلالهم للمذهب، فوجود هؤلاء القضاة بجانبهم يوفر لهم الشرعية والمصداقية كونهم مماليك.

بسبب السياسة المملوكية تجاه المذاهب، انقسم أتباع المذاهب من كبار العلماء إلى فريقين، فريق شارك في إدارة الدولة وحرصوا على الفوز بمناصب القضاء والأوقاف والتعليم والحسبة وغيرها مما دفعهم إلى التقرب من السلاطين والأمراء[93]، إلا أن هذا الفريق لم يكن في جلة يطمع فيها عند السلطان، حيث أن أغلبهم كان يستحق هذه المناصب ودفعهم غالباً تدينهم ورغبتهم في إصلاح الدولة والمجتمع[94] إلى القبول بتلك المناصب، وكان بعضهم يزهد فيها تورعاً لدينه، أما الفريق الثاني فكان من محبي المطامع الشخصية ووجدوا في المذاهب والانتساب لها وسيلة لتحقيق مطامعهم، وبذلك كان أغلبهم يتنقلون بين المذاهب حسب نفوذها في الدولة ودوائرها[95].

وكان غالباً ما يظهر صراع بين المذاهب على تلك المناصب مما جعل السلاطين يستخفون أحياناً بالمشايخ والقضاة؛ وهيمن السلاطين على المؤسسات العلمية والقضائية، وصاروا يعينون القضاة والمدرسين أو يعزلونهم، وينزلون العقاب بهم[96] وبالتالي توظيف هذه المذاهب سياسياً بما يخدم مصالح السلطة الحاكمة من المماليك.

وهنا صدق قول أبو حامد الغزالي في هاتين الفئتين حيث قال: "فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانون أعزة بالإعراض عن السلاطين، أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى[97].

وهكذا نرى دور السلاطين المماليك في الحياة الدينية، وتأثيرهم في المذاهب الإسلامية في الشام، ومن الملاحظ أن قوة المذاهب وانتشارها كان مرهوناً بعدة عوامل أبرزها دور السلطان والدولة.

د. عماد غملوش

الهوامــش

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص64. القدسي، دول الإسلام، ص35. شبارو، قاضي القضاة، ص44.

(2) المذاهب السنية الأربعة هي المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي: المذهب الحنفي ينسب إلى إمامه أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وهو فارسي الأصل ويسمى الإمام الاعظم. وكان إمام العراقيين، اشتهر بقوة الحجة وسرعة الجواب المفحم، والفهم ومن تلاميذه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي في عهد الخليفة الرشيد العباسي، ومحمد بن الحسن الشبيباني وقد لقبا (بالصالحين) وقد دونوا فقه أبي حنيفة، وقد انتشر المذهب الحنفي في بلاد فارس وآسيا الصغرى والعراق وقليل منهم في الشام ومصر ينظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6، ص390. المذهب المالكي: ينسب إلى إمام مالك بن أنس الأصبحي، وكان عالم المدينة وإمام الحجازيين، ولد سنة 93هـ، وتوفي سنة 179هـ. ويعتبر مذهبه وسطاً بين أهل الرأي والحديث لكثرة استناده إلى الحديث، وانتشر هذا المذهب في المدينة المنثورة خصوصاً والحجاز والمغرب العربي. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8، ص49. المذهب الشافعي: ينسب إلى إمام محمد بن إدريس الشافعي، ولد سنة 150 هجري في غزة وتوفي في مصر بمدينة الفسطاط سنة 204 هجري، ورحل إلى العراق والحجاز وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة ومالك، وثم استقر في مصر وكان مذهبه أقرب إلى أهل الحديث وانتشر مذهبه في مصر والشام ودعمته الدولة الأيوبية والمملوكية كثيراً حتى أصبح المذهب الرسمي، انظر: الصفدي، الوفيات، ج1، ص155، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8، ص209. الزركلي: الأعلام، ج3، ص152. المذهب الحنبلي: ينسب إلى إمامه أحمد بن حنبل الشيباني تلميذ الشافعي، وقد ولد الإمام أحمد في بغداد سنة 164هـ. وتوفي سنة 241هـ، وعني بالحديث الشريف وبرع فيه وكان مذهبه من أكثر المذاهب السنية اصطباغاً بالحديث الشريف. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص63.

(3) هو احمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الأعز الشافعي ولد عام 604هـ/ 1207م، كان ديناً عفيفاً جمع له قاء الديار المصرية، انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص279.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص36ـ37، العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص82.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص36. المقريزي، السلوك، ج2، ص28.

(6) المقريزي، السلوك، ج2، ص31. زكار، الموسوعة، ص588، علي القدس، ص51ـ52.

(7) زكار، فلسطين، ص588.

(8) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص119. زكار، الموسوعة، ص588.

(9) ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص38ـ39. عاشور، العصر المماليكي، ص207.
(10) انظر: عاشور، العصر المماليكي، ص349.
(11) للمزيد ينظر كتاب الإنس الجليل للعليمي في ذكره لمدارس الشافعية والحنفية وغيرها، ج1، ص34 وما بعدها.
(12) القدسي، دول الإسلام، ص35. المصري، التعليم في الشام، ص93 رسالة ماجستير.
(13) المقريزي، السلوك، ج2، ص31. علي، القدس، ص165.
(14) زكار، سبيل فلسطين، ص563.
(15) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص216، 228، عطا الله، نيابة، ص142.
(16) المصدر نفسه، ج4، ص227.
(17) الماوردي، الأحكام السلطانية، ج1، ص178.
(18) العلمي، الأنس الجليل، ج2، ص111. علي القدس، ص114.
(19) كان يلقب كل من القضاة الأربعة بشمس الدين وعرف منهم: قاضي الشافعية: شمس الدين أحمد بن خلكان. قاضي الحنفية: شمس الدين عبد الله محمد بن عطا الحنفي. قاضي المالكية: شمس الدين أبي محمد عبد السلام بن علي الزواوي. قاضي الحانبلة: شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبو عمر بن قدامة الحنبلي. انظر: المقريزي: السلوك، ج2، 31 وما بعدها. وابن إياس: بدائع، ج1، ص321. شبارو، قاضي القضاة، ص44.
(20) ابن حجر، ج9، ص133.
(21) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص101. المقريزي، السلوك، ج6، ص407.
(22) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص328.
(23) الملك الأشرف برسباي بن عبد الله أ[و النصر الدقماقي الظاهر الجاركسي سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية الثاني والثلاثون من ملوك الترك والثامن من ملوك الجراكسة انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص238.
(24) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص329.
(25) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج7، ص134. زكار، فلسطين، ص588.
(26) زكار، فلسطين، ص588. شهاب، الحياة العلمية في القدس، ص49.
(27) المقريزي، السلوك، ج6، ص47.
(28) القلقشندي، صبح، ج4، ص192. السبكي، معيد النعم، ص55.
(29) السبكي، معيد النعم، ص63.
(30) العمري، التعريف بالمصطلح، ص106، 107.
(31) لمزيد، ينظر كتاب الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمي، وقد فصل المؤسسات حسب المذاهب، ج2، ص65 وما بعدها.
(32) دار القرآن الصابونية تقع خارج دمشق بالقرب من ضريح الصحابي أوس بن أوس وبها جامع حسن المنارة وبه تربة الواقف. انظر: النعيمي، الدارس، ج1، ص13ـ14.
(33) المصدر نفسه، ج1، ص13ـ14.
(34) النعيمي، الدارس، ج1، ص229. علي، القدس، ص49.
(35) المقريزي، السلوك، ج4، ص231.
(36) انظر: الحجي، صورة من الحضارة، ص148.
(37) انظر: الحجي، صورة من الحضارة، ص151.
(38) المقريزي، السلوك، ج6، ص207.
(39) المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(40) المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.
(41) هو: الأمير يلبغا الناصري، نائب السلطنة في مصر، حكم طويلاً وكان له نفوذ كبير، تبعه الأمراء، وتاق إلى السلطنة ولكن حيل بينه وبينها، انظر: ابن كثير، البداية، ج14، ص236.
(42) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص322.
(43) النويري، نهاية الأرب، ج32، ص82ـ83. علال، التعصب المذهبي، ص43.
(44) التطواني، نظرات في التاريخ، ص8.
(45) السبكي، معيد النعم، ص74. التطواني، نظرات في التاريخ، ص8.
(46) انظر: علال، التعصب المذهب، ص91.
(47) معيد النعم، ص15. علال، التعصب المذهبي، ص83ـ84.
(48) انظر: زيادة، دمشق في العصر المملوكي، ص209.
(49) المرجع نفسه، ص210.
(50) معيد النعم، ص106.
(51) معيد النعم، ص107.
(52) السبكي، معيد النعم، ص107ـ108.
(53) السبكي، معيد النعم، ص74.
(54) السبكي، معيد النعم، ص74ـ75.
(55) انظر: علال، التعصب المذهبي، ص232.
(56) الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ص63.
(57) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص10. الصفدي، الوافي، ج7، ص408.
(58) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص163.
(59) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص34. علال، التعصب المذهبي، ص322.
(60) الكيلاني، هكذا ظهر جيل، ص35.
(61) علال، التعصب المذهبي، ص345ـ346.
(62) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص32.
(63) المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.
(64) الذهبي، سير، ج19، ص19، ص94ـ96. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص296.
(65) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص37. الذهبي، سير، ج22، ص534.
(66) الذهبي، سير، ج29، ص292.
(67) التطواني، أصول المذاهب، ص7.
(68) المرجع نفسه، نفس الصفحة.
(69) للمزيد عن تأثر القضاة بالمذهبية، وسيطرة السلاطين عليهم للحصول على مبتغاهم، مراجعة الفصل الأول والثاني من نفس الرسالة.
(70) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص72.
(71) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص307، علي، القدس، ص144.
(72) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص348.
(73) انظر: لابيدوس، مدن الشام، ص276.
(74) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص308.
(75) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص308.
(76) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص58ـ59ـ67.
(77) القدسي، دول الإسلام، ص43.

(78) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص228.
(79) البداية والنهاية، ج14، ص67. ابن العماد شذرات، ج6، ص11. شهاب، الحياة العلمية في القدس، ص50.
(80) المصدر نفسه، ص64. علي، القدس، ص144.
(81) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص37.
(82) هو: السلطان الملك الناصر بدر الدين وقيل ناصر الدين أبو المعالي حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون وأمه أم ولد، وعمره يوم سلطنته إحدى عشرة سنة وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصري والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، انظر: ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج10، ص187.
(83) القدسي، دول الإسلام، ص47.
(84) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص81.
(85) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص36. القدسي، دول الإسلام، ص35. علي، القدس، ص49.
(86) المقريزي، السلوك، ج2، ص206.
(87) هو علي بن يعقوب البكري الشافعي، ولد سنة 673هـ/ 1274م، اشتغل بالفقه والأصول كان شجاعاً، جريئاً، فقهياً عيفاً متقشفاً توفي سنة 714هـ/ 1323م، ينظر ابن حجر، الدرر، ج3، ص214.
(88) المقريزي، السلوك، ج2، ص501.
(89) انظر: الحجي، صور، ص94ـ95.
(90) المقريزي، السلوك، ج3، ص81.
(91) انظر: الحجي، صور، ص100ـ101.
(92) ابن تغري، النجوم، ج15، 546. المحبي، خلاصة، ج1، ص479. الحجي، صور، ص120ـ121.
(93) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص755. الكيلاني، هكذا ظهر، ص39.
(94) لابيدوس، مدن الشام، ص174.
(95) الكيلاني، هكذا ظهر، ص40.
(96) المرجع نفسه، ص41.
(97) الأحياء، ج1، ص42.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

1.ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ/ 1523م). بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، ط1، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1395هـ/ 1975م.
2.ابن تغري، بردى، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ/ 1469م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الناشر: وزارة الثقافة، القاهرة، د.ت، د.ط.
3.ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت 597هـ/ 1200م)، المنتظم، 18 جزء، نشر دار صادر، بيروت، ط1، سنة 1358هـ.
4.حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت 1067هـ/ 1656م)، كشف الظنون عند أسامي الكتب

والفنون، جزءان، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
5.ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بم محمد العسقلاني (ت 852هـ/ 1448م):
الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 206، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، نشر مجلس دائرة المعارف، الهند، ط2، سنة 1392هـ/ 1972م.
إنباء الغمر بأبناء العمر، ج4، تحقيق د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، سنة 1389هـ/ 1969م.
6.ابن خلكان، أبي العباس شمس الدن أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/ 1282م)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، 8 أجاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968م.
7.الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/ 1347م)، سير أعلام النبلاء، 17 جزء، تحقيق محمد الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ/ 1997م.
8.السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت 771هـ/ 1369م):
معيد النعم ومبيد النقم، ج1، حققه وبطه وعلق عليه محمد علي النجار وآخرون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، سنة 1413هـ/ 1993م.
طبقات الشافعية الكبرى، ج10، حققه محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط1، نشر هجرة للطباعة والنشر، د. م، سنة 1413هـ.
9.أبو شامة، شهاب الدين أ]ي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت 665هـ/ 1266م):
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط1، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
10.الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/ 1071م)، أعيان العصر وأعوان النصر، ج5، تحقيق د. عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.
11.ابن طولون، شمس الدين محمد (ت 953هـ/ 154م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، 2ق، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للنشر، 1962م.
12.العليمي، مجير الدين (ت 927هـ/ 1520م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، تحقيق عدنان يونس، عبد الحميد نباته، نشر مكتبة ونيس، عمان، د.ط، سنة 1420هـ/ 1999م.
13.ابن العماد، عبد الحي بن احمد العكري الحنبلي، الدمشقي (ت 1889ه/ 1775م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج10، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط1، سنة 1985م.
14.العمري، القاضي ابن فل الله شهاب الدين أحمد: التعريف بالمصطلح الشريف، ط1، تح، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
15.الغزي، محمد بن محمد (ت 1061هـ/ 1747م): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، 3 مجلدات، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، بيروت، دار الفكر، 1365هـ/ 1945م.
16.القدسي، أبي حامد محمد الدين بن خليل (888هـ/ 1483م): دول الإسلام الشريفة البهية، تحقيق صبحي ليبي، المتحدة للتوزيع، 1997م.
17.القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت 821ه/ 1418): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، 15 جزء، دار الكتب العلمية، بيروت، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، نبيل خالد الخطيب، ط1، 1407هـ/ 1987م.
18.ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت 774هـ): البداية والنهاية، ج13، ج14، دار الحديث، القاهرة، ط5، 1998م.
19.الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764هـ/ 1362م): فوات الوفيات، ج2، تحقيق علي محمد بن يعوض الله وعادل بن عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 2000م.

20.المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
21.الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، ت (450هـ/ 1058م): الأحكام السلطانية، تحقق محمد فهمي السرجاني، ط1، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت.
22.النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي (ت 978هـ/ 1570م): الدارس في تاريخ المدارس، تـحقيق إبراهيم شمس الدين، 2 جزء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1460هـ.
23.النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733هـ/ 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، 31 جزء، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1412هـ/ 1992م.

ثانياً: المراجع
1.التطواني، أبو أويس محمد بن الأمين: نظرات في تاريخ المذاهب الإسلامية، ورد في الموسوعة الشاملة.
2.الحجي، حياة: صور من الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، دار الكتب العلمية، د. ط، د.ت.
3.سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، 1976م.
4.شبارو، عصام محمد: القضاء في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م.
5.شهاب، خليل أحمد: الحياة العلمية في القدس، ط1ج، دار صادر للنشر والتوزيع، 1999م.
6.علال، خالد كبير: التعصب المذهبي في التاريخ، ط1، دار المحتسب، القاهرة، 2008م.
7.عطا الله، محمود علي خليل: نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986م.
8.الكيلاني، ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. ط، 1414هـ/ 1994م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المعربة
1.لابيدوس، ايرمارفين: مدن الشام في العصر المملوكي، ط1، نقله إلى العربية وقدم له، سهيل زكار، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، 1985م.
2.زيادة، نقولا: (مترجم) دمشق في العصر المملوكي، مؤسسة فرنكلين للنشر، نيويورك وبيروت، 1966م؛ والحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك.

رابعاً: الرسائل العلمية
1.المصري، جهاد: التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بالجامعة الإسلامية، غزة، 2005م.

السّميائيّة وأثرها في شعر الحداثة

رجاء عبد العزيز شنو

مقـدمـــة

تُعدّ السّيميائيّة من المصطلحات التي استُخدِمت في مجالات علميّة متعددة ومتنوعة منذ وقت مبكر، ومع ذلك لم تظهر في الدّراسات الأدبيّة بشكل واضح وفعَّال إلَّا في أواخر القرن العشرين، ومن ثمَّ احتلّت السّيميائيّة مكانًا مميزًا بين الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة منها، وذلك لما تسعى إليه السّيميائيّة من وراء الغوص في أي ظاهرة للكشف عن مكنوناتها ومن ثمَّ مدلولاتها، وذلك عن طريق العلامة والإشارة وما تخفي خلفها، لكي يستطيع النّاقد قراءة النّصّ الشّعريّ أو النّصّ الأدبيّ النّقديّ وتحليله بطريقة إبداعيّة نقديّة. ومن ثمَّ تعددت السّيميائيّة داخل المصطلحات النّقديّة، فقد تعددت تسمياتها من السّيمياء إلى السّيميولوجيّا، ومن علم العلامة إلى العلامتية؛ حيث تصبّ هذه المصطلحات في إطار تحديد العلامة الدّالة والعلامة غير الدّالة ما بين المصطلحات النّقديّة والأدبيّة منها.وتكمن أهمية هذا الموضوع في تناول المنهج السّيميائيّ وبيان أثره على شعر الحداثة. والوقوف على النّشأة التاريخيّة والجذور الأولى للنظريّة السّيميائيّة. وعلى نموذج تطبيقيّ لبيان أثر السّيميائة في شعر الحداثة.والتّعرف على جهود العرب القدماء الأوائل، ومحاولاتهم في بيان أصول النّظريّة السّيميائيّة، واتّجاهاتها في الدّرس الأدبيّ.

فالهدف من هذا البحث هو: إثراء المكتبات العلميّة، ومن ثمَّ المجلات العلميّة بموضوعات بحثيّة تعنى بالدّراسة السّيميائيّة.وتحديد المدار العام الذي تشغله آليّات الأثر السّيميائيّ، ثمّ بيان ذلك الأثر والتّأثير في شعر الحداثة. ومحاولة تحديد المدار العامّ الذي تشغله آليات التّحليل السّيميائيّ وكيفيّة تطبيق ذلك على شعر الحداثة.وكذلك تسليط الضوء على مفهوم السّيميائيّة واتجاهاتها الأدبيّة، ومن ثمَّ جذورها التّاريخيّة وأصولها العربيّة. وتطبيق المنهج السّيميائيّ وبيان أثره على شعر الحداثة سيضيف لبنة جديدة للدراسات السّابقة ولجوانب الشّعر، وفقًا للمنهج السّيميائيّ الذي يهتمّ بدراسة العلامات والإشارات ومن ثمَّ الرّموز في التّعبير عن الدلالات أو المعاني. وأمَّا عن المنهج المتبع في هذا الموضوع فقد اعتمدنا فيه على المنهج السّيميائيّ، والذي يسعى إلى بيان الأثر الكبير الذي يحدثه ويُبيّنه في شعر الحداثة؛

حيث يتخذّ هذا المنهج من النّصّ الشّعريّ ركيزة محوريّة للدراسة؛ وذلك لأنَّه أصبح من المناهج المعاصرة الحديثة التي لها القدرة على تحليل النّصّ الشّعريّ والقصيدة الشّعريّة عامّة بطريقة علميّة وموضوعيّة؛ حيث يتميز المنهج السّيميائيّ بقدرة عالية على رصد الظواهر التّعبيريّة وتحليلها، ومن ثمَّ الاستعانة بالمنهج التّحليليّ، وذلك في إطار تحليل، وبيان نموذج من شعر الحداثة؛ لبيان أثر المنهج السّيميائيّ في النّصّ الشّعريّ، وبيان الأثر والتأثير السّيميائيّ فيها.

ـ مفهوم السّيميائيّة

تُعد السّيميائيّة من المصطلحات التي استُخدمت في مجالات علميّة متعددة، ومتنوعة منذ وقت مبكر، ممّا يدفعنا إلى الوقوف على مفهوم السّيميائيّة لغةً واصطلاحًا.

ـ السّيمياء لغةً

تعددت الدّلالات اللّغويّة لمصطلح (السّيمياء) مادة (سَوَمَ) في المعاجم اللّغويّة، ومن ذلك نجد أنَّ مصطلح (السّيمياء) يدور حول فلك العلامة، فقد ذكر «ابن منظور» في لسان العرب أنَّ:"السُّومَةُ والسِّيمةُ والسِّيماء والسِّيمِياءُ: الْعَلَامَةُ. وسَوَّمَ الفرسَ: جَعَلَ عَلَيْهِ السِّيمة". وقوله عز وجل: ﴿حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ وروى قول الزّجاج عن الحسن، حيثُ قال: إنّها معلّمة ببياض وحمرة، وقال غيره: مسومة بعلامة يعلم بها أنّها ليست من حجارة الدنيا ويعلم بسيماها أنّها ممّا عذب الله بها، وقال «الجوهريّ»: مسومة، أي: عليها أمثال الخواتيم. وذكر «الجوهريّ» أنَّ: السُّومة، بالضّم، العلامة تجعل على الشّاة وفي الحرب أيضاً، تقول منه: تسوم. قال أبو بكر: قولهم عليه سيما حسنة معناه علامة، وهي مأخوذة من وسمت اسم، قال: والأصل في سيما وسمى، فحولت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين، كما قالوا: ما أطيبه وأيطبه، فصار سومى وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها. وفي التّنزيل العزيز: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾[1]. وقُرئ بفتح الواو، أراد مُعلَّمين، والخيل المسومة: المرعيّة، والمسومة: المعلّمة. وقوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾[2]"[3]. ومن ثمَّ نجد أنَّ القرآن الكريم قد تطرق إلى السّيمياء وعلم العلامّات والرّموز، وذلك عندما ميَّز الله هذه الفئة من النّاس بالعلامة؛ حيثُ وردّ ذكر السّيمياء في القرآن الكريم بلفظ سيماهم في ستة مواضع، ومن بين هذه المواضع قول الله تعالى:﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[6].

السّيميائيّة اصطلاحًا: إذا نظرنا إلى مفهوم السّيميائيّة من النّاحيّة العلميّة نجد أنَّه بدأ مع العالم السّويسري «فرديناند دي سوسير»، والأمريكيّ «شارل بيرس»، فـ دي سوسير ينطلق في تعريفه لهذا المصطلح من خلال محاضراته في الألسنيّة العامّة، ومن ذلك يقول: "السّيميائيّة هي علم يدرس حياة العلامّات في وسط الحياة الاجتماعيّة"[7].

السّيميائيّة هي: "علم خاصّ بالعلامّات، هدفها دراسة المعنى الخفيّ لكلّ نظام علاماتيّ، فهي تدرس لغة الإنسان، والحيوان، وغيرها من العلامّات غير اللسانيّة باعتبارها نسقًا من العلامّات، مثل علامّات المرور، وأساليب العرض في واجهة المجلات التّجاريّة، والخرائط، والرّسوم البيانيّة، والعدد وغيرها"[8]. وتقوم السّيميائيّة على "دراسة العلامات والرّموز والصّور والمفاهيم والأفكار، وتُعنى بقوانين إنتاج العلامة، والعلاقة الرّابطة بين العلامة والمفهوم، وتخصيص اللفظ في دراسة علامات النّصّ، وحياة العلامات داخل الحياة الاجتماعيّة، فهي في حقيقتها كشف واستكشاف لعلاقة دلاليّة مرئيّة وغير مرئية، وذلك عن طريق التّجليّ المباشر للواقعة"[9].

كذلك السّيميائيّة عبارة عن: "لعبة التّفكيك والتّركيب، وتحديد البنيات العميقة الثانويّة، وراء البنيات السّطحيّة المتمظهرة فونولوجيّا ودلاليًّا"[10]. وتعدّ: "دراسة شكليّة للمضمون، وتمرّ عبر الشّكل لمساءلة الدّوال من أجل تحقيق معرفة دقيقة بالمعنى"[11]. أمّا «شارل بيرس» فنجده "يعدّ السّيميائيّة بمثابة العلم الكلي للسمات الذي يشمل كلّ السّمات، وهو غير السّمات اللسانيّة، إذ لم تغدُ اللغة إلّا مجرد نقطة في فضاء رحب تتحكم فيه إمبراطورية السّمات البصريّة، مثل:الألوان، العلامّات، الإشارات العامّة، إشارات المرور، الشّعارات...، وما لا نهاية له من السّيميائيات التي أمست ركنًا مركزيًّا في ثقافة هذا العصر"[12]. ومن تعريفات «السّيميائيّة» في «العصر الحديث» تعريف «بيارغيرو» بأنّها: "العلم الذي يهتمّ بدراسة أنظمة العلامّات: اللغات، والأنظمة، والإشارات، والتّعليمات"[13]. ومصطلح السّيميائيّة هو "علم يبحث في دلالة الإشارات في الحياة وأنظمتها اللّغويّة، لذلك نجد أنَّ هذا المفهوم له حيثيات وأصول لتسمّيته ومكوناته، فالسّيميائيّة وكذلك السيميولوجيّا تعنى بالعلامة التي شاع استخدامها كمصطلح غربيّ في اللّفظة السويسريّة **semiologie**، والبريسيّة **semiotic**، وكلاهما مشتق من الجذر اليونانيّ **segns**، ونجد أنَّ هذين المفهومين قد أتيا بنفس المعنى وهو العلامة"[14].

خلاصة القول: من خلال ما تمَّ عرضه حول مفهوم السّيميائيّة اصطلاحًا يجدر بنا أن نذكر أنَّ السّيميائيّة هي عبارة عن نظام معين أو شبكة معينة معروفة من العلاقات النّمطيّة والعلاقات المتسلسلة، وفق قواعد لغويّة داخل النّصّ الأدبيّ، وتلك القواعد متفق عليها في بيئة معينة من أجل تحديد سيميائيّة النّصّ منها.كذلك السّيميائيّة هي "كلمة يونانيّة الأصل كما ذكرنا من قبل ومع اختلاف تعاريفها المختلفة والمتنوعة، ومن ثمَّ المتعددة، إلَّا أنَّ جميع هذه التّعريفات كلّها تدور في فلك العلامة والأنظمة اللّغويّة، ومن بينها كما ذكرنا **semiolics**، وهو العلم الذي يدرس نظام العلامّات ويبحث في أهميتها وقوانينها لتكوين نظريّة للأدلة"[15].

الجذور التّاريخية للسيميائيّة ونشأتها الأولى، وجهود العرب والغرب في وجودها:

تعود أصول السّيميائيّة إلى عصور غابرة جدًا، "وذلك إلى حوالي ألفي سنة مضت، أي إلى أيّام اليونانيين، ومن ذلك فقد عرفت لفظة العلامة في اليونانيّة بـ «سيمون»، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بعبارة «تيكميرويون»التي تترجم عادة بعرض، إضافة إلى أنَّها كانت تستعمل مصطلحاً تقنيًا في مدرسة «أبيقراط»، وفي التّفكير البرمينديّ، رغم أنَّ فكرة العلامة لم تتبلور إلَّا مع الرّواقيين، فأصولها إذن تعود إلى أيَّام الرّواقيين الذين كانوا السبَّاقين إلى استنتاج طرفي العلامة (الدّال، والمدلول)، متأثرين في ذلك بثلاثيّة كلّ من «أرسطو»، و«أفلاطون» (العبارة، المضمون، المرجع)، أي: لغة التّعبير"[16]. ومن ثمَّ لم تكن السّيميائيّة وليدة العصر الحديث ـ كما ذكرنا من قبل ـ كما يزعم البعض حول ذلك، بل هي قديمة النّشأة؛ حيثُ اهتمّ القدامى من عرب وعجم بهذا الجانب، ومن بينهم أفرد الفيلسوف «أفلاطون» السّيمياسيّة في كتابه (cartyie)، كما أشار «أفلاطون» إلى ما تمتاز به الأصوات اللّغويّة من خواص تعبيريّة، أي: العلاقة الطبيعية بين الدّال والمدلول. وقد اختلف الكثير من الدّارسين والباحثين في الدّراسات اللّغويّة حول نشأة السّيميائيّة، فهناك من رأى أنَّ النشأة الأولى للسيميائيّة كانت عند علماء العرب منذ القدم، أمثال (ابن خلدون، والشّريف الجرجاني، وابن سينا، والفارابي، والغزالي)، وغير ذلك ممن كان له محاولات في وجود وبيان السّيميائيّة. كذلك ذهب فريق آخر إلى أنَّ نشأتها الأولى كانت عند الغرب، بداية من (أرسطو، وأفلاطون إلى دي سوسير، وبيرس).

كذلك نجد أنَّ مصطلح السّيميائية مرادف لمصطلح الدلالة، وقد كان للغويين القدماء من العرب محاولات في هذا المجال، وذلك قبل أن تظهر مقولات السّيميائيين والتّداوليين المعاصرين منهم. ولذلك نظر علماء العرب إلى دلالة الألفاظ من خلال سياقين مختلفين (اللغويّ، والدّلاليّ)، وهو ما «ذكره عبد القاهر الجرجاني» في كتابه «أسرار البلاغة»، فنجده يقول: "وإنّك لتجد اللّفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتّى تراها مكررة في مواضع، ولها في كلّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة مرموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنّها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصّدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعًا من الثّمر"[17].

وإذا نظرنا إلى أصول السّيميائيّة وجذورها التّاريخيّة عند العرب، " نجد أنّها ارتبطت ارتباطاً وثيقًا بعلوم التّفسير والتأويل، وخاصّة علم الدلالة، ومن بين علماء العرب الذين تناولوا علم السّيمياء في أعمالهم بصريح العبارة نجد أنَّ «ابن سينا» في مخطوط له بعنوان (كتاب الدرّ النّظيم في أحوال التّعليم) وُجِدَ فيه فصل تحت عنوان (علم السّيمياء)، وكذلك نجد «ابن

خلدون» والذي خصص فصلًا في مقدّمته لعلم أسرار الحروف الذي هو كما يقول المسمّى بالسّيمياء"[18].

ومن ذلك يمكننا أن نُبيّن أيضًا أنَّ السّيميائيّة عند العرب تلتصق أحيانًا بعلوم السّحر والطلسمات، التي تعتمد على أسرار الحروف والرّموز والتّخطيطات الدالة، وقد ارتبطت خصوصًا بعلم الدلالة؛ وذلك لأنَّ "مفهوم الدلالة عند العرب مفهوم سيميائي عامٌ لانعدام اختصاصه بمجال دون مجال آخر، ولا سيَّما أنَّه يتموضع في مفترق الطرق بين علوم عدة..، ومن بين هذه العلوم المنطق والتّفسير والتّأويل والمناظرة"[19]. ولا يمكن أن ننكر إسهام العرب الأوائل في مجال النّظريّة السّيميائيّة ووجودها في الدراسات الأدبيّة والنّقديّة منها، وقد تبيَّن لنا ذلك من تجولنا داخل التّراث الثقافيّ العربيّ، ومن بين ذلك فقد عرَّفها المتصوفة باسم السّيمياء أوعلم أسرار الحروف، ومن هنا أتت جهود العرب القدماء في بيان دليلهم العلميّ على معرفتهم وعلمهم بالسّيميائيّة، ومن بين هؤلاء نجد «الجاحظ» قد بيَّن ذلك بيانه لمفهوم لعلم البيان، على أساس أنَّه اسم جامع لكل شيء كشف للقارئ قناع المعنى عن الغامض في النّصّ.

السّيميائيّة الغربيّة: لقد احتلّت السّيميائيّة "في المشهد النّقديّ الغربيّ مكانة بارزة ومميزة، وذلك لاستمداد أصولها ومبادئها من مجموعة من الحقول المعرفية كاللسانيّات، والمنطق، والتّحليل النّفسيّ، ومن ثمَّ الانثروبولوجيّ"[20]. ومن ثمَّ ترجع الأصول والنّشأة التّاريخيّة الغربيّة للسيميائيّة علي يد العالم اللغويّ السّويسري «فرديناند دي سوسير»، ومن ذلك قوله بأنَّ: "اللّغة مؤسسة اجتماعيّة، ولكنّها تتميز عمّا سواها من المؤسسات السّياسيّة والقانونيّة وغيرها بعدة سمات، ولكي نفهم طبيعتها الخاصّة ينبغي أن ندرج في هذا السّياق ظواهر من صعيد آخر"[21]. ومن ثمَّ يُعدّ «دي سوسير»هو أول من استشرف النّظريّة السّيميائيّة، وظهرت على يديه في عبارته نتصور، كما هناك العديد من العبارات تدلّ على أنَّ هذا العلم تصور مستقبلي، وقد أقرَّ «دي سوسير» "بجذور هذا العلم اليونانيّة، ومن ذلك قوله: "وهي كلمة Semimon مشتقة من اليونانيّة"[22]. ومن ثمَّ يتبين لنا أنَّ النّظريّات النّقديّة الأدبيّة معظمها ساهمت في ظهور المبادئ التي أرساها «دي سوسير»، والتي تعدّ بمثابة المحرك للدارسين، ومن ثمَّ الباحثين في مجال الحقل النّقديّ بعده.

خلاصة القول: يمكننا القول: إنَّ السّيميائيّة تمتدّ جذورها إلى الماضي، وذلك من خلال الأفكار المتناثرة في الحضارة اليونانيّة، ومن ذلك خرجت السّيميائيّة الحديثة التي هي امتدادًا لاكتشاف السّيميائيّة القديمة كما ذكرنا ذلك حيث اعتبرت السّيميائية الحديثة محطة الانطلاق والبدايات الأولى، ومن ثمَّ عمل المعاصرون على تطويرها داخل النّقد الأدبيّ، وبذلك تنوعت المصطلحات التي تبنت المنهج والنّظريّة السّيميائيّة، ممّا أدّى بعد ذلك إلى صعوبة تحديد المراد من المصطلح، والوقوف

على مفهومه دون تداخله وتنوعه داخل مصطلحات أخرى مرادفة لذلك المصطلح.

اتجاهات السّميائيّة: "لقد استمدّت السّيمياء أصولها، ومبادئها، وأسسها، ومفاهيمها من شتّى العلوم والفلسفات والمناهج النّقديّة السّابقة والمواكبة لها، ومن ثمَّ تفرعت السّيميائيّة إلى مدارس واتجاهات متعددة ومختلفة في مجال النّقد الأدبيّ، ومن ذلك نلاحظ أنَّ هناك تباينًا كبيرًا بين الباحثين فيما يتعلق بتفريع السّيميائيّة، وتعدد اتجاهاتها"[23]. ومن ثمَّ نرى «محمّد السّرغيني» يقسم السّيميائيات إلى "ثلاثة اتجاهات: (الاتجاه الأمريكيّ، الاتجاه الفرنسيّ، الاتجاه الروسيّ). ولكلّ اتجاه مناهجه وأدواته الإجرائيّة في التّحليل، أمَّا «مبارك حنون» فيري أنَّ السّيميولوجيّا ثلاثة أنواع: (سيميولوجيّا التّواصل، سيميولوجيّا الثقافة، سيميولوجّيا الدلالة)، وكذلك يرى «عادل فاخوري» أنَّ السّيميائيّة تيار سلوكيّ، تيار منطقيّ، وتيار لسانيّ"[24]. كذلك يرى «عواد علي» يعدد السّيميائيّة في ثلاثة اتجاهات، نحو ما يلي:

1) سيمياء التّواصل

ويمثل هذا الاتجاه مجموعة من النّقاد من بينهم(بويسنيس، بريطو، كرايس)، ويقوم هذا الاتجاه على أنَّ وظيفة اللسان الأساسيّة تكمن في التّواصل، ومن ذلك رأوا أنَّ السّيميائيّة هي: "دراسة لأنظمة الاتصال اللغويّة منها وغير اللغويّة، وتسعى إلى تحديد هذه الأنظمة المختلفة، وذلك وفق عدد من الإشارات التي ضمنها الألفاظ اللغويّة، وغير اللغويّة"[25].

2) سيمياء الثقافة

"ومركز هذه الدراسات معهد تارتو الذي يشرف عليه «لوتمان» الذي يعتبر من أهم روّاد هذا الاتجاه، بجانب «أمبرتو إيكو»، و«جوليا كريستيفا»، و«سبانسكي»، مستفيدين من الفلسفة الماركسيّة وفلسفة الأشكال الرّمزيّة عند «كاسيرو»، وقد نشأ هذا الاتجاه في أحضان مدرسة موسكو ـ تارتو، التي انبثقت أساسًا من مدرسة الشّكليين الرّوس"[26]، ومن ذلك "ينهض هذا الاتجاه على اعتبار الظواهر الثقافيّة موضوعات تواصليّة وأنساق دلاليّة"[27]، ومن ثمَّ اعتُبِرَت السّيميائيّة الثقافيّة "علم العلاقات الوظيفيّة التي تربط بين أنظمة مختلفة دالة"[28].

3) سيمياء الدلالة

ويمثل هذا الاتجاه «رولان بارت»؛ حيثُ يرى" أنَّ البحث السيميائيّ هو دراسة الأنظمة الدلاليّة من خلال الظواهر الاجتماعيّة والثقافيّة الملامسة للنص، من منظور أنَّه جزء من اللسانيات"[29]. ومن ذلك فقد حاول اتجاه سيمياء الثقافة "التّوفيق بين الاتجاهين السّابقين، حاملًا هذا الاتجاه على عاتقه الكثير من العناصر الثقافيّة ودراستها دراسة سيميوطيقيّة، والتي كان لها جدارتها، ولازالت"[30].

النّظريّة السّيميائيّة وأثرها في شعر الحداثة، (دراسة تطبيقيّة: قصيدة (المهرولون) للشاعر "نزار": سقطت آخر جدران الحياء... وفرحنا... ورقصنا.. وتباركنا بتوقيع سلام الجبناء.. لم يعد يرعبنا

شيء.. ولا يخجلنا شيء.. فقد يبست فينا عروق الكبرياء..

أثر السّيميائيّة في نصّ القصيدة

ـ سيميائيّة العنوان (المهرولون)

وإذا نظرنا إلى سيميائيّة العنوان نجد أنَّه نال مكانة كبيرة واهتمام بالغ في أطروحات السّيميائيين، ومن ذلك نجد أنَّ العلاقة بين العنوان الرّئيس وهو الأُمّ وبين نصوص القصيدة التي تنبع من العنوان علاقة طبيعيّة منطقيّة، وعلاقة انتماء دلاليّ؛ وذلك لأنَّ عنوان القصيدة ما هو إلَّا نصّ باقي، وباقي المقاطع الشّعريّة ما هي إلَّا تفريعات نصيّة تنبع من عنوان القصيدة الرّئيسي الذي يعتبر الأُمّ. ومن ثمَّ تعتبر"دلالة العنوان وسيميائيته تجميع مكثف لدلالات النّصّ، والنّصّ هو البؤرة التي قد يستقطبها العنوان، ثم بعد ذلك يتمّ تردادها في مقاطع النّصّ، فتأتي المقاطع تمطيطًا للعنوان وتقاليبه في صورة مختلفة، فالكلمة والتي هي المحور والعنوان تتحول إلى الجملة المنطلق، لتناسب النّصّ عبر تشكلات وتقابلات عدة، لتمرّ الجملة الرابطة وتتبقى الآليات جميعها في الجملة"[31]. وإذا نظرنا إلى عنوان القصيدة وهو (المهرولون) نرى أنَّه مشتق من الفعل (هرول)، والذي يكون على وزن (فعلل)، ومن ذلك لفظة المهرولين لا تعدوا كونها إشارة ضوئيّة ومؤشرًا دالًا على كلّ ما تحتويه هذه الكلمة من تشجير دلاليّ، ومن ذلك نرى الهرولة في لسان العرب هي: "الهرولة: بين العدو والمشي، وقيل: الهرولة بعد العنق، وقيل: الهرولة الإسراع، وكذلك ذكر الجوهري: الهرولة ضرب من العدو وهو بين المشي والعدو"[32]. ومن ذلك نرى أنّ سيميائيّة الهرولة هي السّير بسرعة، ومن ذلك نرى أنَّ «دي سوسير» قد أخذ هذه اللفظة وأفرغها من دلالتها المعجميّة ليشحنها بدلالات جديدة تحولت فيها لفظة المهرولون إلى عمل جديد؛ حيث عمل على أخذ هذه الكلمة من مخزون اللغة فأطلق سراحها، ولذلك نرى أنَّ «دي سوسير» قد تجاوز في هذا العنوان الدّلالة المعجميّة للعنوان والذي يدلّ علي السّير بسرعة، إلى لفظ يدلّ على الـ لا ثبات، والـ لا استقرار، والاضطراب، والـ لا انسجام، والحركة، ومن ثم التّخاذل، ومن ذلك نرى انتماء «دي سوسير» إلى الشّجرة الدّلاليّة أو الحقل الرئيسيّ الذي يثيره العنوان مثل الأفعال التالية: (دخلنا، وقفنا، لهثنا، ركضنا، تسابقنا.. إلى غير ذلك)، وكلّ هذه الألفاظ تدلّ على الاضطراب والـ لا استقرار.

وقد عكس عنوان القصيدة (المهرولون) النار المصطبغة بعذاب الإنسان في فرديته المهددة وطريقه المؤدي إلى المجهول، وهو يهرول تناديه الحرية وتصوغ حماسه الثّروة؛ حيثُ انطلقت القصيدة تفجر معانيها من الهوس الدّاخلي، والاحتفاء بالفرد العربيّ وانكساراته الروحية والسّياسية؛ حيث انكسرت الأحلام وشهدت السّاحة خمول النّظام السياسيّ، ومن هنا نجد أنَّ العنوان يجسد انفصال الإنسان العربيّ عن ذاته، هذ الإنسان المملوء بالشّك والحيرة، تقتاده الريبة وضياع النّفس والخوف كلما ازدادت الهرولة، فلا تعرف تلك النّفس الطمأنينة والهدوء. ولذلك نجد أنَّ عنوان القصيدة هنا قد استطاع أن يُبيّن ما بداخل القصيدة، وما يحمله من

قلقٍ دلاليٍّ واضحٍ، وعبر تشظيه إلى دلالات فرعيّة تحتوي علىٰ فجوات تكتظ بالغموض، والعنوان هنا لا يسعى إلى تحقيق دلالة يقينيّة مباشرة، بل ليضع المتلقّي عبر فوضى الدّوال ومراوغة المدلولات، في مساحة من اللغة تقوم على أصوات متعددة ونبرات متناقضة تسودها الضبابيّة، والتي توحي له بتشتت فكر المهرولين وحيرتهم وقلقهم.

ـ سيميائية الرّموز، ثنائيّة الحضور والغياب داخل القصيدة

وإذا نظرنا إلى سيميائيّة الرّموز داخل قصيدة (المهرولون) لـ «نزار» نجد أنَّ شعره دائمًا يتسم بالحركة الدائمة،" فالشّعر عند «نزار» هو انتظار ما لا ينتظر، فقصيدته هنا نجدها تتكلم بلغات عدة، وتحمل معها جنسيات متعددة ومتنوعة، لذلك نجد «نزار» صاحب قضيّة، يرفع التّحجي ويحاول اختراق الجروح، فالشّعر عنده قوة خارقة تجعلنا نسمو على جوارحنا، ونزيفنا بحثًا عن آفاق جديدة وكشوف جديدة"[33]. أمَّا ثنائيّة الحضور والغياب داخل القصيدة فنجد أنّ «نزار» ربط بين ضمير المتكلمين وضمير الغائب المفرد؛ وذلك ليعبّر مباشرة عن الوعيّ القوميّ، وأنَّ تلك القضيّة هي قضيّة تخصّ الأمّة العربيّة كلّها، فيقول:

سقطت آخر جداران الحياء
وفرحنا..ورقصنا..[34].

ونجد هنا أنَّ «نزار» قد أراد بجدران الحياء هنا الحائط، والذي يرمي في التّركيب إلى الشّموخ والثبوت والعتمة والسّترة والحائل؛ حيث بيَّن «نزار» أنَّ السّقوط قد أصاب آخر شموخنا وكشف سترة بيننا وبين الحياء، ومن ثمَّ نجد أنَّ «نزار» قد أحال فعل السّقوط الثابت إلى فعل التّوتر، والقرار إلى الـ لا قرار.ثُمَّ بعد ذلك ينتقل بنا «نزار» إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الرّقص التي بيَّنها في بداية القصيدة إلى مرحلة النّكسة والذّل والحيرة، ومن ذلك بيَّن ما يقصّه في قوله:

ودخلنا في زمان الهرولة

ووقفنا بالطوابير، كأغنام أمام
المقصلة..وركضنا
ولهثنا...وتسابقنا لتقبيل
حذاء القتلة..[35]

وهنا يصور «نزار» الطوابير بالتّاريخ العربيّ، ويبيّن أننا نعيش زمنًا ثابتًا حركته متباطئة، نعيش تفاصيل الهزائم المتواليّة والإحباط المستمر.ويتابع «نزار» في عرض المشهد السّياسي الذي يصور السّقوط، بقوله:

سقطت غرناطة
ـ للمرة الخمسين ـ من أيدي العرب
سقط التّاريخ من أيدي العرب
سقطت أعمدة الروح...
وأفخاذ القبيلة..
سقطت كل مواويل البطولة..[36].

وقد بدأ «نزار» تصوير مشهد السّقوط بأكبر رمز حضاري للعرب، فيبيّن الاختفاء من الذّاكرة من التّاريخ بعد أن كانت غرناطة تمثل زمنًا أسطوريًّا بالنّسبة للعرب والإفرنج على حدّ سواء، ومن ثمَّ نجد أنَّ «نزار» قد قصد بأعمدة النّور هنا المآذن والمساجد الإسلاميّة التي تمثل رمز الإسلام. وبعد ذلك نجد انتفاضة روح «نزار»، وما تنتجه

من التّحدي الذي يشعل شرارة الثورة والانتفاضة التي بينها نزار داخل قصيدة (المهرولون)، فنجده يقول:

ليس هذا العرس عرسيّ..

ليس هذا الثوب ثوبيّ..

ليس هذا العار عاريّ..

وهنا نجد روح «نزار» وما تُبيِّنه من رفض تجاه ما حدث من القومية العربية، ونجده هنا في هذه الأبيات ينفي ما حدث عنه، ويطلق عليه لفظة العار، ومن بعد يتبرأ من كل شيء سواء كان على الفرح أو نقيض ذلك من الحزن. وبعد ذلك نجد «نزار» يشعل نار الثورة من جديد ويطلق صوت الرفض مجيبًا كل التّساؤلات، ومحطمًا كل الأفكار، فيقول: (أبدا يا أمريكا.. أبدا يا أمريكا..أبدا يا أمريكا..). ومن هنا يتحرك الشّاعر «نزار» بألفاظ قصيدته ومعانيها نحو اتجاه جديد، يدعو من خلاله إلى الأمل، والنّهوض، والدعوة إلى الانتقال إلى حياة جديدة تتمثل في الانتفاضة العربيّة، والمشاركة من أجل التّخلص من مشاهد الاستعمار السّياسيّ في جميع الدول العربيّة. وقد انتهج «نزار» في قصيدته منهج الحركة القائم علي بعث الأمل. كما ذكرنا ذلك ـ وقد اعتمد الشّاعر على حركة الأفعال التي طغت على نصّ القصيدة؛ وذلك لأنَّها تُوَّجه حركة النّصّ الزمنيّة وصيغتها لتخرج إلى علاقات جديدة، تَعْبُرُ من خلالها علي معاني ودلالات القصيدة. وإذا نظرنا إلى الأفعال في القصيدة فنجد أنَّ الفعل الماضي علي جميع أفعال القصيدة التي استخدمها «نزار» في قصيدته، ويلي الفعل الماضي الفعل المضارع في استعانة الشاعر به ضمن أحداث قصيدته.ويأتي منهج «نزار» في الاستعانة بالفعل الماضي بنحو أكثر من الأفعال الأخرى؛ وذلك لأنَّ الفعل الماضي يؤسس بنية القصيدة، ويربط بين الأشياء والذّوات داخل النّصّ الأدبيّ، كما يعمل الفعل الماضي دائمًا على تطوير المعاني، وتوالدها، ويدفع حركة القصيدة للتقدّم نحو الأمام في شكل حركة مستمرة نحو التّقدّم، ويضيف الطريق بالفعل الماضي حركة جديدة نحو طريق التّعبير عن الفعل. أمَّا الفعل المضارع فينبثق منه حركة جديدة تعتبر بمثابة التغيير الحاصل في الدّلالة والتّطور الدّلاليّ. وقد استعمل «نزار» الفعل المضارع بما يشبه الشّرط، وذلك عن طريق استعماله للفعل المضارع مقترنًا بصيغة النّفي (لن)، وذلك نحو قوله:

عندما يبقى ضمير الشّعب حيّاً

كفتيل القنبلة...

لن تساوي كل توقيعات أوسلو ...

خردلة!![37].

ومن ذلك وإذا نظرنا إلى أقوال النّحاة بأن الأفعال والأزمنة الشّعريّة تعبر عن الزّمن فقط، ولكن إذا أطلنا النّظر في ذلك نجد أنَّ تلك الأفعال إلى الدّلالة الشّعريّة، فتقلب حركة القصيدة، وتجعل منها صورًا متحركةً ذهابًا ومجيئًا من المعنى إلى الـ لا معنى، ومن الماضي العميق المظلم إلى المستقبل البعيد المشرق، وهو الذي قصده «نزار» في قصيدته (المهرولون). على الرّغم

من سيطرة الفعل الماضي على جميع الأفعال الأخرى في جميع جوانب القصيدة، إلَّا أنَّ المتأمل في معنى الأفعال الماضية يجد أنَّها تعبّر عن المستقبل، ومن بعده نجد الفعل المضارع يتابع الحركة والصورة، ويدلّ على ثبات النّفس المتحمسة والمشتاقة نحو أمل مشرق نحو الحرب والنّصر.

الخاتمـــة

تُعد النّظريّة السّيميائيّة حقلًا من الحقول المعرفيّة الثابتة والراسخة، والتي لها جذور راسخة في الدراسات الحديثة؛ وذلك لأنَّها اهتمت وأولت اهتمامًا خاصًّا بتفسير معاني الدّلالات، ومن ثمَّ الرّموز والإشارات الدّاخليّة في مجالات اللغة والتّعبير والفنّ، وبذلك اتخذت مكانًا متميّزًا في السّاحة النّقديّة الغربية، وأصبحت محلّ اهتمام بالغ من وجهة نظر الباحثين والنّقاد الغربيين، وكذلك العرب على السّواء منهم. وأمَّا عن نتائج البحث التي توصلنا إليها من خلال وقوفنا على جوانب السّيميائيّة، وأثرها في شعر الحداثة، فتتمثل فيما يلي:

1) السّيميائيّة كلمة عربيّة على الرغم من وجود اختلاف كبير في المصطلحات المتداولة والمعاصرة لتسمّية هذا العلم بهذا المصطلح، وجهود الباحثين لتحديد ماهيّة السّيميائيّة.

2) تعود الأصول الفكرية للسيميائية. كما ذكرنا من قبل لأصول الفكر اليونانيّ والإسلاميّ أيضًا. وللعرب القدماء متمثلين في المسلمين إسهامات جليلة في وجود وظهور السّيميائيّة؛ حيث وردت كلمة (سيما)، وبعض مشتقات هذه الكلمة في القرآن مقرونة بالمعرفة، وكما وردت أيضًا في الشّعر العربيّ.

3) تناول الكثير من علماء اللغة العربيّة الأوائل الموضوعات التي صارت تعرف اليوم بالمباحث السّيميائيّة، كأمثال (ابن سيناء، وابن خلدون، وعبد القاهر الجرجاني، والجاحظ)، وغيرهم الكثير ممّن كان لهم إسهامات كبيرة في مجال اللغة العربيّة.

4) مرّت السّيميائيّة بمراحل مختلفة ومتعددة من حيث وجودها التّاريخيّ، وأصولها وجذورها التّاريخيّة؛ حيث اختلطت السّيميائيّة بعلوم مختلفة كالتّاريخ وعلم النّفس والفلسفة، كما ارتبط أيضًا بعلم الطلاسم عند العرب القدماء وما شابه ذلك من السّحر وغير ذلك.

5) استعمل العلماء في هذا المجال عددًا من المصطلحات أهمّها: العلامة، والدّال والمدلول (الدّلالة)، والتّأويل، والمعنى، وغيرها في مجال تحديد مصطلح السّيميائيّة. اللسانيات جزء من السّيميائيّة، وذلك من وجهة نظر «فرديناند دي سوسير»، وبعض تلاميذه ممن سارعلى منهجه، بينما يرى البعض أنّ اللسانيات هي أصل السّيميائيّة وليست مجرد جزء منه كما رأى «دي سوسير»، وأنصار مدرسته. أمّا التّفكيك والتّركيب والتّحليل من مبادئ السّيميائيّة الأساسيّة والتي قامت عليها في الدرس الأدبيّ.

رجاء عبد العزيز شنو

الهوامـش

(1)سورة آل عمران، الآية (14).
(2) سورة آل عمران، الآية (125).
(3)ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثالثة ـ 1414هـ، (12/ 312).
(4) سورة الفتح، الآية (29).
(5) سورة البقرة، الآية (273).
(6) سورة الرحمن، الآية (41).
(7) عباينة، سامي،اتجاهات النقد في قراءة النّص الشّعريّ الحديث، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2004م، (ص308).
(8) عبد الله ثاني، قدور، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهرالإرساليات البصريّة في العالم، الوراق للنشر والتوزي، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 2008م، (ص67).
(9) بنكراد، سعيد، السيميائيات والتأويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، 2005م، (ص110).
(10) حمداوي،جميل، مدخل إلى المنهج السيميائي (بحث)، (ص64).
(11) المرجع السابق نفسه.
(12) مرتاض، عبد الملك، نظرية النّصّ الأدبي، (ص158)، بتصرف بسيط.
(13) المرتجي، أنور، سيميائية النّصّ الأدبي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987م، (ص3).
(14) دي سوسير، فرديناند، محاضرات في علم اللسان العام، (ص88).
(15) كامل، عصام خلف، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، بدون طبعة وبدون تاريخ، (ص18).
(16) أمبرتو،إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصّمعي، (ص43).
(17) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الدار (المتوفى: 471هـ)،أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، (ص42).
(18) آن إينو وآخرون، السّيميائيّة، الأصول، القواعد، التاريخ، ترجمةرشيد بن مالك، تقديم:عزالدين مناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (2008م)، (ص28ـ29).
(19) العراني، بن مسعود محمّد، تخوم الدلالة بين المحايثة والتأويل عند المناطقة العرب، مجلة سيميائيات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب، العدد الخامس، 2015م، (ص68).
(20) بنكراد، سعيد، السيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الثالثة، 2010م، (ص25)، بتصرف من الباحث لا يخل بالمعنى الأصلي.
(21) دي سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: صالح الفرمادي، وآخرون، الدار العربية للكتاب، بدون طبعة، سنة 1985م، (ص37).
(22) دي سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، (ص37).
(23) صدقه،إبراهيم، السّيمياء، مفاهيم، أبعاد، محاضرات، الملتقى الوطني الأول، السيمياءوالنّصّ الأدبي، (ص84).
(24) علاق، فاتح، في تحليل الخطاب الشّعريّ، جدار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 2008م، (ص95).
(25) بومعزة، رابح، الاتجاهات السّيميائيّة المعاصرة، محاضرات الملتقي الدولي الرابع السيمياء

والنّصّ الأدبي، (ص213).
(26) بوزوارة، حبيب، سيميائية الثقافة لدى جماعة موسكو، نارتر محاضرات الملتقي الدولي السابع، السيمياء والنّصّ الأدبي، (ص134).
(27) دروس في السيمياء، حنون مبارط، (ص85).
(28) راشد، أمينة،السيميوطقيا مفاهيم وأبعاد، مجلة فصول، المجلد الأول، تصدر عن الهيئة العامة المصرية للنشر، العدد الثالث ـ أبريل، بدون طبعة، 1981م، (ص52).
(29) بومعزة، رابح، الاتجاهات السّيميائيّة المعاصرة، محاضرات الملتقي الدولي الرابع السيمياء والنّصّ الأدبي، (ص213).
(30) الأحمر، فيصل، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، العاصمة، الجزائر، 2010م، (ص101).
(31) منقور، عبد الجليل، المقاربة السّيميائيّة للنصّ الأدبيّ، أدوات ونماذج محاضرات الملتقى الوطني الأول، (السّيميائيّة والنّصّ الأدبي)، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001م، (ص61)، بتصرف من الباحث.
(32) ابن منظور، لسان العرب، (11/ 695ـ696).
(33) فوزي، مفيد، نزار وأنا... أطول قصيدة اعتراف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، الطبعة الأولى، 1998م، (ص43).
(34) مصطفى، نوال، نزار... وقصائد ممنوعة، مركز الراية للنشر والإعلام، 1998م، بدون طبعة، (ص90).
(35) المرجع السابق نفسه، (ص91).
(36) المرجع السابق نفسه، (ص92ـ93).
(37) المرجع السابق نفسه، (ص94).

المصادر والمراجع:

1ـ ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة،لبنان بيروت، 1414هـ.
2ـ ابن مالك، رشيد، السّيميائيات السّرديّة،دار المجدلاوي، الطبعة الأولى، الأردن ـ عمان، 2006م.
3ـ أدونيس، الثابت والمتحول (بحث في الاتباع والإبداع عند العرب)، الجزء الثالث، دار العودة، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 1978م.
4ـ الأزهري، محمّد بن أحمد بن الهرويأبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيقمحمّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 2001م.
5ـ إبراهيم، جودت، الحداثة الشّعريّة والنّصّ الأدبيّ،النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد السّابع، 2009م.
6ـ إيكو، أمبرتو، السّيميائيّة وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعزي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2005م.
7ـ الأحمر، فيصل، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى،الجزائر،2010م.
8ـ آن إينو وآخرون، السّيميائيّة، الأصول، القواعد، التّاريخ، ترجمةرشيد بن مالك، تقديم عز الدين مناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،2008م.

9ـ بحروي، محمّد إقبال، السّيميائيات وتحليلها لظاهرة التّرادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، مج24، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، بدون طبعة العدد الثالث، يناير، مارس 1997م.
10ـ بارة، عبد الغني، إشكاليّة تأصيل الحداثة في الخطاب النّقديّ العربيّ المعاصر، (مقاربة حواريّة في الأصول المعرفية)، بدون طبعة، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2005م.
11ـ بنكراد، سعيد، السّيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها)، دار الحوار للنشروالتوزيع، الطبعة الثالثة سوريا، 2010م.
12ـ بورس، ش.س، السّيميائيات والتّأويل مدخل لسيميائيات، سعيد بنكراد، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
13ـ بنكراد، سعيد، السيميائيات والتّأويل، المركز الثقافي العربيّ، الطبعة الأولى، المركز الثقافيّ العربيّ، 2005م.
14ـ بيرنار، توسان، ترجمة محمّد نظيف، ماهية السّيميولوجيا، إفريقيا المشرق ـ المغرب، 2000م.
15ـ تشاندر، دانيال، ترجمة طلال وهبة، أسس السّيميائيّة، تحقيق ومراجعةميشال زكريا، المنظمة العربيّة للترجمة، الحمراء، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 2008م.
16ـ ثامر، فاضل، جدل الحداثة في الشعر، سلسة (1)، الشعر ومتغيرات المرحلة: حول الحداثة وحوار الأشكال الشّعريّة الجديدة، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، 1986م.
17ـ جيدة، عبد الحميد، الحداثة في الشّعر العربي المعاصر بين التّنظير والتّطبيق، الكتاب الأول، دار الشمال للطباعة والنشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، 1988م.
18ـ الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (المتوفى: 816هـ)، كتاب التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 1403هـ ـ1983م.
19ـ الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الدار (المتوفى: 471هـ)، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
20ـ الجبوري، محمّد فليح، الاتجاه السّيميائي في نقد السّرد العربي الحديث، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2013م.
21ـ الزمخشري،أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (المتوفى: 538هـ)، أساس البلاغة، تحقيقمحمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 1419 هـ ـ 1998م.
22ـ دي سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمةصالح الفرمادي، وآخرون، الدار العربيّة للكتاب، بدون طبعة، 1985م.
23ـ الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التّراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمّد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، بيروت ـ لبنان، 1426 هـ ـ 2005م.
24ـ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السّامرائي، مكتبة الهلال.
25ـ قاسم، سيزا، السّيميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد، ضمن كتاب أنظمة العلامّات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السّميوطيقا، ونصر حامد أبو زيد، الطبعة الأولى، دار إلياس العصريّة، مصر ـ القاهرة، 1987م.

26ـ القرني، عوض بن محمّد، الحداثة في ميزان السلام، دار هجر للطباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، مصر ـ القاهرة، 1988م.
27ـ عباينة، سامي، اتجاهات النقد في قراءة النّصّ الشّعريّ الحديث، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، الأردن ـ إربد، 2004م.
28ـ العراني، ابن مسعود محمّد، تخوم الدلالة بين المحايثة والتأويل عند المناطقة العرب، مجلة سيميائيات مختبر السّيميائيات وتحليل الخطاب، العدد الخامس، 2015م.
29ـ عمر، أحمد مختار عبد الحميد (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1429 هـ ـ 2008م.
30ـ عدنان علي رضا النّحوي، نظريّة تقويم الحداثة، دار النّحوي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1992م.
31ـ عامر، رضا، سيمياء العنوان في شعر هدي ميقاتي، جامعة ميلة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، الجزء الثاني، 2014م.
32ـ عبد الله ثاني، قدور، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليّات البصريّة في العالم، الوراق للنشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، الأردن ـ عمان، 2008م.
33ـ علاق، فاتح، في تحليل الخطاب الشّعريّ، جدارالتنويرللنشروالتوزيع، الطبعة الثانية،الجزائر،2008م.
34ـ كامل، عصام خلف، الاتجاه السّيميولوجي ونقد الشّعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، بدون طبعة وبدون تاريخ.
35ـ المسدي، عبد السلام، النقد والحداثة (مع دليل بليوغرافي)، دار الطليعة للنشر، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 1983م.
36ـ المرتجي، أنور، سيميائية النّصّ الأدبيّ، إفريقيا الشّرق، الطبعة الأولى، المغرب ـ الدار البيضاء، 1987م.
37ـ مرباط، عبد الواحد، السّيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، لبنان ـ بيروت، 2010م.
38ـ مفتاح، محمّد، سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دارالثقافة للنشروالتوزيع، بدون طبعة، لبنان ـ بيروت، 1989م.
39ـ مصطفى، نوال، نزار... وقصائد ممنوعة، مركز الراية للنشر والإعلام، بدون طبعة، 1998م.
40ـ اليوسفي، محمّد لطفي، البيانات، دار سراس للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 1993م.

الآيات القرنيّة:

ـ سورة آل عمران، الآية (14).
ـ سورة آل عمران، الآية (125).
ـ سورة الفتح، الآية (29).
ـ سورة البقرة، الآية (273).
ـ سورة الرحمن، الآية (41).

السلطة السياسية، والعلاقات الإنسانية المتشظية
مشاهد بصرية يلتقطها سمير الشريف في مجموعته القصصية (مسا... فات)

ذكريات حرب

إذا كانت الرواية وليدة بعض الطبقات البرجوازية، والقصة استجابة للطبقات العاملة المأزومة، فإن القصة القصيرة جدًا مُلبية لمتطلبات العصرنة، وسطوة التكنولوجيا، والتقدم التقني، والمواقع الإلكترونية، وعزلة النفس في ظل انقلاب الموازين، وانهيار بعض المنظومات الفكرية، والتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومعايير حديثة للتخلص من الموروثات الكتابية التقليدية، رغبة في تجديد الأذواق، فالتجريب سمة الأزمنة، وخرق للمألوف، وانزياح عما هو سابق له، فالفنون الأدبية كانت دومًا عبر العصور تمثل خرقًا لكل ما هو مألوف، وابتكارًا لأشكال جمالية جديدة.

لذا؛ فإن القصة القصيرة جدًأ إحدى تجليات القصة القصيرة التي تندرج ضمن جنس عام نثري قصصي، متميزة بالقصر، والإيحاء المكثف، والمفارقة المدهشة، وتتفق مع القصة القصيرة بالحدث القصصي، والتكثيف، والمفارقة، وبعض التقنيات الخاصة باللغة، والعلاقة بينهما ليست تبعية، وتقاربها مع فنون أخرى لا يعني أنّها لا تحتفظ بتمايزها، فقد تُنبئ بمستقبل مُغدق بكتابات إبداعية، لا سيما أنّها تحقق حضورًا بإمكانياتها التعبيرية والجمالية الخاصة بها.

وعلى الرغم من حضورها اللافت في المشهد الثقافي، إلا أنّ القصة القصيرة جدًا لا تزال تثير جدلًا واسعًا بين النقاد، فهناك من يرفضها رفضًا قاطعًا، وهناك من يتحمس لها، مُعللًا أنّها نوع أدبي، وهي مستقلة بأركان تميزها عن الأنواع التي تنضوي تحت جنس النثر الحكائي؛ كالقصة والرواية، وهناك من لا يزال ينظر إليها بريبة خوفًا على السرد الحكائي.

من القاصين الأردنيين الذين يرون في هذا الفن إيقاعًا يناسب عصرنا سمير الشريف الذي يؤكد أنّ القصة القصيرة جدًا وصلت لنا من خلال التوقيعات التي كانت تستخدم في الدواوين، وأصبحت حديثًا يشار لها بالأبيغرام الذي كان يعرف بالنقش على الحجارة.

القاص الشريف الذي أصدر مجموعته الرابعة بعنوان (مسا...فات) 2018 ـ الناشر وزارة الثقافة ـ والتي تحتوي على سبع وثمانين قصة قصيرة جدًا، يلتقط أكبر

قدر من القضايا التي نعيشها، بلغة مشهدية مكثفة، وتفصيلة إنسانية، مستعينًا بتقنيات متعددة مثل؛ التناص، والأنسنة، والترميز.

مع العتبة النصية التي حملت امتداد (الزمكان)، نجد أنّ جُل العناوين في المجموعة لم تخرج عن ظلال الفقر، والتعب، والدموع... وكل ما يحمل من مرادفات لمشاعر حبيسة مقهورة، راغبة في التمرد حتى ولو في الأحلام؛ لذا فإن القاص جسد مفردة (الفقر) في أكثر من قصة لكن برؤى متعددة، كما في (قهر): "ندّت من فم الطفل صرخة مكتومة، ووالده يضغط بكفه الكبيرة على يده، يجره من أمام المحل الذي تتزين واجهته بالألعاب دون أن ينتبه الطفل للدمعة التي انطلقت من عيني الأب محاولًا إخفاءها." ص64. و(فرح): "الطفل الذي وقف وحيدًا يوم العيد، عاد للبيت، رسم طفلًا على الحائط يحلق عاليًا فوق أرجوحة، تغمره الفرحة." ص69. ليثير قضية الفقر الذي يقتل الفرح في قلوب الأطفال، والذي تخلفه الأوضاع السياسية بطبيعة الحال.

أمّا المرأة ـ الحلم، فنقرأ قصة (رفض): "المرأة التي أكتبها لم يعجبها حال النص المائل، تمردت، صرخت، وقفت محملقة بعيون تنفث غضبًا. سمعتُ الكثير من تقريعها قبل أنّ تنسلَ من بين الحروف وتمسك بالقلم وتكتب نهاية تليق بها." ص21. و(هوس): "جُنّ الكاتب الذي أضاع فكرته، ارتبك، عبس في وجوه من حوله، وما درى أنها هربت حتى لا يسجنها في نصه الجديد.."ص38. وفيها ترتيب الحياة المرأة الحلم كما يشتهي الحالمون الكُتاب.

السلطة ـ الإنسان علاقة تبعية واضحة في (مسا...فات)

الاستهلال كان لافتاً في قصة (معارضة): "خرج من السينما المتهالكة جدرانها، زحمه البول، لم يجد غير الجدار المعتم مُلطخًا بإعلانات الناخبين، احتار على من يبول، لم يتمالك نفسه وهو يطرطش الجهات الأربع، ابتسم مرتاحًا وهو يجرب اللعبة من جديد.."ص5، ليكون الختام مع قصة (غروب) التي جاءت نتيجة حتمية للمعارضة عندما نقرأ: "اقترب العجوزان يلملمان أيام العمر الغابر، قربت فمها من أذنه.. تنهّد... رنا للجدار الذي يزدهي بصورة الشهيد مُتحسسًا راتب التقاعدي الذي لا يحمله لمنتصف الشهر ومحصّل الكهرباء يطرق بوابة الحوش بصوت عالٍ." ص92، وهو الحال الذي تعيشه المنطقة العربية من اضطهاد سياسي، وفساد ينخر في الروح، فإذا كانت المعارضة جاءت على شكل (البول) لعجزنا السياسي في مواجهة الرؤوس الكبيرة ـ السلطة، فمن المؤكد أن غربتنا في وطننا ثمن لصمتنا المطبق.

المنظومة السياسية بين السلطة ـ المواطن تتنوع عند سمير الشريف الذي حرص على قراءة المشهد السياسي بأبعاد متدرجة، فبعد (معارضة) تأتي قصة (تعب) ـ الوصول إلى السلطة: "وقف يسترد أنفاسه بعد مشوار قصير، نظر لظله الممتد، ضربه برأس عكازه الهرم، وصله صوت احتجاج ارحموا عزيز قوم ذل.. "ص6، ولتشق السلطة طريقها لا بد أن تمتد حبائلها بكل أشكالها في (عسس): "تحسس كاتم الصوت

بيد باردة. أصاخ السمع عله يصل لهمهمات النائمين في أحلامهم" ص43. وفي الوقت نفسه، تؤكد حضورها في كل حين كما في (استفتاء): "سكب على كفيه أفخر عطر، مسح رقبته قبل أن ينظر في المرآة بزهو، هاله فرار الناس من حوله مكممين أنوفهم.." ص63.

ويعيد الشريف مفهوم السلطة المنتفعة من أقوات الشعب، كما جاء في قصة (انتماء): "أمر سائقه الشخصي أن ينتظره ريثما يستلم مستحقاته من المعونة الوطنية" ص11، ولا تتورع بإظهار الشفقة على كائنات أخرى، لتدل على وعيها التام في كل الشؤون وشفافيتها كما في (إنسانية): "راجع تقارير تفتيت البلاد وزرع الفوضى وتقويض الدول سريعًا ليلحق بمؤتمر الرفق بالحيوان."ص10. في المقابل فإن السلطة لن تقف مكتوفة الأيدي أمام من تسول له نفسه أنّ يكون وفيًا للوطن كما في (مكافأة): "أنهت اللجنة تقريرها بعد ضبط مخالفات المصنع. تنهد الجميع ارتياحًا لإنجاز المهمة، انتظروا كتاب الشكر، صباح اليوم التالي جحظت عيونهم وهم يتسلمون أوراق الاستغناء عن خدماتهم."ص47. ولم يغفل الشريف السلطة الدينية كما في (براءة): "تنحنح، حك لحيته الخيط على صفحة وجهه وهو يدلي ببيانه الصحفي: بعتُ على إشارات المرور، جمعت العلب الفارغة، تاجرت بالكتيبات والمساويك، وزجاجات العطور على أبواب المساجد بأثمان مضاعفة، فهل أكون مارست التجارة بالدين؟ص16.

في المقابل، فإن المواطن عند القاص الشريف لم يكن أكثر من أداة لتثبت السلطة، ففي (صفقة): "استيقظ مذعورًا على لكمة كوع زميله متألمًا ـ مش انا سيدي... عندما أفاق تمامًا بعد الضربة الثانية رفع يده مرددًا: موافق... موافق"ص60. وهناك من يحلم برضا السلطة كما في (توازن): "يتسلل في ساعات النهار لصفحة المخبر معجبًا ومُعلقًا، يفعل ذلك تمامًا في موقع المعارضة عندما يتنفس الصبح"ص54. وهناك من يقف صامتًا أمام من يسرقه كما في (إعياء): "عاد من عمله يتأرجح تعبًا، مشّط بعينيه كوكبة الناس الذين تجمهروا. سأل بحركة من رأسه.. تبرع أحدهم صارخًا: سارق النهار يوقع الحد على سارق الليل.."ص7.

لا بد إذًا في آخر الأمر أنّ نصل إلى حالة من (ثغاء): "يحدث أنّ نوفر التذكرة من أثمان السجائر، ونجلس في الصفوف الأخيرة ويختفي الممثلون، ويعتلي المخرج المسرح عاريًا يحدث أنّ تضج القاعة، ويلعلع جرس المرياع، ونتحول إلى موجة من ثغاء.." ص33، ولا ضرر انّ نبكي قليلًا على أمجادنا السابقة، وتضحياتنا التي انتهت إلى اللاعودة كما في (محاكمة): "صرخ الفتى بوجه والده المعلق في إطار: صدئت بنادقنا التي اشتريت، ولم يبق الذئب على أحد من خرافنا."ص49.

وعلى الرغم من محاولة الشريف إيقاظ روح الوطن في حنايا الإنسان من خلال (تأريخ): نهار / داخلي (داخل بيت المال)

غضب السلطان بمكر عندما أسرّ له أمين الخزينة أنّ موجوداتها لا تكفي رواتب الجند وأعلن بحزم: تعودت رعيتنا، لا مناص من الرفع.

(مجلس الحكم، السجاد الوثير، الطنافس الثمينة والأثاث الذي يذهب بالعقول).

تقدم أمين الخزينة من السلطان: مولاي، تشير التقارير.

اكفهر وجه السلطان وارتسم على محياه الغضب قبل أن يجأر: لم تحفظوا الدرس.

- هنالك تململ قد يخرج عن السيطرة.

- ماذا فعلتم أول مرة؟

- سحلناهم يا مولاي دون أن يشعر بهم وبنا أحد.

- أوجدوا مناصب لكل منهم واصرفوا لهم ما يليق.

حركة الكاميرا في لقطة close up تستعرض الوجوه... تلاشٍ وإظلام.. موسيقى الإشارة.."ص81.

إلا أننا بقينا كما نحن دون تغيير، بل الخيانة تجري في العروق؛ ولذا فإن العلاقة بين السلطة والمواطن ـ الشعب هي تبعية أدت في آخر الأمر أنّ نكون غرباء في أوطاننا.

جاءت المشاهد السياسية معتمة، غارقة في سلبية المواطن وصمته المطبق الذي في أغلب الظن لم يعد كذلك بعد 2011، ولو كان التغيير ضيقًا جدًا.

العلاقات الإنسانية وتداعياتها

إذا استثنينا النصين التاليين المنتميين إلى المناجاة وهما؛ (جدوى) و(صراخ)، فإن العلاقات الإنسانية المتشظية عند الشريف تجلت في أكثر من صورة أولاها مع نفسه ـ الأنا (مواجهة): "مررتُ بي لحظة، قلت لي: كيفك يا أنا؟ تطلع بي مستغربًا ثم تركني ومضى"ص13، وهي ثيمة نجدها عند معظم القاصين، يحاولون فيها العودة إلى دواخلهم وسط الضجيج والحياة الصاخبة التي تدنو إلى الخراب.

وفي غياب العلاقات الأسرية نقرأ (وحدة): "الرجل المُثخن بوحدته ظل يرقب الجموع في الحديقة العامة، وبين لحظة وأخرى يحمل هاتفه المغلق ويصرخ بصوت عالٍ.."ص56. والعلاقات الأسرية الممزقة (ورطة): "المرأة الجديدة وضعت على صفحتها صورة مراهقة. ألصقت باسمها كل صفات الإبداع وغرقت في مغامراتها مطمئنة لجهل زوجها بتقنيات العصر، ابنها الذي وصل لكلمة سرها ركبه الذهول وهو يفكر كيف يوقف المأساة.."ص18. والعلاقات الإنسانية كما في (دعاية): "تقدم الصفوف ليصلي على جنازة خالته، تمتم طويلًا ثم استدار: ما اسم المرحومة..؟"

وفي (بُقع): "المانيكان التي سئمت نظرات الرجال والوقوف أمام الواجهة الزجاجية وكلح لونها وتجذر فيها إحساس أنّ قطار الزواج غادر محطتها. هجمت على عامل النظافة بقوة لم يستطع الزبون ولا صاحب المحل تخليصه إلا بعد أنّ تركت على جسده بقعًا زرقاء وعويل صراخ يملأ جنبات المكان"ص83، وهنا يلتقط القاص حال فتيات كثيرات يعانين من وحدتهن. كما في (صحو): "غدًا لا بد آت، السيارة، البيت الواسع، ضجيج الأولاد، النقاشات الحادة على توافه الأمور، غدًا أودع نظرات نساء الإخوة المتشفية، وحقدهن الدفين، غدًا.

تكون شهادتي العليا وما جمعته من رواتب وميراث حوافز لل... غدًا.. صحت على رنين هاتفها يعلن وصول رسالة جديدة.." ص36. وفي (مواسم): "في كل ليلة تضيء أرواح المعجبين بكتاباتها، في آخر السهرة تتحسس ندوب وجهها التي تحول دون لقائها بأحد وتغرق في بكائها المر.."ص35. وأرملة أصبحت مطمعًا لكل من حولها كما في (تمرد): المرأة التي مات عنها زوجها واحتضنت فراخها وظلت صابرة تتلقى الصدقات... وقفت أمام المرآة تستجدي انتهاء العدة." ص86.

وفي مشهد غير مرئي للكثيرين، ننصت إلى أجمل السيدات في (مكابرة): "تماسكت لآخر رمق أمام الناس والميكرفون والكاميرا وهي تصدح بزغاريدها مودعة ابنها، لكنها اختلت بنفسها في العتمة تتلمس صورته كاتمة شهقاتها. تاركة لطرف منديلها أن يمتص أمطار عينيها.."ص41. وحلم لم يكتمل لمناضل كما في (دروس): "في درس النضال الأول استحضر خارطة الإنسانية. بعد أن ابيضّ شاربه تقلصت الخارطة لعالمه العربي، ما إنّ أصبح العكاز رفيقه حتى مُسخت الخارطة لخيط يمتد مسلولًا بمحاذاة البحر، يلملم جراحه ويرسم في خياله قاربًا يغص بالهاربين." ص22.

وحلم الغريب للموت في أرضه كما في (شهيق): "تكوّم جدي بأعوامه التسعين متلاحق الأنفاس، عيناه شاخصتان إلى بلاد تنام على سيف البحر، وقميص شهيد يشم رائحته كلما لسعه الحنين. قبل أن يمارس الشهيق للمرة الأخيرة." ص42.

وفي ظل التنمر على الأطفال، نقرأ قصة (بنشر): " الصبي الذي يحرمه رب العمل من أجرته، قرر أنّ يستغل غياب الرئيس ويزرع الساحة بالمسامير..."ص71. وأمنيات المتسولين (لُعاب): "أمام عربة الحلوى، مضغ المتسول أمنياته المهاجرة.." ص20. وحقوق الوافدين العاملين الذين تركوا أوطانهم بحثًا عما يسد رمق أطفالهم في (مبدأ): "سلّم من صلاته عجلًا، وقف أمام الوافد الذي أتم عمله، مد يده المرتجفة يناوله أجرته، استفسر العامل مستهجنًا خصم نصف المبلغ، أجابه بصلف: رُبع المبلغ لأنني لم أبلّغ عنك، وأنت بلا تصريح، والنصف الثاني حلوان فيلتي الجديدة.." ص30. و(حقوق): "مُكبر الصوت يهدرُ مؤكدًا على حقوق المرأة، أم أحمد تنتظر بباب المؤسسة مَن يمد لها يد العون.." ص87. و(رصيف): "ارتبكت الطفلة التي داهمتها المظاهرة ولم تدر أين تخبيء أشياءها التي تبيعها على الرصيف." ص39، وهي القصة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة (مظاهرة). وفي (لو): "ظلت تتمنى أنّ تدهمهما سيارة معًا حتى يلتصق جسداهما مرة ولو في نفالة موتى" ص89، حكايات الكثيرين التي نصادفها كل يوم.

وفي مشهد يزخر بحالة إنسانية موجعة، نقرأ في (استكشاف): "من خلف الطاولة، راقه هدوء ملامحها والتماعة سرية تنوس في عينيها، ظل يؤخر دوره استمتاعًا مما يرى نهاية الدوام، هاله أن تنحني على عكازتين تستعين بهما على شلل ساقيها." ص9. وفي (نسيان): "أمام لوحة الأحذية

التي فقدت أقدامها، لم ينتبه أحد للتي مسحت دمعها بإباء." ص55، يحيل القاص المتلقي لمشهد مؤلم يحمل دلالة اللغم الذي انفجر تحت قدميها.

تقنيات الأنسنة والتناص في (مسا... فات)

تتمايز القصة القصيرة جداً بالتقنيات التي يوظفها القاص لبلورة رؤيته الإبداعية من جهة، وتجسيد المشهد القصصي بما يمنحها عمقًا ودهشة، ودلالات مضمرة يحاول المتلقي من خلالها أنّ يبحث فيما وراء النص من جهة أخرى، واستخدام تقنية ما تعمل على تحفيز خصوصية الحبكة لتزيدها تأملًا وتاويلًا. وتأتي تقنية الأنسنة من التقنيات التي يستخدمها القاصون لإضفاء الصفات الإنسانية على ما هو ليس ذلك، حاملة دلالات إنسانية معبرة، فهي بمثابة عوامل سيميائية فاعلة في مسار الحدث القصصي بأبعادها ومرجعياتها.

على الرغم من أنّ القاص الشريف نأى عن السرد الحكائي ـ وهذا يجعلنا ننظر بعين الخوف والريبة، فالمجموعة أقرب إلى القصة الومضة ـ إلا أنّه لجأ إلى تقنية الأنسنة ليحيل الأشياء ـ الجمادات إلى حركة محسوسة كما في (محاولة) التي حملت دلالات سياسية: "ظل الغصنان يحاولان أن يتصافحا في الأعالي، غير أنّ مخبرًا أمعن في قصهما شكًا في ذلك اللقاء المريب." ص24. و(ارتباط): "لا تبتعدي عزيزتي. إحساس جارف بالفراغ يحتويني بعيدًا عنك.. همس فنجان القهوة وهو يزحف نحو الدلة التي تعبق برائحة الهيل." ص45. وفي (رأي): "خاطبت السمكة جارتها التي تقافزت فرحًا وهي تنظر إلى الجثث التي يحملها البحر... ياصديقتي، دعيهم يفرحون بنصرهم." ص91. وكما في (تحذير): "لعقت البقرة وجه وليدها بحنو هامسة... لا تنخدع بعنايتهم الزائدة، فحليبي ولحمك هدفهم المنظور.." ص25. وقصة (أمنية): "يحدث أن يتأخر عامل النظافة، علبة العصير الفارغة تتنهد مقهورة على قارعة الانتظار، تتمنى أنّ يأتيها ذلك العجوز قبل حلول الظلام ويضمها لمملكته." ص52. وتقنية الحوار الذي دار بين الجدار والمسمار في (مثل): "قال الجدار للمسمار: لِمَ تشقُني؟ قال: سلْ من يدقني." ص34.

أمّا الهراوة التي ترمز إلى الكثير من التجليات السياسية كما في الثورات والسجون والمعتقلات، فقد كان لها أيضًا مكانة في المجموعة بعنوان (غضب): "أضربت الهراوة عن العمل: لماذا لم تصنعوا مني كمانًا كما فعلتم بأخي." ص77.

وجاءت تقنية التناص الأدبي في قصة (اعتراض): "تجمع المثلون على الخشبة يحيون جمهورهم الذي صفق لهم بإعجاب، قبل أن تتحرك ستارة الإغلاق، ظهر شكسبير محتجًا: لقد شوهتم نصي.."26

أمّا تقنية الترميز، فنجدها في (تمثال): "التمثال الذي دبت فيه الحياة كان مختلفًا، صرخ.. مدّ أصابعه مقتلعًا شعر رأسه، محتجًا على الفيتو الأخير". ص66.

ذكريات حرب

مُـقـتَضِياتُ الصورة الفنية
في رواية (مدن الملح) لـ عبدالرحمن منيف
مقتضى الحال/ السياق

عبد الجبار شيخو

تقديـــم

إذا كانت البلاغة هي "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[1] فإن هذا بالضبط ما سيدور حوله موضوع هذا البحث، الأمر الذي يحتم علينا في هذه الحالة ملاحقة ومعالجة نماذج من الصورة الفنية، واستنباط ما خفي وراءها من بدائع الجمال والإيحاءات ومدى ملاءمة الصورة لما أسميناه (مقتضيات الصورة الفنية).

ولكنَّ فعلَ هذا في مدن الملح يختلف عن فعله في غيرها من فنون الأدب، كالشعر والخُطب مثلاً؛ ذلك أن الرواية عموماً فنٌّ أدبي يتناول قصص وأحداث لشخصيات يريد الكاتب لها أن تكون حقيقية؛ لذلك نراه يسعى جاهداً أن يكون السرد المتعلق بها والحوار الدائر فيما بينها أقرب ما يكون لما يحدث من سرد وحوار بين شخصيات الواقع، وعلى وجه الخصوص طبيعة السرد والحوار اللذين يحيطان بالمؤلف من جهة والبيئة الاجتماعية والجغرافية التي اختارها الكاتب للشخصيات من جهةٍ أخرى، لذا نرى أن الكثير من الصور التشبيهية أو الكنايات بسيطة، لا تحتاج فكرَ متدبرٍ ليصل إلى فحواها، نستثني من ذلك تلك الصور التي يقضيها حالٌ من الأحوال، أو تأتي لتكون مناسبةً لطبيعةٍ حوارية أو سردية أو زمانية أو مكانية معينة.

ويُنبئ ما قدمنا من اعتمادنا في ربط الصورة بما حولها من جوٍّ محيط وبالمؤلف وأحواله، أننا نتبنى نظرية الانعكاس الماركسية التي مفادها أن الصورة في الأدب ما هي إلا انعكاس للواقع ونبتعد كل الابتعاد عن مبدأ موت المؤلف؛ لأنا نؤمن حقيقةً أن ما يوجِده أيُّ فنانٍ ما هو إلا حالةُ تشبُّعٍ لَمَا مرَّ عليه في الواقع، فيقوم ذهنه بمعالجتها وإخراجها بطريقةٍ ملائمةٍ لفنِّه وإبداعه وطابعه الخاص من جهة، وللمتلقي من جهة أخرى.

من هنا فإن صعوبة المسعى الذي نسعاه تظهر واضحة جلية؛ فتتبع صور فنية في رواية يبلغ عدد صفحاتها على ألفين وخمسمئة وتطبيق الدراسة التي نريد عليها أمراً يتطلب منا الوقوف عند العديد

من الصور، والتدقيق فيها؛ والسبب في ذلك مرده إلى أن بعض الصور قد تصدر عفو الخاطر عن المؤلف، والبعض منها يكون مقصوداً؛ موضوعاً لغرضٍ ما، يتطلَّبه الموقف الأدبي الذي يصنعه المؤلف للشخصية أو مكانها أو زمانها، أو بقصد بناء الموقف الأدبي بحدِّ ذاته.

وهذا سيدفعنا بالضرورة إلى إعمال يدِ الانتقاء والاختيار من بين الصور في كل جزء من الأجزاء الخمسة ما يخدم مبتغانا؛ للوصول إلى أحكام نقدية عامة يمكن أنْ نسِمَ بها صورَ عبد الرحمن منيف في مدن الملح.

وستتمحور دراستنا في هذا البحث حول مقتضيات الصورة الفنية (مقتضى الحال/ السياق) مع العلم أن هناك مقتضيات تبلغ من الأهمية مبلغ موضوع دراستنا ـ الشخصيات والمكان ـ لكن الهدف الذي نريده هو إثبات قضية المُقتضى التصويري.

مقتضى الحال/ السياق

و"مقتضى الحال هو ما يدعو إليه الأمر الواقع، أي ما يستلزمه مقام الكلام وأحوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص، ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين، واعتبار طبقاتهم في البلاغة، وقوتهم في البيان والمنطق"[2] وبعبارة أخرى هو: "كيفيةٌ كلامية يعرفها المتكلم، ويعرف الحال التي تقتضيها عند المخاطب، وتبقى في ذهنه في صورة فكرةٍ كامنةٍ وتصوُّرٍ عقلي، حتى إذا جاءت الحال التي تقتضيها أثناء التخاطب أخرج كلامه وفقاً لها وقانونها العام: لكل كلمة مع صاحبتها مقامٌ"[3].

وفي هذا المعنى يقول الجرجاني: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيلُ التصوير والصّياغة، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيلُ الشيء الذي يقع التّصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أن محالاً إذا أنت أردت النّظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضّة الحاملة تلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزيّة في الكلام، أن تنظر في مجرّد معناه"[4].

وتبعاً لهذا نبدأ مسيرتنا الأولى مع التيه، ذلك الجزء من الرواية الذي يتحدث في صفحاته الأولى عن الصورة النقية البسيطة والخيالية في آن لوادي العيون وأهله الذين أخذوا صفاتهم الخَلْقية والخُلقية عنه، قبل أن تعبث عدوى النفط بالوادي وأهله يقول: "نتيجةً لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد شديدة الظهور، فهم أميل إلى الطول، مع اتساق في العظام. أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف، حتى ليظنُّ من ينظر إليهم وكأنهم مجموعةٌ من الخيول التي طال ترويضها وإتعابها، فضمرت أكثر ما ينبغي، لكن ظلت قوية مفتولة وجميلةً أيضاً"[5].

لدينا تشبيه تمثيلي فيه المُشبه أهل وادي العيون نحيلو الأطراف والخصور،

المشبه به مجموعة من الخيل، أداة التشبيه كأن، وجه الشبه نحول الجسد الناتج عن الجهد وكثرة التعب.

سنلاحظ فيما يلي أن تشبيه أهل وادي العيون بالخيول بالصفات المذكورة كان في مكان مناسب جداً لمقام الوصف الهادئ والقوي للوادي؛ فهذا الاستشهاد مسبوق بحديث ضمن عشر صفحات عن وادي العيون والحياة فيه ومدى تأثيرها في قاطنيه، أي أن جُل الكلام السَّابق كان عن طبيعة الوادي وما يتعلق به من أحياء وجوامد، وعندما خلُص عبد الرحمن منيف إلى بيان الشكل الجسدي لبدو وادي العيون لم يكن بمقدوره الابتعاد كثيراً عن الطبيعة، وعن النمط الوصفي الذي كان يسوقه عن الوادي، فعمد إلى إيجاد نقطة وصل تربط بين الطبيعة الموصوفة بأوصاف معينة والبشر فكانت الخيل هي ذلك الجسر.

ولاحظ معي هذا الاختيار للخيل هنا واربطْه مع ما تقدم من وصف للوادي ستجد تشابهاً بين الاثنين، فكل من الخيل والوادي يحمل صفة الأصالة والعراقة، وكل منهما يتصف بالقوة والتحمل والصبر أيضاً؛ إذ إن هذه الصفات كثيراً ما سمعناها عن الخيل، أما هذا الوادي فكيف لا وقد بقي صامداً أمام ما حوله من رمال وحرارة حارقة وأوقات طويلة من انقطاع للقَطْر؛ أضف إلى ذلك أن هذا الكلام قد سبقه وصف بصورة مباشرة عن قوة الوادي وقوة أهله عندما تحدث الكاتب عن الرهانات القديمة وذبح الجمل فجراً، يقول: "خلال فترة قصيرة يتحول الوادي إلى خلية من النشاط والحركة. إنها حركة من نوعٍ خاص، فيها القدرة على البقاء والتحدي واصطناع الأسباب لمقاومة الفقر والأحزان"[6]. أضف إلى ذلك أيضاً أن الوادي والخيل كلاهما موصوف بالجمال، فكل الحديث في الصفحات العشر الأولى للوادي حديثٌ جمالي نابعٌ من ارتياح نفسي للكاتب ورضىً عن الصورة التي كان عليها الوادي قبل انتقال عدوى النفط إليه، والخيل وُصِفت بالجمال صراحة في الاستشهاد المدروس؛ على هذا نصل إلى أمرٍ مفاده أن أهل الوادي مثله؛ ذلك أن هؤلاء يشبهون الخيل، والخيل كما ذكرنا تشبه وادي العيون، بالتالي " أهل وادي العيون مثله تماماً. نسيجٌ خاصٌ من البشر والنقائض. مزيجٌ من الوداعة والجنون. الشراسة والحب الإلفة والعنف والمشاكسة"[7] لكن رغبة من الكاتب في إضفاء ملمح جمالي اختار عنصراً من عناصر البيئة البدوية ليشبه أهل الوادي به، رابطاً بين هذا العنصر والوادي بصورة غير مباشرة.

ويستمر الكاتب في الحديث عن الوادي في فترة ما قبل النفط، ويتتابع الحديث عن الأصالة فيمر الكاتب على ذكر آل العون، فكان من الطبيعي عند وصفهم أن يشبههم الكاتب بشيء له علاقةُ مناسبَةٍ وارتباط بأصالة الوادي، فكان التشبيه بالنخل هو الأنسب، يقول: "وآل العون، ومنهم جازي الهذال،

وقبله أبوه متعب، انزرعوا في هذا المكان كأشجار النخيل ..."[8] وضرورة وجود هذه الصورة ضرورةٌ مربوطة بمستوى الكلام على وادي العيون، إذاً فالبعد النفسي للوادي المنعكس في صميم أفكار عبد الرحمن منيف في هذه المرحلة تستدعي منه نمطاً كهذا النط من التَّصوير الباعث على الاعتزاز والفخر بالأصالة والنقاء.

تنبيك عن مدى اقتراب هذا المُفترض الذي نذهب إليه من الحقيقة ـ تلك الاستعارات التي سبقت هاتين الصورتين التشبيهيتين، كما في قوله متحدثاً عن القافلة عندما تقترب من وادي العيون بعد أن يهدها التعب وتعلوها أكوام الغبار: "أما إذا جاءت القوافل [...] وأخذت تجد في السير [...] لتصل إلى وادي العيون بأسرع وقت، فكانت القافلة كلها تمتلئ نشوةً أقرب إلى الرعونة"[9] فقوله (القافلة تمتلئ نشوة) مجاز ترى معي فيها بوضوح هذا النشاط الانفعالي الناجم عن روح مُعتدَّةٍ بماضي الوادي، إذ جعل النشوة/ السكر تلك الحالة من الخدر وذهاب العقل محسوساً/ سائلاً يملأ فراغاً، ولم يكتفِ بذلك بل زاد من قوة التصوير بأن جعل هذه الحالة أقرب إلى الرعونة، فبعد أن نقل السكر من حالة يُشعر بها إلى أمر محسوس يملأ فراغاً أعطاه صفةً من صفات العاقل وهي الرعونة، "والأرعن: الأهوج في منطقه المسترخي. والرعونة: الحمق والاسترخاء. رجل أرعن وامرأة رعناء بيِّنا الرعونة"[10] والرعونة "في عرف الأطباء هي آفةٌ تعرض للأفعال الفكرية بحسب النقصان أو البطلان. فتكون حالة صاحبها كحالة الخرَف أو الصبوة .. وهم يجعلون الرعونة والحمق باباً واحداً فلا يفرقون بينهما"[11]، ومن المؤكد أنك لاحظت معي هنا أن الكاتب يصنع مُنمنمةً صغيرة إذ أتى بصفات المادة السائلة للنشوة فصارت بذلك محسوسةً ثم أودع لهذا المحسوس صفة من صفات العاقل، والتساؤل الذي يُطرح هو: ما الذي يدفع الكاتب لصنع هذه الصورة ؟ وجواب هذا السؤال يكون أن الكاتب يراعي السياق/ مقتضى الحال، كما ذكرنا القافلة هنا مجاز فالمراد ليس القافلة وإنما أهلها.

كانت هذه الصورة ضمن الذكريات الجميلة التي يحتفظ بها عبد الرحمن منيف للوادي أما عندما يحين دور التمهيد للسيئ من هذه الذكريات فسوف يحين موعد تغير ألوان الفرح في صور عبد الرحمن منيف إلى صور القلق والخوف، وهنا تلاقينا أولى الصور التحذيرية التي تظهرُ الاختلاف التصويري، وهي استعارة يتحول بها المُدرَك بالسمع إلى مُدركٍ بالبصر واللمس، وذلك في قوله: "الأصوات المبعثرة"[12] يصف أصوات الأغنام التي تتقدم فواز بن متعب الهذال، وقوله: "ورغم الأصوات العمياء التي كان يدفعها أمامه، حاثاً الدواب على أن تُسرع"[13] يصف الصيحات التي يبعثها الراعي فواز على أغنامه، إن وجود البعثرة والعمى في هذه الصور لم يكن عبثياً فذات الكاتب تتحضر لبدء مسيرة مُرة من تاريخ

وادي العيون، واربط الصور بالحدث الذي يسوقه الكاتب ففواز "ذهب فواز بمفرده، لكنه لم يرجع مبكراً كما وعد. رجع متأخراً، متأخراً جداً! وحين يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه بمفرده للسقاية، وأنه عاد متأخراً، يتذكر أن هذا لم يحدث نتيجة عدم القدرة، وإنما نتيجة سبب آخر، أكثر أهمية، وهو الذي أخّره .. "[14] .

إن السبب الذي أخَّر فواز يخبر عنه "عند ابن الراشد ضيوف غرباء .. من الفرنج ويتكلمون العربي"[15] من هنا تبدأ قصة وادي العيون أو بالأحرى من هنا تبدأ رواية مدن الملح، هذه البداية المؤلمة كان لابدَّ من تحضير تصويري لها؛ فوجود البعثرة والعمى في كلتا الصورتين يبعث الضيق في النفس، والذي أريد الوصول إليه أن خبرَ الشؤم الذي يحمله فواز احتاج من الكاتب هذه الصورة كتمهيد، أي أنه راعى السياق وهيَّأ ذهن المتلقي للخبر.

ومن هذه النقطة في التيه أيضاً تبدأ مسيرة صورة مستمرة على مدى الأجزاء الخمسة، وهي صورة الصمت المسيطر، القوي، القاسي، المخيم، وترد هذه الصورة في مناسبات العجز على الأكثر، وتكون أحياناً دليل ضعف الموجودين المشمولين في هذه الصورة، وفي هذه السيطرة المعطاة للصمت على مدار الرواية هي بالأساس أكبر أدلة الرواية على مراعاة الكاتب للسياق؛ إذ إن عبد الرحمن كتب مدن الملح ليؤرخ لفترة من ضعف الإرادة العربية والقيم، فوجد أنّ الصمت أنسب أداة لذلك فأدرجها في عددٍ هائلٍ من الاستعارات على النحو الذي سنمر به تالياً، إلا أنه ولدى استقراء مسيرة الصمت نجد من اللافت أنه ورد في بداية التيه، أي أنه ورد في خضم الذكريات الجميلة، يقول عبد الرحمن منيف بعد أن رسم لمتعب الهذال صورة المتكدر المتضايق الذي خرج إلى الفلاة الكبيرة لكي يزيح عن صدره همَّاً ما، فجعله ينفس عن هذا الهم بإطلاق النار من عصمليته: "رفع البندقية باتجاه السماء، باتجاه القمر وأطلق. دوت الطلقة، فخدشت الصمت، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال. جر الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في أنفه رائحة البارود أكثر من قبل"[16] في هذه التجسيد جُعل الصمت مادة صلبة لا تستطيع طلقة متعب الهذال إلا خدشها، فالصورة بمقامها الحسي المعنوي تنفض الصمت الراكد، محدثة دفقة شعورية لدى المتلقين ليكونوا جزءاً من المشهد الفني الذي يريده الكاتب لنصّه، لكنَّ الخدش لم يكن تأثيره بالمفهوم الذي نعرفه، إنما قصد الكاتب أنّ صوت الطلقة قد أزال الصمت، وإن كانت فترة قصيرة جداً، ليس هذا فحسب بل إن الوضع الوجداني الذي تخيله الكاتب لمتعب الهذال جعل لرائحة البارود تأثيراً، كما جعل الكاتب يمنح القوة حتى للطلقة الفارغة التي أخرجها متعب الهذال من عصمليته، أي أنَّ الصمت هنا لم يكن الطرف المنتصر، والسبب الذي دفع بالكاتب إلى هذا هو أنه في موقع الحديث عن ولادة مقبل الذي أقبلت معه

"أيام الخير"[17] فالصمت مهزوم إذاً؛ لأنه جاء ضمن أحداث فرح وسرور بالولادة والخير الذي جاء.

وإذا فتشنا في مدن الملح نجد أن الصمت والرصاص والخدش يلتقيان مرةً أخرى في (الأخدود)، ولكن مع فوارق سياقية أدت بنا إلى فهم مختلف للصورة عنها فيما جاء في (التيه)، يقول الكاتب: "الصمت في البادية هو الملك الوحيد: قويٌّ، شاملٌ، كليٌّ، حتى الأصوات التي تنفجر سرعان ما تمتصها الرمال وتحولها إلى رملٍ جديد. فإذا التحم الصمت بالشمس والرمال فعندئذٍ يتولد دويٌّ مكتوم أشبه ما يكون بصوت الاختناق أو الغرق، حتى طلقات الرصاص التي تعبر الفضاء للحظة فإنها هنا لا تقهر الصمت، تخدشه لثانية صغيرة، ثم تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة، أو طيور تحاول التحليق."[18] هنا ـ ومع قليلٍ من النظر ـ نستطيع أن نضع فوارق بين صورة التيه وصورة الأخدود:

فالصمت في التيه هو رمز التخاذل والخنوع في مدن الملح كان مهزوماً في الصورة الأولى، بينما الصورة الثانية كان الصمت سيد الموقف.

أطلق متعب الهذال رصاصةً واحدة كان لها تأثير قوي على الصمت، بل إن رائحتها كانت ذات تأثير أيضاً، بينما في صورة الأخدود فهناك العديد من طلقات الرصاص التي لا يؤثر خدشها في الصمت إلا ثانية واحدة.

رصاصة متعب الهذال تمثل التحدي والقوة فهي ستحلق بعيداً هدفها السماء والقمر، في حين الرصاص في الأخدود يعبر الفضاء دونما هدف ولا تلبث "تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة، أو طيور تحاول التحليق".

أنت هنا تلاحظ معي أن المكونات الأساسية لكلتا الصورتين هي: الصمت، والرصاص، والخدش، لكن هذه المعطيات على تشابهها التام إلا أنها تشير إلى مدلولات متباينة؛ والسبب يعود في ذلك إلى اختلاف السياق القصصي الذي وردت فيه كل صورة؛ فسبب انتصار رصاصة متعب الهذال أنها جاءت في صورةٍ واردةٍ ضمن حديث الذكريات الجميلة أيام الخير والصفاء، بينما جاءت رصاصات الأخدود تضمن الحديث عن ضياع القيم الأخلاقية.

إذاً لم يكن الصمت عنصراً مهزوماً إلا في الصوة التي يطلق فيها متعب الهذال رصاصته في التيه، إذ كانت له السيطرة في كل مرات وروده، من ذلك مثلاً بروز الصمت بمظهر السيطرة عندما لم يكن هناك من بديل لوجوده كحلٍّ أمثل، وذلك عندما حدث خطأ تناقله الناس عن الصبيان الذين استقبلوا القافلة القادمة عن طريق الخبرة الشرقية إذ قال بعض الصبية إن الخوش قد وصل، فلما وصل الخبر إلى وادي العيون وتحديداً أم الخوش بالذات "بدأت ترقص وتبكي وتضحك وتزغرد في آنٍ واحد [...] أما حين وصلت القافلة وتبين أن اللذَين وصلا هما هديب وشعلان

فقد تغير كل شيء: خيم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن .."[19] لم يجد عبد الرحمن منيف غير الصمت غطاءً يظل جميع من في الوادي لعجزهم عن تخفيف الصدمة التي أصابت أم الخوش والتي أصابتهم هم أنفسهم.

ونعود إلى الأخدود مرةً أخرى لنراقب سير صور الصمت فيه لنرى أن الصمت يستمر على ذات المنوال حاضراً في محافل ضعف الناس وخوفهم وخنوعهم، كأولئك الذين تجمعوا في ساحة الأمير خزعل حيث يطل الجامع الكبير حول الرجل المسن والشاب اللذين سيقا للإعدام، ولم يكن بمقدورهم إلا مشاهدة هذا الإعدام، غير قادرين على الاستجابة لصرخات هذين الرجلين، فعبر عبد الرحمن منيف عن هذا التخاذل الناتج عن الخوف بقوله: "بصعوبة شق طريقه وسط الجموع والصمت، وبصعوبةٍ أيضاً رأى. رأى اثنين من البدو ينزلان من سيارة جيب"[20] جعل عبد الرحمن منيف للصمت في هذه الصورة مادة يمكن لمحمد عيد أن يعبرها، وعندما يتطور المشهد إلى ما قبل حضور الجلاد فيحضر الصمت مرة ثانية ليثبت المعنى التعبيري الذي أشرنا إليه، ولكن بلوحة تصويرية مختلفة، فقد جُعل الصمت مادةً متناثرة بكثافة في الهواء إلى درجة أنها تملؤه، يقول متحدثاً عن هذين الرجلين: "ينظران، أحدهما إلى الآخر، نظرةً فيها معنى الصبر والتأسي، لعل شيئاً ما يقع في اللحظة الأخيرة. الشفاه يابسة. والحلوق مليئة بالمرارة والغبار. حركة الجموع ثقيلة آلية، والصمت يملأ الهواء"[21] وحضر الصمت أيضاً عندما شرع الجلاد بضرب الأعناق "في ظل الصمت الذي رافق الإشارات، وتلك الحركات المضطربة [...] تقدم الجلاد"[22]، ما الغرض الذي يريده عبد الرحمن منيف من تكرار لون تصويري في ذات اللوحة أو المشهد؟! إن الوضع الذي يتخيله الكاتب من أن عيني محمد عيد تشاهدانه من لحظة خروجه من منزل صاحب البناء الذي سيأخذ فيه محلاً إلى لحظة تدحرج رأسي الرجل العجوز والشاب على الأرض ـ هو الذي استدعى هذا التكرار بغية تأكيد عجز الناس عن حل مشكلة هذين الرجلين ولا حتى المحاولة بأدنى أنواعها وأوهى قِواها.

ومع الصمت إلى بادية الظلمات وبالتحديد إلى "موران، مدينة المال والصمت والانتظار"[23] في هذا الجزء من الرواية يبقي عبد الرحمن على دلالات الصمت ولكن يجعله أكثر حضوراً وأكثر قوةً من قبل، من ذلك على سبيل المثال أنه يجعل الصمت حصناً يُلتجأ إليه لسبب من الأسباب، وحاجةً ضروريةً من حياة شخصيات بادية الظلمات، فهذا (فنر) يلتجئ إلى الصمت حصناً ليهرب من الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي تطرح عليه، يقول الكاتب: "وفنر بقدر ما يبدو ودوداً، يستمع بانتباه ويسأل، فقد كان يتحصن بالصمت والغموض"[24].

وعلى هذا النحو كان الصمت في الأجزاء الأخرى مناسباً لسياق الضعف

وضياع القيم ذاك السياق الملائم للجو العام لمدن الملح؛ ألست ترى معي أنه مما يدعم مرامنا أن الكاتب بعد أن تغيرت الأوضاع في وادي العيون تغيرت الصورة الجمالية المثالية الأفلاطونية لهذا الوادي، فبعد أن ذكر مجيء الآلات التي جلبها الأمريكان، والتي "تولد النور والصخب والخوف في نفوس الكثيرين"[25] يصف حالة الوادي فيقول: " فأصبح الوادي عند ذاك أقرب ما يكون إلى عواء ذئاب ضالة أو إلى صرخات بنات آوى الجائعة الخارجة في أول المساء باحثة عن شيء تأكله أو عن إلف تستأنس به"[26] يتضح هنا أن تغير الصورة الفنية هنا مُترافق مع تغير الأوضاع في الوادي، وانتشار الخوف فيه، وفي هذه الصورة يجب أن نوضح أمراً؛ هل أصوات الوادي أصبحت أقرب إلى العواء؟ أم أصوات تلك الآلات التي جلبها الأمريكان؟ هنا شبه الكاتب هذه الآلات التي تصدر أصواتاً مزعجة وجاءت لكي تحطم أشجار الوادي وتجرفها بالذئاب الضالة وببنات آوى الجائعة.

بل تزداد تغيراً وسوداوية صورة وادي العيون؛ تمشيًّا مع تطور الأحداث فيه إلى أبعد من ذلك؛ إذ إن الكاتب يجرده من سماته وصفاته، يقول متحدثاً عن فواز وصويلح اللذين عادا من الحدرة إلى وادي العيون: "لمّا وصلا إلى وادي العيون بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل. لم تعد له صلةٌ بالوادي الذي تركه، لم يبق فيه شيء من الأشياء القديمة، حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طريةً منعشة، أصبحت الآن لفحاً قاسياً خلا ساعات النهار كلها"[27] ولم يكتفِ الكاتب بالإشارة إلى تغير الأمور الحسية كالريح المذكورة في الصورة السابقة، بل أشار أيضاً إلى تغير الأمور المعنوية، ونحن قرأنا في بداية التيه أن الوادي ينعم بالأمان ويغدقه على وافديه وزواره في القوافل التي تستشعره قبل وصولها الوادي، أما الآن فإنا نرى عبد الرحمن منيف يجرّد الوادي من هذه النعمة يستبدل بها الخوف، يقول: "هنا في وادي العيون، هذه المرة، يشهد مخلوقات غريبة متنافرة مملوءة بالصمت والحزن، وبدا له [أي لفواز] كل واحد من العمال أشبه بطير من الطيور ضل سربه وطريقه فلا يستطيع البقاء ولا يقوى على متابعة الرحيل"[28].

إذا قابلنا هذه الصورة بصورة الوادي في الصفحة الأولى من التيه سنجد شيئاً من التضاد فالوادي الذي كان ملاذاً للقوافل ومبعث الأمان للناس أصبح الآن مبعث القلق والخوف لهم، وإذا كانوا قبلاً يتمنون إطالة البقاء في الوادي قدر الإمكان فالآن تتوقف مسألة رحيلهم على القدرة التي لو امتلكوها لما مكثوا في وادي العيون يوماً واحداً.

الخاتمة

من خلال الدراسة السابقة نجد أن الكاتب سعى إلى تقديم الصورة الفنية في أبهى حلة، مستخدماً في سبيل ذلك تقنيات فنية، مراعياً مقتضى الحال/ السياق في روايته. كما تبين أن الصورة الفنية ليست

حكراً على الشعر؛ بل إن الأديب العربي عموماً استفاد، واستطاع تسخير هذا الجانب الفني في أدبه السردي مستثمراً ما يزخر به من طاقات دلالية، وجمالية، بل إننا نجد أنّ الصورة في الفنون السردية تكون أكثر إيغالاً وعمقاً في المعاني، والدلالات لما تسمح به طبيعة السرد من التفنن، والإطالة بالصورة حتى تبلغ منتهاها، ولاحظنا أن الكاتب الأديب عبد الرحمن منيف قد استخدم أكثر التقنيات الفنية للصورة، وإن كان في ذلك تفاوتٌ في الإكثار من بعضها، والإقلال في بعضها الآخر إلا أنّ الصورة الفنية في روايته مدن الملح أضفت على الحدث والمكان والزمان الذي دارت به أحداث روايته ـ على الرغم من أنه مكانٌ بسيطٌ وصحراويّ ـ المزيد من الجمال والدقة في استحضار ذلك المكان والحدث والشخصيات ونفوسها إلى ذهن المتلقي بأداةٍ هي الصورة الفنية في السرد الحكائي.

ومن خلال هذه الدراسة فقد توصل بحثنا إلى النتائج الآتية:

1) الكَشْفُ عن العناصرِ والعلاقات السياقيَّة والمعنويَّة للصورةِ الفنية في مدن الملح، وبيانِ خصائِصِها ومدلولاتِ الصورةِ.

2) تكامُل دراسة الصورة من حيثُ السياقِ والنَّسَقِ في تقديمِ المعنى المطلوب، والنُّمُوذج الإنساني المنشود؛ لتحقّق بذلك وحدة الصورة الفنية في وحدة النصِّ.

3) استِقْصاء أجزاء الصورة في تَتَبُّعِ جوانبِ المَشْهَدِ والنَّفاذِ إلى بواطنه.

4) التِماس القيمة الجماليَّة والفنيَّة في مقتضيات الصورة.

5) سعي الكاتب إلى الإضافةِ في أغلب صوره؛ إذ نرى اتساع صدر المواقف المصورة فنياً ـ نظراً لضخامة الرواية ـ للبسط والإطالة والابتعاد عن الاقتضاب، ذلك أن ضيق حجم الرواية يستدعي الغموض أو الاقتضاب التصويري الذي يسوق الكاتب إلى الغموض، على عكس الاتساع الذي يريح الكاتب ويجعله يميل للتصوير الواضح.

6ـ انتظام الصور وتنوعها في جميع أجزاء الرواية.

7ـ اللغة السهلة والتركيب اللغوي السليم المستخدم في نسج الصورة الفنية.

8ـ ارتباط الرواية بالصورة ارتباطاً وثيقاً؛ ذلك أنّ كل جزء من أجزاء الرواية يصبُّ في الصورة الكلية التي شكلتها الرواية.

عبد الجبار شيخو

الهوامش

(1) مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي (المتوفى: 626هـ)، تح. نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2. 1987م، ص 415.

(2) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن مصطفى الهاشمي (ت1362هـ)، تح: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.ط، ج1، ص 40.

(3) المفصل في علوم البلاغة العربية، د.عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، 2005، ص 50 .

(4) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدّة، ط3، 1992م، ص254ـ255.

(5) و (6) مدن الملح / التيه، عبد الرحمن منيف، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودار التنوير، بيروت، ط 1، 2012 م، ص18.

(7) البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف، د. أحمد جاسم الحميدي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، د.ت، ص 71.

(8) و (9) مدن الملح، التيه، ص 19 .

(10) رعن: لسان العرب، ابن منظور،(711هـ)، دار صادر، بيروت، ط1414،3هـ، ج 13، ص 182 .

(11) رعن: محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م، ص241 .

(12) و (13) مدن الملح، التيه، ص 32 .

(14) نفسه، ص31.

(15) نفسه، ص33 .

(16) نفسه، ص23 .

(17) نفسه، ص 22 .

(18) مدن الملح، الأخدود، ص 562 .

(19) مدن الملح، التيه، ص 41 .

(20) مدن الملح، الأخدود، ص 199 .

(21) نفسه، ص 200 .

(22) نفسه، ص 201 .

(23) مدن الملح، بادية الظلمات، ص499.

(24) مدن الملح، بادية الظلمات، ص 105.

(25) مدن الملح التيه، ص 108 .

(26) نفسه.

(27) نفسه، ص 139 .

(28) مدن الملح، التيه، ص 139 .

المصادر والمراجع

1. البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف، د. أحمد جاسم الحميدي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، د.ت .

2. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن مصطفى الهاشمي(ت1362هـ)، تح: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.ط، ج1.

3. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدّة، ط3، 1992م.

4. لسان العرب، ابن منظور، (711هـ)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

5. محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م .

6. مدن الملح/ الأخدود، عبد الرحمن منيف، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودار التنوير، ط 13، 2012 م.

7. مدن الملح/ بادية الظلمات، عبد الرحمن منيف، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودار التنوير، ط 13 .

8. مدن الملح/ التيه، عبد الرحمن منيف، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودار التنوير، ط 13، 2012م.

9. مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي (المتوفى: 626هـ)، تح. نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2. 1987.

10. المفصل في علوم البلاغة العربية، د.عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، 2005م.

جماليّة اللون ودلالته في الشّعر

بين

شرق المتوسّط وجنوبه

محمود درويش وغسّان مطر وفديريكو غارسيا لوركا وبول إيلوار أنموذجًا

أ. يونس زلزلي

هدف هذا البحث إلى دراسة دلالات الألوان (الأبيض، والأسود، والأحمر، والأخضر) في الشّعر المتوسطيّ المعاصر. فيتّخذ أربعة شعراء متوسّطيين مادّةً لهذه الدّراسة. وقد توزّع الشّعراء اثنين من شرق المتوسّط (محمود درويش من فلسطين، وغسّان مطر من لبنان)، واثنين من جنوب المتوسّط (فديريكو غارسيا لوركا من أسبانيا، وبول إيلوار من فرنسا).

تتوخّى هذه المقاربة معاينة معجم الألوان في نتاج الشّعراء الأربعة، وتحديد أوجه الائتلاف والاختلاف في استخدام اللون ورمزيّته بين شرق المتوسّط وجنوبه. يُعَدُّ اللون عنصرًا أساسيًّا من عناصر تشكيل النّصّ الشعريّ بما له من أبعادٍ جماليّة ودلاليّة، ويحمل اللون إشارةً سيميائيّة قد تقرّب الدّالّ والمدلول إلى حدّ المباشرة حينًا، أو تراوغ بتأويلهما إلى حدّ الغموض حينًا آخر. إنّ الاحتفاء بالألوان في الشّعر المتوسطيّ اكتسب شيفراتٍ جديدة مع أعلام المدرسة الرّمزيّة، ثمّ بلغ حدود المغايرة والغرابة مع السّورياليّين.

ولأنّ جغرافيا المتوسّط تتشابه بين البحر والنّهر والصّخر والغابات الخضر، فإنّ معجم هؤلاء الشّعراء استقى من معينٍ واحد مفرداته وتعابيره. بيد أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء عكس نفسيّته على الألوان مرّةً بصورةٍ مألوفة وتقليديّة، ومرّةً بصورةٍ جديدة ومبتكرة. من هنا، سنحاول استجلاء ملامح البنية الدّلاليّة والفنّيّة لشعريّة الألوان في أعمال الشّعراء الأربعة باحثين عن ظلال كلّ لونٍ وتصريحاته وتلميحاته.

كثيرةٌ هي وشائج الارتباط بين نتاج هؤلاء الشّعراء، فهم جميعهم شعراء ملتزمون يتّكئون على الإيديولوجيا والحرّيّة، ويكتبون عن أرضهم ولها، لذلك نرى فرنسا وأسبانيا وفلسطين ولبنان في قصائد الأربعة ألوانًا من الجمال تتماوج فيها زرقة الماء والسّماء مع اخضرار الأرض وألوان ثمارها. يهيم الشّعراء بالألوان،

ويتفنّنون بها، فتصبح فلسطين برتقاليّةً مثل حبّة الشّمس تُقشّر، لكنّ لونها لا شبيه له غيرُها في عيون محمود درويش. وتغدو الأرض زرقاء مثل برتقالةٍ بنظر بول إيلوار. أمّا غسّان مطر فإنّه وأمّته ابتُلِيَا بحقدٍ أصفر أدّى إلى موتٍ أزرق. ويأتي لوركا من بين خمائل "غرناطة "ليقول لطبيعتها الخلّابة: "خبّئي بياضك..." ولأنّ الثّورة ألهمت شعريّة هذا الرّباعي، فقد استهواهم لونها الأحمر ليُحيلَنا إلى تاريخٍ مشتركٍ من المخاضات والحروب والعذابات انتهت فصولها في جنوب المتوسّط بعد الحرب العالميّة الثّانية، وظلّت حاضرةً في شرقه بفعل نكبة فلسطين وما استتبعها ويستتبعها من مآسٍ لا تنتهي. ولعلّ في الأسود إحالة إلى سوداويّةٍ رومنطيقيّةٍ اصطبغ بها شعر هؤلاء الّذين جمعهم الهمّ الإنسانيّ العامّ. إنّ محاولة استجلاء الجماليّ والدّلاليّ بما يكتنفان من رموزٍ ورؤًى تضمّنتها قصائد الشّعراء الأربعة سيجعل المسافة تتداعى بين رمّان غرناطة ورمّان غزّة، وسيقدّم صورةً عن زيتون الأندلس تتماهى مع زيتون نابلس. سنشعر في قراءة هذه القصائد بأنّ جولة الشّعر في بياض ثلوج سييرا نيفادا لا تختلف عن رحلته إلى ثلوج مرتفعات الجليل. إنّ الألوان ترتدي في الشّعر حلّةً جديدةً من فلسطين درويش أرض البرتقال الحزين إلى لبنان غسّان مطر الأخضر، إلى غرناطة لوركا القانية احمرارًا برمّانها وأصلها وفصلها وقصرها، إلى باريس إيلوار البيضاء بكلّ صفحاتها وخبز أيّامها في حضرة الحرّيّة.

مقدّمة عامّة عن الشّعراء الأربعة:

1) محمود درويش

شاعرٌ فلسطينيٌّ راحل (1941 ـ 2008 م) عاش نكبة فلسطين، فوعاها وتمثّلها مقيمًا مُلَاحَقًا ومُعْتَقَلًا، ثمّ لاجئًا ومنفيًّا ثمّ عائدًا بعد حين (1994). وقد أطلّ على القضيّة منذ بداياته الشّعريّة وتدرّج إيديولوجيًّا من الشّيوعيّة الماركسيّة الّتي كتب في صحفها في مرحلة الدّاخل الأولى، ثمّ خرّج من ثوب اليسار ليتّجه صوب القوميّة العربيّة في مرحلة المنفى لكنّه ابتعد عنها بعد الغزو الاسرائيليّ للبنان في العام 1982. واتّجه بعد ذلك إلى أفقٍ كونيّ إنسانيّ من دون أن يتنكّر لهويّته الفلسطينيّة. من هنا، فإنّ شعر درويش انطلق من ألوان علمه الفلسطينيّ الأبيض والأخضر والأسود والأحمر، فرسم قصائده بريشة توائم بين الإيديولوجيّ والجماليّ.

2) غسّان مطر

ولد في العام 1942 م في بلدة تنّورين من قضاء البترون (شمال لبنان)، في عائلةٍ فقيرة، هاجر أبواه إلى فنزويلا وبقي الشّاعر في لبنان مفتقدًا عطف الأب وحنان الأمّ فانعكس ذلك على شعره الّذي انطبع بالحزن والدّمع. شكّلت مأساة رحيل ابنته الوحيدة "لارا" بانفجار سيّارة مفخخة في بيروت سنة 1990 حدثًا زلزل وجود الشّاعر وانعكس بحدّة على شعره، فاتّشح بألوان الحزن والموت الّذي كان فرديًّا بموت "لارا"، لكنّه أصبح قوميًا على إيقاع الجرح العربيّ المفتوح من فلسطين وجنوب لبنان إلى العراق في

دواوينه اللاحقة. لذلك سنلاحظ وفرة استخدامه اللون الأسود بدلالاته السّلبية وأحمر الدّم، وأخضرالانبعاث والسّلام، وأبيض التّسامي والسّلام، لتشكّل الألوان عنده مشهديّة الشّاعر المنسحق بهموم الذّات والأمّة، والحالم بحياةٍ أخفّ وطأة.

3) فدريكو غارسيا لوركا

لوركا (1898ـ1936 م) هو شاعر الحبّ والنّضال، جعل الشّعر تعبيرًا عن رؤى الإنسانيّة وأحلامها، وقد أعادته رحلته إلى أميركا بديوان (شاعر في نيويورك) مرتدًّا عن مدينة المادّة إلى بساطة الرّيف الأندلسيّ وأهله. وكانت غرناطة حجر الأساس في بنائه الشّعريّ ولازمةً في قصائده، فارتسمت بألوانها وأشكالها لوحةً لا تُضَاهى. وتبرز أهمّيّة الألوان في شعره، فهو كان شاعرًا يرسم بالكلمات ويُحيي ألوان طبيعة ربوعه الأندلسيّة. وكان إلى ذلك رسّامًا وصديقًا مقرّبًا لسلفادور دالي أبرز الرسّامين الأسبان والعالميين في القرن العشرين.

4) بول إيلوار

بول إيلوار (1895ـ1952 م) شاعرٌ فرنسيّ سورياليّ، مؤدلج شيوعيًّا. تعود علاقته بالألوان إلى ولوعه بالرّسم، إذ اقتنى مجموعة لوحات قيل إنّها وصلت إلى أربعمئة لوحة، إضافةً إلى الصّداقة الحميمة الّتي ربطت الشّاعر بعددٍ من الرّسّامين أبرزهم "بيكاسّو"، ومن دلائل هذا التّواطؤ الأخويّ بينهما هو ديوان "وجه السّلام" الّذي أنجزاه معًا. وزَيَّنَ الفنّان برسومه دوواوين كثيرة للشاعر". كما أنّ مأساة مدينة "غيرنيكا" الأسبانيّة الّتي قصفها الطّيران الحربيّ الألمانيّ والإيطاليّ دعمًا لحكم الجنرال "فرنكو" في الحرب الأهليّة الأسبانيّة قبل نهاية ثلاثينيّات القرن الماضي ارتسمت في نتاج كلّ من "إيلوار" و"بيكاسو"، فنظم إيلوار قصيدة "نصر غيرنيكا"، ورسم بيكاسو لوحته الشّهيرة "غيرنيكا" فارتسمت "غيرنيكا" بالألوان ذاتها في اللوحة والقصيدة مدينةً دمّرتها الحرب وقتلت المئات من أهلها لكنّها انتصرت على الموت والدّمار بالشّعر والفنّ.

بعد هذه المقدّمة الوجيزة عن الشّعراء الأربعة نعود إلى الألوان في شعرهم. والألوان تعكس الذّات الشّاعرة في مكانها وزمانها المعيشَيْن. يبرز جليًّا دور الرّسم في حضور الألوان في الشّعر، لأنّ الشّعر فنٌّ جميلٌ كالرّسم لا اختلاف بينهما إلّا الأداة، فأداة الشّعر هي الكلمة، وأداة الرّسم هي الرّيشة. لكنّ المضمون الدّلاليّ للقصيدة في تعبيره عن حالة الذّات الشّاعرة لا يختلف عن المضمون الفنّيّ للوحة في تعبيره عن حالة الذّات الرّسّامة في أنّ كليْهما ينتقي ما يتوافق مع حالته النّفسيّة ويعكسها في الأثر الفنّيّ المُنْتَج. لا يغيب عن بالنا أثر اللون في الإنسان المرسل والإنسان المتلقّي، لكن هل إنّ مدلولاته في شرق المتوسّط هي نفسها في غربه؟ وهل للإيديولوجيا دورٌ في معجم اللون لدى الشّعراء الأربعة الّذين، وللمصادفة انطلقوا جميعًا، من خلفيّةٍ يساريّة لم يثبت عليها حتّى النّهاية إلّا إيلوار؟ ولعلّ اللون الواحد عند الشّاعر الواحد لم يأتِ بدلالةٍ واحدة رتيبة، إنّما تبدّل

في وتيرةٍ ملفتة. سوف نُركّز في هذه الدّراسة على أربعة ألوان برزت في قصائد الشّعراء المستهدفين وفقًا للآتي:

أوّلًا: اللون الأبيض

أـ غسّان مطر

لم يُتَح للشّاعر غسّان مطر أن يسعدَ باللون الأبيض لون الفرح في بلاده، لأنّه فُجِعَ برحيل ابنته الوحيدة "لارا"، فنراه يقول في ديوان "عزف على قبر لارا": "يبدأ البكاء،يأخذ الكلام شكل زهرةٍ بيضاء، تبحث عن مكانها،ما بين جرح الأرض والسّماء". (مطر، 1990 صفحة 59)

إنّه الحزن يغمره فيتلوّن الكلام بالأبيض لأنّه عابقٌ بروح "لارا". وهذا الكلام الّذي تمظهر زهرةً بيضاء تترفّع عن جرح الأرض لتتسامى نحو السّماء، أو إنّه ضوءٌ ينبعث من البكاء لتكون ولادةٌ جديدةٌ للارا في السّماء.ويظل الأبيض مصدرًا للضّوء الّذي يخلّص النّاس من الخوف، إنّه ضوء الطمأنينة والأمان: "خوفٌ يمتدّ إلى أن يأتي ضوء ويمسح وجه الخوف برحمته البيضاء". (مطر، 2009 صفحة 100)

وقد ارتبط اللون الأبيض بالبراءة والنّقاء، واقترن مع كلمة السّماء في أكثر من قصيدة في أعمال غسّان مطر. فتراه يخاطب المناضلة الجزائريّة جميلة بو حيرد: "يدكِ الرّبيع من صلوات طفلٍ زيّنت صلواتِه البيضاء أروقة السّماء" (مطر، 2015 صفحة 104). إنّ مناضلةً مثل جميلة هي وليدة إيمان شعبٍ بحقّه، وصلاة بريئة ودعاء يرفعه طفل مظلومٌ من شعب مظلوم إلى السّماء. لكن الشّاعر يتوسّل الشّعر كيّ يُخرجُ هذا اللون من مدلوله المألوف حين يجعله لونًا للقصائد، فيخاطبه قائلًا: "فافتح أبواب ودائعك البيضاء، وهات يديك". هكذا تصبح الكلمات دليلًا إلى الحياة. كما أنّه يعانق أحلام الأطفال الّذين ينتظرون الليل موعودين بحلم جميل: "دع هذا الليل ينام، هذا ليل الأطفال الموعودين بأجنحةٍ بيضاء" (مطر، 2009 صفحة 35). ويستخدم مطر اللون الأبيض في توصيف الأوروبّيين، لذلك نراه يقول: "بعد رحيل بني عثمان، وبعد مجيء الفتح الأبيض..." (مطر، 1978 صفحة 102)، فالفتح الأبيض هو الانتدابان البريطانيّ والفرنسيّ اللذان ورثا هذا الشّرق عن الأتراك بموجب اتّفاقيّة "سايكس ـ بيكو". والعبارة هنا تشير إلى مصطلح الرّجل الأبيض المتداول في نظرة الشرق المُسْتَعمَر إلى الغرب المُسْتَعمِر.

ب ـ محمود درويش

أمّا الأبيض في شعر درويش، فحضوره كثيفٌ يبدأ من بياض المتوسّط، ليقول في قصيدة "تأمّلات سريعة في مدينةٍ قديمة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط": "لا شيء لاشيء، بياضٌ وبياض آخر يولد من هذا البياض" (درويش، 1992 صفحة 507).

يؤشّر اللون الأبيض هنا إلى العدم المتوالد بعضه من بعض، وكأن فضاء هذه المدينة سديميّ يؤول بساكنيها إلى التّلاشي في هذا اللاشيء المهيمن حولهم. لكنّ الشّاعر لا يلبث أن يرى الأبيض دالًّا للخير في قصيدة

"مطر ناعم في خريف بعيد": "مطر ناعم في خريف بعيد، والشّبابيك بيضاء" (درويش، 2018).

ويؤوّل الأبيض بمدلولات الرّجاء في قوله: "ويسقط في أغانيك البياض،الآن أغنيتي تمرّ [...] تمرّ أغنيتي على المدن السّود" (درويش، 1970 الصفحات 374-375).

ويعود بالأبيض إلى الموت لأنّه لون الكفن الّذي يغطّي جسم الميْت ليذهب إلى حتفه المُشْتهى بعد أن أقفلت الدّروب والقلوب دونه في تغريبة الفلسطينيّ المثقل بصليب نكبته على كتفيه، فيقول: "الكفن الأبيض، والجدريّ، والأحلام البكتيريّة، تتفاقم حتّى تنهش جلد الغابة" (الهزّاع، 2008 صفحة 87).

ويقترب درويش من الموت في النّمسا إثر نوبةٍ قلبيّة ذات زيارة، فيبرز اللون الأبيض حلمًا جميلًا بالموت أفاق منه الشّاعر بجهود الأطبّاء، فانزعج من استفاقته قائلًا: "لم أشعر بهذه النّشوة، نشوة النّوم الأبيض على سحابٍ أبيض بياض ألمٍ لم أره من قبل، بياضٌ من ضوء ناعم. لقد أعادوني من الموت. لقد أزعجوني في نومي الأبيض الجميل" (المساوي، 2009 صفحة 56). هذا الأبيض في سرير المشفى أعاد الشّاعر إلى الصّفاء والبراءة، بذلك أعدّ نفسه لرقدة الموت في كفن نقيّ مغايرٍ لقتامة الواقع. ويلتقي درويش مع مطر في جعل "الأبيض" تيمةَ الرّجل الغربي أميركيًّا كان أم أوروبيًّا، فتتراوح نظرة الشّرقيين إليه بين انبهارٍ ودونيّة من جهة، ورغبة بالتّكافؤ والعيش بسلام. لذلك نراه يستغلّ قصيدة "خطبة الهنديّ الأحمر ما قبل الأخيرة أمام الرّجل الأبيض" فيحمّل حوار الهنديّ مع هذا الأبيض الأميركيّ رسالته الحضاريّة الدّاعية إلى السّلام: "إلى أين يا سيّد البِيضِ تأخذ شعبي وشعبك؟ إلى أيّ هاويةٍ يأخذ الأرض هذا الروبوت المدجّج بالطّائرات؟" (درويش).

ج ـ لوركا

ويأتي لوركا، فلا يبعد الأبيض عن مدلولات سابقيْه، فنراه عنده يشي بالجمود والسّكون: جلسْت في بياض الزّمن،كان بركةً راكدةً للصّمت" (مكّي، 1998 صفحة 64).

لكنّ لوركا ضنينٌ بالبياض من غدر الزّمان، لذلك نراه يناشد الطّبيعة أن: "مَنِ الّذي يشكّ في القدرة الرّهيبة لتلك القرون، خبّئي بياضك أيّتها الطّبيعة" (مكّي، 1998 صفحة 120).

ويرى لوركا في اللون الأبيض تطهّرًا ورمزًا للسّلام والفرح في قوله: "في أيّام الأعياد عيد ميلادٍ أبيض" (مكّي، 1998 صفحة 112).

فالعيد الأبيض يعني انغماس النّاس في مواسم ومهرجاناتٍ من الفرح والغبطة. وهو لون الطّمأنينة والهدوء: "لكنّ القمر الأبيض هو القمر الصّحيح الوحيد يلمع على مدافن القرى الوادعة" (Lorca).

د ـ بول إيلوار

نأتي إلى اللون الأبيض في شعر إيلوار، فنراه يرجعه إلى الموت: "كلّه أبيض هالة النّور

ماتت في مياه حوضٍ رماديّ" (Éluard). لكنّه بالرّغم من ذلك، يقول: "اللون الأبيض يفتنني" (Mingelgrün p. 25).

ويمتزج الأبيض بالأسود عند إيلوار عندما يرى فتاته بياضًا يُفضي إلى مدًى قاتم: "عيناها في صورتها البيضاء تشكّلان حبلًا أسود طويلا" (Éluard).

هذا المزج لم يمنعه من رؤية اللون الأبيض رمزًا للبراءة حين قال: "قلبٌ أبيض كقلب طفل" (Éluard)، كذلك فإنّه يليق بالحرّيّة أجمل قصائد إيلوار الّتي خاطبها الشّاعر قائلًا: "سأكتب اسمك على كلّ الصّفحات البيضاء" (Éluard). ونختم مع إيلوار في قصيدة "سوف أصعّد هذياني" يتحوّل الأبيض إلى لون الرّغبة والحبّ: "كي تستبقيها قبلة واحدة، كي تحوطها اللذّة مثل صيف أبيض أزرق وأبيض، كي تكون لها قاعدة من الذّهب الصّافي" (Éluard). ويصل إلى مدىً إيروتيكيّ أبعد فيختلس "في جنون الحبّ كنزًا من ساقٍ بيضاء بقدمٍ بيضاء" (Éluard).

ثانيًا: اللون الأسود

أ ـ غسّان مطر

لا نحتاج كبير عناء لاستنتاج دلالة اللون الأسود في قصائد مطر، فالشّاعر الّذي أسلفنا أنّه فقد ابنته الوحيدة "لارا" ونظم في فجيعتها ثلاثة مجموعات شعريّة، فإنّه لم يحد عن الموت في عناوينه ودواوينه اللاحقة وهو الّذي غدا أفق الرّؤية الشّعريّة لديه أسود ومغرقًا في الانسحاق والألم اللّذين هيمنا عليه: "لارا [...] وألقيْتُ مرساتي على حلمٍ، فهدَّتِ العاصفات السّود مرساتي" (مطر، 1990 صفحة 47). كانت لارا حلمه الأجمل فعصفت الحرب بحلمه لتتركه في كابوس الثّكل يعصف بقلبه فيخاطب عصافير بيروت: "يا عصافير لوّحنَ للمدن السّود، رتّلن ما رتّلت مريم عند هاوية الجلجلة" (مطر، 1990 صفحة 69). لقد حلّت لعنة الحرب بمدينته، فألبستها الأسود وأدخلت إنسانها وطيورها وكلّ ما فيها في جلجلةٍ من الآلام تشبه آلام المسيح. هذا الأفق الأسود أفق الموت والحرب يلازم قصائد مطر فَيَشِي بالواقع الكارثيّ وعتمته من انغلاق الفضاء المكانيّ إلى الحزن العميم والحِدَاد في كلّ البيوت: "المدينة مقفلة، والبيوت مُضَرَّجة بالسّواد" (مطر، 2011 صفحة 38). ويظلّ الأسود يدور في دائرة اليأس ووأد الأحلام: "وبنَيْنَا من رخام الدّمع أحلامًا في أسوارها السّود احتمَيْنا" (مطر، 2011 صفحة 64). وهذا الاحتماء في أسوارٍ سوداء يعني استسلام الحلم لدمع الواقع الّتي تحجّرت من ديمومة الحزن. ويظلّ الأسود مدعاة تشاؤم ووعدم: "النّاس هنا ظلٌّ يمحو ظلًّا والظّلّ هنا كفٌّ سوداء" (مطر، 2001 صفحة 51). وكأنّ الوجود صار عالمًا من الفوضى والدّمار في دوّامة صراعٍ شيطانيّ مرير. ولأنّ النّاس على دين ملوكهم، فاللون الأسود منبعثٌ قبل كلّ شيء من قصور هؤلاء الحكّام الّذين استعبدوا النّاس بالقمع والاستبداد: "وفي القصور السّود أصنامٌ تَحَلَّقَ حول سدّتها العبيد" (مطر، 2009 صفحة 63). لذلك يشهر الشّاعر قنوطه قبل موتٍ يراه وشيكًا،

فتندلق حروفه مجبولةً بعذابات سوداء متهالكة: "وصلْت إلى ضفاف دمي وهذه الأحرف السّوداء آخر ما يقطره يمام الرّوح قبل مساء رحلته البعيدة" (مطر، 2001 صفحة 42). ثمّ يجعل الأرض كلّها مساحةً من التّراب الأسود الّذي يدفن فيه الإنسان في عقابٍ أزليّ: "ما الّذي دار في خاطر الله يوم أراد لآدم أن ينتهي في سواد التّراب"؟ (مطر، 2015 صفحة 123)، ويرفض الشّاعر اللون الأسود لأنّه يخفي شرور الإنسان، فيقول: "ولم ألبس قناعًا أسود يُخفي ذئابًا بشريّة". لقد اتّشح كلّ شيء بالسّواد في تجربة مطر الشّعريّة لاقترانها بالفجيعة على الصّعيدين الشّخصيّ والوطنيّ.

ب ـ محمود درويش

يُحيلنا الأسود في ديوان درويش إلى النّكبة، فنمضي معه إلى تغريبة شعبه عن أرضه الّتي انعكست سوداويّةً، فاكتنف اللون الأسود قصائده يلوّن به الطّيور والليالي والموسيقى والورود. ففي ديوان "أوراق الزّيتون"، يقول: "الزّنبقات السّود في قلبي" (خضرة، 2001 صفحة 98)، أيّ نفسيّةٍ تلك الّتي حوّلت الزّنبق من دلالة الجمال والرّجاء إلى دلالة الحزن والتّشاؤم؟ ثمّ يستغرق الشّاعر في السّواد والسّوداويّة، لأنّ أخبار فلسطين ليس فيها غير الحرب والتّشريد والدّمار، صارت "الجرائد كالليل مسوَدّة" (درويش، 1994 صفحة 7). صار كلام الجرائد مدعاة خوف الشّاعر وقلقه وشعوره الدّائم بالموت جاثمًا بين عناوين الجريدة وأخبارها. هذا اللون الأسود أتت به آلة حربٍ غاشمة اعتدت على الأرض والإنسان، فجعلت "الفضاء طيرًا أسود" (درويش، 1994 صفحة 349). لقد جعلت الطّائرة الحربيّة الفضاء أسود بدخانها وبقذائفها الّتي تنفث الموت والدّمار. هكذا، يرتسم في الأسود قدر الذّات الفلسطينيّة الشّاعرة للتّعبير عن الألم والخوف من المجهول. لكنّ درويش يخرج بالأسود أحيانًا من دائرة المتوقّع، فيجعله رمزًا للحبّ والجمال عندما يتغزّل بالعيون السّوداء، فتنعكس حالته النّفسيّة على الرّمز اللونيّ.

ج ـ لوركا

لا يشذّ لوركا عن درويش في ثنائيّة السّوداويّة والسّواد، فيعكس بالأسود حزنه ليرى القمر أسود والحصان أسود، كأنّ عتمةً كثيفةً تلوح في آفاق رؤيته مؤذنةً بموت الفارس في ليلٍ داجٍ لا ضوء فيه. ولم يكتف لوركا بتلوين الحصان والقمر بالأسود، بل ذهب إلى الملائكة الّذين عهدناهم بالأبيض، ليراهم بالأسود: "وملائكة سود كانت تطير في ريح المغيب" (مكّي، 1998 صفحة 176). لعلّه يرى أنّ الحياة بموبقاتها قد أفسدت الملائكة، لأنّه تحدّث في المقطع عن مساءٍ مجنون من أشجار التّين ومن الغمغمات الدّافئة مع ما يحتمله المعنى من شهوةٍ وغواية. ثمّ يتابع الشّاعر رسم حزنه بالأسود، فينظر إلى غرناطة في قصيدة الحزن الأسود: "إنّ الحزن الأسود ينبت في أراضي الزّيتون في ظلّ القمر الأسود" (مكّي، 1998 صفحة 178). هذه رؤية تشاؤميّة أنزلت القمر من

ضوء الشّمس إلى محاق الحزن والقنوط. ولم تستهو المدن لوركا، فلم يتأقلم مع نيويورك ومدريد، وظلّ أمينًا لغرناطة وريفها. لذلك عمّقت إقامته في المدن سوداويّته وتشاؤمه، فرأى الفجر في نيويورك "مظلّلًا بأعمدةٍ من الوحل، وعاصفةٍ من الحمائم السّود" (مكّي، 1998 صفحة 222). كأنّ الشّاعر يشير إلى الفقراء الزّنوج الّذين ينهضون مع الفجر إلى يوميّات تعبهم الموعود في شوارع المدينة. وهذه الرؤية إلى المدينة رومنطيقيّةٌ ناقمة ترى فيها مطحنًا لأحلام الفقراء وعظامهم في رحلة عذابهم اليوميّ فيها.

د ـ بول إيلوار

يرى إيلوار في الأسود ما لا يراه الآخرون، فهو يرى إلى نفسه "ظلًّا في السّواد حتّى آخر قطرة، بل إنّ الظّلّ ينعكس لونًا أسود في عينيه، ويقول بأنّ الأكثر سوادًا والأثقل فيه هو ماضيه. ويتناثر السّواد في ديوانه: "الغرفة السّوداء ملأى بحصى البرد العارية في الغرفة السّوداء الّتي وُلِدَ القمح فيها من الجشع" (Éluard)، يتراءى في الأسود هنا لون العتمة والبرد والجمود والجشع والوحدة قبل أن نرى لون جدران الغرفة. ويذهب إيلوار ليلوّن بالأسود ما لا يخطر على بال أحد: "فالمقبرة ولدها القمر بين موجتين من السّماء السّوداء، وللثّلج صمتٌ أسود، وللصّمت الأسود قاعدةٌ هائلة، والنّجمة الّتي تتبع الشّاعر سوداء، والهدوء أسود يتناقض فيه كلّ شيء، والمياه السّوداء تشدّه، والرّبيع اسودّ، والصّيف بفاكهته اسوَدّ أيضًا، حتّى وضوح الصّبح حبّةٌ في هذا السّواد، والوقت الحزين وقتٌ أسود، والطّريق أسود بالوسخ والدّم، والمنازل سوداء، والنّوم أسود والنّيران سوداء." (Éluard)، في استجلاء سريع للأسود أعلاه، يتّضح نزوع الشّاعر إلى التّشاؤم، وشعوره بالجمود الرّتيب، وظلمة الوجود المكتنف بالحزن والموت والبشاعة. لكنّ ذلك لم ينف شذراتٍ تفاؤليّة "جعلت العطر الأسود يفوح" (Éluard)، ولم تستسلم للقدر متطلّعةً إلى غدٍ "ستنحابُّ فيه، وسيضحك أطفالنا من الأسطورة السّوداء تاركين الأفق الأسود يبكي وحده (Éluard). "لم يستسلم الشّاعر للحزن بعد أن خطّ بالأسود على الورق والأرض والسّقف عن غياب السّعادة، نراه يذهب إلى الرّهان على الأطفال بمحو قتامة المشهد. يبرز افتتان إيلوار بتنويع شيفرات اللون الأسود ومباغتة المتلقّي بما يدهشه، لأنّه شاعرٌ سورياليّ لم يوفّر البرتقالة المسمّاة بلونها، فجعلها برتقالةً سوداء.

ثالثًا: اللون الأحمر

أ ـ غسّان مطر

يستولد اللون الأحمر دلالاتٍ كثيفة تبدأ بالحُبّ، ولا تنتهي بالنّار والجراح والدّماء. يختصر مطر حكايته مع هذا اللون بقوله: "وحده الأحمر لوني، إنّه اللون الّذي تقفز منه الكبرياء" (مطر، 1978 صفحة 70). ومردّ كبريائه أنّه ثائرٌ "سماؤه حمراء وأرضه حمراء وعينه حمراء". هذا الاحمرار هو احمرار الدّم والنّار في ثورة أبناء الأرض ضدّ محتلّيها: "أكتب، ولأنّ اللون الأحمر لون الثّورة

يُغريني، مزّقت شراييني وكتبْتُ لكم بدماء شراييني" (مطر، 1971 صفحة 181). بلغ التزام الشّاعر الأيديولوجيّ حدًّا جعله يكتب بدماء الشّرايين لا بالحبر شعر الثّورة. ينتمي الشّاعر إلى الحزب السّوريّ القوميّ الاجتماعيّ ذي الرّاية السّوداء الّتي تتوسّطها زوبعةٌ حمراء ترمز إلى "الشّهداء، وإلى العزم والقوّة والإقدام..." (سعادة، 1941 صفحة 77). أبرز الشّاعر زوبعة حزبه الحمراء في قوله: "وصارت طرحة العرس زوابع نخوةٍ حمراء تحمل نشوة الظّفر نشكّها في كل الدّروب" (مطر، 1971 الصفحات 45-135). يكمل الشّاعر اندفاعته في الثّورة حتّى الاستشهاد: "أكفاننا التفتت خجلى إلى شعلٍ حمراء تصرخ: هذا القبر يا كفني" (مطر، 1978 صفحة 14). يعود الشّاعر إلى ربط الأحمر بالنّار، فيرى طائرات العدوّ حمراء: تئزّ الطّائرات الحمر ترمي الموت في غارة" (مطر، 1971 صفحة 11). هي حمراء لأنّها تقذف حمم اللهب فتنشر الموت والخراب. ثمّ يذهب الشّاعر بالأحمر إلى الحُبّ: "كتبْتُ عن ليلى وعن هندٍ وعن دعد، وعن ليلاي الحمراء بين الخمر والورد" (مطر، 1971 صفحة 9). ثمّ يخالف المتوقَّع حين يجعل لون الحقد أحمر، ذلك الحقد المرغوب في قصيدة نشيد الحقد، لأنّه حقدٌ يصون الكرامة: "على اسمك الأحمر الهدّار أغنيتي جَرَّعتُها النّار والإعصار واللهبَ" (مطر، 1971 صفحة 61). يقترن هذا الحقد بالثّورة والغضب. ويظل الأحمر ملازمًا الموت في قصيدة "سرير أزرق لمحمّد"، المقصود به طفل الانتفاضة محمّد الدّرّة الّذي استشهد بين يدي أبيه في العام 2000: "إنّ النّوم أحمر يا محمّد، والمدينة جثّةٌ حمراء، فانزل عن صليب أبيك، واغرق في ضباب الموت" (مطر، 2001 صفحة 102).

ب ـ محمود درويش

ارتبط استخدام اللون الأحمر في شعر درويش أيضًا بالنّار والدّماء، وبالحبّ والحرب أيضًا. تلك الدّماء الّتي نزفت من الفدائيّ الّذي قضى لتحرير وطنه، فغدت وردًا أحمر: "مضى خليل ليمسح الأحزان عن وجه التّراب ويداه وردٌ أحمر في كلّ باب" (درويش، 1994 صفحة 252). حوّلت الشّهادة دماء خليل إلى ورودٍ للحرّيّة نبتت في تراب فلسطين، وعلى كلّ أبوابها. يذهب درويش في منحى مغاير، فيتحدّث عن عروس حمراء لن يزفّها غير الصّمود مستبدلًا فستان الزّفاف الأبيض بالأحمر، لأنّ هذه العروس ليست سوى أرضه السّليبة الّتي لا تُستعاد إلّا بالصّبر والصّمود والتّضحية. ثمّ نراه يلوّن الخبّيزة الخضراء، تلك النّبتة البرّيّة في تراب فلسطين بالأحمر بدلالة الخراب والدّمار، ويأتي إلى بحر بيروت فيراه أزرق، لكنّه يحمرّ في كلّ الشّهور إذا غضب. ولمّا يتعاظم الموت، ويتفاقم يضع له الشّاعر منقارًا أحمر، ويصل إلى استنتاج مفاده أنّ الأحمر ابتدأ من الأسود، كأنّه يقولُ من الحقد يسيل الدّم، وينشأ الصّراع الّذي يجعل غابة الزّيتون الخضراء في بلاده بركةً حمراء، لأنّها امتلأت بالدّماء.

ج ـ لوركا

يبقى الأحمر مع لوركا روحًا للثّورة، ولونًا للنّار والدّماء. في غرناطة لوركا يطلع

الورد من دماء طفلةٍ ميتة: "في الدّاخل هناك طفلةٌ ميْتة، ووردةٌ حمراء..." (مكّي، 1998 صفحة 166). ثمّ يسيل الدّم في مدينة الرّمّان غرناطة، وفي نهريها الأحمرين، نهرٍ يبكي ونهرٍ ينزف. هكذا يتراءى تاريخ غرناطة بين الدّماء والدّموع تلك المدينة الّتي كانت آخر مدن العرب في الأندلس تحت حكم بني الأحمر. وبقي لونها أحمر لكثرة ما شهدت من حروبٍ وأهوال.

د ـ بول إيلوار

لا يحيد إيلوار عن دلالات اللون الأحمر المذكورة عند أقرانه من شعراء المتوسّط. لكنّه برغم التزامه الشّيوعيّ، لم يذهب بالأحمر كثيرًا صوب الثّورة والنّار والدّم. إنّما كرّسه للحبّ، فراح يلوّن العاشقة: "حمراء عاشقة أقاسمك سعادتك، لأتلوّن بالألم". هو مستعدٌّ لشراكة في الحبّ قوامها سعادتها مقابل ألمه. وتأتي الحبيبة (نعتها أحيانًا بوردته الحمراء) لتُبْرِزَ الأحمر لونًا لخجلها: "لا أحد يعلم أنّي أَحمَرُّ عندما أعانق رجلًا في الليل". هذا الخجل يجعلها في عيون إيلوار: "خفيفة مثل خدٍّ تحت حمرة النّار الأولى". ينغمس إيلوار في الحبّ والنّساء، فنقرأه متحدّثًا عن أكثر من شفةٍ حمراء واحدة مع نقطةٍ حمراء واحدة. ويذهب بالأحمر أبعد من الحبّ، فيقرنه بالتّفاؤل حين يرى الحياة بالزّهر والأحمر، ثمّ يعود إلى الحبّ، فيرى أنّ ألوان الشّمس تجعل الخدّين أحمرين من الحبّ. ثمّ يذهب أحيانًا إلى أبعادٍ سورياليّةٍ مباغتة، فنرى في شعره حلزونًا مسلّحًا يمتطي ظهر فيلٍ أحمر (ترميز إلى عناصر الصّراع في مجتمعه)، ويردّ ضحكة حبيبته مرّة إلى البلاط الأحمر وغير ذلك من تهويمات ورؤى أخرجت الرّمز اللونيّ إلى دائرة تأويلٍ مبهمة.

رابعًا: اللون الأخضر

أ ـ غسّان مطر

يذهب غسّان مطر إلى الطّبيعة، فيحمل أخضرها لينثره على دروبه المؤلمة والدّامية كي تستعيد عذوبتها. إنّ الأخضر عند مطر هو لغة الله: "متى اخضوضرت لغة الله في الأرض يكون الرّبيع" (مطر، 2015 صفحة 40). يرمز هذا اللون إلى الفرح والخير والهناء، لذلك نرى الشّاعر يرثي ابنته لارا، فيستعيد صِباها المفعم بالجمال: "للارا متعة الخروج إلى خضرة الشّمس" (مطر، 1990 صفحة 12). لم تكُ الشذمس حمراء أو صفراء في عيون لارا. إنّها اخضرارٌ فيه اقترار الحياة بالحلم والرّجاء. لذلك فإنّ أباها يُشاطرها هذا الفرح المُعدي: "كان قلبي جدولًا أخضر" (مطر، 1990 صفحة 42). إنّ لون الماء في جدول قلبه يشبه لون الشّمس في عيون لارا اخضرارًا فيه مدًى أرضيّ من الجنّة السّماويّة الموعودة. وبقي هذا اللون معادلًا للسّماء وما فيها من نقاءٍ وسلام وخير يستعين الشّاعر بها ليكشف همّه وينير عتمة دربه: "وأرى في العتمة شيخًا يأخذني من قلبي لأصير ظلال سماء خضراء" (مطر، 2015 صفحة 69). يتسامى الشّاعر بالأخضر، ثمّ يلوّن الماء به لأنّه يروي الأرض فتخضوضر: "يصل الماء مخضوضرًا فامسحوا تعب الأرض" (مطر، 2001 صفحة 35). يرمز الاخضرار إلى

الخصوبة، ويعكسه الشّاعر على الطّبيعة كلّها، فلا يكتفي بأن يرى "وجه فلسطين حبّات زيتونٍ أخضر وعَلَمًا أخضر ورملًا أخضر وقلقًا أخضر وطيرًا أخضر، بل إنّه يرى أبناءها أيادي خضراء تغنّي لهم كلّ حبّة قمح مواويلها الخضر - مقتطفات من ديوانَي أقسمت لن أبكي وأحزان مشرّدة". ثمّ يذهب الشّاعر إلى الحُبّ، فيُلبِسُه حلّةً خضراء عندما يطلب من حبيبته أن "خَلّي عينيك صفحةً خضراء أكتب في سطورها كلّ أخباري" (مطر، 1971 صفحة 141). ويتحدّث في ديوان "مئذنة لأجراس الموت" عن قُبلةٍ خضراء في كأس النّدامى" (مطر، 1971 صفحة 74). لكنّه بعد حينٍ من الدّهر بلغ فيه عِتِيّا، يسترجع اخضرار عمره المصفرّ على يد امرأة: "تأخذك امرأةٌ تُعيد إليك الطّفولة، فتشعر أنّ صحراءك اخضوضرت" (مطر، 2011 الصفحات 68-69). يريد الشّاعر الانبعاث بهذا الأخضر في بلادٍ أحرقت طفولة ابنته، لذلك حاول بالشّعر أن ينفخ الرّوح في هذه الطّفولة: "طفلةٌ فوق صهوة غاباتها تُمسك الموت من روحه، ثمّ تخضرّ فوق هذا العراء" (مطر، 2001 صفحة 33).

ب - محمود درويش

كان اللون الأخضر أوّل الألوان في ديوان درويش الّذي عشق هذا اللون باحثًا فيه عن الحياة بما فيها من فرحٍ وخيرٍ وانعتاقٍ وانطلاق، لأنّه الفلسطينيّ الّذي ترتسم فلسطينه في ذاكرته جنّةً خضراء قبل أن تمتدّ إليها يد الاحتلال"غابة الزّيتون كانت مرّةً خضراء. كانت، والسّماء غابة زرقاء... ما الّذي غَيّرَها هذا المساء؟ ويختصر الشّاعر وطنه بالبيّارة الخضراء: "لماذا تُسحَبُ البيّارة الخضراء إلى سجنٍ إلى منفى وتبقى دائمًا خضراء؟ هذا الاخضرار هو رجاءٌ بغدٍ أفضل يكون الزّمان فيه ربيعًا "هذا مخاض الأرض، تضع الوليد غدًا ربيعًا أخضر". تَلَازمَ الأخضر وفلسطين في قصائد درويش، لأنّ ظلّها الأخضر أحيا فيه كلّ معاني الخير والخصب ليحيا على أمل العودة إليها. فعلى دربها تحوّلت الشّهادة من احمرار الدّم إلى اخضرار الخلود حين يسأل الشّاعر بلده: "كيف جعلْتِ موتي أخضر؟" وفي هذه البلاد مدينةٌ تُدعى حيفا سكنت روح جمال عبد النّاصر، فجعلها الشّاعر تقلّده في رحيله الأغاني موعدًا أخضر تخليدًا لاسمه الّذي كان بارقة أملٍ بخلاص فلسطين من عذابها المديد. أمّا ربط الشّهادة بالاخضرار، فهو اعتقادٌ بأنّ دماء الشّهداء مثل ماء السّماء تملأ الأرض بأسباب الاخضرار والانبثاق.

ج - لوركا

ما قيل عن درويش وفلسطينه ينطبق على لوركا وغرناطته، فاللون الأخضر في صدارة الألوان في ديوان لوركا ترتسم فيه الطّبيعة بجمالها: "خضراء، أحبّك خضراء، ريحٌ خضراء، أغصانٌ خضراء جسدٌ أخضر، غدائر خضراء في شرفةٍ خضراء" (مكّي، 1998 الصفحات 77-79). فلنلاحظ كيف تَلَوّن الإنسان بالأخضر يعكسه عليه المكان، فيصير الوجود أخضر بكلّ جزئيّاته وتفاصيله.لا غرابة أن ترى الغصن أخضر،

لكن أن ترى الجسد أخضر ومعه الشّرفة والرّيح، فهذا تظهيرٌ لرؤية لوركا الرّاغبة في إسباغ الخضرة على كلّ ما حوله تعميمًا للخير والرّجاء يستعين بهما على ما يعترض دربه من مصاعب ومصائب. إنّ الخُضرة تُؤْذن بحياةٍ متجدّدة، أمّا ربطها بالجسد فمحاولةٌ لإضفاء الفرح على قلبٍ ينبض فيه كي يتفاءل بأنّ الحياة ولّادَةُ خيرٍ وبرَكَة. هكذا ينقل الشّاعر الاخضرار من الأغصان، ليملأ بها كلّ الدّروب والقلوب. لكنّه لا يلبث أن يرى الأخضر لونًا للسّموم: "أقاوم غروب سموم خضر" (مكّي، 1998 صفحة 60). يأتي الغروب الأخضر شاحبًا وكئيبًا ينبئ بالعتمة والألم، لذلك قاومه الشّاعر دفاعًا عن الفرح والأمل. ثمّ يبتعد لوركا عن التّشاؤم، فيُعيد الأخضر إلى وجوه النّاس ليرى "على وجه البشر بَشَرَةٌ خضراء، وشَعرٌ أخضر"، فكأنّه ينظر إلى النّاس من مرآة غرناطة، ويتوسّم فيها مظاهر التّجدّد والجمال والأمل والفرح.

د ـ بول إيلوار

حاكت رمزيّة الأخضر في شعر إيلوار ما سبقه إليه الآخرون، فهو العاشق المُتيَّم، والوطنيّ الملتزم الّذي قال: "يخفق القلب في الاخضرار"، وزاد من اخضرار جسمه وروحه مضيفًا: "الأخضر يرتجف في دمي السّجين". وما ارتجاف الدّم وخفقان القلب بالأخضر إلّا نزوعٌ إلى الانعتاق والانطلاق نحو آفاقٍ واعدة من الحرّيّة والحبّ. ويأتي الأخضر لون الرّجاء الملحاح بغدٍ أفضل: "الشّتاء والنّسيان لا يؤذِنان إلّا بمستقبلٍ أخضر". والأخضر يبدأ من طلوع الشّمس وإشراقة النّهار: "في ضوء الصّبح فاكهةٌ خضراء، هكذا تُولدُ الأضواء".ثمّ تأتي الورقة الخضراء، فتلهم النور بخضرتها المتوهّجة. يحيط الأخضر بالشّاعر من كلّ الجهات، فيغرق فيه ويستغرق: "ذكريات من الخشب الأخضر ضبابٌ فيه أغرق". ولا يكتفي الشّاعر بإغراق البرّ بالأخضر، فيذهب إلى البحر: "أوه! ورقةٌ خضراء يغطّي بها البحر أجنحته". ليست الخضرة في عقل إيلوار وقلبه غصنًا وشجرا، بل هي: "أفكارٌ بريئة وشُعَلٌ وأجنحةٌ من خضرةٍ لم تخترعها الشّمس". ويبدأ اليوم عادةً كئيبًا أسود تحت أشجارٍ خضراء أحيانًا، فتنقلب أنوار الأخضر بشكلٍ مغايرٍ لما سبق، ويصبح عتمةً مُوحية: "مزجَ الضّباب نوره بخضرة العتمة". كأنّ هذا الامتزاج بين الرّماديّ والاخضر يقترب بالشّاعر من السّوداويّة والتّشاؤم، فينقلب الأخضر الرّبيعيّ إلى خريف، وتصبح خضرة الخير رمزًا للجشع: "ذروة الخريف من الخضرة الجشعة". لكن سرعان ما يتماسك الشّاعر، فيرى الأخضر نهرًا مُتَفَتِّحًا، وحجارةً مرصوفة، وغابةً نَدِيَّة، لا بل يغدو نيرانًا مُؤْذِنَةً بطلوع النّهار وتجدّد الحياة: "تفتح النّيران الخضراء فم الفجر وعينه. "ما عاد الشّاعر يخاف شيخوخته: "سيكون عندي ذكرياتٌ مقترنةٌ بشيخوخةٍ خضراء". ثمّ يستجمع الأصدقاء، فيراهم "غابةً حاشدة من الينابيع الخضراء". وفي ذلك رمزيّة الشّباب والوفاء والمحبّة. يذهب إيلوار إلى الإبهام، فنرى "الخُضرة سيّارة صيفٍ ثابتةً ومجيدةً دائمًا، وتزهر الدّبابير خضراء في تلك الأرض الزّرقاء كبرتقالة" (Éluard). وينفتح أفق التّأويل في استخدام

اللون هنا على الكثير من الدّلالات الإيجابيّة الّتي لا مجال للتّوسّع بها في هذا البحث القصير.

خاتمـــة

إنّ دراسة رمزيّة هذه الألوان في شعر المتوسّط شرقه وغربه أظهرت إيحاءاتٍ متشابهة تُشعِرُ الباحث بأنّه يقارب الرّموز اللونيّة في نتاج شاعرٍ واحد، لولا بعض اللمعات الّتي كسرت آفاق المتوقّع لا سيّما في سورياليّة إيلوار الّذي انطلق في رؤياه الشّعريّة من مغايرة الواقع متفلّتًا من رتابة المنطق وحدود الفكرة، ليأخذها اللاوعي إلى الشّعريّة المطلقة في صياغةٍ جماليّةٍ سهلةٍ ممتنعة. لا يعني ذلك أنّ الآخرين اكتفوا بالوضوح والمُباشرة، لأنّ شواهد شعرهم أظهرت جدّة في استخدام الرّموز اللونيّة. على العموم لاحظنا ائتلافًا في مقاربة الألوان قد يكون مردّه أنّ الإطار الطّبيعيّ للمتوسّط جعل من فلسطين ولبنان وفرنسا وأسبانيا جغرافية متشابهة. ويمكن أن نضع شعر هؤلاء الأربعة في إطاره التّاريخيّ، فنجد أنّ الحروب تعاقبَت في بلادهم، فصبغت ألوان شعرهم بدلالاتٍ موحية موحّدةً حيفا وبيروت وغرناطة وباريس في مكابدة معاناةٍ إنسانيّةٍ واحدة هي نكبة احتلال في فلسطين، وحربٌ أهليّةٌ في لبنان وأسبانيا، وحربٌ عالميّةٌ ثانيةٌ في فرنسا. لذلك يأخذنا الشّعراء بألوانهم إلى عوالم قصيّةٍ تتجاور فيها الألوان وتتداخل، فتنقلب حمرة الشّمس حينًا إلى خضرةٍ موحية، ويصبح فستان الزّفاف أحمر، وتتلوّن النّار بالأسود، وتكثر انزياحات الألوان عن مدلولاتها المتعارفة لتكشف إبداعًا شعريًّا يلعب بالألوان، ويطوّعها في خدمة التّجربة الشّعريّة في لغةٍ جديدةٍ مبتكَرَة تتداخل فيها معطيات الحواس والخيال لترسم لوحةً شعريّةً فيها من الفرادة والجِدّة ما يُمتع المتلقّي، ويملأ النّصّ برؤى جديدة تستدعي قراءة تعي الرّموز اللونيّة وتحيط بتنوّع دلالاتها وتطوّرها ودورها في الإبداع الشّعريّ على ضفّتي المتوسّط.

أ. يونس زلزلي

المصادر والمراجع

قائمة المراجع العربيّة

1. الأعمال الشّعرية الكاملة [كتاب]/ المؤلف فيديريكو غرسيه لوركا ترجمة محمود علي مكّي. القاهرة: المركز القومي للتّرجمة، 1998.

2. أحبّك أو لا أحبّك [كتاب]/ المؤلف محمود درويش. بيروت: دار العودة، 1970.

3. أحد عشر كوكبًا [كتاب]/ المؤلف محمود درويش. بيروت: دار العودة، 1992.

4. أحزان مشرّدة [كتاب]/ المؤلف غسّان مطر. بيروت: الحركة الثّقافيّة في لبنان، 2015.

5. أقسمت لن أبكي [كتاب]/ المؤلف غسان مطر. بيروت: دار المسيرة، 1978.

6. الأعمال الكاملة الجزء العاشر [كتاب]/ المؤلف أنطون سعادة. بيروت: دار سعادة للنشر، 1941.

7. اللون ودلالاته في الشّعر [كتاب]/ المؤلف ظاهر محمّد الهزّاع. عمّان الأردن: دار الحامد، 2008.

8. بول إيلوار بأسراره الشّخصيّة [كتاب]/ المؤلف أنطوان جوكي. إيفيان سويسرا: جريدة الحياة، 10 نيسان 2013.

9. تطوّر الدّلالات اللغويّة في شعر محمود درويش [كتاب]/ المؤلف سعيد جبر محمّد أبو خضرة. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 2001.

10. جماليّات الموت في شعر محمود درويش [كتاب]/ المؤلف عبد السّلام المساوي. بيروت: دار السّاقي، 2009.

11. خطبة الهنديّ الأحمر [متصل]/ المؤلف محمود درويش// mahmouddarwish.com.- http://www.mahmouddarwish.com/ui/english/ShowContentA.aspx?ContentId=41.

12. ديوان محمود درويش المجلد الأول [كتاب]/ المؤلف محمود درويش. بيروت: دار العودة، 1994.

13. صار ضوءًا ونام [كتاب]/ المؤلف غسّان مطر. بيروت: الفرات للنّشر والتّوزيع، 2011.

14. عزف على قبر لارا [كتاب]/ المؤلف غسّان مطر. بيروت: دار فكر للطّباعة والنّشر، 1990.

15. للموت سرّ آخر [كتاب]/ المؤلف غسّان مطر. بيروت: دار رياض الرّيّس، 2009.

16. مطر ناعم في خريف بعيد [متصل]/ المؤلف محمود درويش// adab.com. الموسوعة العالميّة للشعر العربي، 2018.- http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=64818.

17. مئذنة لأجراس الموت [كتاب]/ المؤلف غسّان مطر. ـ بيروت: دار أمواج، 2001.

References

1-L’évolution Esthétique de Paul Eluard [Ouvrage]/ aut. Mingelgrün Albert.- Lausanne: L’Âge d’Homme.

2- CITATIONS DE PAUL ÉLUARD [En ligne]/ aut. Éluard Paul// babelio.com.- https://www.babelio.com/auteur/Paul-luard/2837/citations.

3- CITATIONS DE PAUL ÉLUARD [En ligne]/ aut. Éluard Paul// babelio.com.- https://www.babelio.com/auteur/Paul-luard/2837/citations?a=a&pageN=5.

4- Couleurs [En ligne]/ aut. Lorca Federico Garcia// poetica.fr.- https://www.poetica.fr/poeme-538/federico-garcia-lorca-couleurs/.

يوسف يزبك، وأدلجة التاريخ

كميل مرهج

مقدمـــة

إن الكثير من عظماء الفكر عبر التاريخ لم يعتمدوا منهجًا أكاديميا سابقًا لهم. بل إن عملهم الفكري ونتاجهم التراكمي أضحى منهجًا اعتمده خلفاؤهم مقياسًا تقويميًا للعمل الفكري والعلمي. فمعلّمو الفكر والفلسفة وجدوا في سقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون وغيرهم من الكبار، مدرسة اعتمدوها مقياسًا للفكر الفلسفي. أما الاطباء فكان لهم أبقراط أستاذًا انتسبوا إليه، وقلّدوه أو زادوا على معرفته معارفَ، ونشطت عند العرب مهنة الطب في أمبراطوريتهم، وتوصّل الرازي (الفارسي) لان يصبح مصدرًا في المعرفة الطبية خلال عصر النهضة الأوروبية.

أما الحساب والهندسة فقد كان لهما أباؤهما أيضا بدءًا من بيتاغور واضع جدول الضرب وصولا إلى الخوارزمي الذي نسب اليه فرع الـ **Algorithm** في الرياضيات.

بالإضافة إلى أنّ الحاجة إلى وضع تقويم زمني دفع بالانسان إلى مراقبة النجوم مما أدى إلى نشوء علم الفلك.

إن هذه الحركات الفكرية لم تأتِ على سبيل الهواية إنّما نشأت لتغطية حاجة أو بالأحرى حاجات معرفية ملحّة أثارت اهتمام البشر الذين خاضوا غمارها مدفوعين بالفضول الذي تحوّل لاحقا إلى علوم تقولبت في قوالب منهجية قائمة على أسس وقواعد.

إن الفضول البشري لمعرفة محيطه المرئي والماورائي أوجب على الإنسان معرفة الأحداث السابقة لعهده، وذلك في خضم التحوّلات الحديثة عبر الزمن، فأخذ في تدوين هذه الأحداث من خلال آداب شعبية شعرية كالإلياذة والأوذيسة والترانيم الدينية وغيرها أو عبر قصص وروايات نثرية عبر قالب ديني كالتوراة. أما بالنسبة للكتابة التاريخية فيسجل أوّل تدوين جدّي لها مع هيرودوت اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد.

ورغم أنّ الكتابة التاريخية المنهجية قد تأرجح أسلوبها بين التطور والانحطاط، فإن تراكم المادة التاريخية قد أفاد واضعي التاريخ المنهجي في ربط الأحداث الماضية لجعل المعرفة التاريخية مترابطة ومتناسقة ومصوبة بشكل شبه تام تقريبا.

وقد تطوّرت الكتابة التاريخية منذ عصر النهضة حتى وصلت أوائل القرن العشرين إلى كتابة منهجية موثقة تعتمد على الوثائق والأصول المكتوبة إضافة إلى العلوم الموصلة على كافة أنواعها.

وإن هذه الكتابة تختص بكتابة التاريخ الماضي القريب منه والبعيد. أما بعض الكتابات المعاصرة للحدث فإنها تقوم على التدوين الفوري الذي يصبح مصدرا للكتابة التاريخية المقبلة، أما الصحافة التي نشأت في العصور الحديثة فهي شكل من أشكال تدوين التاريخ. وهي بحد ذاتها مصدرٌ من مصادر المعرفة للمعلومات التاريخية. ورغم ذلك فإن رجال الصحافة ليسوا بمؤرخين ولم يدرّسوا منهجية الكتابة التاريخية، بل إن متابعتهم لسير الأحداث ومحاولتهم لسبر دقائق الحقيقة جعلهم في الكثير من الأحيان واعين لمنطق نشوء الحدث وأسراره. وهذا ما جعل من بعض هؤلاء كتابًا يصنّفون في مصاف المؤرخين من دون أن يكونوا قد تتبعوا الخطوات الأكاديمية التاريخية. وسأحاول في ما يلي أن أسلّط الضوء على أعمال المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك الذي ولد وعاش في القرن العشرين، قرن المنهجية التاريخية، لأجيب على السؤال الذي يطرح عادة. هل التزم هذا الكاتب بالمنهجية التاريخية؟ ام إن كتاباته تأتي في تصنيف آخر غير التاريخ؟

أولاً: حياة المؤلف

ولد يوسف ابراهيم يزبك في مدينة القدس سنة 1901 حيث كان والده يعمل مصحّحا للمطبوعات العربية في مطبعة الرهبان الفرنسيسكان. وكان والده ابراهيم، بالإضافة إلى ذلك، أديبًا وصحافيًا، غير أنه ما لبث أن توفي سنة 1904 وكان عمر يوسف حينها ثلاث سنوات، فعادت الوالدة أدال مع أولادها إلى منزل والدها يوسف بك الشدياق في حارة البطم في قرية الحدث قرب بيروت.

دخل يوسف مدرسة مار يوسف الانطونية سنة 1906 حيث تتلمذ على نسيبه ومربيه المدبّر يوسف الشدياق ومعلّمه وديع عقل الذي لقّنه أصول البيان والخطابة والعروض.

عاصر يوسف على مقاعد الدراسة تلامذة عديدين تبوأوا أعلى المناصب السياسية في لبنان أشهرهم الرئيس كميل نمر شمعون (الذي شغل المنصب الأول ما بين عامي 1952 و 1958) بالاضافة إلى السفراء والقضاة والنواب وضباط الجيش والأدباء وغيرهم.

ترك يوسف المدرسة سنة 1916 وذلك بعدما أمر جمال باشا بإقفال مدارس المتصرفية كلها، وقد نال شهادة انتهاء الدروس بتفوّق. وكان جمال باشا يومها قد حوّل مدرسة دير مار يوسف الأنطونية إلى ثكنة عسكرية، وذلك ان بعبدا كانت العاصمة الشتوية للمتصرفية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انتقل إلى بيروت حيث عمل مترجمًا في دوائر جوازات السفر وبدأ يتدرج في الصحافة والعمل السياسي. وإن زمالته للنخب الفكرية خلال دراسته بالاضافة إلى تردده المنتظم على مكتبة دير مار يوسف في الفترة نفسها، أتاحت له تكوين فكر وموقعً سياسي سبّاق، وظّفه في نضال وصراع مفتوح من أجل وطنه وشعبه

مطالبًا بالحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية.

شارك يوسف يزبك في تأسيس حزب الشعب اللبناني سنة 1925 وبدأ يناضل ضد الانتداب الفرنسي، مما تسبّب باعتقاله ونفيه إلى أميون وجزيرة أرواد، ومن ثم إلى فرنسا حيث التحق بالمعهد العالي للعلوم السياسية في باريس. وعندما عاد إلى لبنان سنة 1927 تفرّغ للعمل الصحافي فأسس جريدة "الانسانية" تيمّنا بزميلتها الفرنسية "L'Humanité" إلا أن السلطات الفرنسية عطلتها بعد قليل من صدورها.

عمل يوسف يزبك في تحرير صحف عديدة منها:

- "الأحرار" مع جبران تويني وغيره.
- "الحديث المصور".
- "الجمهور".
- "اليوم" مع تلميذه في الصحافة، وصديق عمره، عفيف الطيبي.

وشارك يوسف يزبك في تحرير عدد كبير من الصحف كـ "المعرض"، و"البرق" و"النهار"، و"الجريدة"، و"السفير"، و"الطريق"، و"المستقبل"، و"الشعب". كما أسهم في تأسيس مجلتي "الأسبوع العربي" و"المغازين" اللتين رئس تحريرهما في الستينات. وفي هذه الأثناء أسس جريدته "السيّار" التي عطّلت السلطات الفرنسية صدورها بسبب مواقفها الجريئة، والمدافعة عن استقلال لبنان وسيادته.

أما بالنسبة لنشاطه في الحقل التاريخي فقد تَوّجَهُ في مجلته التوثيقية "أوراق لبنانية" التي لا يزال يعاد طبع مجلّداتها الثلاثة حتى اليوم، اي بعد حوالي خمسين سنة على توقف صدورها.

تزوج يوسف يزبك سنة 1938 من الآنسة لور خليل نادر من بلدة الحدت فرزقا أربعة أطفال، ثلاثة صبيان وبنت وهم:

- ابراهيم: صحافي وأديب عملَ في فرنسا.
- حنان: أرملة الدكتور نزيه خوري.
- عمر: توفي في العقد الخامس من العمر.
- مارون: دكتور في الحقوق وعلّم في أكثر من جامعة، منها الجامعة اللبنانية.

ومن نشاطات مؤرخنا أيضا أنه أوّل من علّم تاريخ الصحافة في كلّيّة الإعلام في الجامعة اللبنانيّة منذ تأسيسها وقد شارك في العديد من المؤتمرات الفكرية والسياسية في لبنان والعالم العربي محاضرًا وخطيبًا وزار معظم بلدان العالم مستطلعًا وباحثًا عن كل ما يفيد تاريخ لبنان. وأتيح له أن يقيم علاقات صداقة متينة وأخوة مع عدد من الزعماء العرب منهم الملك غازي والحبيب بورقيبة وشكري القوتلي الذي أهداه مصنوعة خشبية مزخرفة (تسنى لي رؤيتها عند زيارتي إلى منزله في الحدت)

ومن أهم نشاطات يوسف يزبك أنه شارك في أعمال المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني سنة 1962 وذلك مع الوفد المرافق للبطريرك الماروني بولس المعوشي.

ومع اندلاع الحرب اللبنانية سنة 1975 غادر يوسف يزبك لبنان إلى باريس حيث أسهم في مجلة "المستقبل".

وفي نيسان 1982 عاد إلى لبنان فأصيب بنوبة قلبية وتوفي في 25 حزيران 1982 في منزله الكائن في بلدة الحدت. وقد كان يحضّر حينها لمؤتمر مؤرخي العرب في بغداد حيث كان يشغل منصب نائب الرئيس.

والجدير في الذكر ان جامعة Sheffield البريطانية كانت قد منحته شهادة دكتوراه فخرية في فلسفة التاريخ.

ثانياً: فكره السياسي والاجتماعي

تأثر فكر وعمل يوسف يزبك بثلاثة أمور أولها أحداث القرن العشرين، وثانيهما عمله في مجال الصحافة، وثالثهما صداقته مع النخب الفكرية والسياسية في لبنان والخارج.

عاش يوسف يزبك في القرن العشرين فعاصر أحداثًا جسيمةً على الصعيد المشرقي والعالمي منها الفكري والإيديولوجي والسياسي والعسكري والاقتصادي والكل يعلم ما جرى في القرن العشرين من تحوّلات.

ففي مطلع شبابه عاش أحداث الحرب العالمية الاولى، والأهوال التي أصابت الشعب اللبناني من جرائها. وشاهد القمع والتعسف اللذين مارسهما جمال باشا على اللبنانيين، والفقر والموت جوعًا والامراض التي عمّت جبل لبنان حينها، والاعدامات خصوصا التي طاولت رجال الفكر.

وسمع بأخبار ثورة الشعب والعمال في روسيا فتأثر بأخبارها وشارك في منتصف العشرينات بتأسيس حزب الشعب المناهض للانتداب الفرنسي على لبنان، غير أن يوسف يزبك لم يلتزم بالعقيدة الشيوعية او بالعمل السياسي بحسب إملاءات القوى الخارجية.

كما أنه عايش الأزمة الاقتصادية العالمية أوائل الثلاثينات من القرن الماضي. وعايش كذلك صعود الفاشيّة والنازية والحرب العالمية الثانية، وناضل في هذه الأثناء من اجل استقلال الدولة اللبنانية.

كما أن عمله في الصحافة قد ألزمه بالتعاطي مع الشأن العام. فالقطاع الصحافي يلزم على المشتغل فيه أن يكون موجودا في صلب الحدث وأن يتابع الأخبار والأحداث وأن يكون له موقفٌ منها، بالإضافة إلى أنّ عمله الطويل في هذا المجال قد أثر فيه. وإني قد سبق وذكرت الصحف التي ساهم في تحرير صفحاتها أو ساهم في صدورها أو أسّسها.

بالاضافة إلى ذلك فإنه لا يمكن التغاضي عن صداقته للنخب اللبنانية والعربية وما كان لها من تأثير على أعماله وأفكاره ونشاطاته. ومن أصدقائه:

- الرئيس بشارة الخوري الذي ساعده لوضع مذكراته (حقائق لبنانية) رغم العداء السياسي بينهما.
- الرئيس كميل شمعون
- فكتور خوري: شغل منصب سفير لبنان في فرنسا.
- ميشال ضومط: كان نائبا ووزيرا.
- عادل شهاب: شغل منصب قيادة الجيش.

أما عربيا فقد ذكرت سابقا بعض رؤساء الدول التي أتيح ليوسف أن يقيم معهم صداقة متينة. ولا ننسى أن نذكر أنّ يوسف يزبك كان محط احترام وتقدير من معظم رجال السياسة والثقافة في لبنان والبلدان العربية.

في غمرة هذه الأحداث والصداقات والوظائف التي شغل، خرج يوسف يزبك يحمل عدّة هواجس أمضى حياته في الدفاع عنها، ومنها:

1) القضية اللبنانية، والاستقلال عن فرنسا، وعن الداخل السوري. فيوسف يزبك ناهض الانتداب الفرنسي وتحمل مشقّات الاعتقال والنفي من قبل السلطات الفرنسية. أما في ما خصّ الدفاع عن استقلال لبنان عن سوريا، فإنه كان الصوت الوحيد في مؤتمر الساحل سنة 1936، الذي دافع عن استقلال لبنان عن سوريا في مرحلة كانت القوى الاسلامية مدعومة ببعض القوى الثقافية المسيحية تدعو إلى زوال لبنان واعادة ضمّه ودمجه مع سوريا.

2) الوحدة اللبنانية الداخلية: كان يسلط الضوء على النصوص التي تشير إلى وحدة الشعب اللبناني، من خلال مواقف وطنية لا طائفية وذلك لترسيخ التعايش الذي كان يسود الشعب اللبناني عبر التاريخ، نابذا الأحقاد التي ولدتها الاحداث اللاحقة، والتي قامت بفعل الأيدي الغريبة.

3) وقد كان من أشد المتحمسين لصيغة عقلانية علمانية تنقذ لبنان من الانقسام الطائفي الذي يتخبط فيه. ولا ننسى أنّ يوسف يزبك كان أحد الذين صاغوا الميثاق الوطني سنة 1943، وكان يحاول جاهدا استغلال المناسبات العامة للتعريف به.

4) كان يوسف يزبك مدافعا عن العروبة والعرب، وفي الكتاب الذي نشره ابنه ابراهيم "الجذور التاريخية للحرب اللبنانية" رأيت نصوصًا تدافع عن العرب والحضارة العربية وتسلط الضوء على انحطاط حكم الأتراك ورجالاتهم. أما كتابه "النفط مستعبد الشعوب" فما هو إلا صرخة توعية للحكام العرب حتى لا يقعوا تحت ثقل حمل مردود النفط فيستعبدوا شعوبهم لمصلحة الغريب، ولضمان بقائهم في مناصبهم.

5) الانحياز الكامل إلى جانب الفقراء والعمال والمضطهدين وهذا ما دفعه إلى المشاركة في تأسيس حزب الشعب ذات الخلفية الشيوعية. ورغم أنه تخلى عن انضوائه في الحركة الشيوعية فإن كتاباته استمرت تحمل معاناة الإنسان وتدعو إلى الإنصاف ما بين البشر.

ثالثاً: مؤلفاته

عاصر يوسف يزبك جيلا من المؤرخين منهم: بولس نجم (جوبلان)، وعيسى اسكندر المعلوف، واسماعيل حقي الذي اشرف على جمع كتاب "لبنان، مباحث علمية واجتماعية"، والأب لامنس اليسوعي، وأسد رستم، وجواد بولس، وفيليب حتّي وغيرهم.

انصرف يزبك إلى كتابة الأحداث

انطلاقا من التاريخ العام للشعوب المقهورة، وحاول تسليط الضوء على أحداث المنطقة العربية واللبنانية منها بالتخصيص، فلبنان كان قضيّته الأولى حتى وفاته.

ومن مؤلفات يوسف يزبك:

1) "مأساة المواشي البشرية في طريقها إلى بلاد الله": يروي معاناة المهاجرين اللبنانيين في طريقهم إلى بلاد الاغتراب، مطبعة المصباح، بيروت، 1929.

2) "النفط مستعبد الشعوب" مطبعة الفن الحديث، بيروت 1934. ويعالج الكتاب مسألة النزوة النفطية وما قد تسبّبه للعرب من مشاكل إن لم يحسنوا استخدام هذه الثروة.

3) "14 تموز"، منشورات الطليعة بيروت 1936: يتكلم عن نضال الشعب العراقي ضد الانتداب البريطاني.

4) "المحرّرون": مطبعة الاتحاد، بيروت 1927. يعالج نضال شعب العراق ضد البريطانيين أيضا.

5) "فقير أمام القضاء"، بيروت، 1927. وهي ترجمة لرواية "أناتول فرانس" بتصرف.

6) "ثورة وفتنة في لبنان": منشورات مجلة الطليعة، بيروت 1938. هي مصدر تاريخي بقلم أنطوان ضاهر العقيقي، تروي تاريخ الجبل من 1841 حتى 1873. نشرها وشرحها وعلق حواشيها يوسف يزبك.

7) "دريفوس": مطبعة الاتحاد، بيروت، 1939. وهو ضابط يهودي فرنسي اتهم بالخيانة وشغلت قضيته فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر. وقد كتب يزبك تحليلا دقيقا للمشكلة هذه من أبعادها الاجتماعية والدينية والسياسية.

8) "ليلة المصمك": بيروت، 1953. رواية تحرير الرياض على يد الأمير عبد العزيز بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية.

9) "أوراق لبنانية": 1955ـ 1958 مجلة تاريخية متخصصة تعنى بنشر الوثائق التاريخية اللبنانية. وقد نشر فيها أخبارًا نادرة ووثائق قيّمة عن تاريخ لبنان القديم والحديث. وجمعت بعد وفاته في ثلاثة مجلدات عن دار الرائد اللبناني، بيروت 1983.

10) مؤتمر الشهداء": منشورات "أوراق لبنانية" بيروت 1957. يروي الكتاب أخبار الشهداء الذين علقهم جمال باشا السفاح على المشانق مع رسومهم.

11) "كتاب الشهيد": لفيليب قعدان الخازن، مهّد له وكتب مأساته يوسف ابراهيم يزبك. منشورات "أوراق لبنانية"، بيروت، 1957.

12) "تطوّر الشعور العربي": منشورات أوراق لبنانية، بيروت 1957.

13) "ولي من لبنان": منشورات أوراق لبنانية، بيروت 1960. رواية سيرة العارف بالله الامير السيّد جمال الدين عبدالله التنوخي.

14) "داوود عمّون"، منشورات "أوراق لبنانية"، بيروت 1962.

15) "حكاية خمسين ألف سنة في ربع ساعة": ألقاها في مؤتمر المغتربين الأول

1972 في قاعة الأونيسكو في بيروت.

16) "حكاية أول نوّار في لبنان والعالم": (من مذكراته الخاصة التي لم يكملها)، دار الفارابي، بيروت 1974.

17) "الجواد العربي": باريس، 1982، وهو مؤلف غير تاريخي.

18) "الجذور التاريخية للحرب اللبنانية" أصدره ابنه ابراهيم بعد وفاة المؤرخ بعشر سنوات وهو مجموعة آراء وخواطر وتحليلات عبّر فيها يوسف يزبك عن خيبة أمله من استعادة لبنان لاستقلاله وسيادته، وعن شعور عميق بالاستياء من تصرّف اللبنانيين تجاه وطنهم وتجاه بعضهم). وقد صدر الجزء الأول منه عن دار نوفل، بيروت 1993.

والجدير بالذكر أن الكتابين الأخيرين صدرا بعد وفاة المؤرخ.

رابعاً: توصيف الكتاب

إنّ كتاب "الجذور التاريخية للحرب اللبنانية (من الفتح العثماني إلى بروز القضية اللبنانية)"، هو مجموعة مقالات تسلّط الضوء على جوانب مختلفة في الحياة السياسية والدبلوماسية والاجتماعية والدينية والعقائدية في الجبل اللبناني. الكتاب مكوّن من اثنين وعشرين مقالًا، ومقدمة، ومقطع من رسالة وجهها الشيخ عبد الله العلايلي إلى المؤرخ وضعت في مطلع الكتاب. والثلث الأخير من الكتاب مخصص للهوامش والاستدراكات ثم فهرس.

طبع الكتاب على ثلاثماية صفحة من الحجم المتوسط بمعدل، حوالي أربعة وعشرين سطرًا في الصفحة وتسع كلمات للسطر الواحد.

نشره الصحافي إبراهيم يزبك ابن المؤرخ يوسف بعد وفاة والده بالاشتراك مع دار نوفل، بيروت، سنة 1993. ويشير إبراهيم ابن المؤرخ إلى أنّ والده وضع هذه الحقائق ردًا على تساؤل المواطن اللبناني عن مغزى الحرب الأهلية في لبنان، التي اندلعت سنة 1975.

يعالج الكتاب حتى الصفحة (60) قضايا تختص بالإمارة المعنية وحتى الصفحة (94) قضايا العهد الشهابي. ثم يسهب في طرح أسباب حروب 1841 حتى 1860 وموقف يوسف بك كرم الوطني والعروبي حتى الصفحة (200) وهي آخر الكتاب. وفي الصفحة (200) حتى (298) هوامش واستدراكات وآخر صفحتين للفهرس.

المواضيع المعالجة: طرح يوسف يزبك في كتابه مواضيع متفرقة غير متماسكة وهو في ذلك لا يرمي إلى كتابة تاريخ لبنان بل تسليط الضوء على السقطات السياسية واللمعات الوطنية من خلال رؤية شاملة متأثرة بالفكر العلماني غير المتزمت.

فقد عالج المؤرخ قضية لبنان كدولة من خلال معالجته قضية الشعب اللبناني خلال القرون الخمسة الأخيرة، مظهرًا فرادة كل من طوائفه ودورها الوطني والإنساني، ورقي رسالتها، وانحطاط بعض قادتها، وسمو ونبل البعض الآخر. ويفصل بوضوح ما بين الدعوات الدينية

السامية وأعمال التعصب الدنيوية المنحطة.

ويطرح المؤرخ الوضع السياسي اللبنانيّ من خلال رؤية شاملة تبدأ من التجاذبات الدولية والإقليمية وصولا إلى المحلية على أشكالها.

فموقع لبنان جعله عقدة وصل ما بين القارات الثلاث جغرافيا، وما بين الشرق والغرب ثقافيا، وما بين حضارات الشرق فكريا ومذهبيا. وبدل ان يكون هذا الموقع الجبلي الفريد نعمة على سكانه، تحول إلى لعنة مرضية أصابتهم بداء الانقياد الدائم إلى جانب الطرف هذا او ذاك من المتنافسين على زعامة المنطقة.

إقليميا: فوضع لبنان في التنافس الإقليمي، أظهره المؤرخ من خلال الحرب العثمانية المملوكية ثم الحرب بين الولاة العثمانيين في كل من دمشق وعكا ثم صيدا، وأخيرا الحرب الفاصلة بين زعامة اسطنبول وزعامة القاهرة المتمثلة بالسلطة الطموحة الناشئة مع محمد علي الضابط العثماني السابق، الذي فاق سيده دهاء وقوّة. ولم ينجِّ السلطنة الّا التنافس الأوروبي الذي فضّل الإبقاء على الرجل المريض حيًا، إلى حين. إن هذه التنافسات جرّت على لبنان المآسي والويلات خاصة مع تحالف بشير الثاني الشهابي مع ابراهيم ابن محمد علي.

دوليًا: ركز المؤرخ على التنافس الأوروبي الذي جعل من الجبل اللبناني إحدى ساحات معركته الأمبريالية ولأسباب متعددة. فبريطانيا كانت تسعى دومًا إلى منع أي نفوذ فرنسي في الشرق حتى لا يتمدّد ويشكل خطرًا على نفوذها في امتداد اتصالها مع شبه القارة الهندية.

أما فرنسا والنمسا فكانت كل منهما تسعى إلى استثمار كاثوليك لبنان من أجل تنفيذ سياساتهما الاستعمارية المغلّفة بغطاء مذهبي ديني.

أما روسيا فإنها في سعيها للوصول إلى المياه الدافئة، استثمرت الطائفة الأورثوذكسية في شرق أوروبا وبلاد السلطنة العثمانية من دون النظر إلى مصلحة هذه الطائفة ومؤمنيها، وكم جرّت هذه السياسة من مآسٍ على الشعب المسكين، فإن هذه السياسات ثمنها دماء لبنانية.

محليًا: أما محلّيًا فان يوسف يزبك قد سلّط الضوء على معظم التناقضات، بمجمل أشكالها، بدءًا من صراع الأمراء والمشايخ ورجال الإقطاع. ويصنف معارك القيسية واليمانية ثم يعود ويلقى الضوء على الانقسام اليزبكي الجنبلاطي، وأصول التحزب اللبناني. والتحزب العائلي، والصراع على الإمارة، وصراع الإمارة مع الإقطاع.

دينيًا: أما التناقضات الدينية، فإن المؤرخ قد عالجها بوعي كبير، موضحًا أخطار القيادات الدينية ومظهرا جلال الفكر الروحي الديني عند كل الطوائف والمذاهب اللبنانية، وسفالة العمل الإنساني الذي ورّط الشعب اللبناني بمذابح عنيفة في ما بينهم.

كما يقارن يزبك بين خلفية دين الإسلام وأصوله المتسامحة، وبين أعمال

الرعاع الذين يختبئون تحت غطاء الإسلام ليظهروا وحشيتهم الدنيوية تجاه مواطنيهم غير المسلمين. ويستشهد بآيات من القرآن والحديث وأعمال الصحابة والخلفاء الراشدين.

ثم يعود يزبك ويشير إلى انتفاضة "الفلاح اللبناني" على "الاقطاعي الجشع" الذي جعل حياة الفلاح مأساة ملؤها البؤس.

ورغم هذه الصورة القائمة عن الوضع الداخلي اللبناني، فإن يوسف يزبك يورد نصوصًا أخرى تشير إلى العظمة اللبنانية على الصعيدين الاقليمي والعالمي، من حيث النهضة العربية التي كان المفكرون اللبنانيون أركانها، أو من حيث دور الرهبنات اللبنانية وتخريجها للقديسين، كما جرى مع القديس شربل.

وإن فكر يوسف يزبك العروبي، جعله يركز على دفاع يوسف بك كرم عن العرب واتصالاته مع عبد القادر الجزائري مشجعا إياه على إعلان دولة عربية تحت إمارته.

خامساً: المنهجية

أ) اللغة والأسلوب

استخدم المؤلف النص النثري بلغة بسيطة بعيدة عن التعقيد، وهو المعروف ببلاغته وفصاحته في اللغة العربية. غير أنه استعمل في العديد من المرّات حرف الجرّ "بـ" للدلالات "المكانية" بدل الواسطة. واستعمل حرف الجرّ "في" للوساطة، ولا أدري ان كان هذا التباسًا في لغة الكاتب ام أنه حاول مقاربة لغته من اللغة العامية التي استقى منها معلوماته التاريخية.

وان الكاتب قد صرّف بعض الكلمات الاجنبية كأن يقول "ان البعض قد تأوربوا" اي أنهم تأثروا بالنهج الاوروبي.

ويورد كلمة انبراطورية بدل امبراطورية "Empire" كما جمع كلمة "بلاط" "بأبلطة".

واستعمل كلمة "بروتسطانية" بدل "بروتستانتية" "Protestant"

ب) التقميش

استقى المؤرخ يزبك معلوماته من مصادر متعددة عايشت الأحداث التي أوردها أو أنها كانت الأقرب إليها: ومن هذه المصادر:

- إبن أياس، بدائع الزهور.
- المقريزي، المواعظ والاعتبار.
- الجبرتي من دون ذكر كتابه.

كما أخذ عن المصادر والمراجع اللبنانية: ط توتل، طنوس الشدياق، المعلوف، حيدر الشهابي، وفيليب وقعدان الخازن.

المنهجة: تقميش ـ علوم موصلة ـ نقد ـ عدالة وضبط ـ اجتهاد ـ بناء الضيقة التاريخية ـ الفرق التاريخي(1) (استعمل هذا الشكل).

- **مجلات رسمية:** مجلة "الحياة النيابية" الصادرة عن المجلس النيابي اللبناني بإشراف رئيسه.

- **ومن المصادر والمراجع الأجنبية:** "جيرار دي نيرفال" و"رينيه رستلهوبر"

والسفراء وأعضاء اللجان الغربيين كاللورد "دوفرين" الانكليزي والشاعر "لامارتين" الفرنسي. والنائب الفرنسي "دي ملفيل" و"فرنسوا غيزو" وزير خارجية فرنسا. والكولونيل "روز" الموفد الانكليزي وكثيرين غيرهم.

- كما يستند المؤرخ إلى العرائض الشعبية. ومنها واحدة أرسلها الشعب اللبناني إلى الباب العالي يطالبه فيها بالغاء الضرائب عن الجبل.

ورغم كثرة المصادر والمراجع فإن الناشر لم يورد ثبتا لها في آخر الكتاب.

ج) المنهجية التاريخية

لم يقدم المؤرّخ موضوعًا واحدًا متماسكًا، بل مجموعة أحداث وإثباتات تاريخية لحوادث جرت على الساحة اللبنانية وذلك بشكل متفرق ومتباعد لا تعتبر كتابة تاريخية شاملة تامة وانه كان يقفز من حدث إلى آخر من دون ترابط، وهذه سقطة منهجية، أو انه تسرّع في إنهاء الكتاب من دون إعطائه حقه في التحليل والربط والتنسيق.

أما من حيث الإسناد، فرغم خبرة المؤرخ في الأصول والمصادر، حيث إنه أنشأ مجلة "أوراق لبنانية" المتخصصة في نشر المخطوطات والوثائق اللبنانية، فإنه أشار إلى مصادره بطريقة غير كاملة. فقد كان يذكر اسم الكاتب في المتن ثم يورد المعلومة. وفي أسفل السياق، يورد اسم الكتاب او المصدر والجزء والصفحة ومكان النشر وتاريخه. ورغم سهولة هذه الطريقة فإنها غير كافية في الكتابة العلمية، وغير معتمدة. وقد أشار إلى مصدر معلوماته في بعض الأحيان في أسفل الصفحة.

اما بالنسبة للتوضيحات والاستدراكات، فقد كتب جزءا ممنها في اسفل الصفحة وافرد ماية صفحة في آخر الكتاب للهوامش والتوضيحات.

ويفتقر الكتاب إلى فهارس الاعلام، والاماكن والقبائل وجداول الاحداث. كما يفتقر إلى لائحة مصادر ومراجع.

أما بالنسبة لاستعمال المؤرخ يزبك لعلامات الوقف والمعقوفين والمزدوجين فإنه قد أجاد في ذلك.

د) العدالة والضبط

إن الكاتب لم يخفِ الهدف الذي وضع الكتاب من أجله. وقد اختار لذلك المقالات والأحداث والفقرات التي تؤيد أفكاره وتساند جدليته. وقد استخدم المصادر الغربية بمزاجية حيث إنه القائل إن الوثائق الدبلوماسية الأجنبية لا يمكن الوثوق بها لأنها صادرة عن جواسيس وعملاء.

وإن غرض المؤرخ من كتابه هذا كان اظهار الدور السلبي للقناصل والسفراء الأوروبيين والحكّام العثمانيين في الصدامات الطائفية في لبنان وقد لخّص ذلك بعنوان أحد مواضيع الكتاب "مصالح دول ثمنها دماء لبنانية".

من هذا المنطلق يُعتبر الكتاب فلسفيًا توجيهيًا يبغي العبرة الوطنية والتوفيقية والاجتماعية في الوطن اللبناني من خلال قالب تاريخي. وقد أطلق الكاتب هذا المؤلّف

كصرخة يائسة بسبب ما رأى من أهوال الحرب التي اندلعت سنة 1975 في لبنان.

ويتبين من خلال النصوص الواردة، الفهم العميق لدى يوسف يزبك لخصائص الطوائف والمذاهب اللبنانية وظروف قياداتها. كما أنّ تحليلاته عقلانية تربط ما بين الحالة الداخلية والظروف الخارجية، غير أن أحكامه تأتي غالبا باللائمة على التدخلات الخارجية.

الخاتمـــة

لا شك في أن يوسف ابراهيم يزبك يعتبر كاتباً غزير الانتاج، اختص بالكتابة التاريخية محاولاً الإفادة من الحوادث السابقة وإسقاطها على أحداث حاضرة، في محاولة لاستخلاص العبر التي يستفاد منها لتطبيق سياسة لبنانية داخلية تعايشية.

وهكذا يكون المؤرخ يزبك قد استعمل التاريخ في إطار إيديولوجي فلسفي. وهو رغم اعتماده على مصادر عايشت الحدث فإنه عمد إلى انتقاء إسناداته بحسب رؤيته وأهدافه ومراميه.

ورغم اعتناء المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك بالوثائق اللبنانية القديمة من خلال اصدارات مجلة "أوراق لبنانية" فإنه في كتابه الجذور التاريخية للحرب اللبنانية" يظهر بوضوح بأنه كاتب في التاريخ وليس مؤرخاً أكاديمياً منهجياً.

كميل مرهج

المصادر والمراجع

– مقابلة شخصية مع الدكتور مارون يزبك ابن المؤرخ.

– مقال عن المؤرخ بقلم الدكتور مسعود الضاهر نشر في جريدة الحياة على عددين:

– الثلاثاء 7 آذار 1995 العدد 11703.

– الاربعاء 8 آذار 1995 العدد 11704.

– رثاء من النائب ادوار حنين.

– مقال كتبه يونس الابن في جريدة الأنوار نشر: الاحد 13 ت1 2002 العدد 14862.

– كتاب "الجذور التاريخية للحرب اللبنانية من الفتح العثماني إلى بروز القضية اللبنانية" دار نوفل، الطبعة الاولى، بيروت، 1993.

البنية السياحية لمدينة بعلبك وآفاق تطوّرها

زهـراء شـكر

مقـدمـــة

تعتبر بعلبك من أكثر المدن استقطاباً للسياح في لبنان، فهي مدينة عريقة وتاريخيّة، بالإضافة لتضاريسها المميزة، والمتمثّلة بالمناظر الطبيعيّة الخلابة، ومناخها الهادئ، ناهيك عن الحضارات العديدة التي توالت عليها، والتي تركت فيها أجمل الآثار والمعالم السياحيّة الرومانيّة والمسيحيّة والإسلاميّة. تتمثّل أهميّة بعلبك السياحيّة الدينيّة باحتوائها على مقام السيدة خولة، وهو من أهم المقامات، ويشكل جزءاً أساسياً لهذه السياحة، حيث يتوافد عليه الملايين من الزوار من جميع دول العالم كل عام، للتضرع والصلاة فيه، بالإضافة لمسجد كبير تم بناؤه في فترة الحكم الأموي، والذي لا تزال آثاره قائمة حتّى الآن، ولن ننسى قبة أمجد ومحطة القطار، والتي تمّ بناؤها في الثلاثينيات على يد الفرنسيين؛ أثناء فترة احتلالهم لبنان.

تمتلك مدينة بعلبك ثروة سياحية مهمة، إذ تمتلك هذه المراكز الأثرية الأهميّة السياحية البالغة حيث تستقطب محبي السياحة الثقافية، وهم فئة كبيرة من السياح، كما يمكن لهذا المقوم أن يشكل جاذباً للسياحة الدولية، حيث يقع السوق السياحي هذا تحت واقع الندرة بامتلاك هذه الآثار الفريدة. وتستغل بعض هذه المراكز في إقامة المهرجانات السنوية كمهرجانات بعلبك ما يحرّك القطاع السياحي ويزيد الطلب عليه بتنشيطه لحركة السياحة الثقافية.

تضم مدينة بعلبك العديد من أماكن العبادة الدينية، الإسلامية منها والمسيحية، وتتمثّل هذه الأماكن بالمقامات الدينية والعتبات المقدّسة والمساجد والكنائس والأديرة، حيث تمتلك هذه الأماكن أهمية سياحية كبيرة لناحية استقطابها للسياحة الدينية، التي أضحت منافسة للسياحة التاريخية في القضاء.كما تنتشر في المدينة مجموعة من المنشآت السياحية كمنشآت الإقامة والمطاعم والمصايف، بالإضافة إلى خدمات المراكز المرافقة لها كالمصارف ووكالات السياحة والسفر، الا أنّ معظم هذه المنشآت غير متطورة، أي من ناحية الخدمات التي تقدّمها، ويعتبر هذا العنصر من عناصر الجذب السياحي البشري ذا أهمية كبيرة في الاستقطاب السياحي.

تحتوي بعلبك على العديد من الفنادق الحديثة، والتي تم بناؤها بالقرب من السهول والربوع الخضراء؛ حتّى

تشجع الزوّار على البقاء لمدّة أطول، وتتيح لهم فرص الاستجمام، والبعد عن الضجيج والإزعاج، كما ويتم قيام المهرجانات والاحتفالات السنويّة في المدرجات الرومانيّة القديمة، احتفالاً بأعياد المسلمين، والمسيحيين. كما تعّد مدينة بعلبك من أغنى المدن ثقافياً، إذ أنّها تجمع عدداً من المعالم الشرقية والغربية من المستوطنات البشرية ومن المعابد الرومانية من أجل زيارة الأماكن ذات التاريخ الديني والتي تعتبر زيارتها حجاً او نوعاً من ممارسة التعاليم الدينية، إذ أنّ البعض يقول: إن بعلبك موسوعة لحضارات العالم القديمة والحديثة[1].

موضوع البحث ودوافع اختياره

إنّ المعالم التراثية، التاريخية والطبيعية تشكّل البنية السياحية لمدينة بعلبك، لذا سأتناولها بالدراسة من خلال البحث، وما دفعني على القيام بهذا البحث هو الشعور العام لدى أبناء المدينة بأهميّة معالمها السياحية وعمق الدور الذي يمكن أن تلعبه على المستوى التنموي.

ـ الإشكالية

إنّ البنية السياحية في مدينة بعلبك، جزء من بنية جغرافية عامة، والربط بين الجزء والكل يستلزم الإجابة عن جملة أسئلة وتساؤلات من أجل تصويب مسار البحث باتجاه الأهداف المرجوة. والتساؤل يبدأ ماذا وفرّت مدينة بعلبك للبنية السياحية القائمة؟ كما أنّ مدينة بعلبك تحتوي على مقومات سياحية هائلة لا تتجاوب معها الإنتاجية السياحية ما هو السبب والتساؤلات التي وضعت؟ ما هو دور الأوضاع والظروف الاجتماعية والأمنية والسياسية في التأثير على الحركة السياحية؟ هل صحيح أنّ المعالم الموجودة هي مقوّمات البنية في السياحة؟ هل احتضنت الدولة البنية السياحية في مدينة بعلبك، أم أنّ اهتماماتها محدودة لجهة التخطيط والمبادرة؟ وإذا كان هناك تقصير رسمي هل عوّضه القطاع المحلي أو الأهلي، وبالتالي ما هو مستقبل هذه البنية؟

إنّ الإجابة على هذه التساؤلات يمكن أن تقدّم صورة واضحة عن واقع القطاع السياحي في بعلبك، ودراسة مقومات الجذب فيه لمعرفة مدى تأثيرها على الحركة السياحية والصعوبات والعوائق التي تعترض تطورّها وتخفّض من قدرتها على الجذب السياحي. وبالتالي يمكن تقديم المقترحات المناسبة التي تتلاءم مع إمكانيات وقدرات وموارد هذه المدينة من أجل توظيفها بالطريقة الأمثل، وإيجاد الحلول الملائمة والخطط المستقبلية التي من شأنها النهوض بالقطاع السياحي.

السياحة في مدينة بعلبك :السياحة هي ذلك النشاط الذي ينتج منه مجموعة العلاقات المادية وغير المادية، التي تتحقّق نتيجة قيام شخص ما اختياراً بتغيير مكان إقامته بصفة مؤقتة، لا تقل عن يوم ولا تزيد عن سنة، سواء من خارج حدود الدولة أو من داخلها، لإشباع رغبات متعددة خاصة به، كالاستجمام والراحة

والثقافة والعلاج وغيرها. على ألاّ يكون ذلك لأغراض تجارية أو منفعة مادية.

أصبحت السياحة من أهم الصناعات العصرية، والتي تساهم في الإنتاج القومي في العديد من الدول، حيث تعتبر السياحة أحد أهم مصادر الدخل، ومصدراً رئيساً للعملات الأجنبية اللازمة لتمويل عمليات التنمية، في تأدية نمو قطاع السياحة إلى زيادة فرص العمل، وتكوين الوظائف نتيجة للأهمية المتزايدة للسياحة كقطاع اقتصادي رائد وفعّال، فإنّ العمل على تحقيق الكفاءة الاقتصادية يعتبر أمراً هاماً لضمان نمو هذا القطاع بصورة مستدامة. فلا جدال في أنّ هناك علاقة بين تنمية قطاع السياحة والتنمية الاقتصادية بمفهومها العام، فقد قامت البلدان المتطورة بتطوير وتحسين مستوى الخدمات الأساسية التي تتفاعل مع تنمية القطاع السياحي مثل النقل والاتصالات والمياه والكهرباء، وتوفير أسباب الجذب السياحي الإضافية لتلبية احتياجات مختلف فئات السياح، وبفضل تلك الجهود ازداد حجم الطلب والإيراد السياحيْن.

مقومات السياحة في بعلبك

تمتلك مدينة بعلبك العديد من المقومات الطبيعية والبشريّة.

المقومات الطبيعية: هي مدينة لبنانية تقع في وسط سهل البقاع المشهور، ويحدّها من الشرق نهر سلسلة جبال لبنان الشرقية، ومن الغرب سلسلة جبال لبنان الغربية، وترتفع عن سطح البحر مسافة 1.163م، وهي مركز المحافظة، وعرفت منذ قديم الزمان بموقعها الاستراتيجي الواقع على الخطوط البرّية، كما أنّها تحتوي على العديد من المناظر الطبيعية الخلابة.

المقومات البشرية: تتنوع الأماكن السياحية في مدينة بعلبك بين المعالم الأثرية والدينية، كماتمتلك مدينة بعلبك العديد من المواقع الأثرية المتنوعة نتيجة كثرة الحضارات التي مرّت بأراضيها، منذ العصر الحجري وحتى عصرنا هذا، كما أعطت هذه الآثار ثقلاً سياحياً للمدينة ككل، فاستقطبت محبي السياحة التاريخية والأثرية من مختلف مناطق العالم لزيارتها ورؤيتها.

قلعة بعلبك: تقع القلعة في مدينة بعلبك التي تعتبر من أهم المدن السياحية في لبنان والعالم، نظراً لاحتوائها على معابد وآثار رومانية ترجع لآلاف السنين، أنشأها الفينيقيون في أوائل العام 2000 قبل الميلاد[2]، فبنوا فيها أول هيكل لعبادة إله الشمس، "بعل"، ومن هنا حصلت المدينة على اسمها، واحتلها الإغريق في عام 331 قبل الميلاد، حيث غيروا اسمها إلى "هيليوبوليس" أو "مدينة الشمس.

تتألف القلعة من "الدكة"، "الرواق المقدم"، "البهو المسدس"، "الساحة الكبيرة"، "المذبح والبرج"، "معبد جوبيتر"، "معبد باخوس"، "متحف هياكل بعلبك"، "مسجد إبراهيم"، "القلعة العربيّة".

تشكل بعلبك أحد أهم دعائم السياحة اللبنانية، وتجذب العدد الأكبر من السياح العرب والأجانب، حيث أنها تستقطب أهم الأعمال المسرحية والموسيقية، وأبرز الفنانين العرب والأجانب.

تعد مدينة بعلبك من أشهر المدن السياحية في لبنان، حيث تقام فيها مهرجانات بعلبك الدولية سنوياً، يقصدها السياح من معظم دول العالم، هي السبب الأول لاجتذاب السياح إلى مدينة الشمس وتستقطب هذه المدينة العالمية المدرجة على لائحة التراث العالمي منذ 1948 أكبر عدد من السياح العرب والأجانب، كما تستقطب أهم الأعمال المسرحية والموسيقية، وأبرز الفنانين العرب والأجانب.وكذلك الاستكشافات الدائمة للآثار الجديدة كل سنة له أثر كبير في تشويق السياح لزيارة بعلبك.

إن موقع بعلبك الأثري يتسقطب عدداً كبيراً من الإخصائيين في علم الآثار والتاريخ القديم لما تحتويه المدينة من معالم تاريخية.

تشكّل مدينة بعلبك الثقل السياحي في قضاء بعلبك، فتعتبر مركزقصد السياحة الأثرية والدينية، وذلك لغناها بالآثار النادرة والمقامات الدينية المهمة، وهذا ما جعلها مقصداً للسياح الوافدين من أجل ممارسة هذه الأنواع من السياحة، لذلك سننطلق بالحديث عن آثار مدينة بعلبك.

تعود تسمية مدينة بعلبك إلى الاسم المركب من (بعلـ ـ بك) حيث لا خلاف حول هذه التسمية، ولكن كثرت التأويلات حول اللغة الأولى التي انطلقت منها التسمية حيث قيل إنها فينيقية، والتي تعني بيت البعل والبعل هو الإله، واعتقد البعض بأنّ التسمية جاءت من بعلثث (Balthis)، إلهة السوريين، وذهبت جماعة إلى الاشتقاق السرياني في الاسم (بعل بقعوتو) أي رب البقاع (Bel beqa) حيث أنّ Bel تعني رب أو صاحب أو مالك و Beqa تعني البقاع، والجذور السامية تشير ايضاً إلى (بعل البقاع) أي مركز الإله بعل في مرنفع سهل البقاع وهذا يتناسب مع موقع بعلبك، وفي رأي البعض أنّ (بعلـ ـ بك) تأويلها مدينة الشمس فأطلق عليها اليونان هيليوبوليس (Héliopolis) مترجمين اسمها ترجمة دقيقة عن الفينيقية لأنّ (بك) بمعنى (بولس) تعني مدينة، والمقاربة نفسها بين بعل (شمس الفينيقيين) و(إليو) شمس اليونانيين فتكون بذلك اليو بولس أي مدينة الشمس[3].

أمّا ميخائيل آلوف[4] فيعتقد بأنّ الاسم مشتق من السرياني القديم (بعلباح) أي مدينة البعل نسبة لهيكل بعل الذي بناه الفينيقيون فيها، ولما استولى عليها اليونان سمّوها (ايليوبوليس) أي مدينة الشمس وذلك ترجمة لاسمها القديم لأنّ البعل هو ذاته الشمس، أمّا العرب فلم يبرحوا يسمونها باسمها القديم بعد أن حرّفوه إلى بعلبك لمشابهة اللغتين.

هياكل بعلبك الرومانية: تعتبر هذه الهياكل المعلم السياحي الأول في لبنان لمحبّي السياحة الأثرية والتاريخية بدليل أعداد زوارها المرتفع، وتشكّل هذه الهياكل معلماً سياحياً مهماً جداً له قدرة جذبه الخاصة أي أنّه من أهم المقومات البشرية للسياحة في قضاء بعلبك، يختصر

تاريخ الحضارات السابقة، ويقدّم طرقاً جميلة عن فنّها وطرق عيشها ومعتقداتها وثقافاتها وهندستها المعمارية، وكما تعتبر هذه الهياكل من أهّم المواقع العالمية في ضخامة البناء وجماليته، لذلك وبسبب أهميها بالنسبة للسياحة في قضاء بعلبك سنقوم بتقديم شرح مفصل عنها مرفقين ذلك بالصور الفوتوغرافية.

في تاريخ بناء الهياكل: هياكل بعلبك هي بالأساس معابد فينيقية، ثمّ جاء الرومان وأقاموا على أنقاضها معابد أخرى لعبادة آلهتهم، تمتاز المعابد الجديدة بضخامتها وكثرة أعمدتها التي جلب بعضها من مصر، إضافة إلى جمالية نقوشها التي تمثّل أرقى مراحل الفن العمراني والنحت الروماني، وقد حوّلها العرب فيما بعد إلى قلعة حربية للدفاع عن المدينة بعد أن زادوا عليها بعض الأجزاء الضرورية لحالات الدفاع، كل هذه المعابد وكل هذه الآثار تؤلف مجموعة مهيبة خاصة تلك الأعمدة الست الباقية من أصل 54 عموداً في معبد جوبيتر.

عرفت مدينة بعلبك واشتهرت منذ بناء هياكلها ومعابدها المكرسة لعبادة الشمس وفينوس (عشتروت) وهي ثانية معبودة بعد جوبيتر(بعل)، كما كانت هذه المدينة مخزناً لمحاصيل الحبوب ومحطة لما تنتجه آسيا الشرقية من زراعات.

استولى يوليوس قيصر الروماني على بعلبك في أواسط القرن الأول قبل الميلاد، واستمرت هذه المدينة كمستعمرة رومانية لمدة طويلة من الزمن، وأوّل من بدأ ببناء المعابد في بعلبك هو الإمبراطور الروماني انطونين التقي(161_138م) فقد أمر بإقامة هيكل لجوبيتر، وربما كان هذا الإمبراطور قد بنى هياكل لجميع الآلهة في مناطق أخرى، وفيما بعد حول الإمبراطور قسطنطين (296_337 م) هذا المعبد إلى كنيسة مسيحية بعد اعتناقه الدين المسيحي، وإدخاله إياه إلى الإمبراطورية الرومانية في الشرق، ومن بعده جاء الإمبراطور تيودور الذي هدّم بعض هذه المعابد وحكم الأساقفة المدينة (337_636 م) وعندما ظهر العرب المسلمون واحتلوها بقيادة أبو عبيدة، حول هؤلاء المعابد إلى حصون بغية الدفاع عن المدينة.[5]

الهدف من بنائها: إنّ أوّل ما يلاحظه الزائر في هذه المعابد هو نقوش الأحواض وألأفاريز والأبواب الضخمة. حيث تتشابك رسوم الأسود والثيران والحيوانات المائية والنقوش النباتية كأزهار الكرمة وزهور الخشخاش، بالإضافة إلى صور الحوريات والنساء الراقصات الثملات، فقد يتخيّل المشاهد أنّ هذه الرسوم ليست إلا مشاهد فنية أبدعها الفنانون الرومانيون بهدف الزينة فقط، غير أنّ الحقيقة ليست كذلك، فتزيين المعابد في هيليوبوليس (بعلبك) قد خضع لنظريات واجتهادات دينية حيث لعب الكهنة دوراً رئيساً في توجيه الفنانين إلى حد فرض وجهات نظرهم الروحية هذه، لذلك، يظهر واضحاً أن كل نقش حيوان أو نبات أو إنسان له علاقة بطبيعة العبادة التي كانت تجري مراسيمها في أنحاء هذه المعابد.

إنّ إقامة معابد بهذه الضخامة يتطلّب تفسيراً معقولاً ومنطقياً، حيث أنفقت مبالغ ضخمة لإتمام هذا العمل حيث استمر بناء هذه المعابد فترة طويلة من الزمن (260 سنة) منذ عهد الإمبراطور اوغسطوس حتى عهد الإمبراطور كركلا، بناءً لرغبة وإصرار أباطرة روما في إتمام هذا العمل الضخم، واشتركت في إتمامه ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية بأسرها.

والتفسير الشائع لهذا البناء هو رغبة أباطرة روما كسب الشعوب المغلوبة والقابعة قرب الحدود الفارسية، وبتشييد هذه المعابد سعى الأباطرة لخلق رابطة سياسية بإحياء الشعور الديني القومي وتقديسه وإحاطته بالإجلال والعظمة، إضافة إلى تعاقب الأسرة السورية على عرش روما والذين رأوا في هذه العبادات تأجيجاً لشعورهم القومي المتأصل في أعماقهم[6].

وفي رأي البعض لم تبنَ فقط بهدف إحياء الشعور الديني والقومي عند سكّان الإمبراطورية الرومانية الشرقيين بالقرب من الحدود الفارسية، أو بسبب الأوصول السورية لأباطرة روما، بل إنّ السبب في بنائها ينقسم إلى شقّين اثنين، الأول اقتصادي والثاني سياسي.

في الشق الاقتصادي، أقيمت هذه الهياكل الضخمة كمحطة سياحية مهمة في الإمبراطورية الرومانية، حيث ورد في العديد من المصادر التي اطلعنا عليها بأنّ هذه المدينة كانت من المحطات المهمة لسكان آسيا الغربية، "فأطلق عليها تسمية فندق البادية "[7]، كما اشتهرت هذه المدينة بنسائها الجميلات والفاتنات، فقد قالت الأساطير بأنّ فينوس إلهة الجمال والحب والجنس أعطت نساء بعلبك جزءاً من جمالها، من أجل ذلك شيّد معبداً لفينوس "مورست فيه طقوس العبادة الجمالية حيث كان يلجأ السكّان إلى هذا المعبد لإقامة ممارسة الفجور والخلاعة"[8].

واستغل البعلبكيون في العهدين الروماني والبيزنطي جمال حسناواتهم وأقاموا احتفالات عربدة للغرباء في مواسم الأعياد وخصوصاً مهرجانات مايو ماس (maioumas) التي اتسمت بفجور لا يحد[9]، وهذا ما يفسّر وجود العشرات من الرسوم المنقوشة للنساء شبه العاريات المنتشرة في الهياكل، إلى جانب رسوم الآلهة، بالإضافة إلى هذه الطقوس، أقيمت في بعلبك المهرجانات والاحتفالات الدينية الوثنية الأخرى التي تهدف إلى تكريم الآلهة وتبجيلها وتقديم الأضاحي لها.

وبهذا اعتبرت بعلبك في الماضي المحطة الأولى للسياحة الدينية والجنسية في شرق الإمبراطورية، وهذا ما يوفّر مدخولاً مهماً لخزينة تلك الإمبراطورية ولسكّان المنطقة حيث اشتهرت بعلبك بغناها في حينه.

في الشق السياسي، يعود السبب في بناء الهياكل إلى إعطاء الصفة الدينية للتوسّع الروماني في الشرق، خصوصاً في عهد الأباطرة الرومان ودخول الدين المسيحي، حيث كان لا بد من تشييد الصروح الدينية في المناطق الواقعة

تحت الحكم الروماني، ولتبرير الحملات العسكرية على مناطق النفوذ الفارسي باسم الدين أو المعتقد، بهدف السيطرة على تلك الشعوب من جهة وتجييشهم من جهة أخرى عن طريق الدعاية الدينية.

فقد ورد في العديد من المصادر بأنّ كهنة هياكل بعلبك امتلكوا أهمية كبيرة ومكانة خاصة لدى أباطرة روما، فقد لجأ الإمبراطور نراجان (117م) إلى عرافي وكهنة هياكل بعلبك، ليسألهم عمّا بفعله مع أعدائه الفرس، وكان يعمل بنصيحتهم[10]، وهذا ما يدّل على المكانة الدينية التي حظيت بها المدينة.

صورة رقم (1): الأعمدة الستة المتبقية من معبد جوبيتر والتي هي قيد الترميم.



المصدر: تصوير الباحث.

في وصف هياكل بعلبك حديثاً

بهدف تقديم مفصّل عن هياكل بعلبك، قمنا بوضع

أ. **ساحة المدخل الرئيس**: تقع هذه المساحة مباشرة قبل الدرج الكبير وهي تفضي اليه مباشرة، وتعتبر المدخل القديم للهياكل والبهوين.

ب. **الدرج الكبير**: طوله خمسون متراً، وبين درجاته ثلاث مصاطب ويرقى إلى ارتفاع ثمانية أمتار، مفضياً إلى الرواق الكبير.

ج. **الرواق الكبير**: مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب خمسون متراً وعرضه أحد عشر متراً، ينتهي كل طرف بغرفة مزخرفة بنقوش جميلة ومزودة بمواقف للأصنام، وقد بنى العرب فوق الغرفتين تحصينات ومرامي للسهام، وفي مقدّم الرواق صف من اثني عشر عموداً من الحجر المحبب (الغرانيت)، ولهذا الرواق ثلاثة أبواب تفضي إلى البهو المسدس وبين هذه الأبواب أدراج لولبية يصعد منها إلى سقف الرواق.

د. **البهو المسدس**: هو دار مسدسة الشكل قطرها نحو 50 متراً، انتصبت على زواياها غرف، وبين كل غرفة وأخرى معبد مرتفع الشكل، كانت أمامه أربع أعمدة من الغرانيت.

هـ. **البهو الكبير**: ويعرف بهيكل الآلهة وهو بناء مستطيل الشكل، طوله من الشمال إلى الجنوب 117 مترا وعرضه 112 متراً، ويحيط به اثنا عشر معبداً، أربعة منها نصف دائرية، وباقي المعابد مربعة ومستطيلة، وأمامها أعمدة الغرانيت، كل معبد منها نقش فيه صفّان من مواقف الأصنام (Niches) الواحد منها فوق الآخر، تعلو المواقف العليا واجهات مثلثة الشكل ومزخرفة.

يقوم في وسط البهو مذبح طوله أحد عشر متراً، وعرضه عشرة أمتار، ومزوّد بأدراج محفورة في الصخر، يصعد بواسطتها إلى سطح المذبح بما يقابل هيكل جوبيتر لتقديم الضحايا للآلهة، ويرجّح بأن يكون درج اليمين للصعود ودرج اليسار للنزول.

وإلى جانبي المذبح حوضان للماء طول الواحد منها 21 متراً، وعرضه سبعة أمتار وارتفاعه ثمانون سنتم، وجدران الحوضين مزركشة برؤوس البقر وأكاليل الزهور، وتظهر آلهة الحب فينوس حاملة الأكاليل راكبة على التنين وتصطاد الدلافين، ورسوم أخرى تمثّل ميدوزا وشعرها كالأفاعي، وعثر على رأس سبع كانت المياه تتدفق من فمه إلى الحوض، وأمامه عمودان من الغرانيت الرمادي، ولم يعثر في الهياكل على غيرهما من هذا الصنع.

هذا البهو يؤكد الصفة الشرقية للمعابد، لأنّه يتميّز عن معابد الرومان بأنّه جمع بين فنون الشرق والغرب، كما يوجد في وسطه أنقاض كنيسة بطول 63 متراً وعرض37 متراً، ومنها نقل الوليد عبد الملك قبة من النحاس مغشاة بالذهب إلى مسجد بيت المقدس.

درج الهيكل الكبير:يبلغ عرضه 50 متراً وإمتداده 16 متراً، يرقى إرتفاعه إلى ثمانية أمتار مفضياً إلى الهيكل الكبير أو هيكل جوبيتر.

الهيكل الكبير أو هيكل جوبيتر: يعّد الهيكل الكبير الرائعة الفنية في بعلبك، حيث يرتفع ثمانية أمتار عن سائر الأبنية التي تحيط به، وعشرين متراً عن مستوى سطح الأرض المقام فوقها، اتخذ شكل المستطيل ضلعه 87 متراً ونصف، ويقع على كل جانب منه سبعة عشر عموداً، (لم يبق منها إلا ستة أعمدة في يومنا هذا)، كما بلغ عرضه 47 متراً ونصف، انتصب فوقه عشرة أعمدة، وقد هدمت جميعها، وبهذا نستنتج بأنّ أعمدة هذا الهيكل بلغت 54 عموداً في السابق.

بدأ البناء فيه الإمبراطور أوغسطس في أواخر القرن الأوّل قبل الميلاد وكان الانتهاء في أواخرعهد الإمبراطور فيردن (37ـ68 ب.م.)[11]، وانتهى البناء فيه في غضون القرن الثاني ب.م.، وهو عبارة عن معبد، يتألف من ستة أعمدة التي يبلغ إرتفاعها 22 متراً. بما في ذلك قواعها وتيجانها، تعطي فكرة عن الهياكل التي كانت تشكّل جزءاً من الرواق الخارجي وهذه الأعمدة كانت 54 عاموداً نقلت إلى الأستانة لبناء جامع سليمان القانوني[12].

وقد تمّ نقلها بواسطة سكة الحديد الخشب دحرجت الأعمدة فوقها قاطعة مسافات بين لبنان وسوريا وتركيا، فبقيت تسعة أعمدة حتى سنة 1751 م. حيث ضرب المدينة زلزال 1759 نكست منها فبقيت ستة أعمدة شامخة.

يتألف كل عمود من ثلاث قطع مع القاعدة والتاج، بحيث يبلغ ارتفاعه 30 متراً، أي ما يقارب ارتفاع مبنى من تسع طبقات، يبلغ قطر كل عامود متران و23

سنتم، يتوّج كل عمود إفريز يبلغ علوه أربعة أمتار منقوض ومزخرف ومزّين بسلسلة من تماثيل الثيران والأسود، وفي طرفه الأعلى خط من أسنان العجوز والبيض والنبال وحب اللؤلؤ، يعلوها نقش المفتاح اليوناني، وفوق ذلك كله أوراق مختلفة مجسمة، وعلى مستواها رؤوس سباع فاغرة أشداقها لتصريف ماء المطر من سقف الهيكل.

يقع في الزاوية الشمالية الغربية من الهيكل برج بناه ألمجد بهرام شاه ملك بعلبك سنة 622 هجري، بهدف تقوية تحصينات القلعة، ويعرف لدى العامة بباب الهوى، وعليه كتابة عربية.

بلغ عدد الأعمدة المنتصبة في هذا الهيكل 20 عموداً سنة 1547 م. لكن الأتراك نقلوا بعضها إلى ألأستانة لبناء جامع سليمان القانوني، ولما زار بعلبك المستشرق الفرنسي (دي لاروك) سنة 1689 م. شاهد تسعة أعمدة لا تزال منتصبة، واستمرا كذلك حتى زيارة المستشرق الإنكليزي (وود) سنة 1751 م.. لكن زلزال سنة 1957 م. نكس ثلاثة أعمدة وبقيت ستة منتصبة[13]. الأحجار التسعة الكبيرة: يحيط بالهيكل الكبير من جهتي الغرب والشمال سور ضخم، وقد بني السور الشمالي من تسعة أحجار فقط، طول الحجر منها تسعة أمتار ونصف، وارتفاعه أربعة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار وخمسة وستون سنتمتراً، كمايبلغ وزن الحجر الواحد 450 طن.

الأحجار الثلاثة الكبيرة: تقع في الجدار الغربي أو ما يسمّى بالدكة الكبيرة، وهذا الجدار مؤلف من مدماكين، الأوّل مركّب من تسعة أحجار يبلغ طول الواحد منها عشرة أمتار وعلوه أربعة أمتار، ويعلوها المدماك الثاني الذي شكّل معجزة الهياكل واسطورتها، وهو مركّب من ثلاثة أحجار فقط طول كل منها 19 متراً ونصف بارتفاع 4 أمتار و10 سنتم وعرض 3 أمتار وخمسة وستين سنتم، أي أنّ حجم كل حجر 292 متراً مكعباً، بزنة (720 طناً) وهذه الضخامة أذهلت الكثيرين، إذ كيف استطاع الإنسان في الزمن الماضي أن يرفعها إلى مكانها، وهذه الأحجار مبنية بمنتهى الدقة والإتقان ويبلغ إرتفاعها عن الأرض 22 قدماً.

التحصينات العربية: بعد الفتح الإسلامي قام العرب بإشادة هذه الأبنية واستخدموها لصد الهجومات عليهم، فأحاطوها بالأسوار الشاهقه وزودوها بمرامي السهام، وأشادوا على جوانبها الأبراج والثكنات العسكرية، وزادوا على علو الهياكل علواً، وأحاطوها من الخارج بالخنادق، وبنوا داخلها المسجد الإبراهيمي وبعض المنازل، والحمامات والأفران وطاحونة.

الهيكل الصغير أو هيكل باخوس: إلى الجنوب الشرقي من القلعة يقوم هيكل صغير مستدير لا مثيل لتصميمه في جميع أنحاء العالم الروماني على الإطلاق، وقد بني في غضون القرن الثالث. وكان الهيكل مكرساً لتكريم الآلهة التي تمثل مدينة

بعلبك وتشمخ أمام آلهة المدينة العظام، وهذا ما يفسّر توجيه المعبد باتجاه المعبد الكبير وتحويله في العصر البيزنطي إلى كنيسة على اسم القديسة "بربارة" التي تعتبر شفيعة المدينة، وتقول التقاليد المحلية أيضاً ولدت واستشهدت في بعلبك، وما يزال أهل بعلبك يطلقون اسم "البربارة" على هذا الهيكل حداية القرن الأوّل ب.م. وكان مكرساً لعبادة رب اتى اليوم على مقربة من هذا الهيكل بقايا هيكل آخر يرجع تاريخه إلى بداية القرن الأول ب.م. وكان مكرساً لعبادة رب الآداب، فالزخرفة في هذه المعابد الأربعة والترتيبات لم تكن بعد قد انتهت في بداية القرن الرابع بعد ما قام الإمبراطور قسطنطين الكبير بإعلان مرسوم ميلانو الشهير عام 1313[14]، الذي اعترف بالمسيحية ديانة رسمية في الدولة، فتعطّل العمل في معابد بعلبك بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على البدء به، وما إن شارف القرن الرابع على الانتهاء حتى كان الإمبراطور (ثيودورسيوس) يغلق المعابد ويفتح مذابحها التي كانت تعتبر أقدس مقدساتها وتقيم على أنقاضها في وسط البهو الكبير كنيسة عظيمة وثلاثة كنائس أخرى، من المحتمل أنها تحولت إلى كنيسة قبل العهد البيزنطي لانه قد وجد كتابه يونانية ومعها صليب، ما تزال آثارها محفورة في الدرج المؤدي إلى الهيكل الكبير وقد كانت تتجه صوب الغرب.

يعرف هذا الهيكل بدار السعادة، يقع جنوبي الهيكل الكبير حيث تفصلهما مسافة خمسين متراً تقريباً، ويعرف هذا الهيكل بجودة آثاره التي لا تزال حتى يومنا هذا أفضل الآثار بين باقي الهياكل، من ناحية النقوش والرسوم الموجودة، ويعتبر من أحسن الهياكل القديمة في العالم التي بقيت سليمة بشكلها وزخرفتها.

شيّد على دكّة مستطيلة طولها 68 متراً وعرضها 34 متراً وارتفاعها قرابة خمسة أمتار، يصله بالارض قواعد درج مؤلف من ثلاثين درجة مع مصطبتين، عرض كل درجة 37 سنتم، وعرض كل مصطبة متران، ويرافقه من كل جانب جدار منحوت ينتهي بقاعدة كانت فيما مضى مقراً لتمثال ينصب فوقها[15].

وكان أمام باب الهيكل رواق يمتد ثلاثين قدماً يزينه صفّان من الأعمدة، وكان يحيط بالهيكل 40 عموداً من النوع الكورنثي ومعظمها مؤلف من خمسة قطع من التاج والقاعدة، بلغ ارتفاع أجزائه الخمسة 18 متراً، وقطر العمود من الأسفل 180 سنتم، ومن الأعلى 140 سنتم، وتوزّع 12 عموداً من كل جهة على الجانبين و8 أعمدة من الأمام والخلف.

يلتف رواق حول كامل الهيكل في أعلى الأعمدة، وقد تهدمت أجزاء كبيرة منه، بعرض ثلاثة أمتار مسقوفة بصخور حجرية كبيرة متقنة النقش حيث تشكّل لوحة فنيّة رائعة، وهي منقوشة بشكل مسدسات في الوسط حولها مثلثات، في وسط كل مسدس صور مجسمة لإله من الآلهة اليونانية والرومانية، وحولها صور صغيرة لأنصاف الألهة.

يرتفع باب الهيكل الرئيس إلى علو 13 متراً وعرضه ستة أمتار ونصف، ويقوم

بجانبيه أحجار منقوشة بنقوش مختلفة من تماثيل الألهة والجواري والنباتات المختلفة بعرض متر وربع.

أمّا الهيكل الداخلي فطوله 35 متراً وعرضه 20 متراً ونصف، ويقسم إلى قسمين: الأوّل، يشغل ثلثي مساحة الهيكل من الداخل وهو مخصص لوقوف الناس ويسمّى (الصحن)، والقسم الثاني، هو صدر المعبد (الخورس) المقدّس الذي يرتفع أربعة أمتار عن سائر بناء الهيكل وكان مخصصاً لتماثيل الآلهة. يرتكز الصحن على صفيّن من الأعمدة المضلعة الكورنثية، عددها ستة في كل جهة، وارتفاعها مع القاعدة والتاج عشرة أمتار، وكل جدران الهيكل مزينة من الداخل، حيث تحتوي على نقوش ومواقف للتماثيل والأصنام، كما زينت هذه الجدران بأعمدة منتصبة يدخل ثلثها في صلب الجدران وهي نصف اسطوانية، ومتتابعة بموازاة أعمدة الصحن. أمّا صدر المعبد أو الخورس فيتقدمّه ثلاث عشرة درجة من الرخام كدرج له، فيه أربعة أعمدة منفردة تدعم القبة، وجدرانه مزخرفة بصفيّن من النقوش، والكوى داخل الجدران.

قلعة العرب: في عهد المماليك شيّد السلطان قلاوون (1282–1290م.) البرج المحصّن او ما يسمّى بقلعة العرب في الجهة الجنوبية الشرقية من الهياكل، فيها برج ومرام للنبال، يتصل هذا البرج بباب القلعة ومن الجهة الأخرى بسورها الذي يتصل بالهياكل كلها من الجهات الأربع، والقسم الأكبر من قلعة العرب مبني فوق البناء الروماني القديم وينتهي ببرج كبير مبني على طرف درج الهيكل الصغير.

لهذه القلعة باب من الطراز العربي المقرنس، وراء باب صغير للطابق الأول، بينهما فراغ يتصل بالطابق الثالث وقد كان لحماية الأبواب برمي الحجارة والزفت المغلي كلما تقدم المهاجمون لتحطيم البوابة الرئيسية، ويصل الطابق الأوّل درج ينتهي أمام فسحة بنيت على جوانبها غرف وبينهما قناطر وفيها كلّها مرامٍ للنبال.

يتألف هذا الهيكل من ثلاث أنصاف دوائر لها ثمانية أقواس تدعمها ثمانية أعمدة كورنثية تحيط بالهيكل من الخارج، وطول كل عمود من هذه الأعمدة سبعة امتار، كما يبلغ قطر كل واحد منها ثلاثة أمتار وهو مؤلف من قطعة واحدة، وله قاعدة نصف نصف دائرية بالإضافة إلى تاج كورنثي جميل الشكل.

هيكل فينوس: يسمّى هذا الهيكل أيضاً بهيكل الزهرة، يبعد عن هيكل باخوس حوالي 150متراً. بني هذا الهيكل بشكل مستدير، وقد شيّد على دكة طولها 23 متر وعرضها 16 متراً ترتفع حتى أربعة أمتار، وقد اتخذ هذا الشكل المحارة المقلوبة وتجلى فيه الفن الروماني من نقش ونحت جميل.

يتألف هذا الهيكل من ثلاثة أنصاف دوائر لها ثمانية أقواس تدعمها ثمانية أعمدة كورنثية تحيط بالهيكل من الخارج، وطول كل عمود من هذه الأعمدة سبعة امتار، كما

يبلغ قطر كل واحد منها ثلاثة أمتار وهو مؤلف من قطعة واحدة، وله قاعدة نصف نصف دائرية بالإضافة إلى تاج كورنثي جميل الشكل.

يتقدّم هذا الهيكل درج طوله ثمانية أمتار يتخلله ثلاث مصاطب، بالإضافة إلى صف طويل من الأعمدة المهدمة حالياً بلغ مجموعها 36 عموداً في السابق بالإضافة إلى باحة أمامية لهذا الهيكل كانت مخصصة في العهد الروماني لحفلات المجون وعبادة إلهة العشق والجمال فينوس، وقد شيّد في هذه الباحة معبد صغير يسمّى معبد الراقصات، وقد تألف هذا المعبد سابقاً من ثمانية أعمدة لكنه مهدّم حالياً ولم يبق من هذه الأعمدة سوى عمودين، وقد خصص هذا المعبد للإناث الحسناوات اللواتي كن يرقصن فيه.

بعد زوال الحكم الروماني عن بلادنا ودخول الحكم البيزنطي، تمّ تحويل هيكل فينوس إلى كنيسة مسيحية، وقد كرست في العصور الوسطى على اسم القديسة بربارة، ممّا حفظ الهيكل إلى حد كبير من الخراب والتدمير.

الأقبية: في نهاية الحديث عن قلعة بعلبك لا بد من أن نتحدث عن الأقبية الموجودة فيها، والتي بنيّت تحت البهو الكبير الذي تحدثنا عنه سابقاً، وتعتبر الأساس الذي عليه البهو، يبلغ عددها ثلاثة أقبية، منها إثنان متوازنان يصل بينهما قبو ثالث متعامد معها على شكل حرف (H)، القبو الأول وهو الجنوبي طوله 120 متراً وعرضه خمسة أمتار بإرتفاع ستة أمتار، وعلى بعد 20 متراً م مدخله قبو عرضي يبلغ طوله 93 متراً، ويشكّل صلة الوصل بين القبوين الجنوبي والشمالي المتوازيين.

القبوان الطوليان تحت البهو الكبير: تعتبر هذه الأقبية من الروائع الفنية في الهياكل أيضاً، قد نقشت في صقوفها وفي بعض جدرانها مجموعة من التماثيل بإتقان، وقد اقتلع الكثير من هذه التماثيل ونقل إلى خارج لبنان في فترات سابقة، ولكن بقي جزء منها ليدّل على قدرة وحرفية ناقشها، كما يتخلل هذه الأقبية العديد من الغرف الداخلية المنقوشة الجدران والمزخرفة وفيها مواقف للتماثيل، ويعتقد أن بعض هذه الغرف استعملت كمعابد منذ عهد الفينيقيين، كما أن أساسات هذه الأبنية يعود للعهد الفينيقي، وقد أقيم فوقه البناء الروماني في مراحل لاحقة، وقد استخدم العرب هذه الأقبية لضبط المؤن والذخيرة في أيام الحروب، كما قاموا بتخريب العديد من التماثيل الموجودة عبر قطع رؤوسها وأطرافها أو تشويه وجوهها. وحالياً تمّ إنشاء متحف لبعض التماثيل في القبوين الجنوبي والعربي، أمّا القبو الشمالي فلا يزال مهجوراً.

أهمية قلعة بعلبك السياحية: بعلبك مدينة سياحية عالمية، تستقطب السائحين من مختلف أنحاء العالم، إنَ عدد زوار القلعة يرتفع وينخفض حسب الوضع الأمني في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، وحسب الوضع السياسي في لبنان، وأن زوار مدينة بعلبك هم سياح أجانب

من أوروبا وأمريكا وروسيا ومن كافة أنحاء العالم، وعدد السياح العرب الذين يزورون قلعة بعلبك قليل، بيد أن السياحة الدينية في مدينة بعلبك نشطة جداً نظراً لوجود مقام السيدة "خولة"، وهؤلاء يأتون من العراق، الكويت، البحرين وغيرها من الدول العربية.

السياحة الدينية

ـ المقامات والمزارات الدينية في مدينة بعلبك

تتنوّع أماكن العبادة في مدينة بعلبك بين مسجد وجامع ومدرسة وقبة ومقام وكنيسة وغيرها من الأماكن التي يرفع فيها الآذان وتقام فيها الصلوات، تتمتع كل منها بخصائص جمالية وفنية في مآذنها وأبوابها وقبابها ومحاريبها ومنابرها وتزين حجارتها النقوش والزخارف، المنمنمات، الرخام الملون، وهي تشكل متحفاً حياً ينبض بالحياة وتتجاور مساجدها بالأسواق والبيوت القديمة.

وتتضمن الزيارة من أجل إقامة الشعائر الدينية تلبية الفضول الثقافي للإطلاع والمعرفة بتاريخ تلك المعالم والأحداث التي اتصلت بها. ويوجد في مدينة بعلبك عدد كبير من الأماكن والمراكز الدينية، ومن أبرزها العتبات المقدسة التي يزورها الناس ويتقربون إلى الله تعالى.

مقام السيدة خولة بنت الإمام الحسين (ع): يقع هذا المقام على قطعة أرض تبلغ مساحتها 1500م 16 مربع عند المدخل الجنوبي لمدينة بعلبك مقابل مصرف لبنان.

سميَ المقام بهذا الاسم نسبة إلى بنت الإمام الحسين (ع) التي وصلت من دمشق بعد استشهاد ابيها في معركة كربلاء في العاشر من محرم 640 م، حيث توفيت في بعلبك وهي في طريقها إلى مصر.

يحوي هذا المقام قبة ذهبية كبيرة مع مئذنتين ذهبيتين يشرفان على قلعة بعلبك[17]، ووسط بناء المقام يوجد شجرة سرو معمرة ونادرة، عمرها يزيد على مئات السنين وقيل أنها من الأشجار التي زرعت مع بناء القلعة.

إنّ أعداد الذين يقصدون مقام السيدة خولة تفوق بكثير أعداد زوار القلعة، فقد يزوره اللبنانيون من كافة المدن وكذلك من الدول العربية والأجنبية. ويزور الأجانب بصورة خاصة المقام للتعرف على هذا الصرح الديني الشهير.

الجامع الأموي الكبير: يقع الجامع الأموي الكبير إلى الشرق من هياكل بعلبك على بعد حوالي 120 م، تبلغ مساحته لدى قيود السجل الإداري 2882 م مربع، وكان وقفاً لفقراء المسلمين في قصبة بعلبك، ثم أدخل هذا العقار إلى جدول الأبنية الأثرية، واستملكته المديرية العامة للآثار بموجب المرسوم رقم 8331 تاريخ 2/ 10/ 1981.[18]

يحتل المسجد المكانة الأولى بين الأبنية الإسلامية، وذلك أنّ الفنون الإسلامية على اختلافها موجودة بالمسجد وبعمارته، ولم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على الصلاة فحسب، بل كان مركزاً للحكم

والإدارة، ويعتبر المسجد أفضل النمشآت التي يتجلى فيها التعرف بصدق على نشأة الهندسة والتخطيط والبناء والهندسة والزخرفة عند المسلمين[19]. ويعود تاريخ إنشائه إلى العهد الأموي في أواخر القرن السابع أو بدايات القرن الثامن بعد الميلاد، وتشير بعض الدلائل الأثرية إلى أنّه أقيم في موضع الساحة الرومانية العامة ومن ثمّ كنيسة القديس "يوحنا المعمداني" البيزنطية.

يبلغ طول الجامع 61 م من الشمال إلى الجنوب، وبعرض 47 من الغرب إلى الشرق، والمسقط يتكون من صحن كبير يبلغ مسطحه حوالي 1000 م مربع، يحيط به من الجهة الجنوبية صالة الصلاة ومسطحها 1300 متر مربع، تتسع لحوالي 1500 مصلي ومن الجهات الثلاث الأخرى رواق واحد عرضه حوالي 5 أمتار. يتألف الحرم من ثلاثة صفوف من القناطر البيضوية الشكل، يوجد في الصف الأول تسعة أعمدة وفي الصف الثاني عشرة أعمدة وفي الصف الثالث عشرة أعمدة أيضاً وغالبيتها من الغرانيت وتحمل جميع الأعمدة تيجاناً كورنثية لا تناسب حجمها وأكثرها نصب على الأرض بلا قواعد[20].

تتميّز واجهات الجامع بالبساطة ولا تحتوي على زخارف هندسية أو نباتية، ويلاحظ أنّ الأبواب لا تنتهي في الأعلى بكورنيش أو شرفات مسننة، إنّ باب المدخل يمين الواجهة الغربية استعمل فيه كورنيش كورنثي أخذ من المعابد الرومانية المجاورة.

جامع رأس العين: ويعرف باسم مسجد الحسين (ع) على بعد كيلو مترين شرقي القلعة بجوار نبع رأس العين، بني سنة 681 م فوق أنقاض معبد فينيقي قديم 21 واستخدم في بنائه حجارة المعبد، ثم أعيد تجديده وتوسيعه في اواخر حكم السلطان بيبرس سنة 1277 وقد بناه بلبان الرومي[22].

وفي عام 1278 م، أظهر الملك بركات خان خليفة بيبرس اهتمامه وعنايته الخاصة بالجامع ويشير إلى ذلك نص مكتوب على أربع جهات لدعامة من دعائم الجامع مؤلف من ثلاثة أسطر من النسخ المملوكي، يحوي الجامع بوابة كبيرة يمن الطراز المعماري المملوكي، يوجد في الجزء الجنوبي محراب كبير بالإضافة إلى وجود بابين مسدودين بالحجارة في الجدار الغربي للحرم، كما يوجد ثلاث نوافذ مستطيلة الشكل في الجدار الجنوبي للحرم، يبلغ طول صحن الجامع 22 م وعرضه 16.5 يحيط به عمق الرواق ما يقارب خمسة أمتار ونصف.

المسجد المعلّق: هو عبارة عن مسجد صغير وسط الماء، يقع في نبع الزينة المسمى برأس العين بالقرب من جامع رأس العين المملوكي، يوجد من بقايا هذا المسجد حجر فيه أربع حنايا، وهو مرتكز على حجر أسود في نصف البركة وتوجد كتابة عربية مقلوبة وهي على الجهات الأربعة من الحجر[23].

مسجد إبراهيم الخليل: يقع هذا المسجد داخل هياكل قلعة بعلبك

الرومانية ولا يزال محرابه قائماً، وإلى غرب معبد باخوس القريب من برج الأمجد. ويعتبر أقدم أثر اسلامي قائم حتى الآن في لبنان منذ عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، بناه العرب عقب فتحهم لبعلبك الذي تم سنة 635 م[24]، حيث حولوا الكنيسة التي بناها الامبراطور قسطنطين في داخل القلعة إلى مسجد وسمّوه جامع إبراهيم الخليل. ويبلغ طوله 37 متراً وعرضه 17.5 متراً، أما عرض الحرم فهو خمسة أمتار، يتألف الجامع من ستة صفوف من الركائز المربعة بارتفاع خمسة أمتار وبالقرب من الحرم يوجد بركة صغيرة للوضوء مربعة الشكل، أما بالنسبة لأرض الجامع فهي مرصوفة بحجارة مستطيلة الشكل يخترق الجدارالجنوبي محراب صغير يوجد إلى الجنوب منه باب صغير يؤدي إلى الطابق الثاني من برج الأمجد المؤلف من ثلاثة طوابق. المسجد الصغير (الصاغة): يقع هذا المسجد بالقرب من هيكل الزهرة **Venus**، تميزّه المئذنة ذات الأضلاع، وتعلوها شرفة تظللها شمسية من القرميد وفوقها قبة صغيرة مضلعة، وقد بنيت المئذنة سنة 1240 م أيام الملك صالح اسماعيل الأيوبي، وعلى بابها لوحة تؤرخ لإنشائها. رممت المئذنة سنة 1728 م وذلك يؤكد كتابة نقشت ضمن مثلث متسع الأضلاع، لم يبق من المسجد سوى مئذنته البسيطة قاعدتها مربعة الشكل وجسمها مثمن الأضلاع، ويبلغ ارتفاعها سبعة أمتار[25]، بالإضافة إلى العديد من المساجد والزوايا والقباب في مدينة بعلبك أهمها: المدرسة النورية، زاوية اليونيني، مسجد الحنابلة، مسجد النهر، قبة السعيدين، حيث يجتمع المصلين كل يوم جمعة في المساجد ويستمعون إلى المحاضرات الثقافية والدينية والسياسية.

هكذا ساعدت المبادرات التشجيعية التي قدّمتها بلدية بعلبك للمواقع الأثرية في مجاراة السياحة الدينية في بعلبك لجذب أعداد كبيرة من السياح، عبر تحديد يوم للإرث الثقافي، يتم بموجبه الغاء رسم الدخول إلى المواقع الأثرية وبالأخص إلى قلعة بعلبك وهياكلها.

كما وتتصف المواقع الدينية في بعلبك بالتميّز والتفرّد النوعي بحيث أنها تجذب السائحين على مدار السنة وهذا يعني أن تلك المواقع تعد محركا للسياحة الوافدة- والتي لها مردود اقتصادي يتمثل في تحسين دخل الفرد وتحسن ميزان المدفوعات، إن السياحة الدينية يمكن أن تشكّل مورداً مهماً ومصدراً لا غنى عنه في مدينة بعلبك للحصول على العملات الأجنبية.

الكنائس والكاتدرائيات في مدينة بعلبك: إنّ السياحة في مدينة بعلبك لا تقتصر على الآثار الإسلامية، فحسب بل هناك العديد من الآثار المسيحية التي تحمل إرثاً تاريخياً ودينياً هاماً نذكر منها:

كاتدرائية القديسين بربارة وتقلا للروم الكاثوليك: تأسست المطرانية الحديثة سنة 1882، بادر في تأسيسها المطران جرمانوس معقد سنة 1886، وأكمل البناء المطران أغابيوس معلوف وانتهى بناؤها

سنة 1897، وفي سنة 1997 احتفلت المطرانية بتشييد كاتدرائية القديستين بربارة وتقلا. يؤم الكنيسة رعية بعلبك بالمناسبات الدينية وبالتحديد بعيد القديسة بربارة في 4 كانون الأول وعيد الميلاد والفصح في كل عام.في البداية كانت المطرانية تقع بالقرب من معبد فينوس الهة الحب والجمال وانتقلت المطرانية سنة 1667 بعد حصول زلزال، اضطر المطران للانتقال إلى المكان الحالي للمطرانية، يذكر أنّه يوجد برج وتقارير تقول أنّ القديسة بربارة لما هربت من اضهاد ابيها الوثني جاءت واختبأت في هذا البرج. كنيسة سيدة المعونات للطائفة المارونية: تقع بالقرب من قلعة بعلبك بدأ تأسيسها سنة 1853 تبلغ مساحتها 240م مربع، أسسها الأب الراهب القديس دانيال الحدثي، وقد تبرّع بالأرض الأمير سليمان الحرفوش لقاء شفائه ببركة صلوات الأب المذكور. تمتلك الكنيسة المجموعة الأولى من ايقونات الفنان العظيم داوود القرم، لكن خلال الحرب 1975 نهبت جميع ممتلكات الكنيسة كان عدد الأيقونات 32 ايقونة بقي منها ايقونة واحدة وهي ايقونة العذراء الأساسية في صدر الكنيسة التي يرجع تاريخها إلى حوالي 282 سنة قبل بناء الكنيسة. وقد اشترى الراهب دانيال الحدثي ايقونة العذراء من الراهب اليوناني الذي كانت تربطه علاقة وثيقة معه، وسميت الكنيسة بالبداية أم المعونة الدائمة. تمتاز الكنيسة بأنّ جميع الأعياد التي تحصل يشارك فيها جميع اللبنانيين بكل أطيافهم.

أهمية الأماكن الدينية في مدينة بعلبك: تحتل المنشآت الدينية مواقع هامة في مدينة بعلبك بدءاً بالسيدة خولة (ع) ومسجد رأس الحسين وصولاً إلى كنيسة سيدة المعونات في بعلبك، إضافة إلى مقامات دينية، وقد لعبت الدور المنشط لوظائف أخرى تجارية وسياحية. ومن الملاحظ على الوحدات العمرانية الدينية تعود إلى فترات تاريخية سابقة ممّا يوفر رصيداً معمارياً فريداً يعكس فيه مستوى تكنولوجيا البناء والأهمية الوظيفية التي لعبتها المدينة في مختلف الأزمان، لقد قاومت الكثير منه هذه الأبنية عوامل الزمن أكثر من الوحدات السكنية ممّا يفسّر بقائها. وقد باتت المقامات الدينية في مدينة بعلبك تستقطب الزوار أكثر من الأماكن الأثرية والسياحية. هذه المقامات التي تشكّل رافداً مالياً لمدينة بعلبك تنتظر العناية الرسمية بها، ولا يزال الكثير منها يعاني الإهمال.

تعتبر مدينة بعلبك بمقوماتها الطبيعية الجغرافية والبشرية الغنية، جاذباً سياحياً ناجحاً وعاملاً اساسياً في تنمية اقتصادها.

مهرجانات بعلبك الدولية: تشتهر مدينة بعلبك بمهرجانها الدولي السنوي الذي يقام في هيكلي جوبيتر وباخوس والذي يستقطب أهم وأشهر الفنانين العالميين لإحياء حفلات رائعة في أحد أجمل الأماكن الأثرية في العالم. افتتح رسمياً في صيف 1956 ومؤسسته زلفا شمعون

عقيلة رئيس الجمهورية اللبنانية السابق كميل شمعون، وقد استقطب منذ البداية أهم المغنين والراقصين العالميين إضافة إلى أشهر أعمال الأوبرا، كأوبرا باريس وميلانو. كما استضافت هذه الهياكل عمالقة الفن العربي، ابرزهم أم كلثوم، والرحابنة وفيروز ووديع الصافي وصباح وصباح فخري ونصري شمس الدين وفرقة كركلا وغيرهم... غير أنّ هذه المهرجانات توقفت خلال الحرب اللبنانية لفترة 22 عاماً لتعود من جديد عام 1997 ولتستمر حتى عام 2012، ثمّ عادت لتتوقف بسبب الظروف الأمنية السيئة التي مرّ بها قضاء بعلبك إبان الأزمة السورية، وعادت لتنطلق من جديد عام 2015. أحياها في السنوات الأخيرة المغني العالمي ستينغ وفرقة (Lord of the dance) والفنانة وردة الجزائرية والمطربة المكسيكية أستريد حداد، وعازف البيانو اللبناني عبد الرحمن الباشا وعاصي الحلاني وصابر الرباعي ودريد لحام وأخيراً الفنانة السورية ميادة الحناوي في العام 2015.

تعتبر مهرجانات بعلبك من أهم المهرجانات على الصعيدين المحلي والوطني، ويمكن بحالة تفعيلها بشكل أفضل، والإعلان عنها بطريقة مدروسة، أن تعطي سمعة سياحية ممتازة لقضاء بعلبك تزيد في قرة جذبها، وتشجع السياح على القدوم اليه من جديد. تجذب المهرجانات السياحية السياح من داخل لبنان لتنمي السياحة الخارجية، لكن هذه المهرجانات تخضع للعديد من المتغيرات الاجتماعية والسياسية المحيطة، كما أنها يجب أن تترافق مع بنية وأرضية سياحية متكاملة من فنادق ومطاعم ومنشآت سياحية أخرى يمكن أن تدفع الزوار لقضاء ليلة أو أكثر في أماكن إقامتها، وهذا ما يحوّل الزوار إلى سياح، لكن للأسف ما يحصل في بعلبك منافٍ لهذا الواقع، بسبب ضعف البنية السياحية فيها، لذلك نرى أنّ معظم القادمين لحضور هذه المهرجانات يغادرون بعد انتهائها، فلا يستفاد منهم كسياح.

الخدمات المطعمية والملاهي: يلعب الطعام دوراً بارزاً في الرحلة، فهو حاجة للسائح لا بد من تلبيتها، وقد نجد بين السواح من هم ذواقة يهمهم كثيراً أن يزوروا بلداناً تتميّز بمطبخ جيّد، أمّا النوادي الليلية والملاهي، فهي متمّمة للإقامة، فالرحلة ينبغي أن تملأ وقت السائح بما يرغب ضمن حدود تقاليد البلاد وكرامتها.

الخدمات المطعميّة: في مدينة بعلبك حوالي خمسة عشر مطعماً[26]، يقدمون المائدة اللبنانية المعروفة عادة في المطاعم، بالإضافة إلى مطاعم أخرى من نوع "سناك" تقدّم الخدمات المطعمية العادية (سندويش ومرطبات) وتستفيد من موقعها داخل بعلبك وبين أحيائها السكنية. تنشط حركة هذه المطاعم في الأعياد والنشاطات العامة وخلال الاحتفالات والمهرجانات السنوية التي تقام في المدينة.

جغرافية السيّاح: بلغ عدد زوار هياكل بعلبك عام 2004 حوالي 104187

زائر[27] وقد انخفض إلى 33900 زائر عام 2014[28]، ربّما يعود ذلك إلى الأوضاع الأمنيّة التي شهدتها بعلبك، كما البقاع نتيجة تأثره بالأزمة السورية بشكل مباشر، الأمر الذي أدّى إلى تردّي الأوضاع الأمنية فيه، خاصة وأنّ الأوضاع الأمنية والسياسية المستتّبة شرط أساسي من شروط السياحة في المنطقة، وقد يعود السبب برأيي إلى اهتمام السياح بالسياحة الدينية أكثر من السياحة الأثرية، حيث تضم مدينة بعلبك العديد من أماكن العبادة الدينية الإسلاميّة منها والمسيحية، تتمثّل هذه الأماكن بالمقامات الدينية والمساجد والكنائس والأديرة والتي جذبت اليها أعداداً كبيرة من السياح والتي باتت في الآونة الأخيرة منافسة للسياحة الأثرية.

المشاكل التي تواجه قطاع السياحة: بحسب رأي العديد من أصحاب المرافق السياحية فإنّ المشاكل التي تحول دون تطوّر هذا القطاع هي التالي:

البنية التحتية: إنّ تطوّر السياحة مرتبط بشكل اساسي في تأمين شبكة مواصلات وكهرباء واتصالات متطورة لا تتأثر كثيراً في ظل التغيرات المناخية وتكون الاستجابة للطوارئ سريعة، وهذا غير متوفر في مدينة بعلبك خاص. فمشكلة البنى التحتية تعيق قيام الاستثمارات السياحية، وأهمّها النقص الحاد في المياه والكهرباء، ناهيك عن عدم كفاية طرق المواصلات البريّة من ناحية عدم تنظيمها ووضع إشارات السير عليها وتطبيق خطط السير كما يجب.

موسمية السياحة: تعد من المشاكل الأساسية للأفراد الذين يعتاشون من السياحة، فليس هناك من تطوير القطاع السياحي ليجذب السكان في فصل الشتاء، فلا البنية التحتية متوفرة ولا التمويل الاستثماري متوافر.

عدم الاستقرار الأمني: يعتبر من أهم المشاكل التي تواجه القطاع السياحي والتي تعترض خطة التنمية السياحية، إذ يجب أن يتوفر الاستقرار الأمني، وذلك من أجل تأمين الراحة والطمأنينة للسائح.

الخاتمـــة

لا بدّ لكل بحث علمي يتناول ظاهرة ما أن تفضي خواتيمه إلى خلاصة تحقّق الفرضيات.فقد أظهر الإسهام البحثي أنّ الشعور العام لدى أهالي بعلبك بأهميّة المعالم السياحية الموجودة، ليس مجرّد هوى شخصي بقدر ما هو عقلانية أنّ السياحة هي من المقومات الأساسية في مدينة بعلبك وتؤثّر تأثيراً بالغاً في اقتصادها نمواً وازدهاراً.

لذا لا بدّ من الاستفادة من المراكز السياحية مع ما تتمتع به من عناصر قوة، وبالتالي فإنّ البنية السياحية في بعلبك مؤهلة للاطلاع بدور تنموي وتشكيل قاعدة إنتاج سياحي مع أنّها تقتصر على المناسبات الوطنية.وهنا يجب لفت النظر إلى ضرورة الارتباط التفاعلي بين البنية السياحية والبنى الاقتصادية والاجتماعية في مدينة بعلبك ومن هنا لا بد من ذكر الدور المركزي الذي تلعبه الهيئات المحلية

وقوى المجتمع المدني والمجلس البلدي واهتمامه بالشأن السياحي من خلال تدابير عملانية تنشّط الحركة السياحية، بالإضافة إلى دور الجمعيات الأهلية في تعميم ثقافة السيحة وتركيز نشاطها على الشأن البيئي.

السياحة في رأينا هي صناعة بلا مداخن وهي صناعة غير مرئية النتائج بعكس صناعة السيارات والبترول والمعادن، فهي توثر على إقتصاد المناطق التي تزدهر فيها. إنّ معرفة مدى الأثر الاقتصادي للسياحة يمكن إدراكه بالوسائل العلمية التي توافق عليها علماء الإقتصاد. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ هذا الأثر مرتبط بحجم وكميات السياح ومدة إقامتهم ومستوى دخلهم وانفاقهم ونوع عملهم ووسائل النقل المستحوذة وترتيبات قضاء العطلة.

وكلما وفرت مدينة بعلبك جودة في الخدمات ووسائل جذب فعّالة وجديدة من مطاعم وفنادق راقية وقريبة من المعالم الأثرية كلما ازدادت رغبة السياح في زيارته، ثم الإقامة فيه وبالتالي ازداد إنفاقهم.

إذاً تؤثّر السياحة على ميزان المدفوعات، فالسائح يصرف أمواله مقابل نشاطاته وإقامته وطعامه ولهوه ومشترياته.

وفي نهاية هذا البحث سأقدّم مجموعة من الاقتراحات حتى تنهض المدينة سياحياً من خلال (عملية تجديد وإصلاح).

الخطوات المقترحة لتنمية القطاع السياحي في قضاء بعلبك:

إنّ تطوير القطاع السياحي يجب ان يتم بالتزامن مع خطوات في تنمية البنية التحتية لأنّ السياحة تتطلب خطة تنمية متكاملة كونها تستلزم تكامل كل المقومات معاً، فالعمل التنموي السياحي في قضاء بعلبك يتطلب عدة خطوات والتي هي كالتالي:

في شق البنية التحتية: يجب إصلاح الطرقات وتهيئتها لتكون ملائمة لاستقبال العدد الكبير من الباصات أو السيارات السياحية، بعيداً عن زحمة السير، إضافة إلى إنارة الطرقات الرئيسية الدائمة، كما أنّ إيجاد حل لمشكلة الصرف الصحي، وتأمين فنادق مجهزة بأحسن التجهيزت تجذب السياح من الشروط الضرورة لتنمية السياحة.

كما يجب المحافظة على المساحات الخضراء التي تُعد عنصراً مهماَ يجب الحرص على وجوده داخل قضاء بعلبك، لما له من قيمة جماليّة، وتأثيرات صحيّة وبيئيّة على حياة السكان، ولما له من قيمة في جذب أعداد كبيرة من السياح.

الحفاظ على الشق العمراني وخصوصاً الأبنية التراثية وتعويد الأبناء على نظامها وترميمها وتأهيل الحدائق المجاورة لكل منزل (قديم أو حديث).

تربية الأبناء على وجوب حماية الطبيعة والحفاظ على جمالها الطبيعي والعمل للحفظ على كائناتها.

تشجيع القطاعات الإنتاجية المهنية للسياحة أي الحرف اليدوية المختلفة.

تشجيع السياحة وتنظيم معالمها وتنسيق مرافقها. حماية التراث الوطني الطبيعي والثقافي والمحافظة عليه.

نقاط القوة	نقاط الضع
1) مدينة سياحية تتمتّع بمقومات تراثية هائلة	1) مهملة من قبل الدولة والبلديات.
2) قلعة من أشهر القلاع، وأروعها تراثيا.	2) غياب الدور الإعلامي المحلي في نموها السياحي.

زهــراء شـــكر

الهوامـش

(1) عبدالله، محمد فرير، السياحة عند العرب تراث وحضار، الجزء 1، دار مكتبة الهلال، ص 31.
(2) نصرالله حسن، تاريخ بعلبك، التاريخ الاقتصادي والسياسي، الجزء الأول بيروت، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر، ص 10.
(3) نصرالله، حسن، مرجع سابق، ص 19ـ20
(4) آلوف ميخائيل موسى، تاريخ بعلبك، مدينة بيروت، المطبعة الأدبية، ص 15.
(5) آلوف ميخائيل، مرجع سابق، ص18.
(6) نعمة حسن، ص 146ـ147
(7) المرجع السابق نفسه، ص145
(8) آلوف، ميخائيل، مرجع سابق، ص14
(9) نصرالله، حسن، مرجع سابق ص40.
(10) نعمة، حسن، مرجع سابق ص149.
(11) نصرالله، حسن، تاريخ بعلبك، مرجع سابق ص 45.
(12) ص461
(13) نصرالله، حسن، مرجع سابق ص46.
(14) هيليوبوليس بعلبك رحلة في الآثار، 1998، ص 44.
(15) المرجع السابق نفسه ص 47.
(16) Ministère Du tourisme, les lieux des cultesislamique au Liban 2003 p37.
(17) كتاب السيدة خولة بنت الإمام الحسين (ع): 39 عن مجلة المشرق اللبنانية 1900 قراءة بعض الكتابات الشرقية وتفسيرها، ص105.
(18) د. حسن زريق، بعلبك الإسلامية من الناحيتين التاريخية والأثرية، مرجع سابق، ص 127.
(19) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1979 ص 127.
(20) وزارة السياحة أماكن العبادة في لبنان عام 2006، ص 79

(21) وزارة السياحة، العبادة في لبنان 2006 ص 79.
(22) المرجع نفسه.
(23) وزارة السياحة أماكن العبادة في لبنان عام 2006، ص92.
(24) د. حسن زريق، بعلبك الإسلامية من الناحيتين التاريخية والأثرية، مرجع سابق، ص 78.
(25) المرجع نفسه ص 80.
(26) www.bekaaouna.com, p159.
(27) وزارة السياحة، مصلحة الدراسات والأبحاث، الإحصائيات السياحيّة.
(28) المرجع نفسه.

المصادر والمراجع

الكتب العربية والرسائل الجامعية

– آلوف ميخائيل موسى(1989)، تاريخ بعلبك، ولاية بيروت، المطبعة الأدبية.

– حسن الباشا (1979) مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، دار النهضة العربية.

– حسن زريق، (2002) بعلبك الإسلامية من الناحيتين التاريخية والأثرية، أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية.

– كتاب السيدة خولة بنت الإمام الحسين (ع): 39 عن مجلة المشرق اللبنانية 1900 قراءة بعض الكتابات الشرقية وتفسيرها.

– نعمة حسن، (1996) قراءات من الماضي موسوعة المدن والقرى اللبنانية، بيروت، دار عون للطباعة والنشر.

– نصرالله حسن (1984)، تاريخ بعلبك، التاريخ الاقتصادي والسياسي، الجزء الأول بيروت، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر.

– عبدالله، محمد فرير، السياحة عند العرب تراث وحضارة، الجزء الأوّل، دار مكتبة الهلال.

– فرج، هولو (2002)، تاريخ لبنان والبلاد العربية الحديث والمعاصر، الجامعة اللبنانية، دراسة غير منشورة.

الكتب والدراسات المنشورة باللغة الأجنبية:

Ministère Du tourisme, les lieux des cultesislamiques au Liban 2003 .

المؤسسات الحكومية

– وزارة السياحة، مصلحة الدراسات والأبحاث، أماكن العبادة في لبنان.

– وزارة السياحة، مصلحة الدراسات والأبحاث، الإحصائيات السياحيّة.

– وزارة السياحة وجمعية الإنماء، البقاع مشوار.

مواقع شبكة الإنترنت

– لجنة مهرجانات بعلبك الدولية، الموقع الرسمي على الأنترنت.

https://ar.wikipedia.org/wiki/

www.bekaaouna .com.

ـ دراسة ميدانيّة على الحلقة الثالثة (الصف الثامن) في مدارس المهديّ(عج) ـ لبنان

القيم التربويّة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" ومدى انسجامها مع الفئة العمريّة الموجَّهة إليها من وجهة نظر المعلّمين

ديانا حسين تحفة

ملخّص الدراسة

هدفت هذه الدراسة إلى تحليل العلاقة بين القيم التربويّة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" من جهة، والفئة العمريّة الموجَّهة إليها من جهة أخرى، من وجهة نظر المعلّمين في مدارس المهديّ(عج) في لبنان. ولهذه الغاية، اعتمدت الدراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ، وطبّقت تقنيّتَي تحليل المضمون والاستبانة،على عيّنة مؤلّفة من 50 معلّمًا ومعلّمة في المرحلة الثانويّة، يشغلون مستويات وظيفيّة مختلفة (مشرف دينيّ، مرشد دينيّ، معلّم)، مع لحاظ المتغيّرات الشّخصيّة (العمر، الجنس، المؤهل العلميّ، الأقدميّة).ثمّ تمّ تحليل البيانات واختبار الفرضيّات بواسطة الأدوات الإحصائيّة لمعالجة البيانات عبر برنامج الـ SPSS، وتحديدًا: الوسط الحسابيّ، والانحراف المعياريّ، ومعامل ألفا كورنباخ، واختبار الدلالة الإحصائيّة، وقيمة ليكرت.

من أبرز ما توصّلت إليه هذه الدراسة هو وجود علاقة إيجابيّة دالّة إحصائيًّا بين القيم الموجودة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" من وجهة نظر المعلّمين في مدارس المهديّ(عج) في لبنان، حيث بلغت نسبة موافقتهم على أسئلة الدراسة كافّة (أنواع القيم ومدى انسجامها مع الفئة المستهدفة) نسبة 78.2٪، تتراوح بين: 77.2٪ للقيم المعرفيّة، و76.1٪ للقيم الأخلاقيّة، و79.8٪ للقيم الاجتماعيّة. كما توصّلت الدراسة إلى عدم وجود علاقة إيجابيّة دالّة إحصائيًّا في مدى موافقة المستطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى لجنس المستطلَع، وعمره، ووضعه العائليّ، ومستواه العلميّ، ومستواه الوظيفيّ، وسنوات خدمته.

ثمّ خلصت الدراسة إلى عدّة توصيات، تمثّل أبرزها بضرورة المحافظة على القيم التربويّة الموجودة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" وتفعيلها من خلال تنويعها أكثر؛ وإدخال أنواع أخرى من القيم الّتي تنسجم مع الفئة الموجَّهة إليها؛ وإجراء المزيد من الدراسات والبحوث في هذا المجال، حتّى تتمكّن مناهج تعليم

القرآن الكريم من تقديم منظومة قيم تربويّة قرآنيّة تؤثّر على شخصيّة التلاميذ وتمكّنهم من تمثّلها وتطبيقها في حياتهم.

المقدِّمــة

يُعدّ موضوع القيم أحد المجالات الأساسيّة في التربية وبقيّة العلوم السلوكيّة، ويرجع اهتمام علماء التربية بالقيم إلى اتّصالها مباشرةً بالأهداف الّتي تسعى التربية إلى تحقيقها في المتعلّم. ويزخر القرآن الكريم بالقيم المتنوّعة الّتي لو وُظّفت بشكل صحيح وفعّال في المناهج الدراسيّة، لخدمت العمليّة التربويّة كثيرًا، وخاصّة أنّ المجتمع المسلم اليوم في أشدّ الحاجة إلى تلمّس بناءٍ تربويّ يستند على أهداف قويّة وصحيحة، تعيد القيم التربويّة الإسلاميّة إلى مكانها الصحيح، خاصّة في الظروف الحاليّة الّتي يتعرّض فيها العالم الإسلاميّ لغزو ثقافيّ وتذويبٍ قِيميّ أفقده القدرة على المقاومة، فاهتزّ كيانه، واختلّت معاييره.

ولهذا، كان لا بدّ من التعرّف على القيم المتضمّنة في مقرّر تعليم القرآن الكريم للصّف الثامن في الحلقة الثالثة، وتحليلها، ومعرفة مدى انسجامها مع الفئة الموجَّهة إليها، كون هذه المرحلة تتزامن مع مرحلة المراهقة المبكرة، وهي مرحلة حسّاسة ومهمّة، وتحتاج إلى دقّة وعناية لناحية اختيار القيم الّتي تناسبها، ولا سيّما في مادّة القرآن الكريم.

أوّلًا: أهداف الدراسة

1. تحديد القيم المتضمّنة في مقرّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" المُعدّ للصفّ الثامن الأساسيّ في مدارس المهديّ(عج)؛

2. وفحص مدى انسجامهامع الفئة الموجَّهة إليها؛

3. وتقديم إضافة عمليّة، عبر التوصّل إلى المقترحات اللازمة المتعلّقة بمنظومة القيم لمخطِّطي برامج التربية القرآنيّة في المدارس؛

4. ومساعدة المعلّمين في معرفة أنواع القيم الموجودة في الكتاب من تلك غير الموجودة، كي يعملوا على تقديمها للتلاميذ خلال الشرح.

ثانيًا: أهمّيّة الدراسة

تنبع أهمّيّة الدراسة من تعرّضها لمصدرٍ رئيس من مصادر التربية في الإسلام، ألا وهو القرآن الكريم الّذي يُعتبر المصدر الأساسيّ للتشريع. كما أنّها تتناول موضوعًا محوريًّا وأساسيًّا في العمليّة التربويّة، نظرًا لكون القيم تشكّل إطارًا مرجعيًّا يحكم سلوك المتعلّم ويوجّه تصرّفاته. ولا يخفى على أحد أنّه بات من الملحّ التأسيس لتربية قائمة على القيم القرآنيّة المناسبة لكلّ فئة عمريّة، بغية بناء الفكر الواعي الملتزم أخلاقيًّا، والّذي ينعكس بدوره على السلوك والتصرّفات.

ثالثًا: حدود الدراسة

الحدود الموضوعيّة: كتاب "أ ل م" المقرّر للصفّ الثامن الأساسيّ.

الحدود المكانيّة: الصف الثامن الأساسيّ ضمن الحلقة الثالثة في مدارس المهدي(عج) في لبنان.

الحدود البشريّة: جميع معلّمي مادّة

القرآن الكريم في المؤسّسة

الحدود الزمانيّة: الفترة الممتدّة من شهر حزيران من العام 2018 لغاية شهر ك1 من العام نفسه

رابعًا: أدوات الدراسة

1. **المسح المكتبيّ:** تمّ توظيفه للحصول على المعلومات اللازمة للشقّ النظريّ من الدراسة.

2. **الاستبيان:** يتألّف من 32 فقرة تراعي خصائص مجتمع الدراسة، ويتوزّع على قسمين: الأوّل هو عبارة عن المتغيّرات الديموغرافيّة لمجتمع الدراسة، أمّا الثاني فيغطّي الأنواع الثلاثة للقيم الّتي تتناولها الدراسة، أي القيم المعرفيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة.

خامسًا: إشكاليّة البحث والتساؤلات المطروحة حولها

نظرًا لدور القيم الهامّ في تشكيل شخصيّة الفرد، تزايد اهتمام الباحثين والمختصّين في دراستها،لا سيّما في الوقت الراهن الّذي يشهد المجتمع الإسلاميّ هزّات أخلاقيّة تهدّد رصيده القيميّ، بالإضافة إلى ضعف الالتزام بالقيم التربويّة الإسلاميّة المستمدّة من كتاب الله تعالى. وهذا ما لاحظتُه بوضوح خلال تجربتي العمليّة لسنواتٍ في مجال التربية والتعليم، فالتزام التلاميذ بالقيم اللازمة ليس كاملًا، كما أنّ معرفتهم النظريّة للقيم الخلقيّة ليست متطابقة مع ممارستهم الفعليّة لها. هذا في حين أنّ القرآن الكريم نزل هدايةً لكلّ البشر،وقدّم الكثير من القيم بأسلوبٍ رائعٍ وهادفٍ، ما يجعلها مجالًا خصبًا للدراسة والبحث للاستفادة منها في المناهج الدراسيّة.

من هنا، جاءت هذه الدراسة التحليليّة للبحث في القيم المتضمّنة في مقرّر تعليم القرآن الكريم للصفّ الثامن في الحلقة الثالثة؛ وتقدير مدى انسجامها مع الفئة الموجَّهة إليها، وهي مرحلة المراهقة المبكرة؛ وقياس متغيّرات أخرى ذات صلة بمعلّم المادّة. ويمكن تلخيص مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: "هل توجد علاقة انسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" المُعَدّ للصّف الثامن في الحلقة الثالثة من التعليم الأساسيّ والفئة الموجَّهة إليها؟ وهل هناك فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول انسجامها؟"

وينبثق عن هذه الإشكاليّة ستّة أسئلة فرعيّة على النحو الآتي:

1) هل توجد علاقة انسجام بين القيم المعرفيّة، الاجتماعيّة، الأخلاقيّة في مقرَّر تعليم القرآن الكريم "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليه؟

2) هل توجد فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول الانسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليها، تُعزَى لجنس المُسْتَطلَع؟

3) هل توجد فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول الانسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليها، تُعزَى لعمر المُسْتَطلَع؟

4) هل توجد فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول الانسجام بين القيم التربويّة في

كتاب "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليها، تُعزَى للمستوى العلميّ للمُسْتَطلَع؟
5) هل توجد فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول الانسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليها، تُعزَى للمستوى الوظيفيّ للمُسْتَطلَع؟
6) هل توجد فوارق بين آراء المُسْتَطلَعين حول الانسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" والفئة الموجَّهة إليها، تُعزَى لعدد سنوات الخدمة للمُسْتَطلَع؟

سادسًا: فرضيّات البحث أو الأسئلة

تمّت صياغة الفرضيّة الأساسيّة الّتي سيجري اختبارها استنادًا إلى الفرضيّة الصفريّة أو فرضيّة العدم، أي "لا يوجد علاقة"، وهي: "لا توجد علاقة انسجام بين القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" والفئة العمريّة الموجَّهة إليها، ولا فوارق بين آراء المستطلعين تُعزى إلى متغيّرات أساسيّة". وينبثق عن هذه الفرضيّة الصفريّة الفرضيّات الفرعيّة الآتية:
1) لا توجد علاقة انسجام بين القيم التربويّة (المعرفيّة، الاجتماعيّة، الأخلاقيّة) في كتاب "أ ل م" والفئة العمريّة الموجَّهة إليها.
2) لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لجنس المُسْتَطلَع.
3) لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لعمر المُسْتَطلَع.
4) لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى للمستوى العلميّ للمُسْتَطلَع.
5) لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى للمستوى الوظيفيّ للمُسْتَطلَع.
6) لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لعدد سنوات خدمة المُسْتَطلَع.

سابعًا: نتائج الدراسة

1. نتائج الدراسة في الجانب النظريّ

1) من المهمّ تحليل القيم المتضمّنة في الكتب المدرسيّة، وخاصّة كتب التربية الإسلاميّة والقرآنيّة، بغية الوقوف على نوع القيم الموجودة فيها ومدى ملاءمتها للفئة الموجَّهة إليها.
2) تُشَكِّل القيم بأنواعها الشخصيّة الصالحة للتلميذ، إذا ما غُرست غرسًا سليمًا.
3) إنّ للمؤسسات التربويّة ـ أسرةً ومدرسةً ومسجدًا والخ ـ دورًا كبيرًا مفصليًّا في غرس القيم.
4) إنّ لفهم خصائص النموّ في مرحلة المراهقة المبكرة الدور الأساسيّ والأثر الهامّ في اختيار نوعيّة القيم لدى تلاميذ المرحلة المتوسّطة بما تنسجم مع هذه الخصائص.

2. نتائج الدراسة في الجانب الميدانيّ

أظهرت الدراسة الميدانيّة أنّ القيم الثلاث الموجودة في كتاب "أ ل م" منسجمة بشكل عال مع الفئة العمريّة الموجَّهة إليها بناءً لأفراد العيّنة، كما ظهر أنّ أفراد العيّنة اعتبروا أنّ القيمة الاجتماعيّة هي الأكثر

انسجامًا مع الفئة العمريّة الموجَّهة إليها، حيث بلغ المتوسّط الحسابيّ (3.99)، مع انحراف معياريّ (0.507). أمّا في المرتبة الثانية، فقد جاءت القيمة المعرفيّة بمتوسّط حسابيّ (3.86)، مع انحراف معياريّ (0.475). وحلّت القيمة الأخلاقيّة في المرتبة الثالثة بمتوسّط حسابيّ (3.81)، مع انحراف معياريّ (0.531).

1. الفرضيّة الفرعيّة الأولى: لا توجد علاقة انسجام بين القيم التربويّة (المعرفيّة، الاجتماعيّة، الأخلاقيّة) في كتاب "أ ل م" والفئة العمريّة الموجَّهة إليها.

نوع القيم	عالٍ جدًّا	عالٍ	متوسّط	المجموع
المعرفيّة	2	13	–	15
الاجتماعيّة	4	6	2	12
الأخلاقيّة	2	3	–	5
المجموع	8	22	2	32

بناءً على الجدول أعلاه، فإنّ كلّ القيم منسجمة بدرجة عالية أو عالية جدًّا (ما عدا اثنتين فقط) مع المرحلة العمريّة الموجَّهة إليها، ما يدلّ على عدم صحّة الفرضيّة الصفريّة الّتي تنصّ على عدم وجود علاقة انسجام بين القيم التربويّة (المعرفيّة، الاجتماعيّة، الأخلاقيّة) في كتاب "أ ل م" والفئة العمريّة الموجَّهة إليها، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة البديلة.

2. الفرضيّة الفرعيّة الثانية: لا توجد فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُستَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لجنس المُستَطلَع.

نوع القيم	الجنس	N	Mean	Std. Deviation	Sig.
المعرفيّة	ذ	9	3.78	0.48	0.552
	أ	38	3.88	0.48	
الاجتماعيّة	ذ	9	3.99	0.41	0.971
	أ	38	4.00	0.53	
الأخلاقيّة	ذ	9	3.80	0.30	0.937
	أ	38	3.82	0.58	
المجموع	ذ	9	3.86	0.39	0.749
	أ	38	3.92	0.48	

بناءً لاختبار **T-test** في الجدول أعلاه، فإنّ قيمة الدلالة الإحصائيّة أكبر من 0.05 في كلّ الحالات، ما يدلّ على عدم وجود فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المستطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى لجنس المستطلَع، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة الصفريّة.

3. الفرضيّة الفرعيّة الثالثة: لا توجد فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُستَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لعمر المُستَطلَع.

Sig.	F	Mean Square	Df	Sum of Squares		
0.074	2.476	0.511	3	1.532	Between Groups	القيم المعرفيّة
		0.206	43	8.868	Within Groups	
			46	10.400	Total	
0.200	1.614	0.438	3	1.315	Between Groups	القيم الأخلاقيّة
		0.272	43	11.677	Within Groups	
			46	12.992	Total	
0.105	2.175	0.520	3	1.559	Between Groups	القيم الاجتماعيّة
		0.239	43	10.274	Within Groups	
			46	11.833	Total	
0.086	2.343	0.450	3	1.350	Between Groups	المجموع
		0.192	43	8.258	Within Groups	
			46	9.608	Total	

بناءً لاختبار(One-way Anova) في الجدول أعلاه، فإنّ قيمة الدلالة الإحصائيّة أكبر من 0.05في كلّ الحالات، ما يدلّ على عدم وجود فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المستطَلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى لعمر المستطلَع، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة الصفريّة.

4. الفرضيّة الرابعة: لا توجد فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى للمستوى العلميّ للمُسْتَطلَع.

Sig.	F	Mean Square	Df	Sum of Squares		
0.140	1.926	0.411	3	1.232	Between Groups	القيم المعرفيّة
		0.213	43	9.168	Within Groups	
			46	10.400	Total	
0.347	1.131	0.317	3	0.951	Between Groups	القيم الأخلاقيّة
		0.280	43	12.042	Within Groups	
			46	12.992	Total	
0.662	0.533	0.141	3	0.424	Between Groups	القيم الاجتماعيّة
		0.265	46	11.408	Within Groups	
			46	11.833	Total	
0.299	1.263	0.259	3	0.778	Between Groups	المجموع
		0.205	43	8.830	Within Groups	
			46	9.608	Total	

بناءً لاختبار (One-way Anova) الوارد في الجدول أعلاه، فإنّ قيمة الدلالة الإحصائيّة أكبر من 0.05 في كلّ الحالات، ما يدلّ على عدم وجود فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المستطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى للمستوى العلميّ للمستطلَع، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة الصفريّة.

5.الفرضيّة الفرعيّة الخامسة: لا توجد فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى للمستوى الوظيفيّ للمُسْتَطلَع .

		Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.
القيم المعرفيّة	Between Groups	0.268	2	0.134	0.581	0.564
	Within Groups	10.132	44	0.230		
	Total	10.400	46			
القيم الأخلاقيّة	Between Groups	0.051	2	0.025	0.087	0.917
	Within Groups	12.941	44	0.294		
	Total	12.992	46			
القيم الاجتماعيّة	Between Groups	0.117	2	0.059	0.221	0.803
	Within Groups	11.715	44	0.266		
	Total	11.833	46			
المجموع	Between Groups	0.133	2	0.066	0.309	0.736
	Within Groups	9.475	44	0.215		
	Total	9.608	46			

بناءً لاختبار (One-way Anova) في الجدول أعلاه، فإنّ قيمة الدلالة الإحصائيّة أكبر من 0.05 في كلّ الحالات، ما يدلّ على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المستطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى للمستوى الوظيفيّ للمستطلَع، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة الصفريّة.

6. الفرضيّة الفرعيّة السادسة: لا فوارق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المُسْتَطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزَى لعدد سنوات خدمة المُسْتَطلَع.

Sig.	F	Mean Square	Df	Sum of Squares		
0.074	2.479	0.511	3	1.534	Between Groups	القيم المعرفيّة
		0.206	43	8.866	Within Groups	
			46	10.400	Total	
0.171	1.752	0.472	3	1.415	Between Groups	القيم الأخلاقيّة
		0.269	43	11.577	Within Groups	
			46	12.992	Total	
0.523	0.759	0.198	3	0.595	Between Groups	القيم الاجتماعيّة
		0.261	43	11.237	Within Groups	
			46	11.833	Total	
0.158	1.821	0.361	3	1.083	Between Groups	المجموع
		0.198	43	8.525	Within Groups	
			46	9.608	Total	

بناءً لاختبار (One-way Anova) في الجدول أعلاه، فإنّ قيمة الدلالة الإحصائيّة أكبر من 0.05 في كلّ الحالات، ما يدلّ على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائيّة في مدى موافقة المستطلَعين على انسجام القيم التربويّة مع المرحلة العمريّة للتلاميذ، تُعزى لعدد سنوات الخدمة للمستطلَع، ويدلّ بالتالي على صحّة الفرضيّة الصفريّة.

الخـــاتـمـــة

بعد الاطّلاع على نتائج اختبار الفرضيّات، نستنتج الآتي:

ـ إنّ القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" منسجمة بشكل عامّ مع المرحلة العمريّة الموجَّهة إليها بدرجة عالية إلى عالية جدًّا، ما عدا قيمتَين سجّلتا مستوىً متوسّطًا وهما: "الإيمان بالعلم اللدنيّ الموجود عند الأولياء"، و"الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم له"، الأمر الّذي يشير إلى الحاجة إلى معالجتهما وتعديلهما بما يتناسب مع الفئة العمريّة المستهدفة.

ـ إنّ المستطلَعين يجمعون على انسجام القيم التربويّة في كتاب "أ ل م" مع المرحلة العمريّة الموجَّهة إليها، على اختلاف تصنيف وتقسيم المُسْتَطلَعين بحسب المتغيّرات الأساسيّة.

تاسعًا: التوصيات

1) ضرورة المحافظة على القيم الموجودة في كتاب "أ ل م"، نظرًا لانسجامها مع الفئة الموجَّهة إليها؛

2) وإضافة قيم معرفيّة جديدة تحاكي المهارات العليا في التفكير، كالتحليل والتركيب والاستنتاج والإبداع، بغية تشكيل شخصيّة التلميذ وترسيخ إدراكاته ومعتقداته، لتتضح الرؤيا أمامه، ويفهم العالم من حوله، ويتوسّع إطاره المرجعيّ في فهم علاقاته وحياته؛

3) وتزويد الكتاب بقيم اجتماعيّة أكثر تنوّعًا ومحاكاةً للواقع الاجتماعيّ وتوطيدًا للعلاقات الإنسانيّة؛ إلى جانب تزويد المناهج بأساليب تطبيق القيم، كي يتمثّلها التلميذ في سلوكه وتترسّخ في حياته؛

4) والاهتمام أكثر بالقيم الأخلاقيّة، فهي تلعب دورًا مهمًّا في توجيه وضبط السلوك الإنسانيّ، والتوافق النفسيّ والاجتماعيّ، والإحساس بالأمان وتأكيد الذات؛

5) والتركيز على القيم الّتي تلبّي حاجات المراهق في المرحلة المتوسّطة وتزوّده بطاقة إيمانيّة تدفعه وتغذّيه، خاصّة في ضوء المتغيّرات الّتي يعيشها في عالم اليوم؛

6) والاهتمام بإجراء المزيد من الأبحاث والدراسات في موضوع القيم وتحليلها،حتّى تتمكّن مناهج القرآن من تقديم منظومة قيم تربويّة قرآنيّة مؤثّرة في شخصيّة التلميذ؛

7) وتهيئة أطر تربويّة بمستوى التطلّعات الدينيّة لتحقيق مخرجات العمليّة التعليميّة، ومن ثمّ تعميم ذلك على كافّة المواد، لتكون التربية الإسلاميّة مادّة القيم بامتياز. ولايعني ذلك أنّها المادّة الوحيدة المعنيّة بالقيم، بل يعني أنّ القيم ينبغي أن تكون رسالة المعلّمين في المنظومة التربويّة ككلّ، احترامًا للتقاطعات التفصيليَّة الّتي تجمع بين التخصّصات، وانطلاقًا من منطق التكامل المعرفيّ للعلوم.

ديانا حسين تحفة

المصادر والمراجع

1. المصادر العربيّة

1. القرآن الكريم
2. إبراهيم رمضان الأديب: أسس ومهارات بناء القيم التربويّة في العمليّة التعليميّة، (ط1)، مؤسَّسة أمّ القرى، المنصورة، 2007.
3. إبراهيميّ الطاهر ودحمان زريق: دور المدرسة القرآنيّة في تنمية القيم الاجتماعيّة للتلميذ، جامعة محمّد خيضر، بسكرة ـ الجزائر، 2011.
4. أحمد علي بديوي: في نموّ الإنسان وتربيته، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ ـ مصر، 2008.
5. أحمد محمّد الزعبي: علم نفس النموّ: الطّفولة والمراهقة، دار الزهراء للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، 2001.
6. حكيمة حمودة أيت: أهمّيّة المدرسة في تنمية القيم السلوكيّة لدى التلاميذ ودورها في تحقيق التوافق الاجتماعيّ، معهد علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2010.
7. حنان مرزوق حسين أحمد: فاعليّة برنامج لتنمية بعض القيم الأخلاقيّة لأطفال الشوارع، جامعة عين شمس، مصر، 2004.
8. خالد الصمديّ: القيم الإسلاميّة في المنظومة التربويّة، المنظّمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو ISESCO، الرباط ـ المملكة المغربيّة، 2008.
9. زياد بن علي محمود الجرجاويّ: إشكاليّات تطبيق قيم التربية الإسلاميّة في المجتمع العربيّ، دار المعارف، القاهرة، 2007.
10. سائدة جمال محمّد الغصين: النموّ النفسيّ والاجتماعيّ لدى طلبة المرحلة الأساسيّة العليا بغزّة وعلاقته بقدرتهم عل حلّ المشكلات الاجتماعيّة، الجامعة الإسلاميّة، غزّة، 2008.
11. سلوى عبدالله الجسّار: واقع تعلّم القيم في التعليم المدرسيّ ـ رؤية جديدة نحو تطوير أداء المعلّم، كلّيّة التربية الأساسيّة، جامعة الكويت، الكويت، 2009.
12. سميّة سلمان عثمان العجرميّ: دراسة تحليليّة للقيم المتضمّنة في كتاب التربية الإسلاميّة الاجتماعيّة وحقوق الإنسان للصفّ الرابع الأساسيّ بفلسطين، جامعة الأزهر، غزّة، 2012.
13. سيّد أحمد طهطاويّ، القيم التربويّة في القصص القرآنيّ، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1996.
14. طه علي حسين الدليمي وزينب حسن الشمري: أساليب تدريس التربية الإسلاميّة، (ط1)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، 2003.
15. علي القائمي: تربية الطفل دينيًّا وأخلاقيًّا، (ط1)، مكتبة فخراويّ، المنامة ـ البحرين، 1995.
16. فؤاد علي العاجز وعطيّة العمريّ: القيم وطرق تعلّمها وتعليمها ـ دراسة مقدّمة إلى مؤتمر كلّيّة التربية والفنون تحت عنوان "القيم والتربية في عالم متغير"، جامعة اليرموك، إربد ـ الأردن، 1999.
17. لطفي البوهيّ: مهنة التعليم وأدوار المعلّم، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1999.
18. ماجد زكي الجلّاد: تدريس التربية الإسلامية ـ الأسس النظريّة والأساليب النظريّة، (ط1)، دار المسيرة، جامعة اليرموك، عمان، 2004.
19. ماجد زكي الجلّاد: تعلّم القيم وتعليمها، (ط1)، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، جامعة اليرموك، 2005.
20. مجموعة من الباحثين: النظام التربويّ الإيرانيّ، (ط1)، ترجمة مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، لبنان، 2007.
21. محمّد جلوب الفرحان: الخطاب التربويّ الإسلاميّ، (ط1)، الشركة العالميّة للكتاب، 1999.

22. محمّد رأفت محمّد صابر الجارحيّ: تنمية بعض القيم التربويّة لتلاميذ الحلقة الأولى من التعليم الأساسيّ في مصر في ضوء خبرة اليابان، جامعة الزقازيق، مصر، 2007.
23. محمّد رضا فضل الله: المعلّم والتربية، (ط1)، دار أجيال المصطفى، بيروت ـ لبنان، 1995.
24. محمّد عبد الجبّار قحمص وآخرون: دور أستاذ التربية البدنيّة والرياضيّة في تنمية بعض القدرات العقليّة لدى التلاميذ ـ دراسة ميدانيّة على تلاميذ متوسّطات مدينة الطيّبات، جامعة قصدي مرباح، ورقلة ـ الجزائر، 2011.
25. محمّد علي أبو جادو صالح: علم النفس التربويّ، (ط7)، معهد التربية، اليونيسكو، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 2009.
26. محمّد نائل أخرس وتاج السر عبد الله الشيخ: علم نفس النموّ، مكتبة الرشد، الرياض، 2004.
27. محمود عطا عقل: النموّ الإنسانيّ: الطفولة والمراهقة، (ط1)، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، 1996.
28. مدارس المهديّ(عج): مقدّمة كتاب "أ ل م"، لجنة التأليف في مديريّة الثقافة والتربية الدينيّة في مدارس المهديّ(عج)، لبنان.
29. مركز نون للتأليف والترجمة: المسجد في فكر الإمام الخمينيّ، (ط3)، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، بيروت ـ لبنان، 2010.
30. ناصر الحجيلان: بناء القيم في المجتمع، جريدة الرياض، أكتوبر2007، العدد 14365.
31. نوال زرزور: معجم ألفاظ القيم الأخلاقيّة وتطوّرها الدلاليّ بين لغة الشعر الجاهليّ ولغة القرآن الكريم، (ط1)، مكتبة لبنان، بيروت، 2001.
32. هدى محمود الناشف، الأسرة وتربية الطفل، (ط1)، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، 2007.

2. الدراسات الأجنبيّة

1. American Psychology Association: Reference For Professionals Adolescents, 2002.

2. B. K. Hamre& and R. C. Pianta: Early Teacher Child Relationships and the Trajectory of Children School Outcomes through Eighth Grade, Child Development, 2001, 72.

3. I. Asif & A. Fakhra& F. Tahir & A. Shabbir: Relationship between Teachers' Job Satisfaction and Students' Academic Performance, Eurasian Journal of Educational Research, 2016, 64.

4. I. Chein:The Science of Behavior and the Image of Man,New York: Basic Books. Cover, J. 1972; Theological Reflections: Societal Effects of Television, Religious Education, 1983, 78(1).

5. K. L. Brighton: Coming of Age: The Education and Development of Young Adolescents, 2007.

6. Rick Weissbourd: Educational Leadership, Creating Caring Schools, 2003, 60(6).

7. Saul Mcleod: Erik Erikson's Stages Of Psychosocial Development, Simply Psychology, 2018.

3. الدراسات السابقة

1. خالد الصولي: من معرفة القيم إلى قيم المعرفة، دراسة في المناهج التربويّة بالتعليم ما قبل الجامعيّ، مادّة التربية الإسلاميّة نموذجًا، 2002، المملكة المغربيّة، الزرقاء.

2. زهراء أحمد عثمان الصادق: القيم التربويّة في قصص القرآن الكريم، تصوّر لخطّة تدريسها في إطار منهج التربية الإسلاميّة، الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسيّ بالسودان، 2002، ماجستير التربية في المناهج، الخرطوم.
3. سميّة عثمان العجرمي: دراسة تحليليّة للقيم المتضمّنة في كتاب التربية الإسلاميّة والتربية الاجتماعيّة وحقوق الإنسان للصفّ الرابع الأساسيّ بفلسطين، رسالة ماجستير في المناهج وطرق التدريس، 2014، جامعة الأزهر، غزّة.
4. فؤاد علي العاجز ومحمود عبد المجيد عساف: الانعكاسات التربويّة للقيم الاجتماعيّة في القرآن الكريم على طلبة الجامعة الإسلاميّة بغزّة، بحث مقدّم إلى المؤتمر العلميّ حول القرآن ودوره في معالجة قضايا الأمّة، 2008، الجامعة الإسلاميّة، غزّة.
5. معاذ نظمي بشير: تحليل محتوى كتب التربية الوطنيّة وتقويمها للصفّ الخامس، ماجستير في المناهج وطرق التدريس،جامعة النجاح الوطنية، 2009، نابلس، فلسطين.
6. منى هادفي وفاطمة الزهراء محمود: القيم التربويّة في النصوص الدراسيّة، كتاب اللغة العربيّة للسنة الخامسة الإبتدائيّة أنموذجًا، رسالة ماجستر في اللّغة والأدب العربيّ، 2016، جامعة العربيّ التبسي، تبسة ـ الجزائر.

4. المقابلات
1. مقابلة مع الشيخ سمير خير الدين، مدير قسم الثقافة والتربية الدينيّة في مدارس المهديّ في لبنان، بتاريخ 20/ 6/ 2018.

تطبيق طريقة الاكتشاف الموجه في المختبر وعلاقته بمستوى التحصيل الدراسي للتلاميذ في مادة الكيمياء

زينب حسين حوماني

الملخّـــص

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة العلاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر في مادّة الكيمياء لتلامذة الصّفّ الثامن الأساسي والتحصيل الدراسيّ في محور المحاليل. تكوّنت عيّنة الدراسة من (50) تلميذاً من تلامذة الصّفّ الثامن الأساسي في مدينة النبطية موزعين على مجموعتين، المجموعة الأولى تكوّنت من (25) تلميذاً، تمّ تدريسهم وحدة المحاليل بتطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر، والمجموعة الثانية تكوّنت من (25) تلميذاً تمّ تدريسهم المحتوى نفسه بالطرائق المعتادة.

تمّ التحقّق من تكافؤ المجموعتين من خلال الرجوع إلى سجل درجات التلاميذ بعد تطبيق الاختبار التحصيليّ على العيّنة، وأخذ النتائج. اتّبع المنهج الوصفيّ، وتمّ تصميم برنامج تدريسيّ واختبار تحصيليّ لاعتماده كأداة رئيسة للحصول على البيانات والمعلومات، وكذلك تمّ الاعتماد على مجموعة من الأدوات الإحصائيّة لمعالجة البيانات عبر برنامج الـ SPSS، من الوسط الحسابيّ إلى الانحراف المعياريّ، واختبار الدّلالة الإحصائيّة، واختبار سبيرمان.

صمّم البرنامج التدريسيّ الخاصّ بوحدة المحاليل وفقاً لطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر، وكذلك أعدّ اختباراً تحصيليّاً للوحدة المذكورة. وبعد تطبيق البرنامج التدريسيّ، تمّ تطبيق الاختبار التحصيليّ على أفراد عيّنة الدراسة. وأظهرت النتائج فروق ذات دلالة إحصائيّة لصالح المجموعة الأولى التي درست محور المحاليل بتطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر بمتوسّط حسابيّ 64.1، بينما بلغ المتوسّط الحسابيّ للمجموعة الثانية 50.67. وبذلك تساهم طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر بزيادة درجات متوسّطات التلامذة. وأوصت الدراسة بضرورة تطبيق هذه الطريقة في تدريس الكيمياء وعقد مؤتمرات تدريبيّة للمعلمين.

مقدمـــة

أتينا على اختيار هذا الموضوع ممّا يشهده عصرنا الحاليّ من تفجّر معرفيّ هائل، وثورة تكنولوجيّة واسعة، شملت

مجالات الحياة المختلفة، لذا بات من الضّروريّ أن يهتمّ علماء التّربية العلميّة وتدريس العلوم، تحديدًا (الكيمياء) في البحث عن السّبل الّتي تكفل تنمية التّفكير لدى المتعلّمين، وتعليمهم كيف يمكن أن يكتشفوا المعرفة بأنفسهم، وتطبيق تلك المعرفة واستخدامها في التغلّب على ما يواجههم من مشكلاتٍ في حياتهم اليوميّة. إنّ تحقيق أهداف تدريس الكيمياء يتطلّب استراتيجيّات وطرائق تدريسيّة مناسبة تضمن سلامة التّعلّم وجودته. ولعلّ من أهمّ هذه الاستراتيجيّات وأكثرها تطبيقًا هي طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر، فالتّلميذ الّذي يلاحظ العيّنات، يجري التّجارب، ويرى نتائج التفاعلات؛ تنمو لديه خبرات عمليّة حقيقيّة تختلف عن الخبرات المنقولة بطرائق تلقينيّة أو نظريّة.

أولاً: أهداف الموضوع

1.التّعرّف إلى طبيعة العلاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ ومستوى التّحصيل الدّراسيّ للطّلّاب.

2.الاستفادة من نتائج الدّراسة من خلال تقديم مجموعة من المقترحات لتطوير تدريس الكيمياء للفئة المستهدفة.

3. استفادة الطّلّاب والباحثين والمهتّمين من الدّراسة بعد نشرها.

ثانياً: أهمّيّة الموضوع

1. على المعلّمين أن يعرفوا مدى فاعليّة دمج طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ في تدريس العلوم، إذ ينبغي أن يتعلَم التلاميذ طرائق تفكير العلماء: يلاحظون، يجرّبون، ويكتشفون.

2. على الجهات المسؤولة (وزارة التربية) إمكانيّة الاستفادة من هذا البحث لجهة تحسين عمليّة التّعليم وتطوير المناهج الدّراسيّة.

ثالثاً: حدود الدراسة

الحدود الموضوعيّة: يتناول البحث فقط دراسة علاقة تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ بمستوى التّحصيل الدّراسيّ للطّلّاب.

الحدود المكانيّة: مدرسة ستارز كولدج (زبدين) ومدرسة زبدين الرّسمّية.

الحدود البشريّة: جميع طلاّب الصّفّ الثّامن الأساسيّ في المدرستَيْنِ.

الحدود الزمانيّة: الفترة الزّمنيّة الممتدّة ما بين شهر شباط للعام 2018 م. ولغاية شهر حزيران 2018 م.

رابعاً: أدوات الدراسة

1.برنامجٌ تدريسيٌّ قائمٌ على طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر لوحدة المحاليل من مقرّر الكيمياء للصّفّ الثّامن الأساسيّ.

2.اختبار تحصيليّ مباشر محكم ومبني وفقًا للائحة المواصفات لوحدة المحاليل لقياس التّحصيل الدّراسيّ.

خامساً: المصطلحات الرّئيسة

1. الاكتشاف الموجّه في المختبر:

وسيلة يكتسب بها شخصٌ ما معرفة ما عن طريق استخدام مصادره العقليّة والفيزيقيّة. أمّا بالمعنى الضيّق، فهو التعلّم الّذي يحدث نتيجة لمعالجة الفرد المتعلّم للمعلومات وتركيبها وتحويلها حتّى يصل إلى معلومات جديدة. وأقصد هنا بطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر في هذا البحث، البرنامج التدريسيّ الّذي نعدّه، حيث يقدّم المعلّم سؤالًا أو مشكلة للتلاميذ تثير أذهانهم، ومن ثم يوجّههم نحو الحلّ من خلال قيامهم بمجموعة من الأنشطة المخبريّة الّتي يعدّها لهم المعلّم، كممارسة التّجارب ونحوها، مع تلقّيهم المعونة عند اللّزوم، وذلك بشكلٍ فرديٍّ، ليكتشف التلاميذ الإجابة بأنفسهم، أو الحلّ، ولا تُقدّم لهم الحلول أو الإجابات جاهزة.

2. **التّحصيل الدّراسيّ**: مقدار استيعاب التّلاميذ لما تعلّموه من خبرات معيّنة في مادّة دراسيّة مقرّرة، وتقاس بالدّرجات الّتي يحصل عليها التلاميذ في الاختبارات التّحصيليّة

3. **تقنيّة المختبر**: بيئة يتعلّم فيها التّلاميذ بعض المهارات والمفاهيم والمبادئ المرتبطة بمادّة ما عن طريق التّعامل المعمليّ مع بعض الأمثلة المحسوسة المرتبطة. كما أنّه مكان مخصّص لإجراء التّجارب والعروض العمليّة، والتحقّق من صحّة القوانين والفرضيّات النّظريّة عمليًّا.

4. **علم الكيمياء**: هو العلم الّذي يدرس تركيب المادّة وتحوّلاتها وتفاعلاتها فيما بينها وبين المواد الأخرى، والعلاقة الكائنة بين خواصّ المواد، تركيبه وتغيّراتها وشروط تفاعلات وتحوّلات المواد.

سادساً: إشكاليّة البحث والتّساؤلات المطروحة حولها

يمكن تلخيص إشكاليّة الدّراسة في السّؤال الرّئيس التّالي: هل توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وبين مستوى التّحصيل الدراسيّ لتلامذة الصّفّ الثّامن الأساسيّ في مادّة الكيمياء؟

وتنبثق عن هذه الإشكاليّة الأسئلة الفرعيّة الآتية:

1. هل توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتقدّم مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة؟

2. هل توجد علاقة بين عدم تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتدنّي مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة؟

3. هل توجد فروق بين الذّكور والإناث في مستوى التّحصيل الدّراسيّ على مستوى تلقّي طريقة الاكتشاف الموجّه؟

سابعاً: فرضيّات البحث أو الأسئلة

تمّت صياغة الفرضيّة الأساسيّة الّتي سيجري اختيارها استنادًا إلى الفرضيّة الإيجابيّة بوجود علاقة، وهي: توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموّجه في العمل المخبريّ في مادّة الكيمياء ومستوى التّحصيل الدّراسيّ لتلامذة الصّفّ الثّامن الأساسيّ.

وأمّا الفرضيّات الفرعيّة فقد صيغَت على الشّكل الآتي :

1. توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتقدّم مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

2. توجد علاقة بين نظريّة طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتدنّي مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

3. لا يوجد فروقات بين الذّكور والإناث في مستوى التّحصيل الدّراسيّ في تلقّي طريقة الاكتشاف الموجّه في الطّريقتين معًا.

ثامناً: المعطيات

1.معطيات الفرضيّة الأولى والثّانية

جدول تكراريّ رقم (1) يوضح درجات طّلّاب المجموعة الأولى في الاختبار التّحصيليّ.

الدّرجة	التّكرار	النّسبة
أقل من 50 درجة	4	16.0
من 50–60 درجة	5	20.0
من 61–70 درجة	10	40.0
من 71–80 درجة	5	20.0
أكثر من 80 درجة	1	4.0
المجموع	25	100

من الجدول التّكراري يتضّح لنا أنّ درجات الطّلّاب في المجموعة التّجريبيّة في الاختبار التّحصيليّ كانت كما يلي :هناك فقط أربعة طلاب راسبين، وهم يشكلون نسبة ٪16 من عيّنة الدّراسة، بينما هنالك نسبة20٪ من العيّنة حصلوا على درجات أكبر من 50 وأقلّ من 60 درجة، وأمّا الّذين تراوحت درجاتهم ما بين (61ـ70) درجة، فهم يشكّلون الغالبيّة العظمى من الطّلّاب بنسبة بلغت40٪ من عينّة الدّراسة، وأمّا الّذين أحرزوا 80 درجة فما فوق، فهم نسبة ضئيلة من العينّة، إذ يشكلون فقط نسبة 4٪ من عيّنة الدّراسة.

جدول تكراريّ رقم (2) يوضح درجات طلّاب المجموعة الثّانية في الاختبار التّحصيليّ.

الدّرجة	التّكرار	النّسبة
أقل من 50 درجة	11	44.0
من 50–60 درجة	10	20.0
من 61–70 درجة	2	8.0
من 71–80 درجة	1	4.0
أكثر من 80 درجة	1	4.0
المجموع	25	100

من الجدول التّكراري، توضح أن توزيع درجات الطلّاب في المجموعة الثّانية في الاختبار التّحصيليّ كانت كما يلي :غالبيّة أفراد العيّنة كانوا راسبين (أقلّ من 50 درجة) وهم يشكّلون نسبة ٪44 من عيّنة الدّراسة، أمّا الّذين كانت درجاتهم تتراوح ما بين (50ـ60)، فهم يشكّلون فقط نسبة ٪40 فقط من عيّنة الدّراسة، بينما هناك نسبة ٪8 من العيّنة أحرزوا درجات من (61ـ70 درجة)، وهناك نسبة ٪4 أحرزوا درجات تتراوح ما بين (71ـ 80 درجة)، ومثلهم الّذين أحرزوا درجات أعلى من 80 درجة. فكان عدد الطّلّاب الرّاسبين 4 في المجموعة الأولى، بينما في المجموعة الثانية كان11، وهذا ما يدلّ على أنّ نسبة الرّسوب في المجموعة الثّانية أكبر. أمّا في الدّرجات المحصّلة ما بين 50ـ60، فلدى المجموعة الأولى 5 طلّاب، أمّا في

المجموعة الثانية 10 طلّاب. وهذا ما يدلّ على أنّ الطّلّاب الّذين درسوا المادّة من دون تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه تمحورت النّسبة الأكبر من العلامات ما بين 50ـ60، وهومستوًى لا بأس به. أمّا المجموعة الأولى فقد تمحورت النّسبة الأكبر من العلامات فيها ما بين61ـ70، وهو مستوًى جيد، حيث بلغ عدد الطّلّاب 10 في هذا المدى، وطالبين لدى المجموعة الثّانية، حيث يدلّ هذا المؤشّر على تدنّي المستوى في المجموعة الثّانية وإرتفاعه في المجموعة الأولى. أمّا عدد الطّلّاب فقد تساوى على طالب واحد فوق معدل 80 فيتضّح لنا ممّا سبق من درجات الطّلّاب، أنّ نسبة النّجاح في المجموعة الأولى الّتي درست بتطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر أكبر منه في المجموعة الثّانية.

2. معطيات الفرضيّة الثّالثة

جدول رقم (3) يبيّن توزيع العيّنة بحسب الجنس في المجموعة الأولى:

المجموعة الأولى	العدد
إناث	12
ذكور	13
المجموع	25

من الجدول، يتبيّن لنا أنّ عدد الذكور 13، وعدد الإناث 12، فكانت نسبة الذّكور 52 ٪، أمّا نسبة الإناث ٪48.

جدول رقم (4) يوضح المتوسّط الحسابيّ للمجموعة الأولى حسب الجنس

المجموعة الأولى	المتوسّط الحسابيّ
إناث	60.5
ذكور	67.6
المجموع	64.2

من الجدول يتضّح لنا أنّ: عدد الذّكور في المجموعة الأولى 13، بلغ المتوسّط الحسابيّ لديهم 67.8، بينما بلغ عدد الإناث 12، وقد بلغ المتوسّط الحسابيّ لهن 60.5، وهذا يدلّ على اختلاف مستوى التّحصيل الدّراسيّ لدى الذّكور والإناث في المجموعة الأولى الّتي طبقت طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر لصالح الذّكور.

جدول رقم (5) توزيع العيّنة حسب الجنس للمجموعة الثّانية:

المجموعة الثانية	العدد
إناث	11
ذكور	14
المجموع	25

من الجدول، يتبيّن لنا أنّ عدد الذكور11 وعدد الإناث 14، وكانت نسبة الذّكور ٪44، أمّا نسبة الإناث ٪56.

جدول رقم (6) يوضح المتوسّط الحسابيّ للمجموعة الثّانية حسب الجنس:

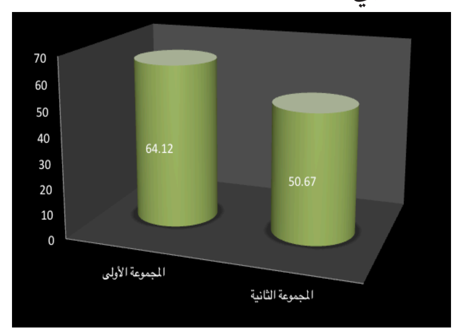
المجموعة الثانية	المتوسط الحسابي
إناث	56.1
ذكور	46.5
المجموع	50.67

من الجدول والرسّم البياني يتضّح لنا أن عدد الذّكور في المجموعة الثانية، 14 بلغ المتوسّط الحسابيّ لديهم 46.5، بينما بلغ عدد الإناث 11، وقد بلغ المتوسّط الحسابيّ لهن 56.1، وهذا يدلّ على اختلاف مستوى التّحصيل الدّراسيّ لدى الذّكور والإناث في المجموعة الّثانية الّتي لم تطّبق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر لصالح الإناث.

تاسعاً: النتائج

1. نتائج الفرضيّة الأولى والثّانية

الرّسم البيانيّ رقم (4) يوضح المتوسّط الحسابيّ للمجموعتين في الاختبار التّحصيليّ.



بعد تدخيل العلامات تمّ حساب المتوسّط الحسابيّ لكلّ مجموعة، وأتت النّتائج على الشّكل التّالي:

من خلال مقارنة متوسّط درجات الطّلّاب، نلاحظ أنّ متوسّط المجموعة الأولى 64.12، وهو أكبر من متوسّط الجموعة الثانية 50.67، مما يدلّ على أنّ مستوى الطّلّاب في المجموعة الأولى متقدّم مقارنة مع متوسّط المجموعة الثّانية. وهذا يعني تدنّي مستوى المجموعة الثانية. كما أنّ مستوى النّجاح في المجموعة الأولى أكبر منه من المجموعة الثّانية. وكلّ هذه النتائج تؤكّد أنّه يوجد اختلاف في درجات التّحصيل الدّراسيّ لصالح المجموعة الأولى، كما أنّ الدّرجات تبرز تقدّم المستوى في المجموعة الأولى وتدنيه في المجموعة الثّانية.

2. نتائج الفرضية الثّالثة

جدول يبين المتوسّطات الحسابيّة لكلّ من الذّكور والإناث في كلّ مجموعة.

	المجموعة الأولى	مستوى التحصيل العلمي	المجموعة الثانية	مستوى التحصيل العلمي
ذكور	13	67.6	11	46.5
إناث	12	60.5	14	56.1

من خلال الجدول أعلاه، يتضح لنا أنّ عدد الذكور في المجموعة الأولى 14، وبلغ المتوسّط الحسابيّ لديهم 46.5، بينما بلغ عدد الإناث 11، وقد بلغ المتوسّط الحسابي لهنّ 56.1. وهذا يدلّ على اختلاف مستوى التّحصيل الدّراسيّ لدى الذّكور والإناث في المجموعة الثّانية الّتي لم تطبّق طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر لصالح الإناث. ممّا سبق، يمكننا أن نستنتج أنّ المعدّل الوسطيّ لكلّ من الذّكور في المجموعتين مختلف، 67.5 لدى المجموعة الأولى، بينما 46.5 للمجموعة الثانية. أمّا المعدّل الوسطيّ للإناث في المجموعة الأولى فقد بلغ 60.5، أمّا لدى المجموعة الثانية 56.1. وهذا يدلّ على اختلاف المعدّلات الوسطيّة بين الذّكور والإناث في المجموعتين، فهو لصالح الذّكور في المجموعة الأولى ولصالح الإناث في المجموعة الثانية.

عاشراً: التحقّق من الفرضيّات

1.الفرضيّة الأولى والثّانية

1.1.توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتقدّم

مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

1.2.توجد علاقة بين نظريّة طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتدنّي مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

لمناقشة الفرضيّات أعلاه تمّ استخدام اختبار(ت) للعيّنتين المستقلّتين، وذلك لمقارنة متوسّط درجات الطّلّاب في الاختبار التّحصيليّ في المجموعتين الأولى والثانية، وذلك بصياغة الفرضيّات كما يلي:

الفرضيّة المبدئيّة الصّفريّة: متوسّط درجات طلّاب المجموعة الأولى = متوسّط درجات طلّاب المجموعة الثّانية.

الفرضيّة البديلة: متوسّط درجات طلّاب المجموعة الأولى ≠ متوسّط درجات طلّاب المجموعة الثّانية.

وعند إجراء الاختبار، كانت النّتائج كما هي موضّحة في الجدول التّالي: (الجدول رقم 7)

درجات الطلاب في الاختبار التحصيلي	المجموعة	حجم العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجات الحرية	قيمة التاء	مستوى المعنوية
	الأولى	25	64.12	12.44	49	6.7	0.000
	الثانية	25	13.64	13.64			

وبالرّجوع إلى الجدول أعلاه، نجد أنّ مستوى المعنوية = 0.000، وعند مقارنتها بقيمة 0.05 نجد أنّها أقلّ منها، ممّا يعني رفض الفرضيّة المبدئيّة الصّفريّة الّتي تقول أنّ متوسّط الدّرجات للمجموعتين يتساوى، وقبول الفرضيّة البديلة الّتي تقول متوسّط درجات طلّاب المجموعة الأولى ≠ متوسّط درجات طلّاب المجموعة الثانية وذلك عند قيمة تاء 6.7، وانحراف معياريّ قيمته12.44، أي أنّه يتم قبول الفرضيّة الّتي تقول: توجد فروق ذات دلالة إحصائيّة بين طلّاب المجموعة الأولى الذين يدرسون بطريقة تطبيق الاكتشاف الموجّه في المختبر وطلّاب المجموعة الثّانية الّذين يدرسون بالطّريقة التّقليديّة، وذلك بمستوى ثقة 95٪ لصالح المجموعة الأولى. كما نلاحظ متوسّط الدّرجات للمجموعتين:

- متوسّط درجات المجموعة الأولى في الاختبار التّحصيليّ = 64.12.

- متوسّط درجات المجموعة االثّانية في الاختبار= 50.76.

وبناءً على ذلك، تمّ التّأكّد من الفرضيّات بأنّها فرضيّات صادقة، وهي الّتي تقول:

1. توجد علاقة بين تطبيق طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتقدّم مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

2. توجد علاقة بين نظريّة طريقة الاكتشاف الموجّه في العمل المخبريّ وتدنّي مستوى التّحصيل الدّراسيّ للتّلامذة.

2. التّحقق من الفرضيّة الثّالثة

2.1. لا يوجد فروق بين الذّكور والإناث في مستوى التّحصيّل الدّراسيّ في تلّقي طريقة الاكتشاف الموجّه في الطريقتين معًا.

بعد إجراء T test الّذي أعطى قيمة المعنويّة 0.000، وعند مقارنتها ب 0.05، نجد أنّها أقلّ منها. ممّا يعني رفض الفرضيّة المبدئيّة الصّفريّة الّتي تقول أنّه لا يوجد فروق بين الذّكور والإناث في مستوى التّحصيل الدّراسيّ في الطّريقتين، وتأكيد الفرضيّة الّتي تقول يوجد فروق بين الذّكور والإناث في مستوى التّحصيل الدّراسيّ في الطّريقتين. وبالتّالي تكذيب الفرضيّة الثّالثة بأنّه لا يوجد فروق بين الذّكور والإناث في مستوى التحصيل الدّراسيّ في تلقي طريقة الاكتشاف الموّجه في الطّريقتين معًا.

ونعرض على قانون ارتباط بيرسون الّذي أخذت منه قيمة "ت" لصدق وثبات الاختبار. فكانت نتيجة معامل الإرتباط **0.968. وهذا ما يدلّ على أنّ هناك إرتباطً قويًّا بما أنّ القيمة قريبة جدًّا من 1، ويدلّ على أنّ الاختبار التّحصيليّ يتّصف بالصّدق والثبات.

وللتّحقق من فروض البحث، اختار الباحث اختبار T للمقارنة بين درجات الاختبار للمجموعتين في الاختبار التّحصيليّ: لحساب معامل الثبات نأخذ 10 طلاب من المجموعة الأولى وأيضًا من المجموعة الثانية، ونعيد إجراء الاختبار التحّصيليّ ذاته، ونحصل على نفس درجات الاختبار التي حصلنا عليها، ونحصل على **0.968 كقيمة إرتباط بيرسون. وهي القيمة نفسها بعد إعادة الاختبار، وهذا ما يؤكّد صدق وثبات الاختبار.

الخاتمــة

أولاً: نتائج الدّراسة

أظهرت نتائج التّحليل المتعلّقة باختبار فرضيّة الدّراسة وجود فرق دال إحصائيًّا بين متوسّط درجات مجموعَتي الدّراسة في الاختبار التّحصيليّ، وكان هذا الفرق لصالح المجموعة الأولى، والّتي درس تلاميذها بطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر. وبذلك يكون تدريس محور المحاليل بطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر أكثر فاعليّة من الطّرائق المتّبعة في تحصيل تلاميذ الصّفّ الثّامن الأساسي.

وقد تعزى هذه النّتيجة إلى أنّ طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر تجعل من تلميذ المجموعة التّجريبيّة محورًا للعمليّة التّعليميّة ـ التّعلميّة، وتوفّر له بيئة تعليميّة ـ تعلّميّة غنيّة بالمعزّزات الدّاخليّة حين بحثه عن المعرفة العلميّة واكتشافها بنفسه بدلًا من أن تُعطى له جاهزة. فازدادت بذلك دافعيّة المتعلّم للتّعلّم، إضافة إلى ما تتضمّنه هذه الطّريقة من أنشطة تعليميّة ـ تعلميّة وخبرات مباشرة، ممّا ساعده على فهم تلك المعرفة. وبالإضافة أيضًا إلى ذلك، فإنّ معالجة مواضيع الدّروس في المختبر ضَيّقَ الفجوة بين الموقف التّعليميّ الصّفيّ والموقف الحياتيّ الحقيقيّ، أي ما بين النّظريّ والعمليّ. وهذا ما أسّس وساهم في تطبيق ما تعلّمه في مواقف حياتيّة جديدة. من أجل ذلك، كان التّحصيل المعرفيّ لتلاميذ المجموعة الأولى يفوق تحصيل تلاميذ المجموعة الثانية بفارق دالٍّ إحصائيًّا.

كما أظهرت فروق دالة إحصائيًّا حسب متغيّر الجنس بين الذكور والإناث في تلقّي الطريقتين معًا.

توصيات الدّراسة

لا تتوقّف قيمة البحث العلميّ عند إظهار نتائجه أو الوصول إلى حلول للمشكلات الّتي تعترضه فحسب، وإنّما قيمته الحقيقيّة فيما يثيره من تساؤلات ومشكلات أخرى تكون جديرة بالدّراسة. وقد أوضحت الدّراسة الحالية نقاطًا جديرة بالبحث يمكن أن تكون مجالًا أو بابًا أو مفتاحًا لبحوث ودراسات مستقبليّة منها:

1.ضرورة استخدام معلّمي العلوم طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر في تدريسهم، وذلك بما يكفل ممارسة تلاميذهم طريقة التّفكير الّتي تتضمّنها.

2.ضرورة اهتمام المعنيّين بشؤون التّربية والتّعليم عامّة، والمناهج وطرائق تدريس العلوم خاصّة، بطريقة الاكتشاف في المختبر وذلك من خلال:

2.1 عقد دورات تدريبيّة لمعلّمي العلوم، قبل الخدمة وأثنائها، حول استخدام طريقة الاكتشاف في المختبر، وضرورة تشجيعهم على استخدامها في تدريسهم.

2.2 صياغة محتوى منهاج العلوم بما يتماشى مع طريقة الاكتشاف في المختبر، والاعتماد عليها في عملية تقويم الطّلبة لما يدرسوه.

3.بما أن طريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر تهتمّ بالمواقف الحياتيّة للمتعلّم، فتوصي الدّراسة بضرورة تعرّف معلّم العلوم على البيئة المحيطة بالتّلميذ، وتقصّي ما تتضمّنه من مشكلات لتكون الرّكيزة الأساسيّة للتّعلّم بهذه الطّريقة.

4. أن يعمل أعضاء هيئة التّدريس في المناهج وطرائق التّدريس في كليّات العلوم التربويّة على تطوير برامج إعداد معلّمي العلوم وذلك من خلال:

4.1 تطبيق طريقة الاكتشاف في المختبر في تدريسهم لتلاميذهم، وتضمينها في هذه البرامج وربطها بنظريّات التّعلّم الّتي تقوم عليها، ممّا يتيح لهم التّعرّف على أهميّة استخدامها.

4.2 تدريب معلّمي العلوم أثناء التحاقهم ببرنامج التّربيّة العمليّة على تدريس بعض دروس العلوم وفقًا لطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر.

زينب حسين حوماني

المصادر والمراجع

أوّلاً: المصادر العربيّة والأجنبيّة

1. أبو علام، رجاء: الفروق الفردية وتطبيقاتها التربوية،(ط1)، الكويت، دار القلم،(1983).
2. أحمد، إبراهيم احمد: إدارة الأزمات التعليمية في المدارس، دار الفكر، (2002).
3. أنور، الشرقاوي: التعلم نظريات وتطبيق، الأنجلو المصرية، القاهرة، (2002).
4. بركات، خليفة: الاختبارات والمقاييس الطلبية، (ط) 2، مصر، دار مصر للطباعة، (1995).
5. بركات، خليفة، الاختبارات والمقاييس الطلبية، (ط) 2، مصر، دار مصر للطباعة، (1995).
6. بله، فكتور: دور المختبر والأنشطة التعليمية في تدريس العلوم، أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإجتماعية، العدد 3.
7. الجسماني، عبد العالي: علم النفس وتطبيقاتها الاجتماعية والتربوية، (ط1)، بيروت، الدار العربية للعلوم، (1994).
8. حسين الكندري، لطيفة، مالك محمد، التحصيل الدراسي.
9. خطابية، محمد عبد الله، تعليم للعلوم للجميع، دار المسيرة للنشر والتوزيع، (2008).
10. خطابية،عبد الله: تعليم العلوم للجميع، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، سلطنة عمان، (2005).
11. خير الله، سيد: بحوث نفسية وتربوية، لبنان، دار النهضة العربية، (1981).
12. د.محسن علي عطية، الاستراتيجيات الحديثة في التدريس الفعال، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2008.
13.دعمس، مصطفى نمر: الإستراتجيات الحديثة في تدريس العلوم العامة، الطبعة الأولى، دار غيداء للنشر، الأردن، (1427).
14. الزكي، أحمد عبد الفتاح: معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، دار الوفاء الدنيا الطباعة والنشر.
15. زيتون، عايش: أساليب تدريس العلوم، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر، عمّان،(2004).
16. السامرائي، نبيهة صالح: أساسيات طرق تدريس العلوم واتجاهاتها الحديثة، دار الأخوة للنشر، الأردن، (2005).
17. شحاتة، حسن: المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق، (الطبعة الأولى)، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، (2000).
18. صالحي، عبد العزيز: التربية الجديدة، (ط7)، مصر، دار المعرفة.
19. صلاح الدمنهوري، رشاد: التنشئة الاجتماعية والتأخر الدراسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،(1995).
20. عبد الحميد، جابر:علم النفس التربوي، عالم الكتب، القاهرة، (2000).
21. عبد الرؤوف، طارق: التعلم الذاتي مفاهيمه، أسسه، أساليبه، الدار العالمية للنشر والتوزيع، (2005).
22. عبد الفتاح الزكي، أحمد، معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
23.عبد الوهاب، عوض: مدخل إلى طرق التدريس، دار الكتاب الجامعي، (2000).
24. العيسوي، عبد الرحمان: القياس والتجريب في علم النفس والتربية، دار النهضة العربية، (1991).
25. فرج، محمد وسلامة، عبد الرحيم والمهيمن، رجب: اتجاهات حديثة في تعليم وتعلم العلوم،

(ط1)، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، (1999).
26. القبيلات، راجي عيسى: أساليب تدريس العلوم في المرحلة الأساسية الدنيا ومرحلة رياض الأطفال، الطبعة الأولى، دار الثقافة، عمان، 2005.
27. كريمان، بدير: التعلم النشط، دار المسيرة للنشر والتوزيع، (2008).
28. محمد السيد،علي: التربية العلمية وتدريس العلوم، (ط1)، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع،(2003).
29. يحيى عليان شاهر: مناهج العلوم الطبيعية وطرق تدريسها، دار المسيرة للنشر والتوزيع، (2010).

ثانياً: الرسائل والدراسات السابقة

1. خطابية، عبد الله محمد: دراسة تحليلية لكتب العلوم المقررة لطلبة الصف الثاني الثانوي في سلطنة عمان في ضوء عناصر الثقافة العلمية، جامعة السلطان قابوس، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، (2001).
2. زيد، البشارة، رسالة دكتوراه في التربية وعلم النفس، جامعة مؤتة، كلية التربية، الأردن، 2014.
3. ياسمين، صدقي عمر، رسالة ماجستير في التربية، جامعة غزة، كلية التربية، فلسطين، 2014.
4. عمور، حكيم: المنهاج التربوي وأثره على التحصيل الدراسي لتلاميذ السنة الأولى ابتدائي، مذكرة مكملة لليسانس تخصص علم اجتماع تربوي، (2009/ 2010).
5. يونسي تونسية: تقدير الذات وعلاقته بالتحصيل الدراسي لدى المراهقين المبصرين والمراهقين المكفوفين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص علم النفس المدرسي 2011/ 2012.
6. أحمد، هند، رسالة الماجستير في التربية والتعليم، جامعة الشهيد حمة لخضر، كلية التربية، السودان،2015 م.

ثالثاً: الدراسات الأجنبية

1. Twigg,C.(2003). Expanding Access to Learning :The role of virtual universities, Troy.NY: Center for Academic Transformation Rensselaer Polytechnic Institute.
2. Gorqunson,Oldf (2005): what principle should know about Hands-on science principal.
3. Henderson,D. Fesher D. and Frser ,B.(2000): Interpersonal behavior Laboratory Learning Environment and Student Outcomes in Senior.

رابعاً: المجلات

1. حسين أحمد، تمارة: العوامل التي تؤثر في تطبيق الأنشطة والتجارب العلمية مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإجتماعية، العدد 13، (2000).
2. زيدان، أمل فتاح: مجلة التربية والتعليم، المجلد14، العدد،1، (2007).
3. خليفة أحمد حسن أثر تدريس العلوم بطريقة الاكتشاف الموجّه في المختبر على التحصيل الدراسي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، (العدد الثالث2011).
4. كمتور، إدريس، أثر إستخدام المختبرات المحسوبة وبرامج المحاكاة على تحصيل الطلاب، مجلة الدراسات والبحوث الإجتماعية، الوادي، العدد، 10 مارس2015.

تقييم إدارة النفايات الصلبة في المنطقة الواقعة غرب بعلبك ـ قضاء بعلبك

مشكلة في انتظار الحلول المناسبة

ماجدة شحيتلي الخطيب

جوسلين أدجيزيان جيرارد

الملخص

إنّ أزمة النفايات في لبنان تدور حول نفسها منذ سنوات طويلة، فمنذ الحرب الأهلية يواجه هذا البلد الصغير مشاكل في جمع ومعالجة النفايات الصلبة.في عام 2015، تعرّضت البلاد إلى أزمة نفايات استمرّت ثمانية أشهر بعد إغلاق المكبّ الرئيسي في منطقة الناعمة، لكنّ الحلول التي اقتُرحت ونُفذّت من قبل الوزارات المعنية كانت وما زالت غير كافية وذلك لعدم اتّخاذ السلطات اللبنانية إجراءات فعّالة في هذا الشأن إذ تتنقل الحكومة من خطة طوارئ إلى أخرى متجاهلةً ما يجري خارج بيروت ومُحيطها. وكانت اللاّمركزية هي الحلّ بالنسبة للمناطق الريفيّة، بحيث أصبحت إدارة النفايات الصلبة مسؤولية البلديات من الجمع حتى المعالجة.(Ezzedine, 2015)

إنّ المنطقة الواقعة غرب بعلبك (قضاء بعلبك) هي منطقة ريفيّة، وتُعدّ بعيدة عن اهتمام الدولة من حيث الدراسات، ولجهة إدارة ومعالجة النفايات الصلبة. بالمقابل تتطلب خطط إدارة النفايات الناجحة بيانات دقيقة حول طبيعة النفايات وكميتها الناتجة في منطقة ما. أظهرت الاستمارات والمقابلات التي أجريناها مع رئيس اتّحاد المنطقة ورؤساء البلديات أنّ المعالجة لا تتم عن طريق إعادة التدوير أو التسبيخ، إنما الحل الوحيد هو رمي النفايات على مختلف مكوناتها في المكبات المكشوفة والعشوائية ومن ثمّ حرقها في الهواء الطلق، وهذه الطريقة تعدّ الأكثر ضرراً على الصحة والبيئة، ويعود السبب في ذلك إلى نقص الموارد الماديّة، البشرية والتقنية، وعدم كفاية المهارات الفنية والافتقاد إلى التخطيط، بالإضافة إلى الإطار القانوني والسياسي غير المتكامل.(Chbat, 2011)

وبما أنّ الفرد هو المسؤول الأول عن كمية النفايات المنتجة وعن فرزها من المصدر، قمنا بتوجيه استمارات إلى عدد كبير من السكان في أنحاء المنطقة، لكنها أظهرت تراجع في الوعي البيئي بشكل

عام.لذلك فإنّ تقييم الوضع الحالي لإدارة النفايات الصلبة من الجمع حتى المعالجة في المنطقة الواقعة غرب بعلبك كان ضرورياً، للتأكيد على أهمية تدخل الجهات المعنية كالبلديات والاتحاد وأصحاب المصانع من جهة، من خلال خطط شاملة لمعالجة هذه الأزمة، وذلك بالتنسيق مع المؤسسات الرسميّة المعنية، ومن جهة أخرى أهمية مشاركة المواطنين عبر حملات توعية مستدامة يكون هدفها الأساسي تشجيع السكان على الفرز من المصدر.

المقدمـــة

تعرّضت معدّلات النفايات الصلبة المنتجة في لبنان إلى زيادة كبيرة خلال العقود الماضية. ويعود سبب ذلك أساسًا إلى ارتفاع مستويات معيشة المجتمع، تغيّر في أساليب الحياة، تواجد اللاجئين السوريين، تكاثر عدد السكان وخصوصا بسبب محدودية الوعي البيئي لدى المواطنين. (Campan, 2007)

في المنطقة الواقعة غرب بعلبك، تتحمل البلديات والاتحاد مسؤوليّة جمع ومعالجة النفايات المنزليّة والتخلّص منها، فتتكبّد مسؤولية النفقات المتعلقة بذلك. ويتم تلقّي البلديات لمخصصاتها من الموازنة عبر الصندوق البلدي المستقل، ولكن بالفعل فانّها تحصل على نسب ضئيلة جدّا منها(جدم، 2010). لذا تميل البلديات إلى اللّجوء إلى الحلول السريعة وغير المكلفة وبذلك تجد المكبات العشوائية هي الطريقة الأسهل للتخلص من النفايات وخصوصا بغياب المحاسبة القانونية، إذ تفتقر إدارة النفايات الصلبة إلى إطار قانوني وتشريعي واضح ومتكامل بحيث لا يوجدعلاقات منظّمة بين الأطراف المعنيّة لحل المشاكل البيئيّة. ولكن بالفعل يقتضي الوضع الحالي للبلديات من الناحية المادية التعاطي مع النفايات الصلبة كثروة بديلة من خلال تقنيات الإدارة التي يمكنها استخراج قيمة جديدة من النفايات قادرة على العودة إلى الدائرة الاقتصادية من خلال إعادة التدوير، التسبيخ أو عملية توليد الطاقة، ممّا يساعد على تقوية هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية، وتحسين الأعمال الزراعية وتحسين فرص العمل.ومن جهة أخرى، تؤدي إدارة النفايات الصلبة المتكاملة إلى حماية البيئة وضمان صحة الإنسان، بحيث يكمن الهدف الأساسي لهذه الادارة في تقليل حجم النفايات المراد إرسالها إلى المكبات العشوائية والذي من شأنه تقليل مخاطر تلوث الارض والتربة والمياه الجوفية وكذلك الاجواء عند حرقها.(Dovonou, 2015)

في الواقع، في لبنان، الحلول للمشاكل البيئية هي الأنسب من الناحية السياسية وليست الأفضل على الصعيد البيئي والصحي.(Ghadban, 2017)

يُظهر التعداد العام للسكان لعام 2016 أن عدد سكان منطقة غرب بعلبك يبلغ حوالي 83100 نسمة، وهو يُعتبر العامل الرئيس الذي يؤثّر على كمية النفايات الصلبة المنتجة وتركيبتها. هذا فضلاً عن الوجود السوري الذي بدوره

يثير قضايا مهمّة في المجال البيئي وخاصة تلك المتعلقة بإنتاج النفايات الصلبة. هو في الواقع وجود تاريخي طويل الأمد وذلك لقرب منطقة البقاع من الحدود مع سوريا، وكان سببه الرئيسي العثور على وظيفة دائمة أو موسمية، وخاصة في قطاعي الزراعة والبناء. وتفاقم الوضع منذ اندلاع الأزمة السورية فبحسب ممثل بعثة الاتحاد الاوروبي في لبنان ماتشيفغو لوبيسكي، فقد بلغت الزيادة في نسبة إنتاج النفايات (15٪) مقارنة بالكمية الإنتاجية قبل الأزمة ممّا جعل لبنان وبنيته التحتية في وضع متردٍّ. وهذا ما يستدعي التدخل من قبل الجهات المعنيّة لحماية صحّةالسكان والحفاظ على البيئة من خلال إدارة سليمة ومتكاملة للنفايات الصلبة.(Strutt,2003)

وبالتالي فإنّ الأهداف الرئيسة لهذه الدراسة تكمن في تقييم الوضع الحالي لإدارة النفايات الصلبة في منطقة غرب بعلبك فيما يتعلق بالفصل والجمع والمعالجة وطرق التخلص النهائي، وإظهار التحديات والمشاكل الرئيسة التي يواجههاالاتحاد والبلديات لتحسين هذه الإدارة، وأخيراً تحليل سلوك المواطنين ومدى إدراكهم مفاهيم الأمور البيئية وخاصة تلك التيتتعلق بالنفايات الصلبة.

منهجية البحث:

تأسّس اتّحاد بلديات غرب بعلبك سنة 2005 ويضمّ حالياً أربع عشرة بلدية. تختلف معدلات إنتاج النفايات وتركيبتها بين قرى الاتحاد، وذلك بسبب العوامل البشرية، مثل الزيادة والنمو السكاني، مستوى الدخل، نمط الحياة، الوضع الاقتصادي والصناعي، كذلك تلعب العلامات الديموغرافية والعوامل المناخية دوراً في إنتاج النفايات. (Longo ,2011)

(قرى الاتحاد من حيث التعداد السكاني: شمسطار، تمنين التحتا، بدنايل، طاريا، قصرنبا، حوش الرافقة، تمنين الفوقى، حوش النبي، حزين، حدث بعلبك، بيت شاما، كفردان، حوش سنيد، جبعا).

في منطقة الدراسة، هناك بعض المصانع الكبيرة مثل مصنع باندا بلاست الذي ينتج مواد مصنوعة من البلاستيك، كما يوجد أيضًا نحو 500 متجر. وفقًا للخطة الاستراتيجية لاتحاد بلديات غرب بعلبك لعام 2016، تلعب الزراعة دورًا مهمًا في اقتصاد المنطقة، ممّا يؤدي إلى ارتفاع الطلب على الأسمدة لتحسين الانتاج وضرورة استخدام المبيدات الكيمائية، حيث يتم إلقاء معظم الزجاجات والعبوات المحتوية على هذه المواد في الحقول أوفي أماكن غيرمخصصّة لها فتؤدي إلى تلوث التربة والمياه الجوفيّة. كمايوجد أيضًا مستشفى في تمنين التحتا والعديد من الصيدليات والمستوصفات في مختلف القرى التي من شأنها أن تنتج نفايات خصائصها خطيرة ومعدية. لذلك فإنّ تحديد مكونات النفايات أمر ضروري لتطوير الخامات المتعلقة بإدارة النفايات الصلبة ومعالجتها في المنطقة.

أوّلاً، لدراسة خصائص النفايات في منطقة غرب بعلبك، والحصول على

معلومات عن الوضع الحالي من الجمع حتّى المعالجة، أجريت مقابلات مع رئيس الاتحاد ورؤساء البلديات لتحليل المشاكل والقيود التي تواجهها القرى. فيما يتعلق بكميّات المواد العضوية وغيرها من المواد القابلة لإعادة التدوير، فإنّ البيانات التي تم الحصول عليها هي تقديرات عامة، حيث يوجد نقص في مصادر المعلومات من قبل المسؤولين. لكن لكي نحصل على أرقام دقيقة في هذا الشأن قمنا بأخذ عيّنات من النفايات في منطقة الدراسة، ولضمان تغطية موحدة للمنطقة، تمّ تقسيمها إلى قسمين، كل منهما لديه خصائص متجانسة (جدول1) واشتملت العينات على فترتين مختلفتين (الصيف والشتاء) لأن تركيبة النفايات تختلف بحسب الفصول.

جدول 1: القرى المختارة لأخذ العينات وفقًا لمعايير الحركة التجارية وعددالسكان.

القرى	معايير الاختيار: الحركة التجارية / عددالسكان	مواسم أخذ العينات
شمسطار	حركة تجاريّة عالية/ 17700 نسمة	
بدنايل	حركة تجارية عالية/ 12000 نسمة	
تمنين التحتا	حركة تجارية عالية/ 15000نسمة	الخريف
حزّين	حركة تجارية خفيفة/ 3000 نسمة	الصيف
حدث بعلبك	حركة تجارية خفيفة / 2500 نسمة	
كفردان	لا يوجد حركة تجارية/ 2000نسمة	

بعد أخذ العينات، تم تحديد مكونات النفايات الصلبة بعد فرزها إلى 10 فئات (البلاستيك، الزجاج، الورق، الكرتون، النايلون، الخشب، المنسوجات، المواد الغذائية، النفايات الخضراء، المعادن والالكترونيات) في حاويات منفصلة ومن ثمّ زينها.

ثانياً، تتأثر عملية إدارة النفايات الصلبة بالفرز من المصدر، حيث أن غالبية السكان تتعامل مع النفايات الصلبة ككتلة واحدة. وتعتبر هذه الخطوة الأهمّ لتقليل حجم النفايات في المكبات العشوائية لأنّ اختلاط النفايات المنزلية العضوية بعضها مع بعض يُنتج العديد من المشكلات مثل الروائح الكريهة وانتشار القوارض التي تنقل الأمراض للسكان، وبشكل مباشر للعاملين فيالنفايات. وبذلك يُعدّ السلوك البشري من أهم الأسباب التي تؤثّر في تحسين وضع ادارةالنفايات. (Campan, 2007)

لتحليل الوضع الحالي من وجهة نظر المواطنين وللعثور على إجابات للأسئلة المتعلقة بسلوك الأشخاص، تم توجيه استمارات إلى 400 أسرة في منطقة دراستنا تناولت أسئلة موزّعة ضمن ثلاثة أقسام.

1) الخصائص الاجتماعية والاقتصادية (المستوى التعليمي، المردود الشهري، السكن ...).

2) الممارسات اليوميّة (كمية النفايات المنتجة وتركيبتها، الفرز من المصدر، تربية الحيوانات والممارسات الزراعية...).

3) مدى إلمامهم ومعرفتهم بمسألة النفايات (أسئلة حول وقت الجمع، أهمية إعادة التدوير والتسبيخ، المشاكل الناجمة عن تراكم النفايات الصلبة...).

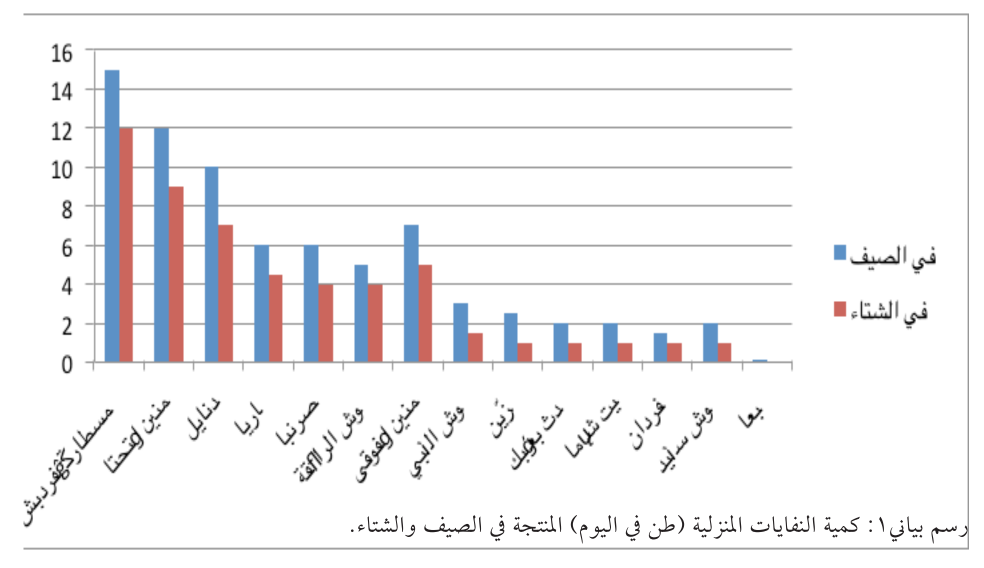
أخيرًا، قمنا بمقابلة مديري المصانع الموجودة في المنطقة، للتعرف على طرق تخلّصهم ومعالجتهم للنفايات وخاصة تلك التي لهاخصائص سامة للبيئة والصحة، وكيفيّة مشاركتهم في تحسين إدارة النفايات الحالية.

النـــتائج

أوّلاً: واقع النفايات الصلبة في المنطقة

1) خصائص النفايات الصلبة

- كشفت المقابلات مع رؤساء البلديات كمية النفايات التي يتم إنتاجها يوميًا (في الصيف والشتاء) في كل قرية من منطقة الدراسة (رسم بياني ١)، ولكن إحصائيات هذا الإنتاج تبقى تقريبية بشكل عام نظرًا لعدم وجود نظام وزن للشاحنات في البلديات.



رسم بياني١: كمية النفايات المنزلية (طن في اليوم) المنتجة في الصيف والشتاء.

في الواقع، تقدّر كمية النفايات الصلبة الناتجة يوميًا بـ 75 طنًا في الصيف و50 طنًا في الشتاء بحيث نجد النسب الأعلى في القرى ذات المساحة الأكبر وحيث التكاثر السكّاني والنشاط التجاري الأقوى (شمسطار، تمنين التحتا، بدنايل).

فيما يتعلق بمكونات النفايات، فوفقًا لرؤساء البلديات، تُظهر النفايات الصلبة في البقاع عدم تجانس كبير مع كثرة المادة العضوية ذات الأصل النباتي والحيواني، وغيرها من المواد القابلة لإعادة التدوير مثل البلاستيك، الزجاج، الورق، الكرتون، النايلون والمعادن. ولكن العيّنات التي تمّ أخذها من موقع الدراسة، بيّنت النسب بين مختلف المكونات بشكل واضح (جدول ٢)..

جدول 2:
مكونات النفايات الصلبة المنزلية في منطقة غرب بعلبك.

مكونات النفايات	الكميّة (كغ)	النسبة المئويّة (٪)
مواد عضويّة	298	56
ورق وكرتون	79	13
بلاستيك	47	11
معادن	21	4
خشب	21	4
أكياس بلاستيكيّة	21	4
زجاج	16	3
نفايات طبية والكترونية	16	3
أنسجة	11	2

من خلال نتائج هذا العمل الميداني، تعد النفايات العضويّة من أهم المكونات حيث تشكل نسبة (56٪) من إجمالي النفايات الصلبة، يمثّل الورق والكرتون (15٪)، في الواقع واجهنا صعوبة أثناء فرز الورق لأن مزجهم مع النفايات الأخرى أدّى إلى ارتفاع نسبة رطوبتهم. تشكّل المواد البلاستيكية (11٪)، كما أن كمية الأكياس البلاستيكية تعتبر مهمة، ذلك بسبب عادات السكان من خلال وضع النفايات في الأكياس ورميها دون استخدامها مرة أخرى، بينما تتراوح النسب الأخرى بين (2٪، 3٪ و4٪) مثل الزجاج، المعادن، النفايات الخطرة والمنسوجات. وفقًا لهذه النتائج، ومن خلال حصولنا على كمية النفايات الناتجة يوميّاً، يمكن لهذه المنطقة إعادة تدوير 26 طن من النفايات في اليوم، ويمكنها تحويل 42 طن إلى سماد عضوي.

2) جمع ونقل النفايات في قرى الاتحاد

يعدّ معدل جمع النفايات البلدية في منطقة الدراسة مرتفعاً بشكل عام، حيث تجمع يدوياً من الحاويات أمام المنازل والمحال التجارية وغيرها في الشوارع الرئيسية مرة واحدة يوميًا في الصباح، بينما في الأحياء والشوارع الأخرى حيث الأنشطة التجارية أقل أهمية وفي القرى الصغيرة مثل كفردان، جبعا، حزين وبيت شاما، يتم الجمع مرتين في الأسبوع.

3) معالجة النفايات والتخلص منها

خلال هذه المرحلة يتم التخلص بشل نهائي من النفايات الصلبة. بحسب استمارة رؤساء البلديّات، فإنّ أكبر قرى الاتحاد من حيث المساحة وعدد السكان تعتمد على المكبّات العشوائية والحرق في الهواء الطلق، وتقوم القرى أخرى بإرسال نفاياتها إما إلى محطة معالجة زحلة أو مكب بعلبك (الكيال) (جدول ٣).

جدول 3:
طريقة التخلص من النفايات في مختلف القرى في المنطقة.

	القرية	مكان التخلّص من النفايات
1	شمسطار/ كفردبش	مكب عشوائي
2	طاريا	مكب عشوائي
3	بدنايل	مكب عشوائي
4	قصرنبا	مكب زحلة
5	تمنين الفوقى	مكب عشوائي
6	تمنين التحتا	مكب زحلة
7	حوش الرافقة	مكب زحلة
8	حوش سنيد	مكب زحلة
9	حدث بعلبك	مكب زحلة
10	جبعا	مكب عشوائي
11	حزّين	مكب زحلة
12	بيت شاما	مكب بعلبك
13	حوش النبي	مكب زحلة
14	كفردان	مكب زحلة

ولكن المشكلة الأكبر هي أنّ هذه المكباتتتلقى جميع النفايات الصلبة على مختلف أنواعها (النفايات المنزلية، نفايات المسالخ، المواد الضخمة، منتجات الصناعة والبناء، النفايات الزراعية، بعض نفايات المستشفيات...). قد تحتوي هذه النفايات المختلطة على عناصر خطرة وضارة عمومًا بالبيئة وخاصة للعمال وجامعي القمامة في مقالب النفايات.و المشكلة الأساسيّة في ذلك، هو عدم وجود نظام لفرز النفايات الصلبةلدى البلديات في منطقة الدراسة. خلال المقابلة مع رئيس الاتحاد، أكّد أنّ الوضع الحالي يظهر فجوات وعجز في عملية إدارة النفايات. السبب الأول هو نقص النصوص والتشريعات القانونية والسياسية، بحيث أنّ إنشاء محطة لمعالجة النفايات الصلبة يتطلّب تراخيص وإجراءات إدارية من قبل الوزارات المعنية. أيضاً، يعتبر العجز المالي عقبة حقيقية في تنفيذ الإدارة الجيدة للنفايات، فالدولة توفّر للبلديات أموال محدودة تستخدمها في مشاريع مختلفة، كما أكّد أن وجود اللاجئين السوريين يزيد من حدة المشكلة القائمة. أخيرًا، أعلن أنه لا يمكن تحقيق حل لإدارة النفايات دون الدعم المالي من الاتحاد الأوروبي أو الجهات المانحة الأخرى.

ثانيا: نسبة الوعي البيئي عند المواطنين

وفقاً للبيانات الديموغرافية التي تمّ جمعها، فإن غالبية الأسر تعيش في منازل، (6٪) فقط من المواطنين يعيشون في مبانٍ وتتألّف بالإجمال من طابقين. تشير نتائج الاستمارات إلى أن المرأة هي من يتخلّص بشكل عام من النفايات المنزليّة ولديها معلومات عن الكمية والمكونات أكثر من الرجال أو الشباب. وفقًا لهذه الدراسة، فإن المستطلعين يعرفون القراءة والكتابة، (65٪) وهي النسبة الأكبر حائزين على شهادات مدرسية. (47٪) من العائلات تتقاضى كراتب شهري بين 1000 دولار و1500 دولار.

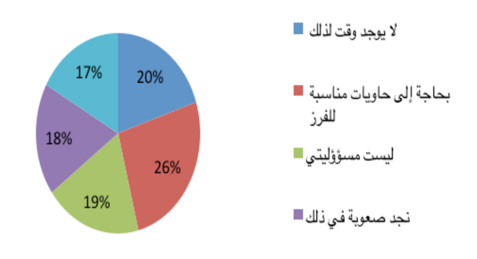
من بين السكان (72٪) يمارسون الزراعة (في حديقة المنزل أو زراعات كبيرة)، وعادة ما يصاحب التنمية الزراعية إنتاج النفايات، حسب الاستمارات(35٪) من هذه النفايات يتم حرقها في الطبيعة في الهواء الطلق، (34٪) يتم رميها في براميل مع أي نوع آخر من النفايات، (19٪) تُترك في الطبيعة، و(12٪) فقط يتمّ إعادة استخدامها كالنايلون، البلاستيك والخشب.في الواقع، لا تُطبِّق البلديات نظامًا محدّدًا لجمع هذا النوع من النفايات ولا تحظر المزارعين التخلص منه مع النفايات المنزلية.أمّا بالنسبة لتربية الحيوانات، (18٪) من السكان يربّون الدجاج والحيوانات الأليفة، ويستخدمون المواد العضوية لإطعامهم، مما يقلل من كمية هذه النفايات في المكبات.

فيما يتعلق بفرز النفايات، يلعب السكان دورًا رئيسيًا في هذه العملية، (79٪) يعتبرون فرز النفايات أمرًا ضروريًا، لكن نسبة عالية من بينهم (34٪) ليست مستعدة للبدء بالفرز من المصدر

لعدة أسباب: تُمثّل أعلى نسبة (26٪) من السكان اللذين يحتاجون إلى حاويات مناسبة للفرز، وهنا يكمن دور البلديات في توزيع حاويات مناسبة لمساعدة السكان على الفرز. (20٪) ليس لديهم وقت، (18٪) يجدون صعوبة في ذلك. لذا، فأيّ التزام من البلديات إما عن طريق توزيع الحاويات المناسبة أو عن طريق التوعية، ستكون نسبة عالية إلى حد ما جاهزة لفرز النفايات الصلبة من المصدر، باستثناء قسم من المواطنين (36٪) الذي يرى أنّها ليست مسؤوليّته وليست بعملٍ مهمّ (رسم بياني2). فيما يتعلق بإدارة النفايات، لا يعلم الجميع من هو المسؤول عن هذه المهمّة. في الواقع (65٪) فقط أعلنوا أنَّ بلدية كل قرية هي المسؤولة عن جمع ونظافة الشوارع والأغلبية (73٪) يدركون أنَّ النفايات يتم حرقها في الهواء بغية التخلص منها.

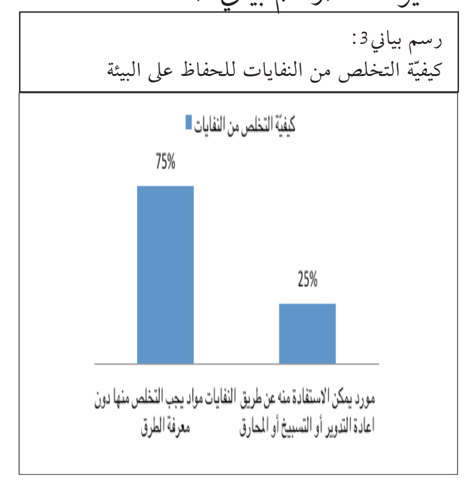
رسم بياني2:
أسباب عدم بدءالناس بفرز النفايات من المصدر.

هل أنتم مستعدّون للفرز من المصدر؟



تم توجيه سؤال في الاستمارات إلى السكان حول طرق معالجة النفايات بطريقة سليمة والتي من شأنها أن تكون بديلة عن التخلص العشوائي في المكبّات. وفقًا لـ (75٪) من الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع، تُعتَبر النفايات على جميع أنواعها مواد يجب التخلص منها من أجل الحصول على بيئة نظيفة.وبالتالي فإنَ هؤلاءالأفراد ليس لديهم معلومات عن إعادة التدوير أوالتسميد أو أي طريقة أخرى لإدارة النفايات. (25٪) فقط يرون النفايات مورد يمكن الاستفادة منه عن طريق إعادة التدوير،التسبيخ أو من خلال المحارق، ويعلنون مسؤوليتهم عن الحد من إنتاج النفايات من المصدر وتعزيز إعادة استخدام المنتجات مثل البلاستيك والزجاج والمعادن على مستوى الأسرة واستخدام المواد العضوية كغذاء للحيوانات (رسم بياني2).

رسم بياني3:
كيفيّة التخلص من النفايات للحفاظ على البيئة



ومن أهداف الاستمارة أيضاً معرفة ما إذا كان السكان يشجّعون حضور حملات توعية بيئية، منظّمة من قبل أشخاص معنيّين، كوسيلة لتحسين معلوماتهم وأفكارهم المتعلقة بإدارة النفايات الصلبة. (63٪) أعلنوا، أنَّ هذه الحملة ضرورية

خاصة لتحسين سلوك الأجيال الجديدة، (37٪) لايجدون فوائد لهذه المحاضرات، باعتبار أنّ تحسين الوضع الحالي لادارة النفايات هو مسؤوليّة الدولة والبلديّات. فالمؤسف في الوضع في منطقة غرب بعلبك أنَّ المواطنين لا يدركون دورهم الفعّال في حل مشكلة النفايات، فعند توجيه سؤال من ضمن الاستمارة عن مسؤولية الإدارة وتحسين الوضع الحالي، (3٪) فقط أعلنوا مسؤوليتهم وانخراطهم بشكل مباشر في مشكلة النفايات الحالية (رسم بياني4).

رسم بياني4:
مسؤوليّة الوضع الحالي لادارة النفايات.

لا أعلم 15%
الدولة 20%
السكّان 3%
الدولة والبلديات 17%
البلديات 45%

0% 10% 20% 30% 40% 50%

من هو المسؤول عن الوضع الحالي لادارة النفايات الصلبة في القرى؟

ختاماً، بالنسبة لنفايات المصانع والبناء، يتم التخلّص منها في المساحات المكشوفة، بانتظار جمعها من قبل البلديّات وبذلك تُخلط مع الأنواع الأخرى من النفايات المنزلية ويتم التخلص منها عبر الحرق في الهواء، أو يتم حرقها مباشرة بواسطة صاحبها. أمّا مصنع باندا بلاست، يتميز بعدم إنتاجه للنفايات بل تخضع لعملية إعادة التدوير والتصنيع. وبالنسبة لحل هذه المشكلة، يجد أصحاب المصانع والمحالات التجارية الكبيرة أن الحلول تكمن في تدخّل البلديات من خلال خطّة مفيدة يكون هدفها مشاركة الجميع من أجل الحفاظ على البيئة.

الخلاصـــة

من خلال دراسة مكونات النفايات الصلبة في المنطقة، فإنَّ المادة العضوية تمثّل أعلى نسبة (56٪) تليها المواد القابلة لإعادة التدوير(35٪)، ومع ذلك مصير النفايات النهائي هو المكبات العشوائيّة والحرق في الهواء الطلق من دون أي عمليّة فرز مُسبقة. أمّا الوضع الحالي لإدارة النفايات في منطقة غرب بعلبك فهو يُعتبر غير كافٍ ويسيء للوضع البيئي، إذ لا يستطيع صُنّاع القرار المحليّون تحسين أدائهم في إدارة النفايات لأنهم يفتقرون إلى التمويل ويعتمدون من حيث المبدأ على المساعدات الخارجيّة مثل التبرعات من الاتحاد الأوروبي أو وكالات أخر، ويعود السبب الأساسي إلى وجود ثغرات قانونية في هذا المجال.

وفقًا للاستمارات، إنَّ سكان هذه المنطقة على بيّنة من مصير النفايات النهائي، ولكن لا يبادرون في مساعدة البلديات والجهات الفاعلة لتغيير الوضع الراهن، مثل تخفيض الإنتاج من خلال إعادة الإستهلاك أو استخدام مواد صديقة للبيئة أو عن طريق الفرز من المصدر. وبذلك، هذا الوضع المأساوي يعكس عدم وعي المواطنين اتجاه بيئتهم وصحتهم.

في الواقع، مكوّنات النفايات في منطقة غرب بعلبك تجعل تقنيات إعادة التدوير وتصنيع السماد العضوي طريقتين

مهمتبن في تقليل كمية النفايات في المكبات. وهذا يتطلب حملات توعية من قبل البلديات التي لها تأثير إيجابي في توجيه الأفراد من خلال إدراك مسؤوليتهم في الحفاظ على النظافة والبيئة وبذلك يكون التعاون بين مختلف الجهات المختصّة لاتخاذ قرار في هذا الصدد.

ماجدة شحيتلي الخطيب
جوسلين أدجيزيان جيرارد

المصادر والمراجع

- ج دمج، (2010): البيئة في لبنان: الواقع والاتجاهات، الفصل الثامن: النفايات الصلبة، ص 238-269.
- Campan F., (2007): Le traitement et la gestion des déchets ménagers a la réunion: approche géographique, Géographie. Université de la Réunion, thèse, p 416.
- Chbat N., (2011): La gestion des déchets urbains au Liban entre politiquespubliques et privées, Projet de Paysage (Revue scientifique sur la conception et l'aménagement de l'espace), le 04/08/2011.
- Dovonou F., (2015): Pollution des eaux souterraines par les métaux lourds et leur impact sur l'environnement: cas de l'aquifère superficiel du champ de captage intensif de Godomey su Sud-Benin, p 21.
- Ezzedine M., (2015): Des questions légitimes autour de « Vous puez », mouvement pour le Liban, printemps arabe, 1 septembre 2015.
- Ghadban S., Shames M., AbouMayaleh H. (2017): Trash Crisis and Solid Waste Management inLebanon-Analyzing Hotels' Commitment and Guests', Journal of Tourism Research. p 18.
- Longo R.(2011): La gestion des déchets dangereux au Cameroun, Institut des relations internationales du Cameroun (IRIC), p 148.
- Strutt M., (2003): Cool Waste Management, A State-of-the-Art Alternative to incineration for Residual Municipal Waste, the Green peace Environmental Trust, p58.

اقتراح طريقة لتحديد قيم المقاومية الكهربائية باستخدام القياسات الصوتية

محمد السهو

د.عبد الناصر هلال

د.نضال إبراهيم

ملخــص

لا تقتصر ثروات باطن الأرض على النفط والغاز وإنما هناك المعادن الثمينة والتي يصعب الكشف عنها باستخدام الأمواج الصوتية بطريقة المسح السيزمي فقد لاحظنا أن مجال تغير سرعة الأمواج الصوتية محدود والاستجابة للتغيرات الخزنية طفيفة، إذاً لابد من طريقة أخرى لكشف تلك التغيرات وهذا ماسنعرضه في هذا البحث، فقد توصلنا بعد ربط عدد من القياسات الصوتية والمقاومية الكهربائية في منطقة حوض الفرات إلى علاقة تجريبية تُمكن من تحديد قيم المقاومية الكهربائية استناداً إلى سرعة الموجة الصوتية الطولية، وقد مَثل معامل يونغ السكوني عامل الربط بين القياسين. لهذه العلاقة تطبيقات هامة جداً في مجال الصناعة النفطية وذلك من خلال تحويل صور المسح السيزمي ثلاثي الأبعاد إلى صور ثلاثية الآبعاد لقيم المقاومية الكهربائية وهذا من شأنه أن يقدم طريقة حديثة للكشف المباشر عن المكامن النفطية من خلال قيم المقاومية الكهربائية أمام المجال المائي والنفطي، كما سنقدم العلاقة التجريبية التي تم تطويرها عالمياً عام 2016 من قبل مركز الأبحاث الأسترالي حيث سنلاحظ نسبة الخطأ الكبيرة فيها.

ABSTRACT

Not only underground wealth of oil and gas, but there are precious metals which are difficult to detect using sound waves and seismic survey manner we have noted that the change of the speed of sound waves is limited respond, if there must be another way to detect such changes, and this is what will in this research, we have reached after linking the number of measurements electric voice and Resistivity in the area of Euphrates Basin to the empirical

relationship to identify the values of electric Resistivity based on the speed of the sound wave, such as the young modulus link between measurements. This relationship is very important applications in the petroleum industry through the images of three-dimensional seismic surveys to complete three-dimensional images of the values of electric Resistivity، that would provide a modern way to detect oil reservoirs through electric Resistivity values, we will introduce the empirical relationship that has been developed worldwide in 2016 by the Australian Research Center, where the large proportion of error in the downward progression.

مقدمـــة

كثيراً ما نواجه صعوبات في البحث عن النطاق المنتج وبشكلٍ خاص في التركيب الليتولوجي المختلط كما في تشكيلة الرطبة والتي تمثل أهم المكامن النفطية في سورية وتحوي أكبر احتياطي نفطي، ولكن تركيبها الرملي الغضاري سبب لنا الكثير من المشاكل بما يتعلق بتحديد النطاق المُنتِج.

بعد حفر البئر العمودي وإجراء القياسات البئرية (المقاومية الكهربائية R_t والصوتية Δ_t والكثافة ρ_b والغاما GR) نلاحظ أن التركيب الليتولوجي المسيطر على المجال المحفور غضاري بسبب وجود عدم تجانس ليتوسحني جانبي، وبالتالي لا يمكن الإنتاج منه لذلك يتم التوجه نحوتمييل البئر بسمت معين لكي يتقاطع مع التركيب الرملي المُنتج ثم إجراء القياسات البئرية للمرة الثانية على المجال الجديد وذلك لتحديد المجال المناسب للتثقيب كل تلك العمليات تتطلب نفقات باهظة وتأخير زمني في وضع البئر في الإنتاج لذلك قدمنا هذه الدراسة والتي من خلالها يمكن ربط القياسات الصوتية مع قياسات المقاومية الكهربائية، الربط بينهما يفتح آفاقاً جديدةً في التعامل مع المكامن النفطية حيث يمكننا من تحويل خرائط المسح السيزمي ثلاثية الآبعاد إلى خرائط مقاومية كهربائية ثلاثية الأبعاد وهذا يُمكن من تمييز النطاق الغضاري والنطاق الرملي وبالتالي تحديد النطاق المنتج بدقة.

ولا يقتصر الموضوع على المكامن النفطية بل يمكن التوجه نحوموضوع كشف الثروات الباطنية (المعادن الثمينة) باستخدام قيم المقاومية الكهربائية والتي تُبدي حساسيةً كبيرةً تجاه تلك المعادن.

أما سبب ندرة الأبحاث العلمية عن هذا الموضوع فيعود إلى وجود عدد من المعاملات التي تؤدي لتغيرات كبيرة في قيم المقاومية الكهربائية والتي سببت صعوبة كبيرة في إيجاد أي علاقة ربط لها مع القياسات البئرية الأخرى، باستخدام معامل ربط بين (القياسات الصوتية وقياسات المقاومية الكهربائية) وهومعامل يونغ السكوني سهل المهمة وساعد في التوصل إلى علاقة تجريبية سنستعرضها في هذا البحث.

مبررات البحث

1-تحديد النطاق المنتج للنفط بدقة قبل حفر البئر.

2-تحدد مستوى التقاء النفط بالماء على مساحة المكمن.

3-تحديد درجة التشبع بالماء افقياً على مساحة المكمن.

4-كشف الثروات الباطنية (المعادن الثمينة).

طريقة إجراء البحث :

1-هناك علاقة تجريبية مرجعية تربط معامل يونغ السكوني E_S مع سرعة الموجة العرضية V_S وبعد ايجادنا للعلاقة بين سرعتي الموجة الطولية والعرضية حولنا تلك العلاقة لتربط معامل يونغ السكوني مع سرعة الموجة الطولية وتأكدنا من دقتها في الحقول المدروسة.

2- رسم العلاقة بين معامل يونغ السكوني ولوغاريتم المقاومية الكهربائية الحقيقية للطبقة وجدنا شكل لعلاقة خطية.

3-بتحديد شكل العلاقة الخطية بين E_S و $LN\ (R_t)$ وجدنا العلاقة رقم (4)

أهمية العلاقة المقترحة:

بعد معايرة سرعة الأمواج الصوتية المقاسة بواسطة القياسات الصوتية البئرية مع سرعة الأمواج الطولية المسجلة بواسطة المسح السيزمي ثنائي وثلاثي البعدأثم العودة إلى علاقة الربط بين المقاومية وسرعة الأمواج الطولية يمكننا تحويل سرعة الأمواج الطولية المسجلة في المسح السيزمي إلى قيمٍ للمقاومية الكهربائية وهذا يُمكننا من تحويل النموذج 2D، 3D للمسح السيزمي إلى نموذج 2D، 3D لقيم المقاومية الكهربائية الحقيقية، لهذه النمذجة الحديثة القدرة على كشف شواذات المقاومية الكهربائية في باطن الأرض مثل الثروات المعدنية الباطنية ذوات الناقلية الكهربائية المرتفعة (أوالمقاومية منخفضة)، لقد لاحظنا في التسجيل الصوتي البئري لآبار حقل العمر النفطي عند بعض الأعماق وجود قيمٍ غير منطقية لسرعتي الموجة الطوليةوالعرضية وبشكلٍ متكررٍ ولم يكن لذلك علاقة بالمحتوى الغضاري، لذلك يجب التوسع في دراسة تلك النطاقات وامتدادها من خلال الطريقة المقدمة في هذا البحث.

الدراسة المرجعية

قُدمت علاقة تربط بين قيم المقاومية الكهربائية وسرعة الموجة الصوتية من قبل مركز الأبحاث الأسترالي في عام 2016 وهي على الشكل التالي[1]:

$$\frac{L_n\ (R_t + 1)}{L_n\ (1.75)} = V_p - 0.6$$

سندرس التطابق بين الطرفين أي نحول التسجيل الصوتي البئري ليمثل الطرف الثاني وقيم المقاومية الكهربائية العميقة لتمثل الطرف الأول، وندرس علاقة القيم بالنسبة للعمق على طول المجال المقاس لدراسة دقة تلك العلاقة.

العوامل المؤثرة في قيم المقاومية الكهربائية

تُستخدم قياسات المقاومية الكهربائية لتحديد المجال النفطي في المكمن ونسب التشبع، المساهمة الكبرى في هذا المجال والتي مَكنت من فهم الخواص الكهربائية للمكمن أتت من خلال علاقة آرشي 1942، والذي أثبتت دراساته وجود علاقة بين درجة تشبع الصخر الرملي النظيف S_w والمقاومية الكهربائية R_t، طُبقت تلك العلاقة بشكلٍ واسعٍ في الصناعة النفطية ليس فقط على الصخر الرملي النظيف وإنما على الطبقات الرسوبية المُختلفة، ومن خلالها تم تحديد النطاقات الحاملة للهيدروكربون في المكمن وحجم الاحتياطي النفطي وبالتالي دراسة الجدوى الاقتصادية قبل البدء بأعمال الحفر الإنتاجي والإنتاج من الحقل.

تعد المواد أوالفلزات المؤلفة للصخر بحد ذاتهاغير ناقلة للتيار الكهربائي، ولكن وجود سائل في مسامات النسيج الصخري يسمح بمرور التيار الكهربائي، كما في الشكل (1)، ذلك يُمكِنُ من قياس المقاومية الكهربائية للصخر R_t من خلال قياس إمكانية تدفق التيار الكهربائي عبر المسامات المشبعة بسائلٍ ما، كما أن النسيج المسامي في الصخر يتعلق بعوامل عدة (الشكل الهندسي للمسام، الحالة الإجهادية، التركيب الليتولوجي للصخر)
إن للشكل الهندسي للمسامات تأثيره الكبير على قياس المقاومية الكهربائية، فعند انخفاض الضغط الطبقي P_f وازدياد الإجهاد الفعال سيحدث نقص في حجم الفراغ المسامي، ولأن القنوات الواصلة بين الفراغات المحصورة بين الحبيبات المؤلفة للصخر ذوات حجوم صغيرة جداً مقارنةً بحجم هذه المسامات، الشكل (2)، قد يؤدي هذا النقص إلى تطبق تلك الأقنية الواصلة بين المسامات، مما يسبب حجز السائل ضمن الفراغات المغلقة وعزله وعدم مشاركته في قياس المقاومية، وبالتالي ارتفاع قيم المقاومية الكهربائيةالمقاسة مسبباً خطأً في حساب درجة التشبع S_W.

الشكل (1): تضيق خطوط التيار الكهربائي [2]	الشكل (2): نشوء نقاط اختناق بين الحبيبات[2]

يجب الإشارة إلى أن الحالة الإجهادية حول جدران البئر مختلفةً عما هي عليه في المكمن، ولعل قياسات المقاومية الحقيقية للطبقة R_t والتي تعتمد على عمق سبرٍ كبيرٍ نوعاً ما تمكنت من حل مشكلة تأثير راشح سائل الحفر ولكن لا يمكنها حل مشكلة اختلاف وتغير الحالة الإجهادية حول جدران البئر وتأثيرها على نتائج قياسات المقاومية كما أن تغير الحالة الإجهادية يؤثر على كلٍ من المقاومية الكهربائية R_t، النفوذية K، كثافة النسيج الصخري، سرعة الأمواج الصوتية، فقد دلت التجارب المخبرية على أن ازدياد الإجهاد الفعال يؤدي إلى ازدياد كلٍ من المقاومية الكهربائية ومعامل التشكيلة ومعامل السمنتة الذي يتعلق بالمسامية وفي حال كانت قيمة المسامية منخفضة فإن تأثر معامل السمنتة بازدياد الإجهاد الفعال يكون أكبر، إن ازدياد الإجهاد الفعال يسبب انخفاض حجم الفراغ المسامي مما يزيد التعرج، وازدياد التعرج يسبب انخفاض الناقلية الكهربائية بسبب صعوبة تدفق خطوط التيار الكهربائي، كما أن ازدياد التعرج يسبب تغير في معامل التشكيلة F. وكذلك التغير في الإجهاد الفعال يسبب تغيراً في بنية الفراغ المسامي المكون للصخر، ومن المهم الإشارة إلى أن المقاومية الكهربائية، لا تتغير عند ثبات الضغط داخل العينة وازدياد الإجهاد الخارجي المؤثر على العينة وذلك لأن تغير المقاومية يتبع للتشوه الحاصل في النسيج الصخري أما وجود سائل داخل المسام له ضغطٍ معينٍ يشكل مقاومةً للإجهاد الخارجي وبالتالي يمنع التشوه.

اقتراح علاقة تربط بين المقاومية الكهربائية وسرعة الموجة الصوتية

منهجية الدراسة تعتمد على إيجاد عامل يؤثر في كلا القياسين ثم إيجاد علاقة تربط بين ذلك العامل مع التسجيل الصوتي، وعلاقة أخرى تربط العامل مع تسجيل المقاومية الكهربائية، يلي ذلك مساواة العلاقتين مع بعضهما لاستنتاج قيم المقاومية الكهربائية بشكلٍ مباشرٍ من خلال سرعة الموجة الطولية.

بما أن قيم المقاومية الكهربائية تتأثر بقيم الإجهاد الفعال، لذلك فيمكن ربط قيم المقاومية الكهربائية مع معامل يونغ السكوني، وبعد حساب معامل يونغ الديناميكي من خلال قيم الكثافة ρ_b وسرعة الموجة الصوتية الطولية Vp والعرضية Vs واستنتاج معامل تحويل لقيم معامل يونغ الديناميكي إلى سكوني، ثم ربط معامل يونغ السكوني مع سرعة الموجة الطولية ومع قيم المقاومية الكهربائية وفق علاقات تجريبية تخص الدراسة المقدمة في هذا البحث كما يلي :

$$E_s = \frac{(V_p - 1.75)}{0.093} - b \quad (2)$$

$$E_s = 5 \times LN(R_t) \quad (3)$$

$$5 \times LN(R_t) = \left[\frac{(V_p - 1.75)}{0.093} - b \right] \quad (4)$$

حيث أن b ثابت يتم معايرته وفق ليتولوجية الطبقة المدروسة وقد وجدنا القيم الأنسب له في اغلب الحقول المدروسة (العمر، الصيجان، كراتشوك، قارة) تتراوح بين (14ـ17).

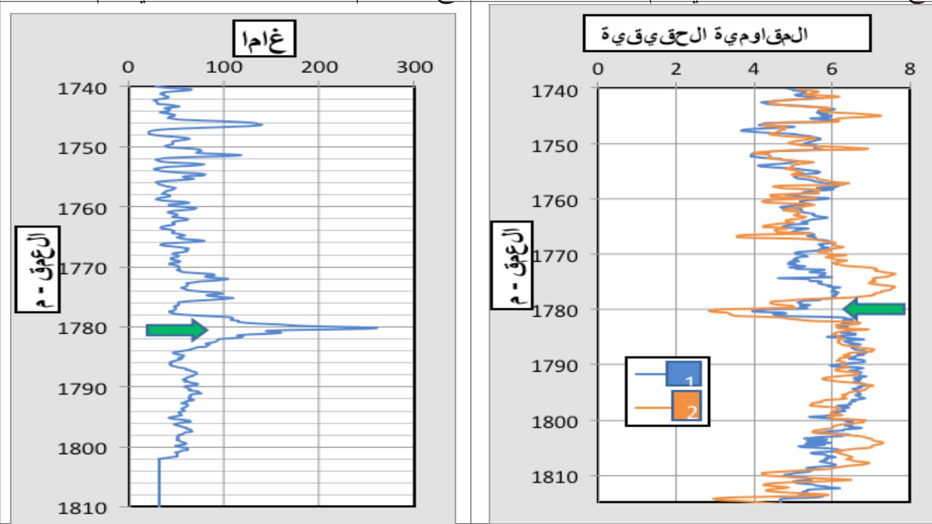
العلاقة رقم (4) هي العلاقة التجريبية المقترحة في هذه الدراسة لربط قيم المقاومية مع سرعة الموجة الصوتية في عدة حقول منها الرملية والكربوناتية، فيمايلي دراسة دقة العلاقة المقترحة لتحديد قيم المقاومية الكهربائية ثم مقارنة النتائج مع العلاقة المقدمة في الدراسة المرجعية من قبل مركز الأبحاث الأسترالي.

1. حقل كراتشوك: البئر 262- k

سنوضح دقة العلاقة (4) في آبار حقل كراتشوك والذي يتميز بأن ليتولوجيةالمكامن المنتجة فيه هي كربوناتية.

المنحنيات الُمقدمة في الشكل (3) حيث يعبر الون الأزرق (المنحني رقم 1) إلى قيمة المقاومية الكهربائية المحسوبة من خلال قيم سرعة الموجة الصوتية وفق العلاقة المقترحة (4)، الطرف الثاني من العلاقة، في حين يعبر اللون الأحمر(المنحني رقم 2) إلى قيمة لوغاريتم المقاومية الكهربائية الحقيقية العميقة المقاسة بواسطة أجهزة القياس البئرية، الطرف الأول من العلاقة (4).

الشكل (4) يشير المنحني رقم (1) باللون الأزرق إلى الطرف الثاني من العلاقة (1) المقدمة في الدراسة المرجعية في حين يشير المنحني رقم (2) باللون الأحمر إلى قيم المقاومية الكهربائية الحقيقية للطبقة مع العمق أي الطرف الأول من العلاقة (1).

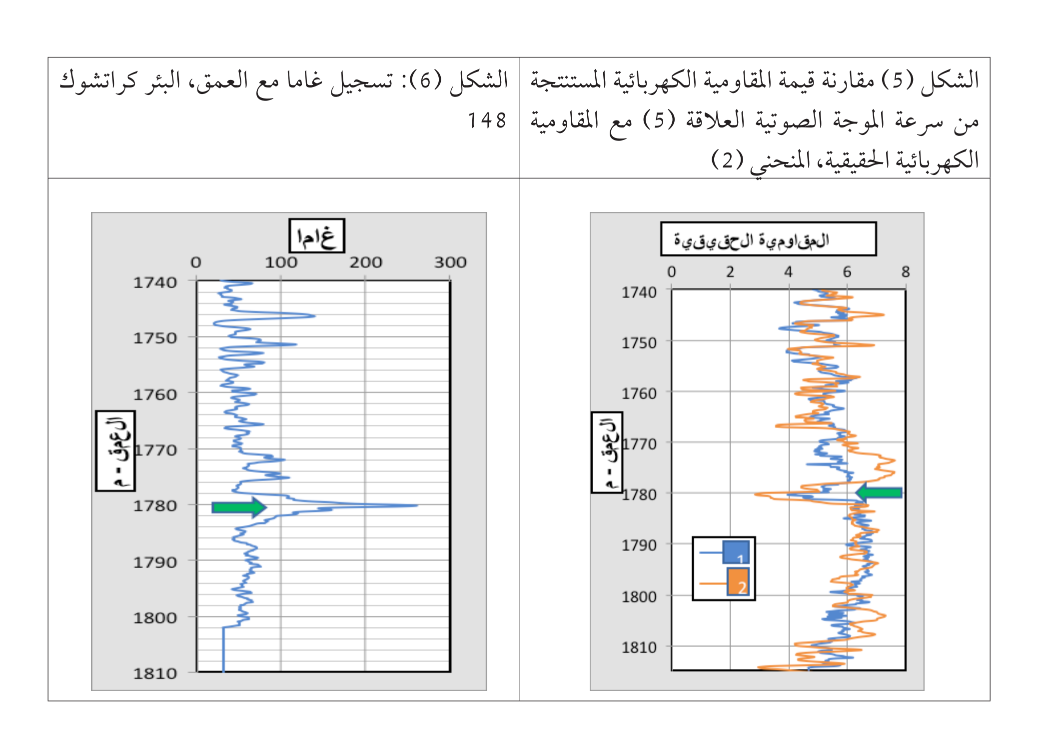


الشكل (4) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقدمة في الدراسة المرجعية رقم (1) (المنحني رقم1) مع المقاومية الحقيقية (المنحني رقم 2)

الشكل (3) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق الطرف الثاني من العلاقة المقترحة رقم (4) (المنحني رقم 1) مع لوغاريتم المقاومية الحقيقية (المنحني رقم 2)

اللون الأزرق في الشكل (3) يوضح التطابق الجيد بين المقاومية الكهربائية المحسوبة (الجزء الأيمن من العلاقة 4) مع المقاومية الكهربائية العميقة المقاسة وفق القياسات البئرية (الجزء الأيسر من العلاقة 4)، بمقارنة الشكل (3) مع الشكل (4) نلاحظ في المجال (1900 ـ 2100 م) ضعف الترابط بين قيم المقاومية الكهربائية الحقيقية (2) وقيم المقاومية الكهربائية المقترحة من خلال علاقتها مع سرعة الأمواج الصوتية، العلاقة (1).

كما أن العلاقة التي نقدمها في هذه الدراسة تستجيب بشكل جيد للتغيرات التي تحدث في التركيب الليتولوجي عند ارتفاع نسبة الغضار كما في الشكل (5) للبئر كراشوك 148.



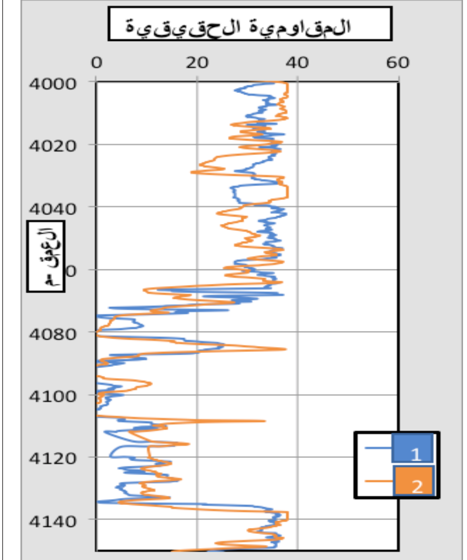
الشكل (5) مقارنة قيمة المقاومية الكهربائية المستنتجة من سرعة الموجة الصوتية العلاقة (5) مع المقاومية الكهربائية الحقيقية، المنحني (2)

الشكل (6): تسجيل غاما مع العمق، البئر كراتشوك 148

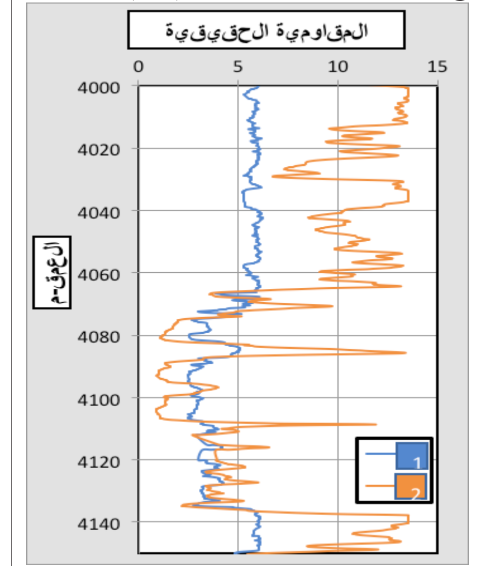
نلاحظ أن العلاقة المقترحة قد استجابت لانخفاض قيم المقاومية الكهربائية الحقيقية في حالة ارتفاع نسبة الغضار عند العمق 1780 م، وقد حصل تقارب جيد بين المنحني رقم 1 والذي يشير إلى قيمة المقاومية الكهربائية المحسوبة من سرعة الموجة الصوتية وفق العلاقة المقترحةمع المنحني رقم 2 والذي يشير إلى قيمة المقاومية الكهربائية الحقيقية للطبقة.

تطبيق العلاقةالمقترحة في حقل كراشوك يشير إلى دقتها في المكامن الكربوناتية وفيما يلي سنتحقق من دقتها في المكامن الرملية كما في حقل العمر المُنتج من تشكيلة الرطبة.

1ـ البئر OMA-206 :

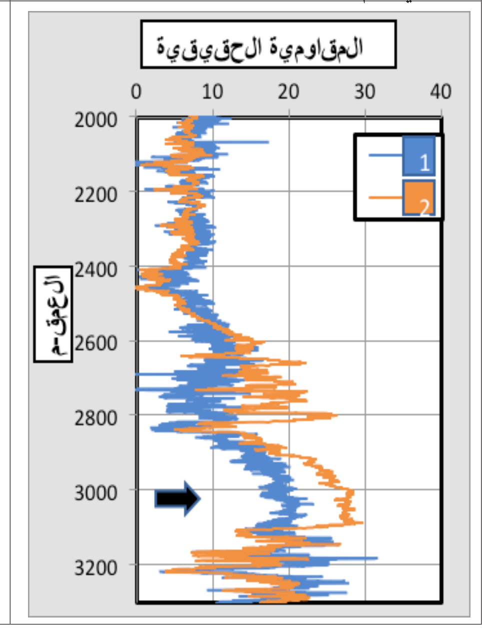


الشكل (7): مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقترحة رقم (4) (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)

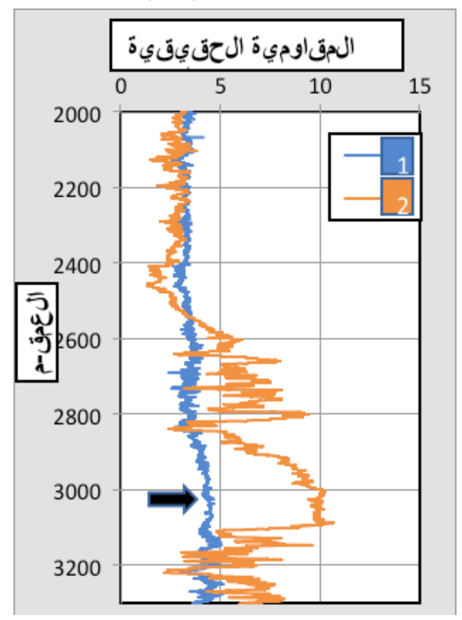


الشكل (8): مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقدمة في الدراسة المرجعية رقم (1) (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)

2ـ البئر OMA-181



الشكل (9) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقترحة (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)



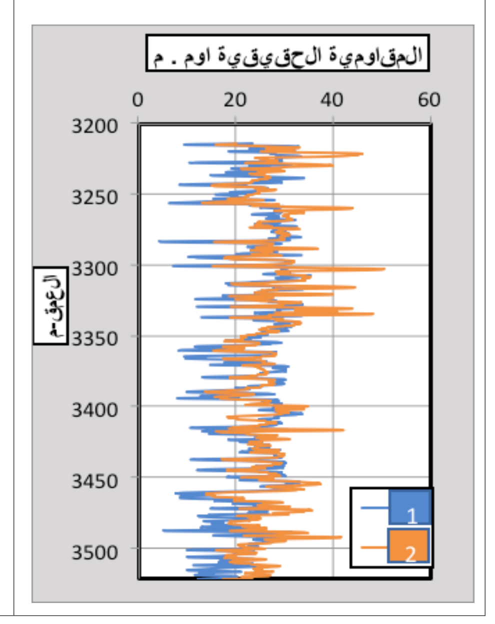
الشكل (10) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق علاقة الدراسة المرجعية رقم (1) (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)

كما نلاحظ من خلال مقارنة الشكلين (9) و (10) أن التفاعل الذي تبديه العلاقة المقترحة رقم (4) يتوافق مع تغيرات قيم المقاومية الحقيقية عند العمق 3000 م، الشكل (9)، بينما في العلاقة المرجعية، الشكل (10)، فنلاحظ اختلاف واضح بين قيم المقاومية المستنتجة (المنحني 1) وقيم المقاومية الكهربائية الحقيقية (المنحني 2) عند العمق ذاته.

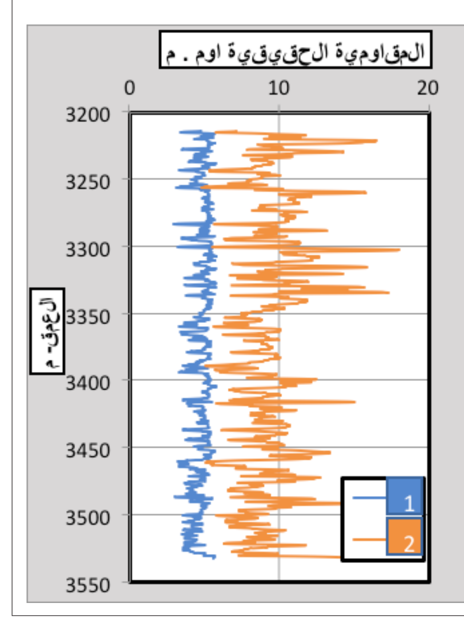
اما سبب اختلاف المنحنيين في الشكل (9) عند العمق 3000 م فيعود إلى الحجم الصغير للمسامات في الطبقة الكربوناتية (الشيرانيش) والذي سبب قيم مرتفعة للمقاومية يمكن القول بان العلاقة (4) تتأثر بالقيم المنخفضة للمسامية (أقل من 5٪).

كماأثبتت العلاقة (4) نجاحها في حقول المنطقة الوسطى كما في حقل قارة، ومثال على ذلك بئر قارة 3، كما في الشكل (11)، على عكس العلاقة المُقدمة في الدراسة المرجعية والتي اعطت قيم للمقاومية الكهربائية مستنتجة من سرعة الأمواج الصوتية مختلفة تماماً عن قيم المقاومية الكهربائية الحقيقية ولم يحصل تطابق للمنحنيين كما في الشكل (12).

الشكل (11) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقترحة رقم (4) (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)



الشكل (12) مقارنة المقاومية المستنتجة وفق العلاقة المقدمة في الدراسة المرجعية رقم (1) (المنحني رقم 1) مع المقاومية الحقيقية للطبقة (المنحني رقم 2)



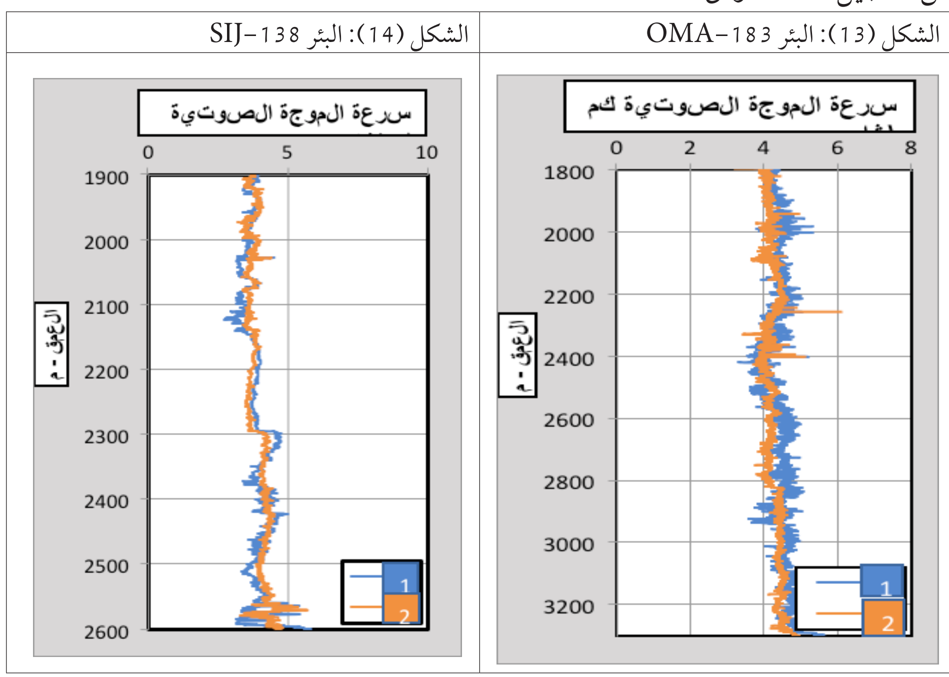
علاقة سرعة الموجة الصوتية مع الكثافة :

مع ازدياد ارتصاص الصخر تزداد كثافته وذلك يزيد من سرعة مرور الموجة الصوتية عبر الصخر، وبالتالي هناك علاقة واضحة بين الكثافة وسرعة الموجة الصوتية، العلاقة التجريبية التي توصلنا اليها في منطقة حوض الفرات من خلال مقارنة قيم الكثافة وسرعة

الموجة الصوتية هي :

$$V_p = 0.32 * e^{\rho} \qquad (5)$$

فيما يلي أمثلة على تطبيق العلاقة التجريبية المقترحة، حيث يشير المنحني رقم (1) إلى سرعة الموجة الصوتية من القياسات الصوتية البئرية والمنحني (2) إلى سرعة الموجة الصوتية من تسجيل الكثافة وفق العلاقة (5).



الشكل (13): البئر OMA-183 | الشكل (14): البئر SIJ-138

النتائج والمقترحات :

1ـ العلاقة المُقدمة في الدراسة المرجعية من قبل مركز الأبحاث الأسترالي عام 2016 أعطت نتائج ضعيفة الدقة ومعامل ارتباط منخفض بين القيم الحقيقية والقيم المقترحة للمقاومية الكهربائية في الحقول السورية.

2ـ العلاقةالمقترحة في البحث أعطت نتائج جيدة في المكامن الكربوناتية (حقل كراتشوك) والمكامن الرملية (حقل العمر).

3ـ يمكن ربط تسجيل سرعة الأمواج الصوتية الطولية مع تسجيل الكثافة بعلاقة تجريبية أسية وهذا يُمكن من استنتاج قيم سرعة الأمواج الصوتية في حال غياب التسجيل الصوتي.

4ـ استخدام العلاقة المقترحة في استنتاج توزع قيم المقاومية الكهربائية من خلال المقاطع السيزمية، وهذا من شأنه أن يعطي تغطية جيدة للمكامن النفطية ويقدم معلومات هامة عن التشبع بالمياه، وخط التقاء النفط بالماء والمحتوى الغضاري في المكمن الرملي.

5ـ تخدم العلاقة المقترحة موضوع استكشاف المكامن النفطية من خلال تحويل صور المسح السيزمي من تحديد شكل التركيب إلى تحديد الموائع في التركيب اعتماداً على تأثر قيم المقاومية الكهربائية بوجود للموائع الطبقية أوبالتاليإمكانية استكشاف المكامن النفطية بشكل مباشر باستخدام العلاقة المقترحة.

محمد السهو
د.عبد الناصر هلال
د.نضال إبراهيم

References

1- Puryear (EMGS), J. Rasmussen (EMGS), L. Sánchez (EMGS), R. Walker. (BG Group), R. Reddig.2016- Background Resistivity Prediction from Seismic VelocitiesVienna, Austria, 30 May - 2 June

2- A. rixon 2016 - real time triaxial resistivity and pore pressure penetration measurements for monitoring saturation and electrical property alterations under stress a thesis submitted to the faculty and the board of trustees of the colorado school (petroleum engineering).

التنمية المحليّة بين المركزيّة واللامركزيّة الإداريّة

علي الخطيب

القسم الأول: التنمية المحليّة

تعتبر التنمية المحليّة هي حصيلة تفاعلات اقتصادية واجتماعية وإدارية متداخلة ومستمرة، وهذه التفاعلات نتيجتها إحداث تغيرات نوعية في المجالات كافة، وتهدف في الوقت نفسه للنهوض والارتقاء بكافة القطاعات الإنتاجية إلى وضع أفضل مما هي عليه، مع التركيز بشكل أساسي على قطاع الموارد البشرية وتنميتها وتحقيق متطلباتها. إن عملية التنمية تكون لنتحقق من الناحية الاقتصاديّة مع وجود تخلف اجتماعي أو ثقافي أو إداري؛ فالتنمية الاقتصادية هي تحريك وتنشيط لكل من الاقتصاد المحلي والقومي من خلال زيادة القدرة الاقتصاديّة مع ضرورة الاستخدام والاستثمار الأمثل لكافة الموارد الطبيعية والبشرية المتوفرة ضمن الحيز المكاني. فالهدف من التنمية الاجتماعيّة هو الارتقاء بالجانب الاجتماعي من خلال تبني سياسات اجتماعية تساعد على تحسين مستويات المعيشة. لذلك فأهداف التنمية أصبحت تتمحور حول تحقيق مستويات عالية من النمو الاقتصادي من جهة والقضاء على الفقر، والجهل، والتخلف من جهة ثانية.

إنطلاقاً من هذه المبادئ، بدأت معظم الأبحاث تتناول مفهوم التنمية بشكل عام، ليشمل جميع مجالات الحياة والأنشطة الاجتماعيّة، حيث ظهر بعد ذلك مصطلح التنمية الاجتماعيّة، ومن ثم مصطلح التنمية المحليّة، ومن بعدها مفهوم التنمية البشرية، وصولاً للتنمية المستدامة. لكن يبقى الهدف الأساسي من عملية التنمية هو السعي لتحقيق التوازن النسبي بين العناصر المختلفة: البيئية والاقتصاديّة والاجتماعيّة للوصول إلى الأفضل. وتساهم البلديات وهيئات الحكم المحلي في هذا الخصوص إسهاماً فاعلاً في تحقيق التنمية المنشودة على كافة مستوياتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة والبيئية والتربويّة، ويظهر دور السلطات المحليّة الفعّال من خلال التعاون مع السلطة المركزيّة لتحقيق بعض الأمور الملحّة والمهمة التي تكون بحاجة اليها معظم البلدات والمناطق وهي: تأهيل البنية التحتية، خلق فرص استثمار للحد من البطالة، ضرورة إيجاد مناطق صناعية ومجمعات حرفية كونها مشاريع حيوية وكلها تعتبر من صلب عمل البلديات وهيئات الحكم المحلي لتحقيق

خدمة المجتمع المحلي وتحقيق الرفاه الاجتماعي وتطوير الاقتصاد الوطني.

1. تحديد مفهوم التنمية المحليّة

حمل مفهوم التنمية المحليّة الكثير من التعريفات، منها على سبيل المثال:

يقول (Bernard Husson CIEDEL) في تعريفه للتنمية المحليّة إن "التنمية المحليّة تشير إلى التطور النوعي للإقليم؛ ويهدف إلى تحقيق الرفاه للسكان كونهم جزءاً من ديناميات هذا المشروع" [1].

أما التعريف الآخر لمفهوم التنمية المحليّة أتى من قبل "مجموعة العمل حول التنمية المحليّة"[2]، في قمة مونتريال 2002 على الشكل التالي: إن "التنمية المحليّة هي عملية يشارك فيها المجتمع المحلي، من أجل تشكيل بيئته الخاصة ومن أجل تحسين نوعية حياة سكانه. ويتطلب هذا النهج تكاملاً متناغماً بين جميع المكونات، الاقتصادية والاجتماعيّة والثقافية والسياسية والبيئية" (قمة مونتريال 2002).

وفي هذا السياق أيضاً ومن منظور "عدة العمل المجتمعي"[3]، أن "التنمية المحليّة هي: وجه من أوجه التنظيم المجتمعي الذي يركّز على بناء بنية تحتيّة من العلاقات والمسارات والنظم التي تجعل ممكناً أن يحل المجتمع المحلي مشكلاته الخاصّة بنفسه وأن يتجاوب مع حاجاته، وذلك من خلال التخطيط والتحرّك والمناداة". ويقول عبدالله عبد الدايم[4]: أن "التنمية ينبغي أن تكون مستقلة وذاتية أي نابعة في خاتمة المطاف من داخل المجتمع ومولّده من صلبه ولا يتم ذلك إلا إذا انطلقت من ثقافته، تلك الثقافة التي تمثل في أعماقها عبقرية شعب من الشعوب وبراعته في البحث عن التقدم والسعادة، بأن التنمية هي الثقافة وأن الثقافة هي التنمية. وكل تنمية حقيقية ينبغي أن تكون تنمية ذاتية قاعدتها وأساسها ثقافة الشعب، وغايتها مشروعه الحضاري الخاص ومحورها الإنسان نفسه".

2. تتميز التنمية المحليّة بمجموعة من الخصائص والأهداف التالية [5]

أولاً: تعتبر التنمية المحليّة عملية شاملة؛ إذ إنها تشمل كافة مكونات المجتمع، ولا تلغي وجود أي عنصر من عناصره.

ثانياً: تساهم في تطوير المجتمع؛ إذ إنها تعتمد على مجموعة من الإستراتيجيات والخطط التي تهدف إلى تحسين ألأوضاع المعيشية، والتعليمية في المجتمع.

ثالثاً: تهدف التنمية المحليّة إلى الإستفادة من كافة الموارد؛ إذ إنها تسعى إلى جعل الموارد الأولية وسيلة من الوسائل التي توفر الكفاية الذاتية لأفراد المجتمع، وتحول جزءاً منها ليصبح من أجزاء التجارة المحليّة، والخارجية ليعود بالفائدة على المجتمع كاملاً.

رابعاً: تسعى لتوفير كافة الخدمات الأساسية للأفراد، من وسائل نقل، ومؤسسات تعليمية، وقطاعات عامة، وغيرها.

3. شروط وعناصر التنمية

إن تحقيق التنمية المحليّة رهين

باعتماد وتفعيل العناصر التالية: المشاركة الشعبية واللامركزيّة السياسية والإدارية والمالية.

أولاً: المشاركة الشعبية

اعتبرت المشاركة الشعبية: "هي ركيزة من الركائز الأساسية للتنمية المحليّة، فلم تعد المشاركة مجرد مطلب سياسي أو شعار يستخدم للمناورة، ولكنها أصبحت ضرورة حتمية، ولكن على الرغم من قِدم هذا المفهوم فقد انتشرت في العقود القليلة الماضية؛ ليس فقط في المناقشات الأكاديمية للسياسات ولكن في البرامج السياسية الفعلية للجماعات والأحزاب، فهناك من ينظر إلى المشاركة باعتبارها إستراتيجية تربوية وعلاجية[6].

في هذا السياق يقول ألان تورين: "لا بدّ من اعتراف الدولة بدورها الذي يحتّم عليها أن تكون في خدمة هذا المجتمع وهذه القوى. لا وجود للديمقراطية ما لم تكن الدولة لا في خدمة البلاد والأمة وحسب، بل في خدمة القوى المجتمعية الفاعلة بالذات وفي خدمة إرادتها للحرية والمسؤولية"[7].

ثانياً: اللامركزيّة السياسية والإداريّة والمالية

في هذا المقام يفرق علاء الدين عشي[8] بين مفهوم اللامركزيّة الإداريّة وبين مفهوم اللامركزيّة السياسية، فالفرق بينهما كبير من حيث الطبيعة والمضمون. وأن تطبيق اللامركزيّة المالية يهدف إلى إعطاء المحليات (الجماعات المحليّة) المرونة الكافية في توزيع استثماراتها المخصصة لكل منطقة على الأنشطة والمشروعات الاستثمارية اللازمة لخطة التنمية الاقتصادية والاجتماعيّة، وفقاً لأولوياتها واحتياجاتها الفعلية وبما يتفق مع ظروف وإمكانيات كل منطقة.

بناءً عليه، إن تحقيق عملية التنمية أصبح يتطلب ضرورة وجود علاقة وتعاون فعّال بين السلطتين المحليّة والمركزيّة لإنجازها، كما من الضروري أيضاً معرفة طبيعة ونوع النظام السياسي للدولة.

كخطوة اولى كما أشرنا، لا بد من معرفة طبيعة النظام السياسي للدولة كي يتسنى لنا معرفة نوعية التنظيم الإداري المعتمد (المركزيّة أو اللامركزيّة الإداريّة) الذي يتناسب مع طبيعة هذا النظام ومتطلباته. كما وأن معرفة النظام السياسي أيضاً لأي دولة لايكفي، فلا بدّ من النظر إلى شكل وطبيعة الحكم لهذه الدولة، وطبيعة القواعد الدستورية المطبّقة او المعتمدة فيها. إضافة إلى ضرورة معرفة طبيعة التفاعلات الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسية، ومدى قدرة القوة الاجتماعيّة وتأثيراتها على القوة الرسمية المركزيّة، كما لابد من معرفة قوة العلاقة القائمة بينهما، كي يصار بعدها إلى إحداث تغيرات جذرية وإصلاحات نوعية من شأنها نقل المجتمع من حال إلى حال أفضل اقتصادياً واجتماعياً وصحياً وتنموياً.

وبما أن النظم السياسية ليست متطابقة وليست من طبيعة واحدة.

بسبب اختلاف الأيدلوجيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسية التي تقوم عليها الدولة. لهذا السبب فإن معرفتنا شكل الدولة، موحدة كانت أم مركبة كي تمكننا من معرفة أي من النظم الإداريّة الواجب اتباعها والتي تتطابق مع مصالحها وتوجهاتها.

فالدولة الموحدة بإمكانها أن تأخذ بنظام المركزيّة الإداريّة او نظام اللامركزيّة الإداريّة، طالما في كلتا الحالتين لايمس وحدتها السياسية. فالمركزيّة او اللامركزيّة كلتاهما في نهاية الأمر تجد مصادرها في كل مايتعلق بتنظيم الدولة، انطلاقاً من إعتبارات سياسية تمنع استقلالية التجمعات او الهيئات الاقليمية.

أما على الصعيد الإنمائي فالواقع يختلف، فأي نظرة علمية وموضوعية ينطلق منها أي باحث أو ناشط اجتماعي لمعالجة الواقع التنموي لأي منطقة، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار المكونات والمقومات البشرية والمادية المتمكنة في تلك المنطقة، لإطلاق حركة تنمية محلية مستدامة مستندة إلى تلك المقومات التي ذكرناها للوصول إلى تنمية حقيقية.

بناءً عليه، لطالما اعتُبر النطاق المحلي، ساحة لتنفيذ قرارات السياسة الوطنية المركزيّة: من بنى تحتية إلى وسائل النقل والصحة والصرف الصحي وغيرها من القضايا الخدماتية، وطالما أن تمركز السلطات الاقتصادية والثقافية والتقنية في أيدي الدولة، أصبح من الواجب على الدولة السعي لتحقيق التوازن اللازم بين السلطتين المركزيّة والمحليّة لدعم وإنجاح عملية التنمية.

التجارب السابقة للعديد من الدول والحكومات التي اعتنقت المركزيّة أثبتت فشلها في تحقيق التنمية المحليّة بسبب احتكارها السلطة وانفرادها بإصدار القرارات، مما جعلها غير قادرة على حل المشاكل المتراكمة لديها، ولم يعد باستطاعتها تلبية كافة الخدمات المطلوبة لكافة المناطق بشكل عادل ومتوازن. هذه الأمور جعلت معظم البلدان النامية تعيد النظر بسياساتها وبدأت تتبنّى مفهوم التنمية المحليّة تدريجياً، لإفساح المجال أمام هذا المفهوم أن يسلك طريقه، ويقوم بتحديد الأولويات المحليّة، واختيار المشاريع الواجب تنفيذها من خلال المعلومات والاقتراحات التي يقّدمها أهالي المنطقة المعينة.

4. الوظائف الواجب توفرها لتحقيق التنمية المحليّة[9]

التعاون مع القطاعات الفعّالة في المجتمع المحلي الذي يساهم في دعم مكونات التنمية المحليّة وتزويدها بالوسائل الأولية للمحافظة على استمرارية نمو المجتمع.

استحداث مجموعة من النظم الاجتماعيّة التي تعمل على تحليل طبيعة حياة عينة من الأفراد في المجتمع المحلي، والتعرف على كيفية تفاعلهم مع كافة الظروف المحيطة بهم من أجل تقييم أوضاعهم داخل المجتمع.

التقليل من المركزيّة، فتحرص التنمية المحليّة على تفعيل دور البلديات، ومؤسسات المجتمع المحلي في النهوض بالتنمية المحليّة، والحرص على تطبيق كافة الوظائف المرتبطة بها.

تفعيل دور المشاركة الشعبية؛ إذ إن دور المواطنين داخل المجتمع المحلي لا يعتمد فقط على القيام بالوظائف، والمهن بل على التفاعل الشعبي مع الأمور الخاصة بهم سواءً عن طريق نظام الانتخابات، أو مجلس البرلمان.

القسم الثاني: مفهوم المركزيّة الإداريّة

أعتبرت معظم الدول سابقاً بأن المركزيّة الإداريّة كتنظيم إداري،هو الأسلوب الأفضل كونه يساهم في تكديس وتجميع السلطات في يد الحكومة، ويمنحها القدرة لإمكانية السيطرة على جميع مرافق الدولة بمساعدة جهازها الإداري الممثل في المركز وفروعه. فقد تجلّت المركزيّة الإداريّة بصورة رسمية، واعتقدت الدولة أن من خلال هذا التنظيم الإداري تستطيع التنسيق بين معظم الإدارات المختلفة لديها، وتمتلك قدرة على التحكم وتشغيل الاقتصاد الأمثل للموارد المتاحة وإمكانية إختيار متخصصين متعاونين على مستوى الإدارة العليا وعدم تجزئة القرار، وبإمكانها ممارسة عملية الرقابة المطلوبة كما يجب، وتوحيد المشاريع والتعاميم الصادرة عنها إلى كافة المناطق عبر أعوانها وموظفيها وأجهزتها بدأ بالوزير مروراً بالمحافظ والقائمقام.

1. تعريف المركزيّةالإداريّة

وقد حدد [10] **RIVERO (J)** مفهوم المركزيّة: **La centralisation** على الشكل التالي: تقوم المركزيّة على إعطاء أجهزة حكم، غالباً ما تكون وزارية، مجمل سلطات القرار على كافة أراضي الدولة مع توزيع لبعض مرافقها وخدماتها على كافة أراضي الدولة، تكون هذه المرافق مرتبطة بأجهزة الحكم بتبعية مبنية على قاعدة الهرمية. وبخلاف ما يسمى بالإدارة المركزيّة فالخدمات المنتشرة على كافة أراضي الدولة توصف في العادة بالخدمات الخارجية وهذا النوع من التنظيم الإداري يرمي إلى تزويد كافة أنحاء البلاد بإدارة ذات نسق واحد... وان يجعل كافة أنحاء البلاد تتمتع بالتساوي من كافة المزايا وان تتحمل ايضاً نفس الأعباء.

ويقول القيسي[11] بأن المركزيّة الإداريّة **La Centralisation** هي: نظام إداري أو إسلوب من أساليب تنظيم الإدارة العامة من مقتضاها توحيد أو جمع أو تركيز مختلف مظاهر الوظيفة الإداريّة في الدولة في يد هيئة واحدة تباشرها بنفسها أو بواسطة موظفين يعملون باسمها ويخضعون في نهاية الأمر لرئاسة عليا واحدة.

من هنا فقد اعتبر د. خالد قباني[12] أن للمركزية الإداريّة ثلاثة مكونات أساسية تقوم عليها وهي: (الحصرية. التبعية الإداريّة. السلطة الرئاسية).

ـ **الحصرية** أو تركيز السلطة بيد الإدارة المركزيّة: المركزيّة المطلقة أو الحصرية حيث تتركز وتنحصر جميع الصلاحيات قي أيدي السلطة المركزيّة التي يعود لها أمر البت في جميع النشاطات الإداريّة، دون أويكون لمثليها او للوحدات الإداريّة في العاصمة والأقاليم أية سلطة في الإنفراد بالقرارات بصورة مستقلة عن السلطة المركزيّة.

ـ **التبعية الإداريّة**: أن البناء الإداري القائم على نظام المركزيّة الإداريّة يبدو إذن بشكل هرم ينطلق من القمة حيث تتجمع جميع السلطات والصلاحيات، وينتهي بالقاعدة مروراً بأشخاص وهيئات ينفذون، كل في إطار اختصاصه وضمن نطاقة، الأوامر والتعليمات الصادرة عن القمة أي عن المركز، مع بقائهم مرتبطين بقاعدة التبعية بالسلطة المركزيّة.

ـ **السلطة الرئاسية**: فالمركزيّة الإداريّة تقوم إذاً على تركيز النشاط الإداري بالدولة ووحدة السلطة الإداريّة وحصرها بالحكومة التي تتولاها بواسطة ادارتها المركزيّة، أي بواسطة رئيس الدولة والوزراء وبمعاونة ممثليها في المحافظات والأقضية والملحقات، على أن تبقى صلاحيات التقرير النهائي في كل نشاط اداري محصورة بها، مع خضوع جميع موظفي الدولة لنظام التسلسل الإداري والسلطة الرئاسية.

بإختصار، فإن الصلاحيات والاختصاصات التي يمارسها الوزير، تأخذ أحد الشكلين: التركيز الإداري أو الحصرية وعدم التركيز الإداري أو اللاحصرية ويتم هذا النظام في العمل عن طريق التفويض إما تفويض الاختصاص أو تفويض التوقيع.

استناداً لما ذُكر، فالمركزيّة مع التركيز الإداري Concentration في نهاية المطاف وكصورة أولية، يمكننا القول بأن هذا الإسلوب هو أسلوب غير ديمقراطي وديكتاتوري، لا بل هو أسلوب بيروقراطي يدعم التبعية للمركز وقد أطلق عليه مايسمى بالحصرية الإداريّة وذلك لحصر معظم القرارات بالمركزيّة فقط دون سواها.

أما الشكل الثاني وهو عدم التركيز الإداري Déconcentration ويعد أسلوباً من أساليب التنظيم الإداري أيضاً، فهو يقضي بتوزيع السلطات الإداريّة بين الحكومة المركزيّة وممثليها على الصعيد المحلي بحيث تمنح لهؤلاء بعض الصلاحيات والاختصاصات والسلطات الإداريّة مع بقائهم تابعين للحكومة المركزيّة والمعينين من قبلها دون أن يترتب على ذلك استقلالهم عنها، ويبقون خاضعين لرقابة واشراف السلطات المركزيّة. إن هذا الإجراء هو فقط لتخفيف الأعباء على نظام التركيز الإداري. ويتم هذا النظام في العمل عن طريق التفويض الذي يأخذ بدوره شكلين: تفويض الاختصاص وتفويض التوقيع.

ويقصد بتفويض الاختصاص بأن يعهد لصاحب الاختصاص بممارسة جانب من اختصاصه سواء في مسألة

معينة أو في نوع معين من المسائل إلى فرد آخر أو سلطة أخرى طبقاً لما تقتضيه الأوضاع القانونية.

أما في حالة تفويض التوقيع فيقتصر دوره على مجرد توقيع المفوض إليه أو إمضائه على بعض القرارات الداخلة في نطاق اختصاص السلطات الأصلية ولحسابها وتحت مراقبتها، فهو مجرد عمل مادي، حيث يوقع المفوض إليه على وثيقة سبق أن أعدتها السلطة الأصلية المختصّة. أي في كلا الحالتين تبقى الرقابة من قبل السلطة المركزيّة لها الدور الفاعل والأساسي في تسيير الأمور.

يقول Louis-Jérôme CHAPUISAT [13] فيما يتعلق بالتركيز الإداري وعدم التركيز الإداري ما يلي: "إن نظام توزيع المهام الإداريّة الذي تعتمده الدولة عبر أجهزتها الإداريّة يشكل هيكلاً واحداً وهرمياً. في حين أن المركزيّة واللامركزيّة يرتكزان بمدى العلاقات التي تكون قائمة بين الأجهزة المركزيّة والأجهزة المحليّة، فإن تركيز السلطات وعدم تركيزها لا يتعلقان إلا بمدى العلاقات التي تنشأ بين مختلف مستويات الأجهزة المركزيّة".

تتجلى بوضوح أهمية المركزيّة كنظام إداري فعّال. حيث كانت كل التعليمات والأوامر والقرارات تصدر من المركز أو الحكومة المركزيّة بالعاصمة دون سواها، مما جعلها قادرة على بسط نفوذها وسيطرتها على جميع المناطق الأخرى بمساعدة أعوانها الذين هم من طرفها والمعينون من قبلها، حيث يبقون تحت تصرفها ومراقبتها الدائمة.

كما لهذا النظام الإداري حسنات، فلديه أيضاً سيئات منها على سبيل المثال: أنه لا يشجع على الابتكار وروح المبادرة ويتصف بالجمود والافتقار للمرونة والبطء في إنجاز المعاملات، ويستبعد مشاركة المواطنين في التخطيط وفي تحمل المسؤولية في الشأن العام، ناهيك عن أنه يؤدي إلى الهدر في الوقت والمال، إضافة لإنشغال القياديين في السلطة المركزيّة بأمور ثانوية وعدم اتخاذهم قرارات ملائمة لطبيعة وظروف الأقاليم والمحافظات والاعتماد على موظفيهم بوضع الدراسات والبرامج والمشاريع، وقد وصف هذا الأسلوب من التنظيم الإداري بأنه غير ديمقراطي ويعطي للدولة شكل الديكتاتورية.

2. إنعكاسات المركزيّة على التنمية في لبنان

لقد عرفّت المادة الأولى من قانون البلديات في المرسوم الاشتراعي المعدل رقم 118 الصادر بتايخ 30/ 6/ 1977، بأن البلدية هي إدارة محلية، تقوم ضمن نطاقها الجغرافي، بممارسة الصلاحيات التي منحها اياها القانون وسميت بالهيئات اللامركزيّة. انطلاقاً من هذا المبدأ فقد اعتبر القانون أن المجلس البلدي هو صاحب السلطة التقريرية المعبّرة عن أماني ورغبات المواطنين، لذلك فقد خصه

القانون بصلاحيات واسعة حيث نصت المادة 48 منه ان للأنظمة التي يصدرها المجلس البلدي في المسائل الداخلية ضمن نطاقه الجغرافي صفة الإلزام.

أما المادة 49، فقد عددت المهام التي يتولاها المجلس البلدي على سبيل المثال لا الحصر، فالمهام الموكلة اليها لها علاقة بالمنفعة العامة، ولا يمكن بالتالي حصرها في نص قانوني. كشق وتعبيد الطرقات والنظافة والتنظيم المدني والتجميل وغيرها.

لقد منح القانون المجلس البلدي الشخصية المعنوية والاستقلال المالي والإداري، إضافة إلى صلاحيات واسعة وحمّله أيضاً مسؤوليات عديدة وشاملة، غير أنه وفي الوقت نفسه اخضع معظم القرارات التي يتخذها المجلس للرقابة الإداريّة والمالية المسبقة والتي تمارس عليه من قبل القائمقام والمحافظ ووزير الداخلية ووزارة العدل ومن خلال هيئات الرقابة التالية:

مجلس الخدمة المدنية وديوان المحاسبة وهيئة التفتيش المركزي. أما وزارة الأشغال العامة والنقل فتتعاون مع البلديات لوضع التصاميم التابعة لها والمخطط التوجيهي العام وتساهم من خلال مديرية التنظيم المدني بدراسة رخص البناء للعديد من البلديات.

بالرغم من ذلك كله بقيت السلطة المركزيّة هي صاحبة الأمر والمرجعية الوحيدة للبث بكل القرارات والقضايا الاقتصاديّة والاجتماعيّة حتى الإنمائية وتسيير وتنظيم عمل البلديات وتفعيل دور المراقبة المسبقة عليها، حتى أصبحت البلدية لا تتعدى كونها مجرد مكتب خدماتي ضمن النطاق الجغرافي التابع لها أو كدائرة رسمية من دوائر الدولة وأصبح عملها يقتصر على جمع النفايات والاهتمام بالنظافة، وتنظيم امور السير والإنارة، وإصلاح للبنى التحتية، إلى ما هنالك من خدمات يومية وهي تدار فعلياً من قبل وزارة الداخلية عبر ممثليها القائمقام والمحافظ.

أمام هذه الحقيقة فإن السلطات المحليّة أو الهيئات اللامركزيّة أصبحت عاجزة عن لعب الدور المطلوب منها على الصعيد الإنمائي بعد أن أصبح الأمر بيد السلطة المركزيّة.

خلاصة الأمر، فإننا نستطيع الجزم بأن النظام اللبناني قائم على الازدواجية والخلط بين المركزيّة واللامركزيّة الإداريّة، وهذا الخلط أفسح المجال لتدخل السلطة المركزيّة بكل القرارات مهما كان نوعها، وإلغاء دور الإدارات المحليّة (البلديات واتحاد البلديات) كلاعب أساسي في عملية التنمية المحليّة، فالمركزيّة حين تستبعد دور السلطات المحليّة تكون قد شكلت عائقاً كبيراً أمام تحقيق عملية التنمية، إضافة إلى ذلك كله هناك أسباب أخرى لا يمكن تجاهلها من شأنها أن تساهم ايضاً في توقف عملية التنمية المحليّة منها: قانون البلديات

المعمول به حالياً، الاصطفافات السياسية والعائلية ضمن المجلس البلدي وغياب الكفاءة والعلم عند أعضاء المجلس البلدي للقيام بإعداد الخطط والدراسات.

في هذا السياق قال شريف محمود وجمال محمد في التجربة اللبنانية[14]، "بإن عدم قيام المجالس البلدية بدورها التنموي المحلي، يعود لسببين: الأول وهو عدم الانسجام بين أعضاء المجلس البلدي والثاني يكمن في عملية اختيار الأعضاء، إذ أن الانتخاب يتم بناء على تبعية عائلية أو حزبية مذهبية ضيقة، ما يؤدي إلى اختيار مجالس بلدية لا تفقه شيئاً في العمل البلدي، أو القانوني أو التنموي. لذلك فإن العلاقة ما بين اجهزة الدولة المركزيّة والبلدية فيها كثير من الشوائب منها على سبيل المثال لا الحصر، إن تشعب سلطات الرقابة على البلديات وكثرتها قد قيدا عمل البلديات، لان الصلاحيات الواسعة المعطاة للبلديات تبدو عديمة الجدوى ومسلوبة من الجانب الآخر بكثرة القيود الصارمة والرقابة اللصيقة على عمل البلديات من قبل اجهزة الدولة المركزيّة".

القسم الثالث: اللامركزيّة الإداريّة

مما لا شك فيه ان معظم دول العالم سابقاً، شهدت الكثير من التحولات التي طالت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعيّة والثقافية والعلمية وحتى السياسية، حتّمت عليها مناقشة مسألة اللامركزيّة بما يتفق مع هذه التحولات والتغييرات التي حدثت، التي ساهمت إلى حد كبير بافول نماذج المركزيّة الإداريّة لعدم صلاحياتها وتراجع قدرتها على الإحاطة بمعظم المشاكل وحلها ولعدم تلبية مطالب وحاجات الناس بشكل عام وللمناطق النائية والبعيدة بشكل خاص، أضف إلى ذلك عدم امكانية الدولة القيام بمفردها بالأدوار والوظائف المطلوب القيام بها على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والتنموي والتربوي وغيرها.

1. تعريفات اللامركزيّة الإداريّة

عرفها عالم الادارة (وايت)[15]. بأنها: "عملية نقل السلطة بأنواعها التنفيذية والاقتصادية والتشريعية من مستوى اداري اعلى إلى مستوى اداري ادنى".

أما تعريف البنك الدولي[16]: (1998:4) "فاللامركزيّة تعني إسناد مهام جمع الضرائب ومهام الإدارة السياسية إلى مستويات حكومية أقل وهو مفهوم يتم استخدامه في مختلف أنحاء العالم على مستويات مختلفة ولأسباب مختلفة وبوسائل مختلفة". في هذا التعريف اعتبر البنك الدولي أن "اللامركزيّة هي ظاهرة سياسية وإدارية وأيضا اقتصادية".

أما المقياس الحقيقي للامركزية الإداريّة كما يراه بردو **Burdeau** "هو في قدرة الجماعات المحليّة على اصدار قواعد قانونية تنظّم نشاطاتها العامة، وفي تحررها واستقلالها عن السلطة المركزيّة في تنظيم هذه النشاطات"[17].

إن إعادة توزيع الأدوار بين الحكومة المركزيّة والسلطات المحليّة سيؤدي إلى

تحقيق اهداف الا وهي تكامل لمصلحة الناس، كما وانه يرسخ مبدأ الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وهذا المبدأ ايضاً سيكون حاملاً مفتاح النجاح للإدارة على مستوى الوطن كما وان اللامركزيّة الإداريّة بإمكانها تحقيق هدفين.

2. أهداف اللامركزيّة الإداريّة

الأول: امكانية تحقيق مفاهيم الحرية والمشاركة الحقيقية والفعالة للمواطنين من خلال تفعيل آلية القرار.

الثاني: امكانية تحقيق التنمية على كافة مستوياتها، السياسية والاقتصادية والإداريّة والاجتماعيّة، والتخفيف من حدة الهجرة من القرى إلى المدن، والتخفيف من حدة التفاوت فيما بينهما.

فاللامركزيّة الإداريّة بإمكانها ان تكون الوسيلة والغاية لتحقيق التنمية المحليّة، غير ان الهيئات اللامركزيّة الإداريّة من بلديات واتحاد بلديات تبقى وحدها عاجزة عن تحقيق هذا الأمر، نظراً لوضعها المالي المتردي، لأن العملية تتطلب تكاليف مالية باهظة لإنشاء بنية تحتية وفوقية متطورة في مختلف المناطق بما فيها المناطق النائية والبعيدة (الأطراف)، وربط هذه المناطق بشبكة طرقات حديثة، وتنمية المناطق اقتصادياً عن طريق تطوير القطاع الزراعي واستخدام الوسائل الحديثة فيها. وايجاد مناطق صناعية واسواق تجارية وهذا يتطلب جهد من السلطة المركزيّة عبر تفعيل الخطط والدراسات لأن من غير المقبول تخلي السلطة المركزيّة عن دورها.

3. ابعاد اللامركزيّة(18)

يقول د. خالد قباني ان اللامركزيّة لها ثلاثة ابعاد هي:

ـ البعد الأول: هو البعد التنظيمي الإداري.

ـ البعد الثاني: هو البعد السياسي الديمقراطي، كونه بعد اساسي من موضوع اللامركزيّة.

ـ البعد الثالث هو البعد الاقتصادي الإنمائي، لأن للامركزيّة ايضاً بعد اقتصادياً إنمائياً لا يجوز ان نغفله على الإطلاق.

إستناداً لذلك فإن مفهوم اللامركزيّة يشير إلى العملية العامة التي تنقل بموجبها السلطة السياسية والعمليات التنفيذية إلى هيئات حكومية على المستوى المحلي، ولقد قسم المنظرون اللامركزيّة حسب درجتها وعمقها إلى أنماط أربعة تبعًا لمستوى نقل السلطة ولنوع "الوحدة" التي يجري تشاطر السلطة معها، أنماط اللامركزيّة هي:(19)

ـ **التنازل:** ويعني نقل السلطة إلى حكومات محلية مستقلة ذاتيا أو شبه مستقلة ذاتياً.

ـ **التفويض:** وهو نقل مسؤوليات الخدمات والإدارة إلى أجهزة الحكم والمؤسسات المحليّة.

ـ **إبطال المركزيّة (أو عدم التركُز):** ويعني توكيل تنفيذ البرامج الوطنية لفروع أدنى من الحكومة.

ـ **التجريد**: وهو نقل الخدمات والمؤسسات العامة (الحكومية) إلى شركات ومؤسسات خاصة ولكل نمط من هذه الأنماط مقومات سياسية ومالية وإدارية، فكلما كان حجم ونوع الصلاحيات الإداريّة للوحدات الإداريّة الممنوحة المحليّة والإقليمية في كل جانب من جوانب الإدارة العامة ذات العلاقة بعملية تطبيق اللامركزيّة كبيراً وهاماً، كلما كانت اللامركزيّة قوية.

4. أنواع اللامركزيّة

ـ **اللامركزيّة الجغرافية**: يتمثل هذا النوع بتشتت السلطة وتوزيعها بين مختلف الأقاليم والمحافظات التابعة لقطر جغرافيّ واحد، شريطة أن تتمتع بشخصية معنوية تُنتخب من قبل المجتمع المحليّ، وتُمنح هذه الشخصية صلاحيات مطلقة في اتخاذ القرارات الإداريّة ذات العلاقة بإدارة المشاريع والمرافق العامّة، بالإضافة إلى وضع ميزانية مستقلّة للمنطقة، ومن الممكن تسميتها أيضاً بالإدارة المحليّة أيضاً.

ـ **اللامركزيّة الوظيفيّة**: تتمثل بإناطة السلطات والصلاحيات وتوزيعها على المستويات الهرمية داخل جسد المنشأة أو الوزارة الواحدة، وتظهر الحاجة إلى مثل هذا النوع كلّما توسّعت رقعة مهام وواجبات الإدارة العليا، وضاق وقتها عن إدارة أمور المنشأة أو الوزارة.

ـ **اللامركزيّة السياسيّة**: يعتبر هذا النوع بمثابة مُمارسة قانونيّة تستوجب ضرورة توزيع الوظائف الحكوميّة بمختلف أطيافها التشريعيّة، والتنفيذيّة، والقضائيّة بين كافّة مستويات الحكومة التي تسيطر على بلد ما، ويعتبر الاتحاد الفدرالي نتاج اتباع هذا النوع، يشيع استخدامه في البرازيل والاتحاد السوفيتي والهند وسويسرا وغيرها.

5. أركان اللامركزيّة الإداريّة

ـ ضرورة وجود شخصيّة معنويّة أو اعتباريّة، وتأمين الأهليّة القانونيّة لها، والاستقلال الماليّ والإداريّ.

ـ وجود مجالس منتخبة من قبل الشعب.

ـ اللامركزيّة لها وجهان أحدهما سياسي والآخر إداري

6. مزايا اللامركزيّة الإداريّة

ـ منح العمل الإداريّ صفة الديمقراطية المطلقة.

ـ التركيز على القضايا المصيرية وعدم التلهي بالقضايا الثانوية.

ـ السرعة في اتخاذ القرارات والعمل على حل المشاكل بالطرق العلمية والعملية

ـ السرعة في انجاز العمل والتخلص من الروتين الإداري البيروقراطي.

ـ تحقيق التوازن والعمل على التنسيق بين السلطات والمسؤوليّات.

7. عيوب اللامركزيّة الإداريّة

ـ تفشّي الضعف في السلطة المركزيّة، وبالتالي غياب التنسيق بين مختلف المراكز والأقاليم في البلد الواحد.

ـ محاولة التعدي عى الخطط العامة من قبل السلطات المحليّة، مما سيؤدّي إلى إلحاق الضعف في تطبيق السياسات العامّة للدولة.

ـ تحميل الدولة أعباء مالية كبيرة، نظراً لتكرار الوحدات القانونيّة والإداريّة على كافّة الأصعدة المحليّة.

ـ ضرورة وجود رقابة مشدّدة على كافّة أنشطة الوحدات المحليّة.

8. اللامركزيّة الإداريّة في وثيقة الطائف

شكّل مطلب تحقيق اللامركزيّة الإداريّة مطلباً ثابتاً طوال تسعينيات القرن الماضي، بعد ان أعلنت مراراً وتكراراً معظم القوة السياسية عن رغبتها بذلك وبضرورة تطبيق الاصلاح الاداري في لبنان من خلال تحقيق اللامركزيّة الإداريّة وإعطاء السلطات المحليّة مزيداً من الصلاحيات والمسؤوليات لإدارة شؤونها الخاصة، وكي تتمكّن ايضاً من لعب دور أساسي في عملية النهوض بالتنمية.

اليوم وبعد انقضاء أكثر من عقدين على إقرار "وثيقة الوفاق الوطني" المعروفة باتفاق الطائف، ما زال مشروع اللامركزيّة الإداريّة حبراً على ورق بالرغم من وعود الحكومات المتعاقبة في هذا المجال. وكل ما تمّ التقدّم به بهذا الخصوص مجرد اقتراحات وطروحات ومشاريع قوانين.

اللامركزيّة الإداريّة كما وردت في وثيقة الوفاق الوطني (الطائف).

1. الدولة اللبنانية دولة واحدة موحدة ذات سلطة مركزية قوية.

2. توسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل جميع إدارات الدولة في المناطق الإداريّة على أعلى مستوى ممكن تسهيلاً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً.

3. إعادة النظر في التقسيم الإداري بما يؤمن الانصهار الوطني وضمن الحفاظ على العيش المشترك ووحدة الأرض والشعب والمؤسسات.

4. اعتماد اللامركزيّة الإداريّة الموسعة على مستوى الوحدات الإداريّة الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرئسه القائمقام، تأميناً للمشاركة المحليّة.

5. اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصادياً واجتماعياً وتعزيز موارد البلديات والبلديات الموحدة والاتحادات البلدية بالإمكانات المالية اللازمة.

أولى الملاحظات التي يمكن تسجيلها على الوثيقة، من خلال ما ورد في هذه البنود، أمر أساسي ألا وهو ان اللامركزيّة الإداريّة الجديدة يجب ان لا تُنقص من سلطة الدولة وتبين ذلك من خلال توسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل ادارات الدولة في المناطق الإداريّة على اعلى مستوى ممكن، تسهيلاً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً، وهذا التعزيز لممثلي السلطة المركزيّة هو ما يخالف نظام اللامركزيّة الذي يفسح المجال للمشاركة السياسية للمواطنين عبر الانتخاب. وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقاُ بأن النظام اللبناني هو نظام مختلط

يجمع ما بين المركزيّة واللامركزيّة الإداريّة في نفس الوقت.

9. اللامركزيّة الإداريّة الموسّعة

ما فتِئت هذه العبارة الملغزّة، منذ ورودها في "وثيقة الوفاق الوطني" عام 1989 تتردد على ألسنة السياسيين وأصحاب الرأي اللبنانيين. وإذا كان هناك ما يشبه التوافق على مدلول "اللامركزيّة الإداريّة" فإنها نعتها "بالموسّعة" يبقى غامضاً ومفتوحاً على كل التأويلات والتحليلات والهواجس والرهانات، حيث أن مفهوم اللامركزيّة الإداريّة الموسعة في الحقيقة لا تنطلق ولا تستند إلى أي مفهوم علمي أو قانوني او إداري، إلا ضمن أطر الثقافة السياسية اللبنانية وعباراتها ومفرداتها الملغومة الغير واضحة.

إن وثيقة الوفاق الوطني التي أقرت في مدينة الطائف بتاريخ 22/ 10/ 1989 فقد أَوصت القيام بعدة إصلاحات لاعتماد اللامركزيّة الإداريّة الموسّعة، وتناولت ما تناولت، على مستوى التنظيم الإداري، في وجهيْه المركزي واللامركزي وهي:[20]

- توسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل جميع إدارات الدولة في المناطق الإداريّة على أعلى مستوى ممكن تسهيلاً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً، والمقصود بذلك تأمين حضور للدولة وأجهزتها في كافة المناطق بما يشير إلى تطبيق اللاحصرية الإداريّة Déconcentration.

- إعادة النظر في التقسيم الإداري بما يؤمن الإنصهار الوطني وضمان الحفاظ على العيش المشترك ووحدة الأرض والشعب والمؤسسات.

- اعتماد اللامركزيّة الإداريّة الموسعة على مستوى الوحدات الإداريّة الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرئسه القائمقام، تأميناً للمشاركة المحليّة. ويرمي ذلك إلى تأمين المشاركة الفعّالة للمواطنين وتمكين الجماعات المحليّة من إدارة شؤونها الخاصة عن طريق المجالس المنتخبة بغية تحقيق الديمقراطية الحقيقية.

- اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية بشكل كامل وتنميتها من الناحية الاقتصادية والاجتماعيّة، بالإضافة إلى تعزيز موارد البلديات لتسطيع القيام بدورها الخدماتي والإنمائي.

الخاتمـــة

مما لا شك فيه بأن الفرق بين المركزيّة واللامركزيّة الإداريّة، يعتبر أحد المواضيع الساخنة في هذه الأيام. فبعض الأفراد يعتقدون أن المركزيّة أفضل بينما يؤيد البعض الآخر اللامركزيّة، وهناك البعض يتنبى الاثنين معاً المركزيّة واللامركزيّة كما هو حاصل في لبنان.

الواقع العملي يقول: إنه ليس هناك مركزية مطلقة أو لا مركزية مطلقة ولكن هناك مواءمة بين ما تحققه المركزيّة من الرقابة الفعّالة على سلامة العمل، وما تحققه اللامركزيّة من سهولة وتدفق

وانطلاق في العمل. إن كل ما تمّ ذكره يبقى محصوراً ضمن النطاق النظري. كما هو حال بنود وثيقة الوفاق الوطني حيث بقيت ضمن الإطار النظري، فمن الناحية التطبيقية وبعد مرور عقدين من الزمن على اقرار الوثيقة، فعملية الإصلاح الاداري لم تسلك طريقها للتنفيذ وبقي كل شيء على حاله وكان البديل عن ذلك اقتراح العديد من المشاريع التي لا تزال تُناقش في مجلس النواب حتى الآن وتمحورت معظمها حول اللامركزيّة الإداريّة وهي ثلاث المشروع الأول: منها هو اقتراح قانون يرمي إلى تعديل قانون التنظيم الاداري، الثاني: اقتراح قانون التنظيم الإداري واللامركزيّة الإداريّة، الثالث: هو مشروع اللامركزيّة الإداريّة والتنظيم الإداري والمختارين واعادة تنظيم وزارة الداخلية.

خلاصة القول، إن المركزيّة لم تنجح في تحقيق ما نصبو اليه من تغيير في الإصلاح وتحقيق التنمية المحليّة، فعلى الأرجح مشروع اللامركزيّة سيكون مصيره كمصير مشروع اللامركزيّة الإداريّة للاعتقاد بأن مشروع "اللامركزيّة الإداريّة الموسعة" لن يحقّق النجاح المرجوّ ما لم تنشأ في لبنان طبقة سياسية وتشريعية قادرة على استيعاب أهداف الإصلاح المذكور بكامل أبعاده وإشكالياته، وتبدأ الإدارات المحليّة اللامركزيّة القائمة باعتماد المكننة، فاتحةً المجال أمام الرقابة الشعبية والحوكمة الرشيدة. وإلا فأي جدوى من إنشاء مستويات لامركزية إضافية لن تكون أفضل حالاً من المستويات القائمة.

علي الخطيب

الهوامـش

1. Bernard Husson CIEDEL. «Le développement local est ... démocratique » (le développement local au défi N°1: Quelques définitions du développement local: Le ...www.adds.dj/.../TP-N°-1-Perception-définition-développement-local.
2. le développement local au définition: Quelques définitions du développement local sommet de Montréal (2002): (...www.adds.dj/.../TP-N°-1-Perceptio(1)-définition-développement-local - Rivero (J), Droit administrative, Dalloz, Paris, 1990.
3.

4. القيسي محي الدين، القانون الإداري العام، منشورات الحلبي، 2007، ص 23.
5. تنمية المجتمع المحلي. القسم 2. 2016، "ندوة العمل المجتمعي" ورشة الموارد العربية بالعاون مع الجامعة الأميركية في بيروت ـ city of Calgary community Assessment Handbook Locality Development model .
6. عبدالله عبد الدايم، المعوقات الاجتماعيّة والثقافية والنفسية للتنمية في العالم العربي، ندوة القاهرة حول "افاق استمرارية التنمية في التسعينات ودوربرنامج الأمم المتحدة في العالم العربي، 6/ نوفمبر 1989، ص4. 18http://www.abdeldaim.c/moreinfo.php?b=5&sub-id=06 /
7. مجد حضر، مفهوم التنمية المحليّة، آحر تحديث 5 أبريل 2016، http://mawdoo3.com/
8. حفظي إحسان، علم إجتماع التنمية. مصر، دار المعرفة الجامعية، 2004، ص 416ـ 418.
9. ألان تورين، ماهي الديموقراطية؟ حكم الأكثرة أم ضمانات الأقلية، ترجمة حسن قبيسي، دار الساقي بيرو، لبنان، 2001، ص 58.
10. عشي علاءالدين، مدخل القانون الإداري، التنظيم الإداري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الأول، 2009، ص 56 – 57.
11. المقومات الأساسية للتنمية المحليّة وأهم معوقاتها.http://attzah samedi 31 janvier 2015 blogspot.com/2015/01/blog-post-76
12. https://www.arabency.com/_/details.law.php?full=1&nid=163-132.
13. قباني خالد، المركزيّة واللامركزيّة والمشاركة الشعبية، سلسلة الشأن العام في قضايا الناس حاجات وابحاث تخطيط واستشراف، وقائع المؤتمر التاسع المنعقد في دار سيدة الجبل فتقا كسروان، تاريخ 15/ 3/ 1996. منشورات جامعة اللويزة 1996، ص 104 و 105.
14. «CONCENTRATION & DÉCONCENTRATION DES POUVOIRS», http://www. universalis.fr/encyclopedie/concentration-et deconcentration-des-pouvoirs).
15. (12) شريف رجاء محمود وجمّال ناجي محمد، التنمية المناطقية في ظل السياسات المالية (1990ـ2010)، لبنان نموذجاً، دار المنهل اللبناني 2015 الطبعة الأولى، ص 13 وص 164.
16. مصطفى النمر اللامركزيّة في الحكم: المفاهيم والأنماط: المعهد المصري للدراسات 16 أكتوبر، 2017.
17. Burdeau georges ,Traité de Science politique ,Tome11,1972 ,p.369.
18. قباني خالد، منتدى الفكر التقدمي، مؤتمر اللامركزيّة الإداريّة إشكاليات ومفاهيم، فندق السفير، بيروت 30 حزيران 2010، ص 48 .
19. سليمان ولد حامدون اللامركزيّة الإداريّة ومساهمتها في التنمية المحليّة.
20. http://www.siironline.org/alabwab/derasat(01)/598.htm
21. ميرنا يونس، اللامركزيّة الإداريّة وآلية تطبيقها في لبنان، الحياة النيابية، مشروع دعم قدرات البلديات اللبنانية المحليّة "مواكبة تحديات العمل البلدي: القوانين والادارة المالية والتنمية المحليّة" بيروت 2011، ص 112.

different places, all thanks to this skill. Knowing that bilingualism has been associated with a greater awareness of and sensitivity to linguistic structure, children who have the opportunity to use two languages should be encouraged to maintain both.

Prepared by Elie HANNA NAKHLE

References

- Ben-Zeev, S. The influence of bilingualism on cognitive strategy and cognitive development, Child Development; 1977; 48, 10091018-.
- Bialystok, E., Craik, F.I.M., Klein, R. &Viswanathan, M. Bilingualism, aging, and cognitive control: evidence from the simon task. Psychology and Aging; 2004;19, 290303-
- Bialystok, E., Craik, F.I.M., &Luk, G, Cognitive control and lexical access in younger and older bilinguals, Journal of Experimental Psychology: Learning, Memory, and Cognition; 2008; 34, 859- 873
Carlson, S.M. & Moses, L.L. Individual differences in inhibitory control and children's theory of mind, Child Development; 2001; 72, 1032- 1053
- De Kieviet JF, et al, Brain development of very preterm and very low-birth weight children in childhood and adolescence: A meta-analysis. Dev Med Child Neurol; 2012; 54: 313323-.
- Golomb, C. & Cornelius, C.B. Symbolic play and its cognitive significance, Development Psychology; 1977; 13, 246- 252.
- Macnamara JT. Bilingualism and primary education: a study of Irish experience, Edinburgh, Scotland: Edinburgh University Press; 1966.
- Piaget, J. Play, Dream, and Imitation in Childhood. London: Routledge & Kegan Paul; 1962.

personal experiences that may play a key role in the diagnosis of many mental health conditions early on. Nevertheless, some educators still advise against the use of two languages, claiming that bilingualism causes cognitive and social damage to children. This claim is based on pure assumptions, whereas the theoretical approach maintains that bilingualism has positive effects on cognition. The negative consequences of bilingualism on mental development can be traced back to social concerns at the turn of this century when many migrants happened to be bilingual. The debate back then was more concerned in social issues rather than in the mental development of a child. Educators and social scientists were worried that the immigrants might not be able to adapt well into mainstream society, claiming that the immigrants were scoring very low on IQ tests and that their children were doing poorly in school. They weren't willing to admit that the tests administered in a foreign language were not a good measure of intelligence for people who do not speak that language. This approach was the reason behind the myth that states that bilingualism can cause cognitive retardation.

In conclusion, it is crucial to understand that bilingualism has positive effects on the brain and bilingual children will always have an advantage when it comes to interpersonal and social skills. Bilingualism does not cause cognitive confusion. On the contrary, it can lead to higher levels of cognitive ability. There are many benefits when children learn and maintain two languages. Being exposed to more than one language will always remain an advantage to an individual. Both parents and educators can support bilingual children and encourage them to develop a second language by providing the foundation for reading and writing. Consequently, bilingual children have very active and flexible brains compared to their peers. They can also understand math concepts faster, develop strong thinking skills, use logic focus, make decisions, learn more languages, and remember all sort of things easier than their peers. As for the social development, bilingual children tend to maintain strong ties with their families and communities. This helps them make new friends and create strong relationships, easily; this skill is crucial in the modern society. Recent research has even found that babies who were raised in bilingual environments show better self-control which is a major key indicator of school success. Moreover, bilingual children benefit academically from knowing more than one language simply because they are able to switch between two languages in no time. This skill helps them develop more flexible approaches to thinking through problems. As a matter of fact, the ability to read and think in two different languages promotes higher levels of abstract thought, which is something essential in school readiness and the learning process. People who use more than one language are usually better at blocking out irrelevant information. Nowadays, many adults around the world are bilingual and have many advantages including better job opportunities. They can also participate in the global community, learn more about people from other cultures, and get information from

approach to solving problems was flexible as they change or even create rules in a way that makes their performance superior on all cognitive tasks. This same flexible approach would aid them in other non-cognitive tasks as well. In a nutshell, rather than expressing their thoughts according to a single rule system, bilinguals not only acquire two rule systems, but also have cognitive flexibility that allows them to switch between these two systems depending on the situation. The bilingual must select the appropriate language based on their current environment.

Consequently, "parallel activation theory proposes that the constant mental exercise of attending to and inhibiting one of two simultaneously active rule systems has a direct effect on bilinguals' performance on tasks of executive function. Evidence of neurological structures responding to this constant exercise has been found in a population of aging adults and bilinguals diagnosed with Alzheimer's disease. While elderly monolinguals showed evidence of cognitive decline on a series of executive function tasks, bilinguals of the same age performed comparably to individuals more than 30 years younger, demonstrating no signs of age-related cognitive deficits". (Bialystok, Craik, Klein &Viswanathan, 2004).

Similarly, despite the presence of the same disease, bilinguals "displayed a profound delay in displaying symptoms of dementia which is characterized by a gradual decline in executive functions and general cognitive skills including language, abstract thinking, and social skills". (Bialystok, Craik, &Luk, 2008)

Bilinguals are not necessarily equally proficient in their languages, which might affect the performance of these children in school. For instance, children with limited proficiency in the language of schooling will certainly experience increased difficulty in coping academically and socially. It is crucial to identify these problems early on in order to intervene and use the right approach these children need. Despite the problems they might face, research has shown that bilingualism does not have negative impact on development. Bilingual children who acquire a second language early on can show some developmental gaps compared to their monolingual peers. However, these gaps are minor and limited. Moreover, as mentioned before, bilingual children have some advantages in socio-cognitive development when compared to their monolingual peers, especially in understanding the beliefs of others, picking out the important factors to solve a problem, and entertaining at once two possible interpretations of the same stimulus. The context in which a language is learned can have an impact on the ability of bilinguals to express themselves and their accuracy in expression. In a nutshell, there can be many advantages to bilingualism and no major disadvantages. There is no evidence for bilingualism having a negative impact on children's intellectual and socio-emotional development. Thus, parents are encouraged to speak their native language at home and allow their children to learn the other language at school. In fact, language can function as a sign for retrieving

to consider a stimulus from multiple perspectives while controlling their attention to one interpretation and inhibiting another at the same time. They have shown superior abilities in selective attention compared to monolinguals. A development of attentional control has been used to selectively respond to target cues in conflicting situations and it turned out that bilinguals have a more advanced development in this area as well. These tasks presented children with difficult situations and tested their mind and reversibility. One of these tasks, for instance, required that the child recognize and switch between various rule systems, which would be quite common for bilinguals since they have an advantage in inhibitory control. Researchers have found that seven-month old infants who were spoken to in two different languages since birth outperformed again their monolingual peers on this type of tasks. Bilinguals excel in these situations because they are familiar to them, knowing that they live in an environment of two languages, each with their own rule systems.

The advantages in executive functioning, mentioned earlier, have been shown to extend into adulthood and have been related to the reason why bilingual Alzheimer's disease patients do not experience the symptoms of dementia for several years after the monolingual patients do.

Furthermore, bilingual children have also been found to have a superior ability to understand the mental states of others, known as the possession of a theory of mind. It has been found to be a significant indicator of social cognition. Bilinguals have displayed superior performance to monolinguals of their respective age groups. Results indicated that bilinguals did not have an advantage in verbal ability, but rather the number of languages the preschooler spoke was the significant predictor of performance. Thus, bilingualism enhances metalinguistic awareness, which facilitated the abstract thinking required for false-belief tasks. Bilinguals can analyze syntax thanks to early exposure to multiple language structures. They can also reorganize reflected mastery of syntax, suggesting that exposure to more than one language accelerated their understanding of the hierarchy of syntax that underlies all spoken languages. Finally, these tasks simply required the individual to inhibit the typical referent of a word and attend to its new meaning that would be assigned.

Other studies have assessed the memory and the spatial ability in both bilinguals and monolinguals and it has been found that bilingual children experienced more advanced development without being necessarily smarter than their peers. A closed look at how the two groups solved spatial ability tasks showed that bilinguals had a different problem-solving strategy which was to scan the field of possible responses before answering. Bilinguals were ready to reorganize and were also able to pay attention to structure in order to assess the possibility and nature of differences in responses. It is possible that differences in the way in which bilinguals approach problem-solving was influenced by their unique cognitive development. Their

declined which allowed children to gradually understand that people have their own perspective. Other research found that bilingual children achieved more effective communication than their monolingual peers.

There is a vital link between the interaction of language and thought on one hand and cognitive development on the other. There is a theory that language and thought are originally independent; however, when a child starts to have social interactions, the two become one. These social interactions would enhance language acquisition and eventually advance cognitive development. This allows the child to separate sound from meaning, known as semantic development. Language acquisition is more complex than merely understanding its structure and meaning. It also requires perception of context in order to respond appropriately to the less explicit characteristics of others including feeling and thought. Native bilingual children have used two languages since birth and were forced to quickly learn the arbitrariness of a relationship between a word and its referent (Ben-Zeev, 1977). Researchers noticed that bilinguals simply abandon old rules and achieve the ability to think abstractly more quickly than their monolingual peers. Moreover, they outperform their peers when it comes to tasks that assess nonverbal cognitive abilities. As a matter of fact, bilingual children usually perform at the level of monolinguals who were two to three years older. Thus, bilingualism has many advantages as a result of accelerated semantic development. Bilingual children learned to pick up cues from social interactions to learn which language is appropriate to use. A bilingual child learns that people have their own backgrounds through these social interactions. They perceive cues from the social interaction and take the perspective of the person they are talking to in order to select the right language. Moreover, since their language background requires them to take into consideration the perspective of others at an early age, their egocentrism is reduced at that age and consequently, their cognitive development functions differently.

As we all know, bilinguals live in two languages; thus, they interpret everything using these two languages and simultaneously inhibit one language while interpreting the other. This ability in particular helps them excel in tasks that require multiple interpretations of a single stimulus. This kind of tasks that represent selective attention and inhibitory control leads to what experts call parallel activation. This dual-language acquisition boosts the cognitive development of bilinguals even in non-language domains (Carlson & Moses, 2001).

Bilingual children have also shown their abilities in other non-verbal areas such as inhibitory control, selective attention, metalinguistic awareness, spatial ability, alternative interpretation of a stimulus, and social cognition. Moreover, they have shown advanced executive non-verbal functioning compared to their peers. The most relevant executive functions they excelled at were those that required them

Lambartthat showed a general superiority of bilinguals over monolinguals in wide range of intelligence tests. Fortunately, recent research has been more balanced, identifying areas in which children excel and others in which bilingualism has no impact on their cognitive and social development. Nowadays, public opinion acknowledges the many benefits that bilingualism can bestow on an individual. These opinions range from evidence that bilingual children have improved executive function and impulse control, to speculations that bilingualism may even benefit prematurely born infants by strengthening compromised neural connections(DeKieviet, 2012).

The issue regarding the potential impact of bilingualism on children's development has always been important; however, it has increasingly emerged as a crucial concern in the modern societies due to globalization and immigration. It is true that being bilingual has been linked to a number of cognitive benefits. The child's first and second language interact and influence the function of one another and consequently the cognitive functions including memory, perception, control, and attention. Thus, the bilingual children can benefit from many cognitive advantages over their monolingual peers. Bilingualism accelerates cognitive development and offers more than simply knowing two different ways to speak. As a matter of fact, infants as young as seven months old, who were spoken to in two languages since birth, showed a significant advantage for inhibitory control compared to their monolingual peers. These superior abilities are more prominent during early childhood, but are maintained into adulthood. Recent studies have also led to the discovery of more meaningful benefits of bilingualism including delaying the onset of dementia and protecting against disorders such as ADHD and autism. Moreover, researchers have been investigating the mechanism which explains how growing up as a bilingual could create accelerated development of cognitive and social abilities that may not be necessarily or directly related to language, even for individuals who are in fact too young to speak. Cognitive advantages that are well-maintained throughout a lifetime help clarify this mechanism. Other studies have even proven that simply by immersing in a dual-language environment could influence a person's cognitive development. Nevertheless, there is no evidence of whether there is a certain period in which a second language acquisition is important to cognitive development.

Development experts have provided a thorough account of how a child progresses with age. Piaget, for instance, accepted the theory that states that decreased egocentrism fosters language acquisition, whereas Vygotsky supported the sociocultural theory which recognized that social interaction may be a key mechanism that facilitates a decline in egocentrism (Piaget, 1962).This proves that no experimental manipulations, such as teaching, pretend-play, or the ability to converse, have resulted in an significant acceleration of cognitive development (Golomb & Cornelius, 1977). Piaget proposed that as children aged, their egocentrism

in a language is a hard process that requires many years of work and practice. As with anything that needs to be learned and acquired, children are extremely different when it comes to the rate at which they learn a first and second language. The speed of language acquisition and the level of fluency depend on other factors including the child's personality, ability to learn languages, interest and motivation, the quantity and quality of language inputs and opportunities for use. When a child learns two languages, the process is very similar to how monolingual children acquire language. Furthermore, when a child masters one language and is introduced into a setting where everyone is speaking a different language, most of the time the child will continue to speak their home language even when others do not understand. This period can be short, but in some cases the child will insist on using the home language to get others to understand. After they realize that speaking their home language will not work, they enter a period where they rarely speak and use nonverbal means to communicate. This is when the child learns the features, sounds, and words of the new language without using it for communication purposes. This is a crucial period when acquiring the second language which may be brief or long, depending on the child. The assessments that are usually taken during this stage may produce inaccurate results that underestimate the child's true language capacity. At this point, the child is usually ready to start using the new language and does so through brief speech that involves the use of formulas. This is quite similar to a monolingual child who is learning simple phrases to express big thoughts. These are phrases the children had heard from others that helped to achieve their social goals, even though they probably do not even know what they mean. This is when the children start creating their own phrases where they may only use very simple grammatical patterns, but over time they usually gain control over the structure and vocabulary of the new language. Making mistakes is very common at this stage since the children are only experimenting with the new language and learning its structure.

However, early bilingualism has always been a concern for both parents and educators. There is an argument over whether bilingualism results in a slower rate of vocabulary development than monolinguals. Since one language will certainly dominate the other, it is rare for emerging bilinguals to be equally balanced in both languages. The language development of children who learn a second language after they are three years old evolves differently as it is highly affected by the child's characteristics. At this point, the fundamentals of the child's native language have been acquired. They know the structure of one language, but now must learn the vocabulary, grammar, and syntax of a new language. Thus, it was thought that second-language acquisition early in life made children confused and "interfered with their ability to develop normal cognitive functions and succeed in educational environments" (Macnamara, 1966). Nevertheless, these ideas were reversed in a study by Pearl and

The Impact of Bilingualism on Cognitive and Social Abilities

Elie HANNA NAKHLE

Bilingualism is becoming more and more popular in today's world especially that bilingual individuals make up a growing part of the world population. However, it is still debatable whether being a bilingual child is an advantage or a disadvantage. Every single child needs to learn a language to be able to communicate with others. All children master at least the basics of one language; it is expected and considered normal. Some children are exposed to more than one language and they grow up learning two languages simultaneously. Furthermore, many studies have shown that there is a close relationship between language and cognitive, and social development among children who use two languages on daily basis. Many native bilingual children have even outperformed their monolingual peers on many levels. These studies have also concluded that even non-native bilinguals could also reap the benefits of acquiring more than one language.

Some research has proven that a solid early childhood education can help children who come from different cultural backgrounds achieve better educational results and reduce the gap before going to school. Thus, it is crucial for the educators to understand how a child acquires a second language in order to design high quality learning environments for all the children who are in the process of acquiring a certain language. Most children, if not all, are capable of learning two languages and many studies have shown that bilingualism has many cognitive, cultural, and economic advantages. It has been associated with a sensitivity to linguistic structure related to early literacy and nonverbal skills. As a matter of fact, children who have the opportunity to speak two languages should be encouraged to maintain both in order for them to enjoy the benefits that will accompany their future bilingual status. For instance, children from bilingual homes where English is not the native language should be encouraged to cultivate their home language as much as their school language. Maintaining the home language is essential to a child's cognitive development and ability to establish a strong cultural identity. Moreover, bilingual children develop and sustain strong ties with their immediate and extended families which will help them thrive in a global, multilingual world.

Many people assume that preschool-aged children can simply "pick-up" a second language without much effort or systematic teaching. However, becoming proficient

References

Abraham, S.C. (2012). Strategic planning: a practical guide for competitive success. Emerald, UK.
AdvancED.(2010).International services office. Welcome. Retrieved January
22, 2010 from http://www.advanced.org/aboucus/state_offices/
internationalservicesf7
Advanc-ED. (2007).Accreditation standards for quality schools.
Retrieved January 22, 2010 from www.advanc-ed .org/accreditation/
standards.
Bernasconi, A.(2004). Current Trends in theAccreditation of K-12 schools:
Cases in the United States,Australia, and Canada. The Journal of Education 7382-
Dyson, R., Strategic development and SWOT analysis at the University of Warwick.European Journal of operational research, 2002, p.631640-.
Helms, M. M., and Nixon, J. (2010). Exploring SWOT analysis - where are we now? A review of academic research from the last decade.Journal of Strategy and Management, 3(3), 215-251.
Koo, H., Chau, K.-Y., Koo, L.-C., Liu, S., andTsui, S.C. (2011).A structured SWOT approach to develop strategies for the government of Macau, SAR.Journal of Strategy and Management, 4(1), 62-81.
Pearce, C. (2007). Ten steps to carrying out a SWOT analysis.Nursing Management, 14(2), 25.
Rowley, D. J., Lujan, H. D., and Dolence, M. G. (1997).Strategic change in colleges and universities: planning to survive andprosper. San Francisco: Jossey-Bass.
Simerson, B.K. (2011). Strategic planning: a practical guide to strategy formulation and execution. Praeger: Santa Barbara,CA.
Swanson, R. A., & Holton, E. F. (2009).Foundations of human resource development. San Francisco, CA: Berrett-Koehler Publishers, Inc.

yet the principal has to show them how. Finally, great effort has been expended to put the school in readiness level; however, parents are not aware of the accreditation decision, and also of the parents-based reports that should be generated throughout the process that contribute to the school attributes and performance.

The drawback of the SWOT analysis is that it usually reflects a person's existing position and viewpoint, which can be misused to justify a previously decided course of action rather than used a means to open new possibilities. It is important to note that sometimes threats can also be viewed as opportunities, depending on the people or groups involved. Having identified such factors as strengths, weaknesses, opportunities and threats strategies are developed which may build on the strength, eliminate the weaknesses, exploit the opportunities or counter the threats (Dyson, 2002)

Planning in a participative environment is the best way to ensure that a wider spectrum of the campus community will accept the accreditation process. Participation means that everyone affected by a process is involved in the decision making that leads to a final decision as well as with implementation. People almost always support changes they themselves have proposed. SWOT analysis as a part of the accreditation process should also be conducted in a participative process. SWOT analysis can be conducted in the form of discussion forums where teachers along with other stakeholders will undergo a conference to examine the school's status quo, its real readiness for the accreditation, and make decisions concerning when to start the accreditation process and how to do it effectively

6. Conclusion

Without involving all stakeholders to clearly define the organizational factors which have a crucial influence on the school's development, performance and prosperity, it cannot successfully undergo the accreditation process.

SWOT analysis can be considered as a controlling method because it involves analysis of the past successes and failures. Implementing SWOT enables the school to analyze its previous failures and successes, its current situation and the predictable future.

Accreditation should be valued for many reasons. It can be a symbol of an elite status. Parents see accreditation as an assurance that the school meets high standards; however, licensing requires necessary eligible funding that is consequently interpreted by a dramatic raise in the tuition which will overburden parents drastically and may result in their refusal to the whole process.

For a successful accreditation process, a school principal should involve all internal and external stakeholders, find the balance between what the school's staff is apt of and what he aspires for the school's future in terms of its different capacities, and never monopolize decision-making.

Prepared by Iman Freij

recognized SWOT's different items they are directly in-charge of and knowing that the principal has not actually considered their opinions or taken into account asking them about the basis they are straightly responsible for before the actual managing of the report and submitting it to AdvancEd committee.

In order to eliminate the misuse of the SWOT analysis and justification of the decision of the people who do it, SWOT analysis, the same as the whole process of the accreditation must be done in participative process with involvement of the external and internal stakeholders of the school. The principal along with the school's HODs should take into consideration opinions of different groups of the stakeholders in order to have a realistic picture about the school performance and on the basis of this information to make rational decisions aimed at the development of the school keeping up the strengths, overcoming the factual weaknesses, tackling the appropriate threats and investing in the genuine opportunities.

When undertaking accreditation, it is important to identify critical issues that will confront the school within the process. One way to accomplish this is by asking the teachers in a round robin technique to state the major issues that they believe are to count for being strengths, weaknesses, threats and opportunities of their own school in terms of the school's entities, aspects and capacities.Once the critical issues are defined,outcomes can be described asstatements of what success wouldlook like or what the impact of accomplishingthe issues would resemble.They are statements of the indicatorsof success and give the schoolan opportunity to begin the processof working on or creating strategicapproaches. The role of staff at thispoint may be to flesh out a plan–thewhat, who, and when. The completedaction plan should be shared withthose who worked on the strategiccomponents to ensure it representsthe intent of the critical issues. Thedocument will give the school a roadmap for the next year to 18 monthsso that energies are effectively channeledinto meeting its mission.Accordingly, each stakeholder, the teachers in particular, should be involved in not less than four things withthe results of a SWOT analysis. The four thingsshould include (1) working out whatthe school hopes to achieve to get accreditation, (2) being objective,(3) incorporating the findingsinto an action plan, and (4) revisitingfindings on a regular basis.Positive participation of all teachers with the specialtygroup will undoubtedly result in setting precise directionfor the school's future.

The case considered here brings to the fore the first question designers of any accreditation system ought to answer: who is responsible for what? In addition to the frustration that seems to surface among teachers as they are overstressed with the requested duties from the planning and management capacities of the school.

In other words, accreditation attempts to transfer management know-how by walking the school through, for instance, strategic planning, operational planning, the use of data for decision-making, and the construction of performance indicators. Experience with this kind of accreditation suggeststhat it is not enough to tell teachers what to do,

4.3. Resources Capacity

Table (4.3) displays the teachers' approval rate on each item in the SWOT chart with respect to the resources capacity domain.

Internal Factors	Strengths	Activating professional learning communities	35%
		Activating coaching programs to exchange expertise, knowledge and skills	30%
		Empowering teachers	21%
		Integrating technology	12%
	Weaknesses	Insufficient resources	100%
		Outdated library and laboratory	100%
		Poor internet capacity	100%
External Factors	Opportunities	Follow-up process for teachers' professional development programs	92%
		Activating coordinators' council	92%
		.Organize fund raising activities	26%
		Wider collaboration with contributing partners and sponsors	63%
	Threats	Budgeting constraints	100%

Teachers added that they are being evaluated without even knowing the result of the evaluation; other teachers claimed out that they have seen their performance evaluation report, yet it was not the same report that was submitted to the principal; certain modifications were done. As a result, teachers believe that any professional development program's content being undertaken does not really reflect the teachers' ultimate professional needs. Also, teachers expressed their worry concerning the arising of non-professional learning communities within the school and among staff members. In the case-school, teachers do not get along appropriately; they are made into struggling groups that are engaged in feuds every now and then.

5. Discussion

The accuracy of the readiness diagnostic report prepared by the school authorities is critically questionable, and it brings to surface a critical question about how the teachers in the school will have a sense of the vision and purpose if they are not actively engaged in the entire school process!

The principal, along with her HODs, has formulated SWOT analysis incongruously with the teachers' perspectives and potentials. All interviewedteachers revealed unawareness of the readiness report that featured SWOT analysis for 3 different capacities. Teachers showed discontentment toward the school principal when they

4.2. Learning Capacity

Table (4.2) displays the teachers' approval rate on each item in the SWOT chart with respect to the learning capacity domain.

Internal Factors	Strengths	.Learning culture promotes creativity, innovation and problem-solving	20%
		Frequent curriculum revision	25%
		Adopting universal design for learning (UDL) in lesson plans	0%
		Teachers' intervention plans tackling students' weaknesses	20%
	Weaknesses	Teachers' poor capabilities	25%
		Lack of character building program	85%
		Incompetent learners in oral communication skills	100%
External Factors	Opportunities	Adapting differentiation strategies.	44%
		Adapting advocacy program	60%
	Threats	Lack of inclusion program	48%
		Overcrowded classes	100%

I In the open-ended part of the interview dealing with the learning capacity domain, teachers disagreed on adapting (UDL) and have rather described it as torturing the teachers especially veterans. Teachers claimed out that not enough training was done for them; they were rather supplied by the (UDL) template and asked immediately to adopt it in each lesson plan they write. Also, teachers narrated that none of the leadership personnel has supplied them with any feedback on their (UDL) lesson plans. Considering that, teachers have concluded that the leadership personnel do not know how to use the !(UDL), and accordingly they received no feedback in return either positive or negative

On the other side, teachers clarified their perspective concerning differentiation, different learning styles, and inclusion. They believe that they are not familiar with differentiation, and it is way beyond their tolerance. They explained that reaching out every single learner requires full package that comprises of relevant resources, numbers of expert staff members more than the available ones, well-structured and cutting-edge technological facilities,small- group classes, and cooperative parents.

that features the school's strengths, weaknesses, opportunities, and threats in terms of 3 capacity domains of leadership, learning, and resources.

4.1. Leadership Capacity

Table (4.1) displays the teachers' approval rate on each item in the SWOT chart with respect to the leadership capacity domain.

Internal Factors	Strengths	clear vision, mission, and core values	55%
		well-structured supervision and evaluation process that is shared openly with all teachers	20%
		.data-driven decisions are made for improvement purposes	24%
		.established policies to ensure school effectiveness	30%
	Weaknesses	Ineffective mentoring and coaching program	88%
		little involvement of parents	12%
External Factors	Opportunities	team-work spirit	89%
		partnership and collaboration with local and international educational .institutions	90%
		providing professional development programs for teachers	92%
		establishing procedures to ensure efficient professional development .programs	100%
	Threats	limited financial capacities due to low tuition fees in the elementary school	65%
		consuming more time shifting from one campus to another	25%

In addition to table (4.1), teachers have revealed their discontent with different items in terms of the strengths, weaknesses, opportunities, and threats of the leadership domain.

In the open-ended questionnaire, teachers delineated that generally they have no idea what vision or mission mean; however, they haven't received any explanation for these two concepts. Moreover, teacher showed dissatisfaction with the idea that the school's leadership personnel has perfectly set core values, yet has never empowered the teachers in action to promote adopting these core values.

On the other hand, teachers considered that parents are involved negatively in the school in a way that enables them to interfere in every single detail of the school which eventually has resulted in teachers' desperate feelings and the dominating sense of being devalued.

Besides, teachers have confirmed the vitality of team-work and its positively great influence in the workplace.

levels, andacross diverse socio-political arenas (Pearce, 2007).

The popularity of SWOT analysis may be attributed to its successfuluse by Jack Welch at General Motors. SWOT analysis may be perceived as one of the first steps instrategic planning (Simerson, 2011).A SWOT analysis provides managers with a clear picture regarding theorganization's current position, by considering internal (strengths and weaknesses), as well as external(opportunities and threats) attributes. While the general strategic management literature recommends thatorganizations align their internal capabilities with external prospects (Abraham, 2012), this may not always beconceivable, due to the low locus of control attributable to educational organizations' policies (Rowley, Lujan, andDolence, 1997).

3. Methodology

The above considerations outlined in the literature review have led the author to ask the following research question: How do the case-school's academic staff and senior management team (principal and HoDs) perceive the school's respectivestrengths, weaknesses, opportunities, and threats?

The core analysis for this study involved a mixed-method approach focused on the perceptionof SWOT represented by the readiness diagnostic tool.

Semi-structured interviewing was used, since it allowed the researcher and the 54 interviewed teachers to be free in their responses. The open-ended and semi-structured interviews were analyzed manually using inductive thematic analysis. The relevant themes were strengths, weaknesses, opportunities, and threats whichmeant that a SWOT analysis was conducted for the school's 3capacities: leadership, learning and resources, and the researcher counted the number of times a specific theme was mentioned by the interviewed respondents. Results for every quadrant ofthe SWOT matrix were presented in the form of percentages. In this way qualitative datasets were changed into quantitative data sets and displayed holistically.

The examined school in this study is a K-12 school located in two separate campuses in Beirut, and it comprises 841 students, 67 teachers, 3 heads of departments; for the kindergarten, the primary level (grades one through six), and the middle and secondary levels (grades 7 through 12) respectively, and one principal.

The researcher had interviewed 54 teachers teaching different grade-levels and different subject-matters. Also, the researcher used the readiness diagnostic report that comprises of SWOT analysis for the 3 school's capacities of leadership, learning, and resources in which a comparison was conducted to examine the different perspectives in terms of strengths, weaknesses, opportunities, and threats.

4. Data Analysis and Results

The tables below delineate the teachers' perspectives toward the readiness report

Advanc-ED uses a set of research-based standards and a clearlyidentified process as guides to help schools continuously improve.Advanc-ED has recently implemented the newly formed standards whereschools must meet high standards, engage in continuous improvement,and demonstrate quality assurance through external review.Preliminarily, the school should develop a readiness diagnostic report through which it confirms its readiness to work hard to meet the seven standards devised by AdvancEd. The purpose of the readiness diagnostic is to assess the school's readiness for accreditation through an examination of the results of the school's readiness diagnostic and examination of its practices in relation to the AdvancED Standards for Accreditation. By assessing the school's readiness, a determination can be made regarding the institution's capacity to meet accreditation requirements and engage in the continuous improvement process.

- (Advanc-ED, 2007)

The readiness diagnostic tool is built around the three domains of the IEQ (Index of Educational Quality): Leadership Capacity, Learning Capacity and Resource Capacity. Under each domain heading there is an overall description of the domain and the standards related to that domain. The readiness diagnostic tool is a SWOT analysis designed for the school to reflect on its current status in relation to the accreditation standards and to identify the strengths, weaknesses, opportunities and challenges/ threats within each domain.

The tool is most beneficial when the principal engages the school's leadership team and staff in a discussion and reflection related to the standards. The results of this tool will provide the foundation for the development of the school's improvement journey and may reveal any areas where the school is currently not meeting the AdvancED Standards for Accreditation. This allows the school to focus its actions to address those identified needs areas.

- SWOT Analysis

It came from the research conducted by Albert S Humphrey and his team at Stanford Research Institute from 19601970-. The research was funded by the fortune 500 companies to find out why corporate planning failed and what could be done about this failure. Albert S Humphrey is therefore considered to be the founder of SWOT Analysis.

SWOT is the acronym for strengths, weaknesses, opportunities, and threats and may be used to match external factors with the internal capabilities of an organization (Koo et al., 2011). The internal capabilities are delineated as strengths and weaknesses, while the external forces affecting the organization are opportunities and threats.

SWOT analysis is valuable, since it allows organizations to exploit new opportunities by utilizing internalcapabilities (Helms and Nixon, 2010). It may also be used to understand and take action on perceivedweaknesses, which may hinder an organization from performing at a higher level. SWOT seems to be ubiquitousin usage, being employed in a wide range of contexts from country to the individual, on different

and resources. Simultaneously, a variety of educational communities have emerged in the form of accreditation agencies that have created a set of standards for schools to be held to, while also encouraging schools to be the best they can be. Further, accreditation agencies aim to ensure accountability of schools and degree programs in order to boost public trust and confidence.

In the educational community, accreditation means trust. It is also recognized as a school that is true to its mission, and a school that embraces the challenge of looking critically at itself in order to recognize strengths and opportunities, be aware of its weaknesses and threats, and to strategically plan for future growth.

Focused on organizational improvement, as the first step of the accreditation process, educators in the case-schoolhave emphasized positive change and "making things better" (Swanson & Holton, 2009, p. 17). Development plans evidenced a wide range of detail and professionalism and of managerial acumen in general, but teachers did not appear to be appropriately much involved in the overall process.

This paper is organized as follows: a literature review that is a three-fold section that reveals requirements imposed on the school by the accreditation agency AdvancEd and the principal/HoD-based view of their own schoolthat is interpreted by a readiness report for the three main domains of leadership, learning, and resources alldisplayed in terms of a SWOT analysis. This is followed by the qualitative method employed by the author to examine the teachers' viewpoints of the readiness report compared to how it was arranged by the principal and her HoDs. Different data strands are then presented and brought together in the results section. A brief discussion and conclusion follow along with a list of the references used.

2. Literature Review

Accreditation, as a process, is anopportunity to think about, talk about,and write about the uniqueness ofa school community. What arethe core values? How do they informschool practices? How do core valuesenrich the day-to-day experiences ofchildren in a school?Accreditation is big work. It requiresan exhaustive self-study process. Acommittee of stakeholders includingadministrators, faculty, and parentscomprise the self-study committee.

Systems to periodically evaluate the performance of K-12 schools are, broadly speaking, of two kinds: inspection, the paradigm of England's OFSTED (Office for Standards in Education); and accreditation, originally developed nearly a century ago by what are now the U.S. regional accreditation agencies.

- AdvancED

It is a newly mergedorganization, is now "the world's largest education community, representing27,000 public and private schools and districts across theUnited States and in 65 countries worldwide and educating 15 millionstudents." (Advanc-ED, 2010).

SWOT Analysis;

Examining the Readiness for AdvancEd Accreditation Process:

The Dilemma of Principal vs. Staff

A Case Study

Iman Freij

Abstract

This paper aims at examining the readiness report of a K-12 school that is undergoing an accreditation process supervised by AdvancEd. The school's principal, along with its heads of departments (HoDs), has devised a readiness report that reveals the readiness of the school in terms of 3 main capacities; leadership, learning and resources. However, teachers were excluded from expressing their viewpoints concerning the three capacities, and eventually did not share in getting by any part of the proclaimed report. The paper displays the dilemma of undergoing an accreditation process without even involving the teachers adequately as real partners in the whole process. Also, it demonstrates a feasible contrast the teachers' perspectives versus the principal-HoD's in terms of a SWOT analysis that indicate the strengths, weaknesses, opportunities, and threats the school has encountered. Results show discrepancies in both sides' viewpoints. Recommendations would reveal the importance of authentic engagement of the teachers in any accreditation process.

1. Introduction

Education, generally, is a means of transmitting knowledge, attitudes and skills from one generation to another. According to Oxford English Dictionary (1989, p.385) education is "training and instruction designed to give knowledge and develop skills". Albert Einstein claims that "Education is what remains after one has forgotten what one has learned in school." Education in the largest sense is any act or experience that has a formative effect on the mind, character, or physical ability of an individual. In its technical sense, education is the process by which society deliberately transmits its accumulated knowledge, skills, and values from one generation to another.

Thus, education is responsible for a permanent change in attitude and behavior of an individual that is needed for personal as well as social adjustment of an individual. As a result of the technological revolution since the late years of the twentieth century, schools, all across the world, have been undergoing vital adjusting strategies to increase their potentials in different aspects of schooling; such as, learning, leadership,

Critical Introduction. London: Sage Publications,. Retrieved February23 2018, from https://books.google.it/books?id=iY0gAQAAQBAJ&printsec=frontcover&dq=What+is+Terrorism?

Max Fisher. (2014, August 7). 9 questions about the ISIS Caliphate you were too embarrassed to ask. vox.com. Retrieved Feb 24, 2018, from https://www.vox.com/20149-/5884593/10/7/questions-about-the-caliphate-you-were-too-embarrassed-to-ask

Muharib al-Juburi. (2006, October 15). al-I'alan 'an qiyyam dawla al-'Iraq al-Islamiyya. Retrieved from https://nokbah.com/~w3/?p=536

Radu, Michael. (2002). "Terrorism after the Cold War: Trends and Challenges",The New Protracted Conflict.

Rapoport, David C. (2004). Four Waves of Modern Terrorism. - Attacking Terrorism: Elements of a Grand Strategy. (Audrey Kurth Cronin, & James M. Ludes, Eds.) Washington DC: Georgetown University Press.

Richard A. Clarke & Robert Knake. (2011). Cyber War: The Next Threat to National Security and What to Do About It. New York: HarperCollins.

Schmid, Alex. (2005). "Root Causes of Terrorism: Some Conceptual Notes, a Set of Indicators, and a Model", Democracy and Security (Vol. 1).

Taylor, Maxwell, & Quayle, Ethel. (1994). Terrorist Lives. London: Brassey's.

Tim Lister et al. (2015). ISIS goes global: 143 attacks in 29 countries have killed 2,043. cnn.com. Retrieved from https://edition.cnn.com/201517/12//world/mapping-isis-attacks-around-the-world/index.html

United Nations General Assambly. (1994, December 9). Measures to eliminate international terrorism. IA/RES/4960/. Retrieved February 16, 2018, from www.un.org/documents/ga/res/49/a49r060.htm

World Trade Center 911/ Attacks. (n.d.). Retrieved February 17, 2018, from History: https://www.history.com/topics/911--attacks

World War One - Assassination of Franz Ferdinand. (n.d.). Retrieved February 18, 2018, from History On the Net: https://www.historyonthenet.com/world-war-one-assassination-of-franz-ferdinand/

[22] Muharib al-Juburi, "al-I'alan 'anqiyyamdawla al-'Iraq al-Islamiyya," October 15, 2006, https://nokbah.com/~w3/?p=536.

[23] Max Fisher, 9 questions about the ISIS Caliphate you were too embarrassed to ask. 7 August 2014. Retrieved from: https://www.vox.com/20149-/5884593/10/7/questions-about-the-caliphate-you-were-too-embarrassed-to-ask (accessed 24February 2018)

[24] Tim Lister et al. ISIS Goes Global: 143 attacks in 29 countries have killed 2,043. CNN. 2015. Retrieved from: https://edition.cnn.com/201517/12//world/mapping-isis-attacks-around-the-world/index.html

[25] Jan Joel Andersson 'Hybrid operations: lessons from the past', EUISS, October 2015, http://www.iss.europa.eu/ uploads/media/Brief_33_Hybrid_operations.pdf

Bibliography

Arce, Daniel, Walter Enders, and Todd Sandler. (2008). Transnational Terrorism. Consensus Challange Paper, Copenhagen .

Bet, Steven, & Nocella II, Anthony J. (2004). Defining Terrorism. Animal Liberation Philosophy and Policy Journal , 2(1), 118-.

Bjepolera, Jerome. (2013, January 17). The Domestic Terrorist Threat: Background and Issues for Congress. Congressional Research Service.

Byman, Daniel. (2008, May 16). The Changing Nature of State Sponsorship of Terrorism. The Saban Centre for Middle East Policy at the Brookings Institution.

David C. Rapoport. (2004). Four Waves of Modern Terrorism. - Attacking Terrorism: Elements of a Grand Strategy. Audrey Kurth Cronin, James M. Ludes (eds.). Washington DC: Georgetown University Press.

Richard Bulliet, Pamela Crossley, Daniel Headrick, Steven Hirsch, Lyman Johnson, David Northrup (2009). Earth and Its People: A Global History, 5th Edition. Volume II: since 1550. Part VI, 22, Revolutionary change in the Atlantic World 17501850-. Retrieved from: https://books.google.it/books (accessed 20 February 2018) ISBN 13: 9785-8475-4390-1-

Friedman, Thomas. (2001, January 17). The Impact of Globalisation on World Peace. Presented at the Fifth Annual Arnold C. Harberger Distinguished Lecture. Buckle Centre for International Relations, University of California, Los Angeles.

Imre, Robert, Monney, T. Brian, & Clark, Benjamin. (2008). Responding to Terrorism. Farnham, England: Ashgate.

Jan Joel Andersson. (October, 2015). 'Hybrid operations: lessons from the past', EUISS.Http://www.iss.europa.eu/ uploads/media/Brief_33_Hybrid_operations.pdf

Joel, Shurkin. (1998). Robust Terrorism. Whole Earth Review. Retrieved July 5, 2007, from http://findarticles.com/p/articles/mi_m1510/is_n60/ai_6641070

Kelly, Michael J., & Mitchell, Thomas H. (1981). Transitional Terrorism and the Western Elite Press. Political Communication and Persuasion (Vol. 1(3)).

Krieger, Tim and Daniel Meierricks. (2009). What Causes Terrorism?

Laura Hayes & al. (2015, June). Al-qaeda; Osama bin Laden's Network of Terror. InfoPlease. Retrieved February 22, 2018, from https://www.infoplease.com/al-qaeda

Matusitz, Jonathan. (2013). "What is Terrorism?". In Terrorism and Communication: A

References

[1] Matusitz, Jonathan., Chapter 1: "What is Terrorism?", Terrorism and Communication: A Critical Introduction, London: Sage Publications, 2013. Retrived from: https://books.google.it/books?id=iY0gAQAAQBAJ&printsec=frontcover&dq=What+is+Terrorism?Accessed 23 February 2018.

[2] Earth and Its People: A Global History, 5th Edition. Volume II: since 1550. Part VI, 22, Revolutionary change in the Atlantic World 17501850-. Richard Bulliet, Pamela Crossley, Daniel Headrick, Steven Hirsch, Lyman Johnson, David Northrup,2009 P.596. Retrieved from: https://books.google.it/books (accessed 20 February 2018) ISBN 13: 9785-8475-4390-1-

[3] Radu, Michael. "Terrorism after the Cold War: Trends and Challenges", The New Protracted Conflict, 2002, pp. 275287-.

[4] Krieger, Tim and Daniel Meierricks., "What Causes Terrorism?", 8th June, 2009

[5] Schmid, Alex. "Root Causes of Terrorism: Some Conceptual Notes, a Set of Indicators, and a Model", Democracy and Security, Vol. 1, 2005, pp. 127136-.

[6] Arce, Daniel, Walter Enders, and Todd Sandler. "Transnational Terrorism", Copenhagen Consensus Challenge Paper, 6th March, 2008.

[7] United Nations General Assembly A/RES/4960/."Measures to eliminate international terrorism", 9 December 1994.Retrieved from www.un.org/documents/ga/res/49/a49r060.htm. (accessed 16 February 2018).

[8] Kelly, Michael J., & Mitchell, Thomas H. "Transitional Terrorism and the Western Elite Press. Political Communication and Persuasion", (1981), 1(3), 269296-.

[9] Taylor, Maxwell, & Quayle, Ethel."Terrorist Lives". London: Brassey's, (1994).

[10] Imre, Robert, Monney, T. Brian, & Clark, Benjamin."Responding to Terrorism".Farnham, England: Ashgate, (2008).

[11] Byman, Daniel. "The Changing Nature of State Sponsorship of Terrorism", The Saban Centre for Middle East Policy at the Brookings Institution, Analysis Paper, 16th May, 2008.

[12] Bjepolera, Jerome. "The Domestic Terrorist Threat: Background and Issues for Congress". Congressional Research Service. 17th January, 2013.

[13] David C. Rapoport. "Four Waves of Modern Terrorism. - Attacking Terrorism: Elements of a Grand Strategy". Audrey Kurth Cronin, James M. Ludes (eds.). Washington DC: Georgetown University Press, 2004, p. 47.

[14] Joel Shurkin. "Robust Terrorism.- Whole Earth Review".Fall, 1988.<http://findarticles.com/p/articles/mi_m1510/is_n60/ai_6641070>, (accessed on 15 July 2007).

[15] David C. Rapoport, 2004.pp. 53-54, 56.

[16] David C. Rapoport, 2004, pp. 56-61.

[17] https://www.historyonthenet.com/world-war-one-assassination-of-franz-ferdinand/ (Accessed 18 February 2018)

[18] http://www.history.com/topics/911--attacks.(Accessed 17 February 2001)

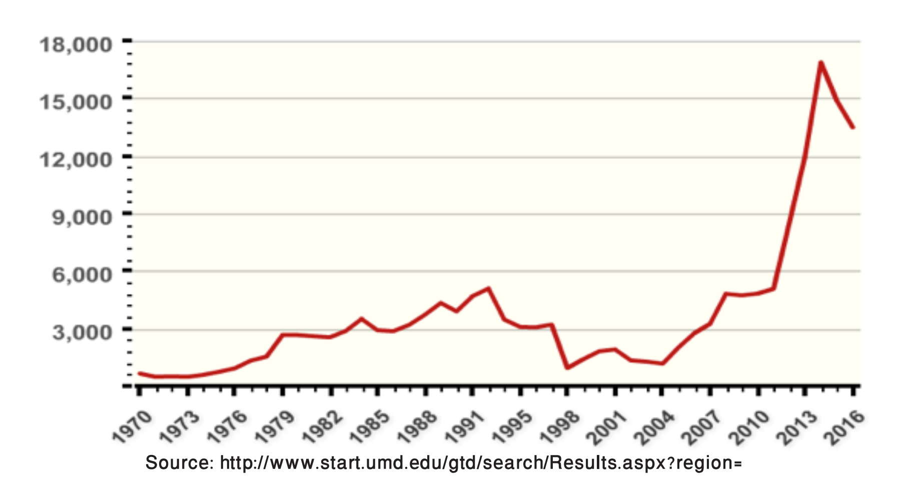
[19] Bet, Steven, &Nocella II, Anthony J. Defining Terrorism. Animal Liberation Philosophy and Policy Journal, 2(1), 12004 .18-.

[20] Friedman, Thomas., "The Impact of Globalisation on World Peace". Presented at the Fifth Annual Arnold C. Harberger Distinguished Lecture. Buckle Centre for International Relations, University of California, Los Angeles. January 17 2001

[21] Laura Hayes, Borgna Brunner, and Beth Rowen, "Al-qaeda; Osama bin Laden's Network of Terror", InfoPlease, June 2015. Retrieved from https://www.infoplease.com/al-qaeda .Accessed on 22 February, 2018.

Annex: The Figures

Figure -1: Worldwide Terrorist Incidents 1970 - 2016 (Global Terrorism Database)



Source: http://www.start.umd.edu/gtd/search/Results.aspx?region=

Figure -2: Most of Islamic State's leaders were officers in Saddam Hussein's regime

	ORIGINAL LEADER	FORMER LEADER	CURRENT LEADER
	Abu Musab al-Zarqawi	Abu Omar al-Baghdadi	Abu Bakr al-Baghdadi
Baath regime	Reputedly distrusted Baathists, though some joined his group.	A former Iraqi officer who began to introduce other Baathists.	Not a Baathist; an Islamic scholar who rebuilt the organization by recruiting former Baathists.
Islamic State	A Jordanian Palestinian who founded al-Qaeda in Iraq. Killed in U.S. airstrike in 2006.	Former head of the Islamic State of Iraq; killed in a U.S. airstrike in 2010.	Currently the self-proclaimed caliph.

Source: https://www.washingtonpost.com/world/most-of-islamic-states-leaders-were-officers-in-saddam-husseins-iraq/201504/04//f3d2da00-db2411-e4-b3f2607-bd612aeac_graphic.html?utm_term=. c9d1cad1342a (Accessed 3 MARCH 2009)

sympathizers. In April 2013, AQI became "the Islamic State in Iraq and Greater Syria". On 10th June 2014 ISIS's force of about 800 fighters defeated 30,000 Iraqi government troops in their assault to capture Mosul, Iraq's second-largest city. (Figure -2: Most of Islamic State's leaders were officers in Saddam Hussein's regime)

The triumphant conquests led Baghdadi to declare his territory a 'Caliphate' on July the 4th and All Muslims Baghdadi claimed were obligated to support the nascent Islamic state in its struggle to hold and expand its land[23]. In his declaration, Baghdadi gained a huge leg up on al-Qaeda in the struggle for global fanatic supremacy.

Conclusion

The new evolving terrorism resembled by ISIS has declared war on the International System of Governance. Since declaring its caliphate in June 2014, the self-proclaimed ISIS has conducted or inspired more than 140 terrorist attacks in 29 countries other than Iraq and Syria where at least 2,043 people were killed.[24]

Geopolitical disputes sustain the endurance of terrorist groups as they move, physically and virtually, from one place to another in order to persist and evade their termination. Terrorist groups seek the possession of advanced means and capabilities to strike instantaneouslyto destabilize global stability and security.

In the new evolving high-tech era, counterterrorism requires new methods to combat the combined threats posed by a new termed "hybrid warfare"which comprises a mix of methods; conventional and unconventional, overt and covert actions involving cyber and information warfare 'aimed at creating confusion and ambiguity on the nature, the origin and the objective of these actions'.[25]

Prepared by KASSEM HAMDAN

changed and keeps on transforming is the means of conducting terror and the extreme levels of brutality applied.

a. Terrorist Infiltration through 'Globalization'

High-tech communication systems connect people instantaneously. Friedman defines 'Globalization' as: it enables each of us to reach around the world farther, faster, deeper and cheaper than ever before and it enables the world to reach into each of us farther, faster, deeper and cheaper than ever before.[20]

b. Instruments and Tools of worldwide terrorism Infiltration

Terrorists exploit the global media village, communicate via predetermined codes and reside anonymously in cyberspace. Infiltration aspects are as follows:

(1) Online finance of terror activities

Using stolen credit card information, terrorists access the internet to raise money and transfer it to suspicious charities across the globe.

(2) Online Media Attraction of terrorist activities

The media follow the scoop and terrorists need the media coverage. It is an odd mutual benefit between the media and terrorist organizations.

(3) Online psychological warfare

Psychological Operations is intended to alter the perceptions of a target audience to be favorable to one's objectives. Terrorists launch psychological campaigns as an act of persuasion or intimidation.

c. Transition of terror; the fade of Al-Qaeda and rise of ISIS

(1) The terrorist Organization Al-Qaeda

Al-Qaeda's origin is set back to the mid-1980s. Thousands of volunteers left the Middle East and arrived to Afghanistan as 'Mujahedeen' to defend fellow Muslims and defeat the Soviet forces. Its most notable attacks are:

(a) 11 September, 2001 attack on the United States (3000 people killed);

(b) The 11th March, 2004 bombing at Madrid's railway station resulted in 202 people were killed and 1,400 were injured; and

(c) The 7th July, 2005 London bombing (52 Killed, 700 wounded).[21]

(2) The fade of AL Qaeda and The rise of ISIS

From 1999 till 2003 the year of US invasion to Iraq, Zarqawi's group Jamaat al-Tawhid Wal-Jihad in Jordan was a bit player among jihadists. The destruction of the Iraqi state drove former Iraqi soldiers and officers to seek shelter in the quarters of radical movements. In 2004 Zarqawi pledged loyalty to al-Qaeda to be backed by its funds and fighters and he renamed the group 'al-Qaeda in Iraq' (AQI). The establishment of the Islamic State in Iraq was accelerated after Zarqawi was killed by a US airstrike on the June 7th 2006.[22]

In August 2011, Baghdadi took the civil war opportunity and infiltrated into the Syrian theater where he contested with Al-Qaeda in financing his organization and recruiting

The second wave of terrorism was 'anticolonial' and commenced with signing the Treaty of Versailles that ended the First World War. The principle of self-determination used to break-up defeated empires provided a foundation for aspirations and acts of 'terrorism' were essential to the claim of independence. In this wave, terrorists combating colonial powers were called 'freedom fighters'.[15]

The occurrence of 'new left' terrorism was exercised by organizations like the Red Army Faction in the West Germany, Italian Red Brigades and French Action Directe. Terrorists resorted to acts of violence against prominent targets, committed hijackings, kidnapping, and assassination of high-ranking officials among which were the prime ministers of Spain and Jordan, the former prime minister of Italy Aldo Moro and others. In the third wave, the UN adopted major conventions that outlawed hijacking, hostage taking, and financing terrorists[16].

The fourth wave of terrorism can be traced to the 'mujahidin' in Afghanistan as they fought against the Soviet forces driving it to pull out in 1989. After the 1991 Gulf War, Osama bin Laden identified the United States the main enemy to his terrorist organization and expressed his bitterness against the presence of large numbers of US troops in Saudi Arabia. Bin Laden planned organized and executed the horrible 11 September 2001 attack on the US and the response of the international community was shocking as the attack itself. (Figure -1: Worldwide Terrorist Incidents 1970 - 2016)

d. Marked Incidents in International terrorism

(1) One of the most marked incidents in International terrorism could be tracked to the First World War that was based on the suspicion of Serbia's assistance in the assassination of Archduke Franz Ferdinand who was the heir to the Austro-Hungarian Empire. A Serbian terrorist group, called The Black Hand was able to kill the Archduke and his wife using grenades followed by gunshots[17].

(2) The other marked incident in the recent history of international terrorism was the attack on the United States in the year 2001. On September 11, 2001, 19 militants associated with al-Qaeda hijacked four airplanes and carried out suicide attacks against targets in the United States inflicting massive causalities with more than 3,000 people killed. The massacre triggered major U.S. initiatives to combat terrorism as it was clear that America was under attack.[18]

3. Current State of International Terrorism

The act of violence exercised by non-state actors has been always defined in reference to its objectives. In the 1980s, for example, Ronald Regan and his staff in the white house referred to the Afghan fighters who fought against the Soviets as freedom fighters. However, the same collaborating groups were labeled by George W. Bush administration as terrorists after 911/ horrible act against significant and symbolic icons in the United States.[19]

Between the past and the present, terrorism concepts remain the same. What has

(3) Relative deprivation; refers to link between poverty and terrorism.

(4) Financial gain; hostage taking and blackmailing.

(5) Supporting sympathizers; the retaliation to terrorists' attack usually is desired and provoked by terrorist groups as a driver to recruit sympathizers.[8]

(6) Communication and publicity; by targeting civilians, terrorists intend to attract the media to broadcast the cause they believe in.

(7) Foreign fighters; Taylor and Quayle[9] argued that many respondents became terrorists as a result of their own creation of a new identity.

(8) Failure of conventional channels of communication; when states or non-states actors refrain from communication and reside to acts of violence.[10]

2. The rise of International Terrorism

In the manifold of 'Terrorism' reside different categories mainly defined by the actor such as State, local and international.

a. State Terrorism

State terrorism is a kind of deliberate use of terror activities to subdue and intimidate opposing parties or governing regimes of neighboring countries, and is best described as "active state sponsorship is traditionally conceived of as a deliberate regime decision to provide critical support to a terrorist group, typically in the form of weapons, money, propaganda and media, or a safe haven."[11]

b. Domestic Terrorism

The word domestic refers to the locality of the terrorist as they target national infrastructure and civilians without foreign directions. Domestic terrorism is a complex issue and it is usually interpreted by the acting criminal laws of the local governments. Domestic terrorism focuses on the origin of the terrorists who commit the acts taking into consideration the jurisdiction of the state where the acts are committed. "In the most general statutory terms, a domestic terrorist engages in terrorist activity that occurs in the homeland."[12]

c. International Terrorism; Historical Review

Historically; the use of fear has been exercised to induce new norms of behavior in social order and prompt new patterns of believes. According to David C. Rapoport; "The first ('anarchist') wave of modern terrorism began in Russia in the 1880s and lasted until the 1920s, the second ('anticolonial') wave began in the 1920s and ended in the 1960s, the third ('new left') wave began in the 1960s and continued through to the 1980s, and the fourth ('religious') wave emerged in 1979 and continues until today".[13]

The 'anarchist' sought acts of terror to destroy the chains of social conventions. Their objective was to undermine the governments' rules, their weapon of choice was dynamite, and their attacks culminated to the rate of assassinating one major European minister or head of state 18 months.[14]

(1) The modern form of 'terrorism' is referred to the 'Reign of Terror' in France from 1793-1794. In his attempts to use extreme measures to control political activity in France, the best known influential political figure associated to the French revolution Maximilien Robespierre articulated:

'...terror is nothing other than justice, prompt, severe, inflexible; it is therefore an emanation of virtue; it is not so much a special principle as it is a consequence of the general principle of democracy applied to our country's most urgent needs'[2].

(2) "Terrorism is any attack, or threat of attack, against unarmed targets, intended to influence, change, or divert major political decisions."[3]

(3) "It is commonly defined as the deliberate use of violence and intimidation directed at a large audience in order to coerce a community or its government into conceding politically or ideologically motivated demands."[4]

(4) "Terrorism refers to a criminal tactic of conflict-waging, involving some of the same acts of violence which would qualify as war crimes if a state of war existed - deliberate attacks on civilians, non-combatants and third parties, willful murder, the taking of hostages and the killing of prisoners."[5]

(5) "Terrorism is the premeditated use or threat to use violence by individuals or subnational groups against noncombatants in order to obtain a political or social objective through the intimidation of a large audience beyond that of the immediate victim."[6]

(6) On 9 December 1994, UN General Assembly adopted the Resolution 4960/ on "Measures to Eliminate International Terrorism." It contains the provision (I-3) that describes terrorism as: Criminal acts intended or calculated to provoke a state of terror in the general public, a group of persons or particular persons for political purposes are in any circumstance unjustifiable, whatever the considerations of political, philosophical, ideological, racial, ethnic, and religious or any other nature that may be invoked to justify them[7].

Revising most of the definitions, it seems that all, except Maximilien Robespierre, agree some way or the other that; Terrorism is an act of violence deliberately intended by ideological groups against civilians and infrastructure to cause death or serious damage and provoke a state of terror to coerce a community or its government into conceding politically to their motivated demands to achieve ideological, religious or political objectives.

c. Causes of terrorism

Jonathan Matusitz (2013), in his book 'Terrorism and Communication: A Critical Introduction', defined fifteen causes that make terrorism exists. The most important revised causes are as follows:

(1) Religion; dedicated persons to the instructions mentioned in their religious books turn them into fascists and resort to extreme pattern of behavior.

(2) Oppression; Ethnic groups or repressed factions in occupied areas or autocratic societies tend to engage in terrorism to reduce their opponents' power.

International Transition of Terror

KASSEM HAMDAN

Introduction

Terrorism has always been a mean to defy the ruling authorities or to subjugate communities in order to compel the receiver to abide with demands of the doer of violence. History is full of encounters where the rulers exercised their brutality in their quest to dominate their own communities and those beyond them. Multiple waves of terrorismhad hit the globe in succession to implement the political agendas of the radicalized groups against the prevailing governing ones.

Terrorist groups have no consideration to any legal aspect other than the one they produce. They commit massacres and atrocities to terrify communities within and outside their areas of influence. In addition to fulfill its radical agenda, terrorist groups commit violent acts to attract the media's attention to publicize their identity, political objectives, brutality, and strategic goals.

International terrorism witnesses huge expansions and terrorists' threats become one of the most complex issues regarding global security and stability. International terrorism introduces continuous developments to its capabilities as the scope of globalization widens in term of information connectivity, transportation and investment.

1. Terrorism around the globe

a. Terror

In the far communicated history, records of terrorist activities were demonstrated before the invention of the word with evidence from certain relics found within about fifty miles of Mosul in Iraq. The phrase 'terror cimbricus' referred to 'a state of panic and emergency in response to the coming of the Cimbri tribe killers' in pre-historic Rome in 105 BC. The word 'terror' derives from the Latin word 'terrere' that means 'frighten' or 'tremble'. The practice of terror is referred to as 'terrorism' and was perceived during the 'Reign of Terror' of the French Revolution between 1793 and 1794, where around 16,000 to 40,000 people lost their lives in about a year[1].

b. Defining Terrorism

Defining terrorism is not a straightforward matter. There is no single internationally conventional definition of what constitutes terrorism. A vast range of definitions regarding terrorism are revised among which: